



المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية
المرصد الاجتماعي التونسي

كراسات
المنتدى عدد 4

في تدبير أزمة «كوفيد 19» في تونس سياسات الدولة والفئات الأكثر تضرراً

تنسيق: سفيان جاب الله



سبتمبر 2020

المقالات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي كراسات المنتدى

حقوق التأليف محفوظة للمنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

الطبعة : المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية- سبتمبر 2020

ISSN : 2724-6833

المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

المرصد الاجتماعي التونسي

كراسات
المنتدى عدد 4

في تدبير أزمة «كوفيد 19» في تونس
**سياسات الدولة
والفئات الأكثر تضرراً**

تنسيق: سفيان جاب الله

سبتمبر 2020

الإدارة والتحرير:

المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية 47 شارع فرحات حشاد، 1001، تونس

المدير المسؤول:

علاء الطالبي

أعضاء لجنة التحرير:

حياة عمامو، صلاح الدين بن فرج، رياض بن خليفة، نزار بن صالح،
ماهر حنين، سفيان جاب الله، مالك كفيف، محمد سليم بن يوسف

التدقيق اللغوي:

وليد فيّالة

صورة الغلاف:

حسام سعاف

طباعة:

الطباعة المتضامنة

المحتوى

	سفيان جاب الله
07	تقديم عام للكُراس
22	المحور الأول: في القراءات المُمكنة لأداء الدولة زمن الجائحة.....
	منال دربالي
23	لمحة تاريخية عن الأوبئة في تونس.
	حسام سَعّاف
36	هوموستازية المُجتمع المختل أو في تضاعف إقصاء الهامش زمن الحدث الوبائي: قراءة أنثروبولوجية.
	آية بوصحيح
49	تعميق اللامساواة الاقتصادية والاجتماعية بين الفئات المجتمعية في زمن الوباء: (مقاربة قانونية).
	يوسف موسى
60	الأداء الخطابي لرئيس الجمهورية في السياق الوبائي: كيف خاطب الفئات الأكثر تضرراً؟..
76	المحور الثاني: بورتريه الفئات السوسيو-مهنيّة الأكثر تضرُّراً من الحجر الصحيّ.....
	رضا كارم
77	النساء العاملات بحقول الاستلاب زمن الكورونا: ذكوريّة الفضاء، والهيمنة المزدوجة.....
	هيثم مدوري
94	عمّال البناء: الواقع، الحَجْر والإجراءات. قراءة في آثار الجائحة وتفكيك الأزمة.
	أمل الهازل
111	عاملات النظافة في المُستشفيات زمن الجائحة: الفاعلات في المعركة من أجل الحياة.....

منتصر النغموشي

- بورتريهات عاملي المقاهي والحانات في زمن الكورونا: من أجل رسم صورة للهشاشة الاجتماعية..... 126

فهيمى البلطي

- طبيب في مواجهة الكوفيد 19: كيف عاش الأطباء الموجة الأولى للوباء؟..... 145

محمد سليم بن يوسف

- أجراء القطاع الخاص والمسألة الاجتماعية في فترة الحجر الصحي: مجالات الفعل الجماعي والتسييس..... 163
- المحور الثالث: في رصد تحول/تغير كمي ونوعي لظواهر اجتماعية إبان الحجر الصحي 180

خالد طبابي

- ديناميكيات الهجرة غير النظامية في تونس: محاولة في قراءة المشهد الهجري زمن الوباء.... 181

حازم شيخاوي

- في فهم العنف المسلط على النساء داخل الفضاءات زمن الكورونا..... 202

أحمد الساسي

- كيف عاشت الأحياء الشعبية جائحة الكوفيد 19؟ الكبارية نموذجا..... 214

"إذا كنت سائق قطار ورأيت أنه يتجه ليصطدم بقطار آخر، وهنا النتيجة المفترضة والمنتظرة بل والمرجحة بشدة هي وفاة المئات، في حين أن على الخط الآخر هناك خمسة عمال يعملون باطمئنان لعدم اتجاه القطار ناحيتهم. فماذا سيكون خيارك؟ تترك القطار يتبع "القدر" أي ماهو معد ومبرمج موضوعيا ومسبقا، أم تتدخل وتوجهه نحو العمال الخمسة وتعتبر، كما وكيفا، أنك قادر على جعل الضرر أقل؟"

في الفلسفة الأخلاقية طالما كانت تعتمد هذه المعضلة، "معضلة القطار"، لشرح مدى تعقيد الشروط الذاتية والموضوعية التي تخضع لها الأخلاق والقيم في علاقة بما هو مادي..

هذه المعضلة هي تآطير ذهني مناسب لمقاربة تدير الدولة التونسية لأزمة الوباء في علاقة بما هو صحي وبشري وإنساني وأخلاقي من جهة، وما هو اقتصادي واجتماعي من جهة أخرى.

إذ منذ إعلان أول إصابة بفيروس الكوفيد 19 في تونس إلى حدود كتابة هذه السطور، مع بداية الموجة الأولى، تم رصد الآلاف، بل مئات الآلاف من الإصابات يوميا في تونس. نتحدث هنا عن الإصابات بالبطالة والفقر والإفلاس. نتحدث هنا عن عدوى الهشاشة الاقتصادية والعطوبية الاجتماعية واما ألقه الفيروس بالصحة الاقتصادية والاجتماعية، وأيضا النفسية لأغلب الفئات الاجتماعية، لكن بدرجات ومستويات تلقى اجتماعي وأثر/تأثير متباينة ومختلفة. عما ألقه هذا الفيروس، مع الموجة الأولى، من ضرر اقتصادي واجتماعي لم يلحقه بالشعب الهوائية والجيوب الأنفية والرتتين. فالوباء ألمات اقتصاديا واجتماعيا أكثر بكثير مما ألمات بيولوجيا/صحيًا. كان وقعه أو بالأحرى ضرره الاقتصادي والاجتماعي أضعاف أضعاف ضرره الصحي في تونس إذا ما تحدثنا عن الطبقة المتوسطة وما دونها مع تباين في الآثار والقدرة على التحمل واستعدادات/إمكانيات التأقلم والصمود والتجاوز (Résilience).

فالأثر الفعلي للكوفيد 19 إبان وبعد الحجر الصحي وحظر التجوال وبقية التدابير التي اتخذتها الحكومة، هو أثر اقتصادي واجتماعي بالأساس. لأن البؤر، بؤر الهشاشة والهميش والإقصاء والفقر والتفاوت الطبقي والفئوي والجهوي والمجالي، زادت اتساعا وانتشارا مقارنة بالبؤر الوبائية التي تمت السيطرة عليها مع انتهاء الموجة الأولى لانتشار الفيروس¹.

فكيف يمكن تقييم سياسات الدولة حين تنقذ حياة المئات وتصادر حياة جيل بأسره بل ومستقبلا زادت من هشاشة الآمال المعلقة عليه؟ هل نعتبر سياساتها ناجعة وعادلة وإنسانية وحقوقية وأخلاقية؟ أم هي كذلك شكلا وتختلف في حيثيات ومضامين أثرها على أرض الواقع؟ هل

¹PNUD.org « Impact économique du COVID-19 en Tunisie. ». Publié le 17/06/2020. Consulté le 05/07/2020 .URL: <https://www.undp.org/content/dam/rbas/doc/COVID19/Etude%20Impact%20Economique%20du%20Covid%20en%20Tunisie.pdf>

نجحت في مواجهة أزمة الكوفيد19، الموجة الأولى له، أم فشلت؟ أم أن السؤال الأوضح والأهم، وهو سؤال هذا الكراس، كيف ولماذا انتهجت الدولة سياسات معينة، وما هي هذه السياسات، في مواجهة الموجة الأولى للكوفيد-19؟ وأثر هذه السياسات على المجتمع لا ككل متجانس متشابه متكامل بل كفئات تتقاطع فيها أشكال الهيمنة وبالتالي الضرر المنجر عن الوباء؟ كيف يمكن تقييمها دون اعتبارها وحشا دمويًا أو أما حنونًا في تمثل مثالي أو أوديبي لدور الدولة، أو جهازًا في خدمة طبقة مهيمنة، أو تقييمًا شعبيًا ينطلق من مقولة "ملعون إذا فعل ملعون إذا لم يفعل / damned if they do, damned if they don't"؟

فعلينا في تونس، الفيروس الذي أصاب الملايين، بعد إعلان الحجر الصحي، هو فيروس البطالة والإفلاس وانهيار الطموحات والأعمال والأحلام ومصادرة حتى الحق في تحسين الوضعية والنحو إلى تخفيف الضرر قدر المستطاع. فقد قامت الدولة بالتحاليل لكل الفئات على حد سواء وأعلنت الحجر الصحي على "الجميع"، لكن ليست لكل الفئات، وليس للجميع، الإمكانيات والموارد والقدرات والاستعدادات نفسها. ليس للجميع المواقع نفسها في الحقول الاقتصادية والثقافية والسياسية والاجتماعية، ليس للجميع الحقوق نفسها ولا الواجبات نفسها أيضًا. وليست كل الفئات السوسيو-مهنية متشابهة في الحظوظ والفرص وما تراكمه من رأسمال ثقافي واجتماعي واقتصادي ورمزي، وبالتالي ليس لهم نفس القدرة على تحمّل تبعات الحجر الصحي.

هناك فئات هي الأكثر تضررا من الحجر الصحي وحظر التجول وسياسات الدولة قبل وإبان الموجة الأولى من الوباء وبعدها أيضا.

هي تلك الفئات التي ليس لديها دخل قار، عقد عمل غير موجود في أغلب الحالات، دون الحديث عن الاستقرار المهني والضمان الاجتماعي والحيطة والتغطية الصحية ومكان عيش لائق في مجال حضري أو غير حضري تتوفر فيه ضروريات العيش.²

² حسب المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية هناك 170 ألف "صناعي" يشتغلون على الهامش غير مسجلين في الديوان الوطني للصناعات التقليدية. وقد دفع توقف النشاط التجاري وفقدانهم لمواطن الرزق إلى محاولة انتحار 6 "صناعية"، في شهر أفريل/نيسان فقط، توفي أحدهم في صفاقس.

فالعاملون في القطاعات غير الرسمية في تونس يمثلون نسبة 58.8 في المائة من اليد العاملة الجمالية، حسب إحصائيات لمنظمة العمل الدولية لسنة 2018 وهو ما يؤكد وجود أكثر من مليوني عامل يعملون في القطاع غير المنظم بتونس.

المصدر: الكورونا تعمق أزمة المهن الهشة في تونس.. بطالة وديون. مريم الناصري. موقع الترا صوت/الترا تونس. مقال نُشر يوم 28 ماي 2020

هي الفئات التي خضعت لنفس الحجر مع بقية فئات المجتمع من كل الطبقات، هي الفئات التي فقدت موارد رزقها ومواطن شغلها وفُرضت عليها بطالة غير مدفوعة الأجر مع توقف كلي للمداخيل وتراكم للديون وتأزم وضعيتها الاقتصادية والاجتماعية والنفسية.³

الدولة التي اكتفت بمنحة للعائلات المعوزة، وهي منحة ضعيفة جدا لا تسمن من جوع وإجراءات لا تضمن الأمان من الخوف، الخوف من المجهول، ولو في أدنى مستوياته، هي المسؤولة الأولى عن واقع الفقر والبطالة والتهميش واختلال منوال التنمية والفوارق بين الجهات. المسؤولة الأولى عن وجود بنية صحية هشّة وضعيفة بطاقة استيعاب 250 سرير إنعاش في بداية الموجة الأولى، وانعدام منوال تنمية صحية متزن ومتكافئ بين الجهات وكذلك بين مختلف الفئات الاجتماعية بوجود قطاع صحي خاص لا تستطيع غالبية أفراد المجتمع أن تتمتع بخدماته. هذه الدولة حصدت ما زرعت منذ عقود ثم طلبت من الجميع، مُلاك أراضي ومزارعين، أن يعتبروا الموسم موسم جفاف.

هذه الدولة ليست هي نفسها التي تتخيلها وتتجسد بالنسبة إليها الطبقة الأكثر مراكمة للرأسمال الاقتصادي والثقافي والعلائقي/الاجتماعي والرمزي، والتي عبرت عن رفضها التضحية زمن الوباء عبر الناطقين الرسميين باسمها (منظمات الأعراف بتنوعها). ليست هي نفسها التي تتخيلها وتتجسد بالنسبة إليها الطبقة المتوسطة (التي مثلت عبر موظفي القطاع العام خزان الاقتطاعات الدائم لحساب الدولة) وهي ليست نفسها التي تتخيلها وتتجسد بالنسبة إليها الطبقة الأقل مراكمة للرسميل/رؤوس الأموال والأكثر تعرضا للإفراد عن مركز الثروة والفرص والتي كانت الأكثر تضحية، تضحية بكل ما لا تملكه أصلا.

فالطبقة الأولى تريد دولة مسيرة للشؤون والأعمال لا غير، دولة تضمن حرية مراكمتها واحتكارها للثروة ووسائل إنتاجها. الطبقة الثانية تريد دولة تلعب دور الحكم العادل في لعبة لا حياد فيها، أما الطبقة الأخيرة فتنشد دولة راعية وكافلة ومنقذة لمن هم الأقل حظا وتعرضا لعدم التكافؤ في الفرص والحظوظ.

³ بتاريخ الجمعة 29 ماي 2020، أصدر المعهد الوطني للإحصاء دراسة بعنوان "التأثير الاجتماعي والاقتصادي لكوفيد-19 على الأسر التونسية خلال الفترة الممتدة من 29 أفريل إلى 8 ماي" (شملت عيّنة من 1369 أسرة). بيّنت هذه الدراسة أن 57 في المائة من التونسيين توقفوا عن العمل طيلة فترة الحجر الصحي الشامل.

28 في المائة فقط من النسبة المذكورة تمكنت من مواصلة النشاط في نهاية شهر أفريل مشيرة إلى أن 80 في المائة من العينة أكدت وجود ارتباط مباشر أو غير مباشر بين التوقف عن العمل والحجر الصحي/حظر التجول.

لم يتحصل 60 في المائة من الأجراء الذين توقفوا عن العمل على أجورهم، ويشمل غياب التأجير أكثر من 80 في المائة من الأجراء المنتمين إلى الشريحة الأكثر فقرا وينسب متماثلة بالنسبة العاملين في الفلاحة والصناعة.

أكثر من ثلث المستجوبين ممن هم في حاجة لمساعدة طبية لم يتمكنوا من الولوج إلى الخدمات الطبية طيلة فترة الحجر الشامل. أما العمل عن بعد، فقد شمل واحدا من أصل عشرة تونسيين.

المصدر: الآثار الاجتماعية والاقتصادية لأزمة كورونا في أرقام. موقع الترا صوت/الترا تونس. هيئة التحرير. بتاريخ 29 ماي 2020

إلا أن الدولة التونسية في ظل أزمة الوباء أدت، عبر سياساتها، دورا هجينا ومهتزا بين الراعية والمسيرة للشؤون والحكم العادل، لكنه دور ضعيف في لعبة يفرض فيها اللاعب القوي على اللاعب الضعيف والحكم الواهن قانون اللعبة، وذلك ليس رهين واقع راهني فحسب بل هو مسار عقود من التمييز واللاعذالة واللاتكافؤ.

فكان بذلك للحجر الصحي سرعات ثلاث⁴. سرعات تقاس حسب الانتماء الطبقي والفتوي وكذلك المجالي.

نعم، الفيروس عادل في إمكانية إصابته لأي كائن بشري، لكن الحجر الصحي ليس عادلا بالمرّة. وإن كان يضمن، نسبيا، عدم الإصابة بالفيروس فهو لا يضمن الآثار الجانبية التي لا يتحملها صاحب شركة كالعامل لديه، لا يقوى على مجابهتها الأستاذ الجامعي كالعامل اليومي ولا يمكن أن يتعرض لها الرجل كالمراة ولا الطفل كالإنسان الراشد ولا الساكن في الريف كالساكن في المدينة، ولا الساكن في مركزها كالساكن في "الحومة الشعبية".

فتطبيق الإجراءات نفسها، في السياق نفسه، على فئات مختلفة في إمكانياتها واستعداداتها ومواردها هي أدائية (Performativité) غير عادلة ولا عقلانية وبالتالي هي قابلة للنقد على مستويات مختلفة.

وكأن الدولة في وضعية صارت فيها إمكانية تحول الموت المتشابه في أسباب حدوثه إلى ظاهرة يومية قابلة للرصد والتكميم والقياس كبقية الظواهر، كالفقر والبطالة واللاعذالة الاجتماعية وعدم التكافؤ في الفرص مثلا. لكن لماذا لم تخش الدولة كل الظواهر بالمقدار نفسه من الخشية، ولم تحاربها بالدرجة نفسها من الحدية؟ فهذه الظواهر هي ظواهر اجتماعية أنتجت وتنتج وستنتج على المدى المتوسط والبعيد كل الشروط الذاتية والموضوعية للموت بإنتاجها للجريمة والهجرة غير النظامية والعنف والإدمان وأمراض جسدية ونفسية مختلفة ومتعددة⁵.

فلماذا تم تصنيف الوباء كظاهرة أخطر من الظواهر الأخرى؟ الإجابات السريعة قد تذهب لاعتبار أن الوباء كمي يهدد أكبر عدد من الأفراد. لكن فعليا، كميا ونوعيا، نجد عدة أمراض تقتل عشرة

⁴ ندوة افتراضية نظمها المنتدى وشارك فيها منسق الكراس في فترة الحجر الصحي حيث تحدث فيها عن السرعات الثلاث للحجر في توظيف سياقي لمفهوم "La ville à trois vitesses" جاك دنزيلو

الرابط: <https://fr->

(fr.facebook.com/293356094052952/videos/537861433827926/?__so__=channel_tab&__rv__=all_videos_card)

⁵ حسب منظمة الصحة العالمية هناك جائحة عالمية دائمة وغير موسمية، وهي المتعلقة بالأمراض غير السارية المتسببة الأولى في الوفيات وارتفاع نسبتها في العالم. في 2016 مثلا 71% من الوفيات في العالم، أي ما يناهز 56 مليون حالة وفاة، كانت بسبب أمراض غير سارية/غير معدية من أبرزها أمراض المناعة، القلب والشرايين والسرطان والسكري..

أضعاف ما قتله أو يمكن لهذا الفيروس قتله، والظواهر السابق ذكرها وتبيين أثرها لا تقتل فقط بل إنها تصادر أحلام وحقوق جيل بل أجيال بأسرها.

تأخذنا هذه الوضعية للحديث عن «نيكروفيليا» السلطة⁶. أي أنّ هناك نوعا من الأنظمة، - وهنا نتحدث عن منظومة حكم ما بعد 14 جانفي 2011 في تونس-، ارتبطت بتواجدها وممارستها لسلطتها بوجود وضعيات استثنائية، وفي حالة طوارئ، حيث يمكن حتى أن تلجأ/تركن إلى صورة متخيلة للعدو الذي تبيع من خلال محاربهته فعل كلّ ما يبرر ضعفها وعجزها وعدم قدرتها. وبالتالي باسم مواجهة الوباء تتم شرعنة إحالة مئات الآلاف على البطالة غير مدفوعة الأجر ودون تعويض وتعطيل حياة الملايين، وخاصة حرمانهم حتى من الحق في الاحتجاج ضد ذلك.

في مقال عنوانه "7" *nécropolitique*، يتحدث "أخيلمبمي" عن فرضية أن جوهر الممارسة السيادية للسلطة المعاصرة قائم على القدرة في تحديد من يجب أن يموت ومن يمكن له أن يعيش. السيادة، سيادة الدولة بهذا المعنى، هي ممارسة دورها الرقابي على الموت والحياة في الآن نفسه. في تمامه مع مفهوم "البيو-سلطة" *biopouvoir* لميشال فوكو، أو ذلك المجال الذي تفرض فيه/ومن خلاله السلطة قدرتها الرقابية.

قررت السلطة في تونس ومازالت تُقرّر، ولا تقتصر السلطة على الحكومة والدولة بل تشمل كل المتدخلين باختلاف تعبيراتهم الفئوية والطبقية في إنتاج السلطة وتنفيذها، منذ بداية انتشار الوباء، من لديه الحق في الحياة ومن يمكن أن نسمح بموته، سواء أكان موتا اقتصاديا أو موتا بيولوجيا، باعتبار التفجير والمزيد من التهميش والبطالة نوعا من القتل الذي لا يوقف نبض القلب واشتغال الدماغ، ولكنه يميت كرامة الإنسان ويغتال كل حقوقه. فهذا الحق في القتل "le droit de glaive" مؤسس على أكثر الفئات الاجتماعية الفاقدة لضمان اجتماعي واستقرار اقتصادي. لقد قررت سياسات الدولة قتلا منهجيا، وذلك بفرض الحجر نفسه والحظر ذاته على من تختلف رساميلهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والرمزية، وذلك حسب خضوعهم، المتباين بدوره، للسلطة وعنقها الرمزي والمادي في آن. وهكذا تمارس ذلك الحق العجوز، كما يسميه "فوكو"، الحق الشرعي/المقنن، أي حقها في القتل.

فالكورونا، -لنختم الفكرة-، ليست وباء بالنسبة للمنظومة الحاكمة، بل هي تجسّد نادر الحدوث لعملية الممارسة السلطوية في أقصى تجلياتها.. هي أشبه بهدية من الطبيعة لتجعل البيو-سلطة تُنعش نفسها وتجدر مبررا وشرعية ومنفذا وتعلل لاستمرار نفس النظام بنفس السياسة ونفس

⁶ النيكروفيليا أو جماع الأموات، هو انجذاب جنسي أو فعل جنسي للبحث. يستعملها "أخيلمبمي" في هذا السياق لمقاربة أدائية الدولة في علاقة بالموت.

⁷Mbembe, Achille. « Nécropolitique », Raisons politiques, vol. no 21, no. 1, 2006, pp. 29-60.

النهج السياسي. سياسة التوزيع اللا عادل للحق في الحياة والتقيرير اللا مشروع لمن يمكن له أن يموت. سلطة تعيش وتموت هي بدورها وسط الطوارئ والاستثناء وديناميكا الفوضى وحالة الخوف من الموت. إنها سلطة تحبذ منح الحق في الموت على منح الحق في الحياة والحقوق الاقتصادية والاجتماعية، إنها دولة "الموت حق".

في هذا السياق المعقد والمركب، وهذه الوضعية الاستثنائية في سيرورتها نحو أن تصير دائمة، يُطرح تساؤل حول الحق في الموت والحق في الاحتجاج على الموت رغبة في الحياة؟؟

فكأن الكورونا صارت فزاعة للعصافير، للفلاح وللسنابل في أن واحد. إذ لا يمكن أن نتخيل، في سياق الجائحة الكورونية، وفي الحجر الصحي الذي تنتجه بالتحديد، نزول مظاهرات مثلا احتجاجا على البطالة! يجبر الناس على البطالة ولا يمكن/ولا يحق لهم الاحتجاج. وجزء المحتج والداعي والحاشد والمنظم له هو السجن وعقوبات مشددة في ظل اعتبار الكورونا من الأمراض السارية ويمكن أن توجه للمحتج تهمة القتل غير العمد.

ربما سيتعلم، أو بالأحرى هو بصدد ذلك، النظام العالمي من هكذا تجربة ليلجم الحركات الاجتماعية ويجعل المهيمن عليهم يتمثلون الخروج على السلطة كمواجهة مباشرة مع الموت بل اعتبار الاحتجاج جريمة.

فالسباق الوبائي يجبر كل أشكال الفعل الجماعي الكلاسيكية وغير الكلاسيكية المناقضة للسلطة على التحول، على الأقل عمليا / على مستوى الممارسة العملية PRAXIS، في إمكانية تحريك الشارع، إلى بنى نائمة abeyance structure لا لعدم قدرتها أو عجزها أو ضعف/عدم وجود بنية فرص سياسية مناسبة⁸، بل لحالة الهلع الجماعي والخوف والريبة وحالة التأجيل والإرجاء، حالة "ما بعد الكورونا". حالة لا ولم ولن تشهدها الحركات الاجتماعية في ماضيها ومستقبلها، إلا في الاستثنائيين اللبناني والأمريكي وفي فترات مختلفة هذه السنة، حالة من الشلل شبه التام بسبب السياق وبسبب تعامل الخصم مع السياق وخضوع المهيمن عليهم للأداء الحكومي. إلا إذا ما اعتبرنا نشاطها على مواقع التواصل الاجتماعي فعلا نوعيا، ذلك النشاط الذي كان في السابق يهدف للحشد قبل توجيه الحشود للشوارع، صار الآن يكتفي بالنشاط/الفعل الفيسبوكي.

الفعل الجماعي زمن الكورونا يشهد واقعا معقدا ومركبا وجب على الفاعلين والباحثين، ومن يضعون القبعتين، تدوين وتشخيص، وصف تفسير وفهم ما يحدث للاتعاظ والتعلم لأن الخصم

⁸Johsua, Florence. « Abeyance structure », Olivier Fillieule éd., Dictionnaire des mouvements sociaux. Presses de Sciences Po, 2009, pp. 17-23.

يسبق الفاعلين من أجل الحقوق بخطوات وإمكانيات وحظوظ وحظ كذلك! للأسف لم تتوفر لنا، في إطار هذا الكراس، إمكانية مقارنة هذه الإشكالية والفرضيات لضيق الإطار والوقت.

هذا الكراس، في الحديث عن التأطير المنهجي والإشكالي، كُتِبَ زمن الكوفيد 19. كُتِبَ إبان الحجر الصحي والتزم كاتبو الورقات التحليلية بأن يقدموا نسخاً نهائية مع نهاية الحجر الصحي وهكذا كنا أوفياء لإنتاج شكل بحثي فريد ومخصوص في مقارنته وتأطيره لإشكالية بحثية خاصة بالسياق الوبائي.

هذا كراس كتبتُه أقلام، في ظل خضوعها للحجر الصحي، لم تفكر في وضعياتها، المتراوحة بين البطالة والضغط النفسي كمعظم الممارسين لمهنة القلم، بل فكرت فيمن لا ضوء يكشف ما يحدث معهم، عن الناس الذين يعانون وتناستهم الأقلام والكاميرات وخطابات السلطة إلا حين احتاجهم لتغذية خطاب شعبي. أقلام فكرت وبحثت بكل ما أوتيت من إمكانيات لتسلط الضوء على الفئات الأكثر تضرراً من السياق الكوفيد من جهة، ومن تدبير السلطة، عبر سياسات الدولة، للجائحة من جهة أخرى.

أقلام التزمت، على عكس غيرها، وانخرطت، رغم الحدود والعوائق الذاتية والموضوعية، في فعل بحثي تحليلي تدويني لا يدعي الحياد ولا الأكاديمية. فعل يتبنى قضية ويدافع عنها بكل ما أوتي من حبر. فعل تترجمه ورقات هذا الكراس.

هنا وفي الحديث عن صعوبة العثور على باحثين وقادرين على/ وراغبين في الكتابة في سياق الأزمة وقبلها وبعدها. يتطلب ذلك ورشات نقاش أو محاضرات أو حواراً داخل حقل البحث العلمي وخارجه أو حتى ضمن الحقل الأدبي اليوم في تونس، لعلنا نتفهم ونعلم بضع العوائق الذاتية والموضوعية التي تتدخل في إنتاج واقع الندرة والإفلاس، لكن تغيب عنا الإجابات حقيقة، أو إجابة وحيدة كافية وشفافية عن سؤال: لم هذه الاستقالة، لم هذا التقاعس القلمي والعجز المعرفي والفقير البحثي الرهيب كما وكيفاً؟

ففي تدبير وتدبر هذا الكراس، من خلال تنسيق أعماله، أي البحث عمّن يستطيع ويرغب، في الآن نفسه، في إنتاج ورقة تحليلية وفي امتداد للخط البحثي للكراس الفارط⁹، سعينا لتكليف باحثين وفاعلين قادرين على إنتاج معرفة نوعية محدودة ومحددة عبر نفاذ نسبي لميدان البحث عبر معطيات ثانوية وأحياناً أولية (ولو أنها مقابلات عبر الهاتف أو تطبيق الواتساب) وأسلوب تحليلي يصف قدر الإمكان ويفسر/يتفهم ما حدث/وما كان يحدث حينها، أي إبان الحجر الصحي، عبر

⁹ انظر الكراس عدد 2 للمنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية: "سوسيولوجيا الفعل الجماعي في تونس منذ 14 جانفي 2011 تعدد طرق الانخراط وتنوع أشكال الاحتجاج". 2019. الرابط لنسخة إلكترونية: <https://ftdes.net/les-cahiers-du-ftdes-sociologie-de-laction-collective-en-tunisie/>

تشخيص موضوعي لكنه لا يدعي الحياد، فلا حياد في ظل واقع هيمنة ولأعدالة وتفاوت في سرعات الحجر الصحي حسب الفئات المتعرضة له وموازن القوى في علاقة بالدولة وسياساتها المتعلقة بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية.

إذ أن إيجاد أقلام ملتزمة ومنخرطة في فعل بحثي وكذلك ذات مقدرة تحليلية وعلمية محترمة في آن، هو من أصعب المهام التي تعترض هكذا مشاريع قبل الفترة "الكوفيدية" وصارت هذه المهمة شبه مستحيلة زمن الجائحة. وبالتالي سعينا من خلال عدة منافذ وأطر وطرق للتواصل، زمن الحجر الصحي، مع عدد كبير من الفاعلين والباحثين القادرين على/الراغبين في إنتاج ورقات تحليلية في إطار إشكالية الكراس، زمن الحجر الصحي، وفي إطار كراس بحثي. وتمكننا، بعد مد وجزر وعدة صعوبات وعراقيل اعترضتنا، من إنتاج هذا العمل الذي ينطوي على ثلاثة عشرة ورقة تحليلية بعد أن تواصلنا فعليا مع أكثر من ثلاثين باحثة وباحثا/كاتبة وكاتبا/فاعلة وفاعلا. لنباشر العمل بعد ضبط الإشكالية والمنهجية ولقاءات أولية افتراضية (عبر تطبيقات "Zoom" و "Skype") مع عشرين قلما لنتهي بهذا الكم النوعي النهائي بعد تفاعل يومي ومراجعات وتدقيقات وتعديلات متواصلة ودائمة بين فريق الإعداد والتنسيق ومجموعة المساهمات والمساهمين في كتابة الورقات.¹⁰

هذا الكراس كُتِبَ إبَّان الحجر الصحي في تونس وفي سياق اتسم ببداية موجة أولى أو نهاية جزرها أو هكذا خُيِّلَ/تَبَيَّنَ للمختصين المباشرين للجائحة حينها. وهذا التقديم الذي نخصه لهذا العدد من كراسات المنتدى، كتب مع بداية مدّ موجة ثانية أو هكذا تبين للمسؤولين عن تدبير أزمة الوباء.

هنا تجدر بنا الإشارة أنه في الموجة الأولى هيمنت المقاربة الصحية، عبر تغليب الرأي الصحي/الطبي/الإبيديميولوجي على ما هو سياسي واقتصادي واجتماعي، أما في الموجة الثانية (منذ الأسبوع الثاني لشهر أوت) هيمن ما هو اقتصادي، عبر خيارات تغلب المصلحة الاقتصادية، على ما هو سياسي واجتماعي وصحي. فكيف يمكن تفسير وجود سياستين مختلفتين للدولة نفسها/الحكومة/لجنة الخبراء في مواجهة موجات الوباء؟ سياسة أولى قصوى في الوقاية وسياسة ثانية متطرفة في عدم الوقاية. وضعية كهذه كافية للتساؤل حول وجود، من عدمه، لأفق استراتيجي لسياسات الدولة وثوابت ومراجع تنير تصوراتها ومخططاتها وبرامجها؟ أم هي خاضعة للارتجال وحشد العواطف في تدبير الحياة الاجتماعية تارة¹¹، ولضغط اللوبيات ودوائر نفوذ الأقليات تارة

¹⁰ هذا الكراس هو إنتاج شبابي مئة بالمئة، من الفكرة للبحث للكتابة للتنسيق والتدقيق وينخرط في مُقاربة "تمكين" علمي للشباب الباحث والفاعل في مسألة الحقوق الاقتصادية والاجتماعية.

¹¹Julien Bernard, « Frédéric Lordon, La société des affects. Pour un structuralisme des passions, Paris, Éditions du Seuil, coll. Points/Essais, 2013, 312 p. », Terrains/Théories [Online], 5 | 2016, Online since 20 December 2016, connection on 08 August 2020. URL: <http://journals.openedition.org/teth/853>

أخرى؟ وضعية كهذه تجعل إشكالية تدبير الدولة لما هو اقتصادي واجتماعي سياسيا، وفي مختلف السياقات، إشكالية بالغة الأهمية. إشكالية لا تخشى ذلك السؤال: سياسات الدولة، زمن الوباء، كامتداد لما قبله وتصور لما بعده، في صالح من؟ إذا ما اعتبرنا تخفيف الضرر زمن الكوارث والقدرة على التجاوز فيما بعد، مصلحة في حد ذاتها لمن ليست لهم أصلا المصالح نفسها كما وكيف؟ كيف كان تدبير الدولة لأزمة الوباء، من خلال سياساتها، وأثر هذه السياسات على الفئات الأكثر تضررا من هذه السياسات لا زمن الوباء فقط بل منذ عقود سبقت الوباء بل وتعود حتى إلى تأسيس الدولة الوطنية؟ هذه الدولة التي تود اليوم أن تكون قوية وعادلة، إلا أن قوتها في علاقة بالحق هي أقرب فلسفيا لحق القوة لا قوة الحق، وهذه القوة كانت ومازالت غير عادلة.

حاول هذا الكرّاس من جهة أن يطرح أسئلة لم تطرح، ويشخص وضعيات لا يرغب أغلب الصانعين للرأي العام في تشخيصها خدمة لمصالح مختلفة ومتعددة ومتناقضة أو متقاطعة أحيانا. ومن جهة أخرى يرنو هذا الكرّاس لتسليط الضوء على النص المخفي الذي تم تدوينه في صمت، نص الفئات الهشة التي لا إمكانيات لها ولا قدرة على التجاوز والصمود، والتي زادت هشاشتها بسبب الوباء. نص مخفي باعتبار مجازية الكلمة لوصفها، كيف لا تصل أصوات الذين على الهامش ومن هم تحت، هامش توزيع الثروة ومناويل التنمية، ومن هم تحت خطوط الفقر بمختلف تصنيفاتها. وهو أيضا نص مخفي بما للكلمة من مباشرة لأن السياق الوبائي جعل وضعيات هؤلاء غير قابلة للتنفيذ إليها بسبب الحجر الصحي وتحول الآلة الإعلامية إلى آلة مهووسة بالفيروس ومدى انتشاره وأرقام الإصابات أو بتصويرها إعلاميا عبر تأطير (framing) لا يخرجها إلا في صورة المساكين وفاقد الإرادة وبمقاربة غارقة في "المسكينيّة" Misérabilisme والشعبوية.

هذا الكرّاس كُتِبَ، والفعل ليس مبنيا للمجهول، من قبل باحثين وفاعلين يخضعون بدورهم للحجر الصحي وحاولوا بكل ما أوتوا من إمكانيات ذهنية ونفسية أن يدونوا/يسجلوا/ينقلوا/يدرسوا/يحللوا ويحفظوا للتاريخ وللذاكرة وللمدونة البحثية واقعا وتجربة ومحنة وحقيقة اجتماعية (une réalité sociale) لا يمكن إدراكها بحثيا ووصفها ورصد حدوثها علميا إلا إبان وقوعها.¹²

حقيقة/واقع وتجربة ومحنة انتشار الوباء، في موجته الأولى، وخاصة الحجر الصحي أي التظاهر والتجسد والتحقق على أرض الواقع لسياسات الدولة في السياق "الكوفيدي" وأثر ذلك على الفئات الأكثر تضررا.

¹²Arborio, Anne-Marie. « L'observation directe en sociologie : quelques réflexions méthodologiques à propos de travaux de recherches sur le terrain hospitalier », Recherche en soins infirmiers, vol. 90, no. 3, 2007, pp. 26-34.

من كتبن/كتبوا هذا الكراس، وما كتبنه/كتبوه، لا يدع إنتاج معرفة علمية محكمة وليس ذلك أصلا الهدف من كراسات المنتدى، بل هذا الإصدار هو، من جهة، تشخيص وتدوين ونقل وحفظ لواقع اجتماعي لا يمكن أن نحلله سوسيولوجيا بعد "نهايته" إلا إذا كنا قد راكمتنا ما يكفي من ملاحظة ووصف ورصد وتسجيل للمعطيات الأولية المتعلقة بالواقع المدروس أثناء حدوثه. وإلا إذا ما كنا قد حللنا، قدر الإمكان، في الزمان والمكان، إبان الحجر الصحي، ما يجب وما يمكن رصده وتسجيله ومقارنته وتحليله.

ومن جهة أخرى المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية من خلال كراسات، ومن خلال هذا الكراس تحديدا، يقدم مادة بحثية وتوثيقية وتحليلية للباحثين والفاعلين تمكن من تشخيص أثر سياسات الدولة على الفئات الأكثر تضررا زمن الوباء، والحجر الصحي تحديدا، وعلى مسألة الحقوق الاقتصادية والاجتماعية قبل وإبان وبعد أزمة الكوفيد 19.

وفي التدبير البحثي، من خلال هذا الكراس، لتدبير السلطة لأزمة الجائحة عبر سياسات الدولة، قسمنا الكراس إلى ثلاثة محاور.

الأول فيه قراءات ممكنة، كمدخل تفسيرية وتأطيرية، لما حدث ولأدائية الدولة زمن الكوفيد 19 أنثروبولوجيا، تاريخيا، قانونيا وخطابيا.

الورقة الأولى عادت بنا إلى تاريخ الدولة التونسية وتاريخ سياساتها في التعامل مع الأوبئة وبالأخص تاريخ الأثر، أثر الأوبئة على المجتمع التونسي، لتؤطر الكراس زمانيا وتاريخيا و"دياكرونيا" (Diachronie) أي لنستطيع مقارنة تطور أداء الدولة في مواجهة الأوبئة في الزمان والمكان.

الورقة الثانية هي محاولة قراءة أنثروبولوجية لعوامل اختلال العلاقة بين المجتمع والدولة في ظل واقع الوباء. من خلال مقارنة علاقة المركز بالهامش في ظل الاضطراب المحيطي المنجر عن الجائحة التاجية.

الورقة الثالثة، عبر قراءة قانونية، توضح لنا كيف قاربت السلطة الوباء قانونيا عبر آلية التفويض والإجراءات الاستثنائية وتداعياتها المباشرة على أغلب فئات المجتمع.

الورقة الرابعة يسعى كاتبها لتفكيك الأدائية الخطابية للدولة زمن الكوفيد 19، وكأن الدولة ممثلة في السلطة التنفيذية، أي في رئيس الجمهورية نموذجا، تخاطب الأفراد لا كأفراد بل ككل متجانس يخضع لسياساتها، أي للأداء التنفيذي، التي تبرره عبر خطاباتها. فتفسر هذه الورقة كيف خاطب رئيس الجمهورية المجتمع زمن الوباء ولماذا خاطبه بتلك الكيفية باحثة عن رصد مدى انسجام الأداء الخطابي مع حقوق المواطنين الاقتصادية والاجتماعية.

المحور الثاني هو عبارة عن تشخيص لأثر سياسات الدولة على الفئات السوسيو-مهنية التي كانت هي الأكثر تضررا.

الورقة الخامسة حاولت أن تدرس راهن عاملات الفلاحة في المزارع زمن الحجر الصحي الذي سمح لهن بالذهاب إلى الحقول والمزارع لمزيد الاستغلال الاقتصادي والمزيد من احتمالات الموت على متن الشاحنات. هذه الورقة تهتم بفحص دور البطركية والهيمنة الذكورية في الاضطهاد المسلط على عاملات القطاع الفلاحي والآثار السوسولوجية والطبقية والنفسية لعمليات الاضطهاد خصوصا في السياق الكوفيدي.

الورقة السادسة ستحاول تسليط الضوء، بنحو "إمبيرقي" نسبيا، على واقع عمال البناء في تونس وخاصة في سياق الجائحة التاجية. واقع نموذجي للهشاشة والتهميش وانعدام الحقوق، كل الحقوق.

الورقة السابعة تصف واقع عاملات النظافة في المستشفيات، فئة هي من أكثر الفئات تعرضا لخطر الإصابة والأكثر مقاومة لخطر انتشاره من خلال عملها. هذه الورقة ترسم بورتريه عاملات النظافة في المؤسسات الصحية زمن الكوفيد 19 وأثر هذا السياق على هكذا مهنة شاقة وهشة وخطرة. عاملات يحدق بهن الموت من كل جانب دون أدنى ضمانات الوقاية وبأجور ضعيفة، تواجهن ما لا يرغب أولئك الذين تسببوا في تلك الظروف ومن حددوا تلك الأجور مواجهته.

الورقة الثامنة تذهب لرسم بورتريه عمال المقاهي والحانات، زمن الحجر الصحي، الذين صاروا دون مقاهٍ ودون حانات، يغادرون كل الأماكن ليلزموا بيوتهم دون عمل ودون حرفاء ودون أجور.

الورقة التاسعة نسافر عبر كاتبها، وهو طبيب يباشر عمله زمن الموجة الأولى للوباء في منطقة ريفية تنعدم فيها البنية التحتية الصحية. يصور لنا كيف يعيش الطبيب بعيدا عن بروباغندا الجنرال والجيش الأبيض، واقع مواجهة ظاهرة وبائية مسلحة وهو أعزل من الأسلحة اللازمة.

الورقة العاشرة تحلل واقع النزاعات التشغيلية لأجراء القطاع الخاص في فترة الحجر الصحي ورسم مناطق تسييس المسألة الاجتماعية في تلك الفترة. وتنزل هذه الورقة في إطار أوسع وأكثر تعقيدا وهو واقع العمال ما بين مطرقة البطالة التقنية وسندان الطرد النهائي أو غلق المصنع أو المؤسسة. واقع يتم فيه اضطهاد مضاعف للعمال والعامل، اضطهاد اقتصادي وخاصة اضطهاد نفسي.

أردنا في هذا المحور أيضا دراسة وضعيات عاملات المنازل وعاملات الخياطة والناشطين في الحقل الثقافي والأطباء الشبان وكذلك وضعية مهاجري جنوب الصحراء، لكن لأسباب ذاتية وموضوعية متعلقة بالباحثات والباحثين الذين اتصلنا بهم، بين عدم قدرة على التفرغ للكتابة أو لعدم القدرة على اتباع أسلوب بحثي كالذي نتبعه في الكراس، وكذلك لضيق الوقت والإطار في هذا الشكل البحثي وخاصة للسياق الذي أردنا الكتابة فيه وعنه، لم تتمكن من إنجاز هذه الورقات البحثية.

المحور الثالث تطرقنا فيه لظواهر اجتماعية، كالهجرة غير النظامية والعنف المسلط على النساء والتهميش المجالي، ظواهر أمكننا رصد وملاحظة تغيرها وتحولها، كميما ونوعيا، زمن الموجة الأولى من الوباء.

فالورقة الحادية عشرة تحدثنا عن ظاهرة "الحرقة: الهجرة غير النظامية". تفسر واقعا أنتج مهاجرين دون تأشيرات تلفظهم اقتصاديات بلدانهم كما يلفظهم البحر ودول الوصول التي ترفض استقبالهم. كما يأتي الوباء ليقبر، ولو نسبيا، عبر ما ينتجه الحجر الصحي من حد كبير للتنقل بين وداخل المدن، إمكانية "الحرقة" في مهدها لكن ليزيد من شروط مضاعفة نسبها مستقبلا.

الورقة الثانية عشرة تدرس كيف ولماذا تزايدت نسبة العنف المسلط على النساء في فترة الحجر الصحي. كيف ولماذا يمر الرجل إلى سرعة قصوى من العنف الرمزي إلى العنف الجسدي في واقع هيمنة ذكورية تتغير شروطها في سياق استثنائي كالسياق الوبائي.

أما الورقة الثالثة عشرة والأخيرة فتحدثنا عن هامش همّشناه خطابيا بهكذا تسمية ثم زادت سياسات الإقصاء/الإفراد المجالي وسرعات الحجر الصحي المتباينة وغير العادلة تهميشا. هامش، أو "حومة شعبية"، لم يعيش الحجر الصحي كبقية المجالات الحضرية.

ورقات هذا الكراس هي شهادات نوعية حاولت رصد ووصف وتحليل وتفسير وفهم ما أنتجته سياسات الدولة زمن الوباء، بتدبيرها الموجة الأولى عبر سياسة كان قوامها تدابير الحجر الصحي وحظر التجوال والعمل عن بعد و"كفالة" العائلات المعوزة. تدابير كانت بسرعات متفاوتة ومتباينة وسياسات لم يكن لها نفس الأثر على فئات اجتماعية تختلف إمكاناتها واستعداداتها. تدابير لا يمكن فهمها بمعزل، -سياقيا-، عن مقاربتها كامتداد لسياسات الدولة الوطنية منذ عقود. سياسات أنتجت ولازالت تنتج واقع اللاعدالة واللاتكافؤ في الفرص، واقع فيه انتهاك مُمأسس ومؤسسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية وتكريس للتفاوت الطبقي والتهميش والإقصاء.

هذا الكراس بتشخيصه لأثر تدبير الدولة لأزمة الكوفيد 19، زمن الموجة الأولى، على الفئات الأكثر تضررا، يمنح للباحثين والفاعلين وصناع القرار كمية نوعية من المعطيات والتحليل لمراجعة

التأطير الذي تتم من خلاله مقارنة أزمة الوباء في علاقة بالحقوق الاقتصادية الاجتماعية ونحن في أثناء موجة ثانية وفي انتظار مد وجزر موجات آتية قد تتواصل لسنين.

هل كان بالإمكان أحسن مما كان؟

لا، لأن سياسات الدولة اليوم هي من جهة، صيرورة لمسار طويل من هيمنة أقلية من أصحاب مصالح، فرادى ومجموعات، عائلات ولوبيات ومراكز نفوذ على الاقتصاد، من هيمنة مقارنة غير حقوقية وغياب استراتيجية إدماج اجتماعي مبنية على علوية الحقوق الاقتصادية والاجتماعية. ومن جهة أخرى لأن الأقلية المهيمنة اقتصاديا، والمؤثرة على القرار السياسي فإرضاء لخيارات نيو ليبرالية ورافضة لدور الدولة كراعية وغير قابلة للتفاوض على قوانين لعبة لطالما كانت فيها الراجح الوحيد. هذا الواقع المركب والمعقد، وخاصة في السياق الوبائي، جعل الدولة التونسية دولة ضعيفة مع الأقوياء، وقوية مع الضعفاء.

فالمستشفيات كالجامعات وكسكك القطار في تونس، توجد وتوزع وتتكثف، وكذلك تُحتَكَرُ، في "ميتربول" مجالي اقتصادي واجتماعي وديمقراطي حيث تتمركز الثروة ووجود الدولة واحتكار الحق في الحياة.

الموجة الأولى للوباء أثبتت ذلك. لكن السلطة ادعت انتصارا متسرعا على الوباء وعادت لسياسة النسيان والتناسي. لم تدعُ لحوار مجتمعيّ من أجل تغيير راديكالي ونوعي في سياساتها الكبرى التي كانت من أبرز العوامل المنتجة للديناميكية الاحتجاجية منذ 17 ديسمبر 2010/ 14 جانفي 2011. لم ترد الاعتراف بأن سياساتها ذات التوجه النيوليبرالي، وتنكرها لدور الدولة الضامنة للحقوق الاقتصادية والاجتماعية هي السبب في المشاكل الموجودة، وأن الحل يكمن في معالجة الأسباب والتوجه نحو تنمية عادلة ومتوازنة وتشريعات ضامنة للعدالة الاجتماعية وأداء حكومي ينقذ هذه الضمانات القانونية وسياسات دولة تؤطرها وتطورها.

جاءت الموجة الثانية زمن كتابة هذه السطور، سطور المقدمة¹³، لتمهد لوجه جديد لسياسات الدولة التي صارت تتحدث، بطريقة غير مباشرة، عن مواجهة المجتمع لمصيره، كل وقدراته واستعداداته، في تحول جوهري في خطابها وأدائيتها مقارنة بالموجة الأولى. صارت تتحدث عن عدم قدرتها وعدم استعدادها على مواجهة هذا المصير وعن ضرورة التعايش مع الوباء. هكذا صارت تُحَمَلُ، بصفة ضمنية، المجتمع كل المسؤولية وتنصلت من مسؤوليتها، وصارت تقدم نفسها

¹³ انتهينا من كتابة سطور هذه المقدمة في الأسبوع الثاني من شهر أوت، وتمّ تسلّم آخر ورقة تحليلية في الكراس من الباحثات/الباحثين يوم 15 جويلية 2020.

كمعالجة للآثار وعاجزة عن العودة للأسباب أو متهمة للماضي الذي تنتكر له من جهة، وتندسخ عنه الحاضر والمستقبل من جهة أخرى.

في الموجة الأولى، عبر إغلاق الحدود والحجر الصحي الشامل وحظر التجول، أمسكت الدولة العصا من جهة تجعل الضرر مضاعفا على فئات دون أخرى، وفي الموجة الثانية مع التراجع عن كل إجراءات الموجة الأولى، جعلت العصا تنزل بكل ثقلها على نفس الفئات الأخرى التي ستكون الأكثر تضررا، ولوحدها هذه المرة¹⁴.

السياسة الأولى أنتجت الموت الاقتصادي غير المتكافئ في توزيعه، والسياسة الثانية ستنتج موتا بيولوجيا غير عادل في إمكانيات التعرض إليه.¹⁵

فما هي الفئات التي ستكون الأكثر تضررا في سياق الموجة الثانية للكوفيد 19 في تونس في ظل هيمنة المقاربة الاقتصادية التي تتعامل مع ما هو إنساني بمنطق ربحي وبراغماتي؟

الفئات التي، وفي إطار معضلة أخلاقية وجدت فيها الدولة نفسها تختار التضحية بهم لإنقاذ اقتصاد يحتضر، ستكون هي الفئات الأكثر تضررا¹⁶. هي بدون شك فئات لا تتحدد وتباين وتتقاطع فقط حسب انتماء طبقي واقتصادي، بل هي فئات تتحدد بمتغير الصحة والمناعة الجسدية، أي كبار السن وأصحاب الأمراض المزمنة والمصابين بأمراض تجعل المناعة ضعيفة، أي الفئة التي تشترك في كونها الأكثر عرضة للموت في ظل انتشار الوباء. وكأن الدولة تبنت، بطريقة غير مباشرة، سياسة "مالتيس/Maltus" في تديرها لأزمة الوباء وهكذا ستكون سياسة التعايش منتجة لسياسة تختار، بنحو براغماتي، موت الأقل امتلاكاً لمناعة جيدة مقابل مناعة الاقتصاد¹⁷. إنه واقع سوداوي تعجز السوسولوجيا حاليا، وكل علوم الإنسان والمجتمع، على حل شيفراته الأخلاقية والمادية المعقدة. واقع لا يمكن التنبؤ بما سينتهي إليه وإن كنا نعلم المسار الذي أنتجه، مسار تشكل الدولة التونسية وعلاقات السلطة الماسكة لزماتها والمدبرة لسياساتها منذ عقود.

¹⁴تواجه الدولة، التي أعلنت عن نيتها التعايش مع الفيروس لإنقاذ الاقتصاد، موجة ثانية من الوباء بنقص كمي وكيفي كبير في الإطار الطبي وشبه الطبي، نقص فادح في التجهيزات الطبية والإمكانات. دولة ترفض الانتداب، انتداب بعقد غير محدد بمدة، في قطاع تعتبره غير منتج في تواصل مع سياساتها التي تعتبر المواطن عبئا ثقيلا يثقل كاهلها، كاهلا لا يحمل الا من يكون أقوى منه.

¹⁵نرجو ألا نذهب أو نضطر لإصدار كراس آخر، مستقبلا، يسلط الضوء على الفئات الأكثر تعرضا للموت في الموجات القادمة.

¹⁶عاملات وعمال المصانع والمعامل، عاملات الفلاحة على متن شاحنات الموت بين مطرقة حادث طريق أو سندان الالتصاق وعدم التباعد المنتج حتما للعدوى، وعمال وعاملات النظافة في البلديات كما في المستشفيات، ورؤاد الأسواق الشعبية المكتظة وممتني الانتصاب الفوضوي، والعمال اليوميين من رواد وسائل النقل العمومي.. هل يمكن تصنيفهم، جميعا، في نفس درجة التعرض لخطر العدوى كبقية الفئات الاجتماعية والسوسيومهنية؟

¹⁷Charbit, Yves. « Capitalisme et population : Marx et Engels contre Malthus », Revue d'Histoire des Sciences Humaines, vol. no 13, no. 2, 2005, pp. 183-208.

وهكذا، ودون أن تكون لرئيس حكومتها شجاعة "بوريس جونسون" لإعلان استراتيجيتها لتدبير الأزمة رسمياً، تتبّع الدولة التونسية منذ أواخر شهر أوت، بالتزامن مع كتابة هذه السطور، سياسة مناعة القطيع (رفض إغلاق الحدود/رفض إعلان الحجر الصحي وبقيّة التدابير) في مواجهة سريان المرض، وهي سياسة لم تجرؤ أقصى حكومات اليمين المتطرف في العالم على إتباعها، سياسة "الموت حَقٌّ"، عبر جعل "إيبوقراط" (على مستوى اللجنة العلمية لمواجهة الوباء) ينكث قسمه ويرتدي جلباب السياسة ثم اعتماد بروباغندا "الوضع تحت السيطرة"، سياسة "تنبأ بإمكانية حدوث كارثة إنسانية"¹⁸.

ما المطلوب من الدولة إذن؟ يتساءل القارئ ربما. المطلوب هو التغيير، تغيير جذري أثبت واقع الوباء أنه صار أكثر من ضروري، لقد صار حتمياً. تغيير يستبق الكوارث المتتالية بمعالجة أسبابها. تغيير في سياسات الدولة وفي منظومتها الفكرية والقانونية والقيمية والأخلاقية أيضاً وبالتالي في "أدائها" لدورها كدولة. تغيير يضمن الحق في العمل، العدالة الاجتماعية، الكرامة للمواطنين في دولة يجب أن تسهر على ضمان الحقوق الاقتصادية والاجتماعية: ولعل الحق في الصحة، بحكم السياق، أي الحق في الحياة، أولها.

منسّق الكراس: سُفيان جاب الله

¹⁸ مقال رأي يعالج احتمالية هكذا تدبير للأزمة من قبل الدولة التونسية نُشر بتاريخ 21 مارس 2020: جابالله، سُفيان، "أثرُ الكورونا. موقع أنتلجنتسيا. الرابط الإلكتروني: <https://shortest.link/Q-gtE>

المحور الأول:

في القراءات المُمكنة لأداء الدولة زمن الجائحة

لمحة تاريخية عن الأوبئة في تونس

منال دربالي

تلخيص

كانت أساليب الوقاية والعلاج من الأمراض بدائية إلى حد كبير خلال القرن الثامن عشر، وكان التداوي بالأعشاب أو عن طريق الكي الوسيلة الوحيدة المتداولة والمتاحة آنذاك للعلاج من الأمراض. وبالتزامن مع انتشار الأمراض المعدية مثل الطاعون والكوليرا والحمى التيفية، ساهم الجفاف والمجاعات في تفاقم الوضع، زد على ذلك الفقر والخصاصة وسوء حوكمة البلاد، مما أدى سنة 1864 إلى اندلاع ثورة علي بن غداهم احتجاجاً على الترفيع في قيمة المجبي - أي الضريبة - من 36 ريالاً إلى 72 ريالاً. فكان الوضع الاجتماعي محتقناً بطبعه، ثم زاده انتشار الأوبئة سوءاً. وعموماً، فإن الأوبئة مثل الطاعون والكوليرا تجد الأرضية الملائمة للتوسع والانتشار في ظل غياب النظافة وقواعد حفظ الصحة. فكيف يمكن الحديث عن حفظ الصحة في وقت الجفاف الذي تنحبس فيه الأمطار مما يؤثر سلباً على توفر المياه لري المحاصيل وتأمين الحاجيات الغذائية الأساسية أولاً، ولتنظيف الجسم وأماكن الإقامة ثانياً؟

عند انتصاب الحماية بدأ الوضع الصحي يتحسن من خلال تركيز وحدات طبية في عديد المناطق لمداواة الجنود والمقيمين الأجانب والأهالي. وكانت معظم المستشفيات متركزة في تونس العاصمة وفي المدن الساحلية، وكأنتها تُنذر بتركيز التفاوت الجهوي وتهميش الجهات الداخلية. وتواصلت معضلة التفاوت الجهوي بين المركز والهامش فغدت الانتفاضات الشعبية وأدت إلى ثورة 10 ديسمبر-14 جانفي التي لم تستكمل بعد أهدافها ومازال التفاوت قائماً إلى اليوم.

فما هي أهم المحطات الوبائية التي عرفت تونس؟ وكيف تفاعلت المؤسسات معها؟

Abstract

The means of prevention and treatment of diseases have been rudimentary. At the time, either phytotherapy or the incision of buboes was used to treat illnesses. Apart from natural factors, including famine and drought, poverty and social injustices have worsened the situation. Hence the Revolution of Ali Ben Ghedhahem in 1864 following the doubling of taxes. The social situation was tense and deteriorated further with the epidemics, which found favorable grounds for spreading in deprived areas of sanitation and hygiene.

Under the French protectorate, the health infrastructure improved and was relatively generalized throughout the territory. But the best equipped health establishments are concentrated in Tunis and the coastal regions, which has prevented regional disparities. This problem between the center and the peripheries persisted until the outbreak of the Revolution of December 10 - January 14.

What are the main epidemics that have ravaged the country? And how have the institutions reacted to them?

البشرية متشابهة إلى حد كبير، في جميع الأوقات والأماكن، لدرجة أن التاريخ لا يخبرنا بأي شيء جديد أو غريب في هذا الخصوص . استخدامه الرئيسي هو فقط لاكتشاف المبادئ الثابتة والعالمية للطبيعة البشرية .

"ديفيد هيوم"

مقدمة

يندرج هذا العمل ضمن كراسات المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية بغرض العودة للبحث عن الانعكاسات الاقتصادية لجائحة كورونا على الطبقات الهشة والمُفقرّة والمقاربات التي انتهجتها الدولة لمحاولة تطويق الأزمة ومحاصرة تداعياتها خاصة في ظلّ هشاشة الوضع الاجتماعي المحتقن بطبعه. وقد أصدر المنتدى في وقت سابق كراساً أولاً حول الهجرة وكراساً ثانياً حول سوسيولوجيا الفعل الجماعي في تونس منذ 14 جانفي، فيما يتناول الإصدار الثالث جائحة كورونا من زاوية اقتصادية اجتماعية في وقت تتصاعد فيه المطالب والتحرّكات الاجتماعية وسط إكراهات فرضتها الإجراءات الوقائية من الوباء، مثل فرض حظر التجوّل والتباعد الاجتماعي والإحالة على البطالة التقنية.

ونتناول في الجزء الأول من هذا العمل تاريخ الأوبئة في تونس، إذ لا يمكن الحديث عن وباء كورونا وتفشيّه السريع والإجراءات التي اتخذتها تونس ودول العالم إزاء الوباء وانعكاسات ذلك على الطبقات المُفقرّة دون قراءة متمعّنة في تاريخ الأوبئة وكيفية معالجة الدولة لها، خاصة في ظلّ حكم البايات وخلال الاستعمار. فمن خلال استقراء التاريخ يمكن استخلاص الدروس والاعتبار منها مستقبلاً. حيث عرفت تونس موجات من الأوبئة والأمراض تمثلت بالخصوص في تفشي الطاعون في مرحلة أولى ثمّ الكوليرا، بالتزامن مع المجاعات والجفاف وعديد الجوائح الطبيعية الأخرى والأمراض الموسمية مثل السُّل والحمى التيفية. ولئن أثبتت الدولة الحديثة في المرحلة الأولى من تفشي وباء كورونا عجزها على تأمين الخدمات الطبية والعلاجية اللازمة، فمن البديهي أن يكون الوضع أكثر سوءاً خلال تفشي الطاعون منذ القرن السادس عشر مروراً بالاستعمار، في غياب المرافق الصحية الأساسية.

أهم المحطات الوبائية في تونس

تختلف المصادر في تحديد أول موجة من الأوبئة التي ضربت البلاد التونسية خلال القرون الماضية. وعادةً ما يكون التطرق إليها مرتبطاً بالحديث عن خصوصيات الحقب التاريخية التي مرت بها البلاد. وقد ذكر ابن خلدون في كتاب "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً" أنّ الطاعون قد

اجتاح تونس سنة 1348 في ما يُعرف بـ"الطاعون الأعظم" أو "الطاعون الجارف". وذكر أنه "ذهب بالأعيان والصدور وجميع المشيخة، وهلك أبواي، رحمهما الله [...] كما طوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، حتى خلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل"¹⁹. وقد ارتفع عدد الضحايا في شهر جوان 1349 حيث كان يموت يوميا حوالي 1000 شخص، وتذكر بعض المصادر أنّ عدد الموتى بمدينة تونس بلغ 1202²⁰.

كما عرفت تونس سنة 1592 موجة حادة لوباء الطاعون امتدّت طيلة 3 سنوات وخلفت عديد الضحايا²¹. وقد أُطلق على هذه الموجة الأولى تسمية "طاعون تونس" في إشارة إلى تفشي الوباء بتونس العاصمة. وفي سنة 1624 انتشر الوباء في بنزرت في السجون التي كانت تؤوي العبيد ولكن نسبة انتشار الوباء كانت محدودة إذ لم تتعدّ حدود أسوار السجن. ثمّ تراجعت نسبة الإصابات في حدود سنة 1650 بتونس العاصمة ولكنها اجتاحت مدن الجنوب التونسي بسبب تجارة القوافل على الحدود الجزائرية. ثمّ عاود الوباء الظهور مرة أخرى في العاصمة سنة 1679 وأصاب عددا من المُقرّبين من علي باي الذي تحاشى تشييع جنائزهم مخافة الإصابة بالوباء. وقد تحدّث القنصل الفرنسي بتونس آنذاك عن إصابة ما لا يقلّ عن 400.000 شخص بالطاعون في ذلك الوقت وانتشار المرض في الجزائر والمغرب ووصله إلى إسبانيا. ولكن سرعان ما تراجعت وتيرة انتشار المرض مع ارتفاع درجات الحرارة خلال شهر أوت لتعود من جديد سنة 1689 حيث أُصيب خلالها ما يناهز 60.000 شخصا بالوباء.

وفق منظمة الصحة العالمية فإنّ هذا المرض "تسببه بكتيريا حيوانية المنشأ تدعى اليرسنية الطاعونية وتوجد عادة لدى صغار الثدييات والبراغيث المعتمدة عليها". فهي بكتيريا تعيش في أجسام القوارض مثل الجرذان والفئران وتنتقل إلى الإنسان عبر لدغات البراغيث ممّا يتسبّب في ظهور طفح جلدي ودُمّل وتقرّحات، وهو ما يُطلق عليه "الطاعون الدُّبلي أو الدُّملي" الذي قد يتطوّر إذا لم تتمّ السيطرة عليه ليصيب الرّتين. ويُعدّ الطاعون الرّئوي مرحلة متقدّمة من الطاعون الدُّملي وهو أشدّ فتكا منه وأقلّ منه انتشارا. ووفق منظمة الصحة العالمية، "تظهر عادة على الأشخاص المصابين بعدوى الطاعون أعراض الإصابة بحمى حادة مصحوبة بأعراض أخرى غير محددة تصيب أجهزة الجسم عقب فترة حضانة تتراوح بين يوم واحد وسبعة أيام، مثل الإصابة بالحُمى فجأة وبنوبات قشعريرة وآلام في الرأس والجسم وبالضعف والتقيؤ والغثيان".

¹⁹ عبد الرحمان بن خلدون، "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، 1979

²⁰ زاهر كمون، تاريخ الأوبئة في تونس من الفترة القديمة إلى الحرب العالمية الثانية

²¹ Edouard BLOCH, « La peste en Tunisie : aperçu historique et épidémiologique », Thèse pour le doctorat en médecine, Tunis, 1929.

ولم يكن انتشار الطاعون محدودا في المكان والزمان، ولكنه أصاب مناطق كثيرة في العالم وقضى على ثلث سكان القارة الأوروبية خلال القرن الرابع عشر. ولم تكن تونس بمعزل عن انتشار المرض - كما هو الشأن بالنسبة إلى جائحة كورونا- بل تكبدت خسائر بشرية فادحة.

وبدأت بوادر الوباء بالظهور مجددا خلال سنة 1701، حيث قدمت ثلاث سفن تابعة لمراد باي من تركيا إلى ميناء "كاب فارينة" بمدينة بنزرت بالشمال التونسي وهي تحمل على متنها ما يُناهز ألف جندي كان البعض منهم مُصابا بالطاعون. ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد. ففي سنة 1705 كان الجنود القادمون من طرابلس يحملون معهم الوباء، وأصيب به عدد من عناصر الجيش وانتشر الوباء بسرعة وبلغ عدد الضحايا 700 ضحية يوميا في تونس العاصمة وحدها. وورد في بعض الوثائق للصحفي والناقد الفرنسي جيو ديفونتان Guyot Desfontaines والتي أتت فيها على بعض الإجراءات "الوقائية" التي اتخذها بعض الأهالي آنذاك، حيث يتم إيداع الخبز لدى القرن دون أن يُسمح لأحد بتخطي الحواجز الموضوعه أمام المحلّ خشية انتشار العدوى، كما كانت الحُضراوات والغلال والسّمك والدجاج تُغمس في أكياس مليئة بالماء حتى يتم تعقيمها بالكامل. وكانت تونس العاصمة قد فقدت آنذاك ما يُناهز 44.000 شخصا نتيجة انتشار الوباء. كما كان الموتى يُدفنون في قبور لا يقل عمقها عن مترين بعد أن تُحرق ثيابهم حتى لا تنتقل العدوى بين الأهالي.

ثم بدأ الطاعون بالانتشار في الجزائر بين 1740 و1741، ثم في طرابلس وصولا إلى الجنوب التونسي سنة 1750. ولكن طفرة الوباء كانت خلال سنتي 1784-1785 لدى رسوّ سفينة تحمل 150 حاجا قادمين من الاسكندرية التي تفسّى فيها الوباء سنة 1783. ثم انتشر المرض في البلاد بدءا العاصمة ووصولا إلى المدن الساحلية وارتفع فيها عدد الضحايا إلى 300 يوميا²² وقضى على ثلث عدد متساكني مدينة الكاف فيما سقط بين 50 إلى 80 ضحية في بنزرت. وتذكر مصادر أخرى أنّ سبب تفسّي العدوى هو عبور بعض العناصر العسكرية الوافدة من القسطنطينية (تركيا) إلى تونس خلسة دون الخضوع إلى إجراءات العزل والحجر، ممّا أدى إلى ارتفاع عدد الإصابات.

ونظرا لشُحّ المعطيات الإحصائية حول المرض وتأثيره على التركيبة الديمغرافية، فإنّ المعلومات غير دقيقة حول نسبة الوفيات. حيث تذكر بعض المصادر أنّ الإيالة التونسية قد فقدت خلال الطاعون الأكبر كما اصطُح على تسميته والذي امتدّ طيلة سبعة عشر شهرا من جوان 1784 إلى أكتوبر 1785 ثلث عدد سكانها، فيما ترجّح مصادر أخرى فقدان سدس عدد السكان. ويذكر وكيل قنصل هولندا في الجزائر أنّ عدد الوفيات في مدينة تونس فقط بلغ 300.000، فيما بلغ عدد الوفيات في الإيالة بأكملها مليون ساكن. وتذكر بعض المصادر²³ أنّ من أسباب انتقال العدوى

²² Lucette VALENCI, « Calamités démographiques en Tunisie et en Méditerranée orientale au XVIIIe et XIXe siècle », 1969.

²³ المصدر السابق، P.15 ·Edouard BLOCH

تغسيل الموتى المُصابين بالطاعون وتقبييل جبينهم قبل دفنهم، وهو عُرف متعامل به في بعض الأوساط الثقافية لتوديع الموتى قبل نقلهم إلى مثاهم الأخير.

وقد أثر هذا الوباء في التركيبة الديمغرافية وفي طبيعة الأنشطة الاقتصادية التقليدية التي كان يُمارسها السكّان، حيث اندثرت بعض الأعمال والحرف مثل صناعة الأقمشة والحُصُر والقبعات القطنية بالإضافة إلى تراجع النشاط الزراعي نتيجة الجفاف وعدم توفر البذور. وهو ما أدى إلى هجرة عدد من المتساكنين هرباً من المرض. ثمّ ظهر الطاعون من جديد سنة 1794 ولكن بدرجة أقلّ حدّة وانتشاراً، حيث لم يصل إلى مدن الجنوب والساحل التونسي وامتدّ فقط 6 أشهر. ثمّ انتشر من جديد بنفس الوتيرة إلى غاية سنة 1859.

وبالتزامن مع الطاعون عرفت البلاد التونسية انتشار وباء الكوليرا سنة 1836 بالجنوب التونسي، ولكنّه كان خفيف الوطأة حينئذ ولم يتسبّب في خسائر بشرية حيث كانت الأعراض مقتصرة على إسهال غير حادّ، كما أنّ المرض لم يدُم أكثر من ثلاثة أشهر، رغم أنّه استفحل في كلّ من الجزائر وليبيا. وكانت الإجراءات الوقائية محدودة إذ اقتصر على مراقبة حركة الموانئ متناسية داخل البلاد، في غياب تامّ لإجراءات وقائية صارمة حيث اكتفت السلطة في ذلك الوقت بإجلاء القادمين عبر الموانئ في حين كان التنقّل عبر الحدود البرية مسموحاً به مع طرابلس التي كانت موبوءة خلال تلك الفترة. وفي سنة 1849 انتشر المرض في باجة وتسبّب في وفاة مئات الأشخاص ثمّ بدأ يزحف تدريجياً نحو باقي الجهات مخلّفاً عدداً من الضحايا خاصّة في المناطق الأكثر فقراً. وقد عزل الباي نفسه في قرطاج ثمّ في المحمدية ثمّ انتقل إلى باردو هرباً من المناطق الموبوءة، ثمّ استقرّ من جديد في قرطاج.

وفي جوان 1850 انتشر الوباء في تونس العاصمة وتذكر بعض المصادر أنّ نسبة الوفيات تجاوزت مائة ضحية في اليوم. ثمّ تراجعت وتيرة المرض في جويلية وضمحلّ تماماً في شهر أوت 1850. ثمّ عاد للظهور من جديد خلال صيف 1856 بجنوب البلاد قدومًا من طرابلس ووصل إلى العاصمة في شهر جويلية مُخلّفاً ما يُناهز 6000 ضحية.

ووفق منظمة الصحة العالمية فإنّ الكوليرا "عدوى حادة تسبب الإسهال وتنجم عن تناول الأطعمة أو شرب المياه الملوثة، وهي ما زالت تشكل تهديداً عالمياً للصحة العمومية ومؤشراً على انعدام المساواة وانعدام التنمية الاجتماعية". ووفق المصدر ذاته فإنّ الكوليرا انتشرت خلال القرن التاسع عشر في جميع أنحاء العالم انطلاقاً من موطنها الأصلي في دلتا نهر الغانج بالهند. وانتشرت بعد ذلك ست جوائح من المرض حصدت أرواح الملايين من البشر عبر القارات كلها. أما الجائحة السابعة فقد بدأت في جنوب آسيا في عام 1961 ووصلت إلى أفريقيا في عام 1971 ومن ثمّ

إلى الأمريكتين في عام 1991". وتمّ اكتشاف المرض سنة 1883 عن طريق الطبيب الألماني "روبرت كوخ" (Robert Koch) من خلال تحليل الفضلات البشرية للمصابين.²⁴

وفي سنة 1911، عاود المرض الانتشار خاصّة داخل الأحياء الشعبية في تونس العاصمة في شهري سبتمبر وأكتوبر، حيث تفتقر هذه الأحياء إلى شروط النظافة وحفظ الصحّة. وتمّ إحداث مركز لعزل المصابين بهذا المرض وإيوائهم في منطقة حلق الوادي. ثمّ ظهرت موجة أخرى من المرض سنّي 1911 و1947 دون تسجيل خسائر بشريّة. ثمّ عاد الطّاعون بقوة إلى تونس سنة 1926 بدءا بالجنوب التونسي بسبب قوافل التجارة وخلف إصابة 252 شخصا في القيروان منهم 68 حالة وفاة، فيما تمّ تسجيل 232 إصابة بصفاقس منها 160 حالة وفاة.²⁵ وبعد سنة، ظهر المرض مرة أخرى في صفاقس مخلفا 68 حالة وفاة بسبب الطاعون الدّملي من جملة 179 إصابة و47 حالة وفاة بسبب الطاعون الرّئوي.

تعامل الدّولة ومؤسساتها مع الأوبئة بين القرن الثامن عشر وسنة 2020

تتقاطع بعض المصادر في توصيف الدّور الذي لعبته مؤسسات الدّولة خلال المحطّات الوبائيّة المختلفة التي مرّت بها البلاد، خاصّة فيما يتعلّق بتطبيق الحجر الصّحيّ وغلاق الحدود ومنع التنقّل أو الحدّ منه، ومدى تطابق سياسات الدّولة وتعليماتها مع الممارسات الاجتماعيّة السائدة، فخلال تفشّي الطاعون سنة 1784 يتحدّث أحمد بن أبي الضّياف عمّا خلفه المرض من خسائر ماديّة وبشريّة وعن تعامل حمّودة باشا مع هذا الوباء: "وفي سنة [...] 1783، وقع بالمملكة طاعون جارف، وهو المعروف عند أهل الحاضرة بالوباء الكبير، مات بسببه أعيان من الحاضرة، وأثر في عمران البلاد نقصا فادحًا. وفي أوّل ظهوره صدر أمر من الباي بحرق ثياب الموتى وكسوتهم وغلقيها، وغسل الغرباء بالمقابر، وسجن مرضاهم بمخازن القلايين"²⁶. وهنا تتجلّى ضوابط السياسة الصحيّة التي أقرّها حمّودة باشا التي تتقاطع مع ما أقرّته الدّولة الحديثة من قرارات تتعلّق بالحجر الصّحيّ الإجباري وكيفية دفن الموتى التي صدر في شأنها بروتوكول يحترم قواعد الدّفن مع مراعاة التباعد الاجتماعي ومنع التقارب الجسدي مع الجثث المصابة بالوباء. ويتحدّث ابن أبي الضّياف عن تفاعل الأهالي مع أساليب الدّولة في محاصرة انتشار المرض بقوله "وضجّ الناس من حرق ثيابهم، والباي مجتهد في ذلك، فكلمه الشّيخ المفتي العالم [...] بأن لا يجمع على الناس مُصيّتيّ النفس والمال، والواجب الاستسلام لقضاء الله وقدره". فالمُلاحظ أنّ السكّان لم يتقبّلوا السياسة الوقائيّة التي انتهجها الباي، تماما مثل ما حصل من انفلات خلال الفترة الأولى من الحجر الإجباري خلال شهر

²⁴ Ahmed BEN MILED, « Histoire de la médecine arabe en Tunisie durant dix siècles », p.143

²⁵ المصدر السابق، ص.40

²⁶ أحمد بن أبي الضّياف، المصدر السابق، ص.14

مارس 2020، حيث كان بعض الأفراد ينتقلون بشكل طبيعي ويتبادلون الزيارات العائلية في استخفاف تام بما فرضته الدولة من تعليمات.

كما عرفت البلاد تداخلا بين الخطاب الديني والخطاب العقلي تجسّد وفق ما ذكره المؤرّخ حسين بوجرة في كتابه "الطاعون وبدع الطاعون"²⁷ بين ثنائية سلطة الفقيه وسلطة الطبيب. ويتحدّث ابن أبي الضياف في هذا السياق عن تصرّف السلطة السياسيّة والدور الذي لعبته السلّطة الدينيّة عندما اجتاحت الطاعون البلاد سنة 1818. يقول صاحب الإتحاف: "[...] وقع في الحاضرة طاعون [...] وافترق الناس في هذا الطاعون إلى قسمين: قسم يرى الاحتفاظ وعدم الخلطة بالعمل المُسمّى "كارنتينة"، وربّما ساعدته بعض ظواهر من الشرع، كقوله صلّى الله عليه وسلّم "لا عدوى ولا طيرة"، و "فرّ من المجذوم فرارك من الأسد. [...] وعلى هذا جماعة من كشيخنا أبي عبد الله محمّد بن محمّد بن محمّد بيزم. [...] ومن القسم الثاني أبو عبد الله حسين باي فقد كان يسخر بأصحاب الكرنطينة ويقول لهم "لا مفرّ من القدر"، ويدور أزقة الحاضرة وحرارة اليهود، لكثرة المرض بها"²⁸. وهنا تتجلّى ثنائية القدريّة والجبريّة، حيث يعتبر جزء من الفقهاء أنّ الإنسان مسؤول عمّا يُصيبه من أفعال، فهو بذلك يصنع قدره، فيما يرى الشقّ الآخر أنّ الإنسان مُجبر على أفعاله، إذ لن يُصيبه إلا ما كتب الله له. ومن بين الإجراءات التي اتّخذتها الدولة خلال جائحة كورونا هي منع صلاة الجماعة وغلق أبواب المساجد احتراماً للتباعد الاجتماعي ودرءاً لمُسببات العدوى.

وقد تمّ إحداث مركز العزل الذاتي أو ما يُعرف بالكرنتينة قرب حلق الوادي حيث يتمّ عزل السّفن التي توجد بها إصابات مدّة 15 يوما. إضافة إلى ميناء حلق الوادي، كان الحجر الصحي يطبق بجزيرة زمبرة خاصة على الحجيج العائدين من مكة والمصابين بمرض "الكوليرا" وذلك لمدة 40 يوماً، وخصّص السجن المدني بتونس لحجز المرضى بوباء الطاعون سنة 1930²⁹. كما التجأ السكان إلى الطبّ الشعبي والمداواة بالأعشاب وغيرها من الأساليب التي سنأتي على ذكرها في الجزء الموالي.

البنية التحتيّة الصحيّة من القرن الثامن عشر إلى ما بعد 2011

لم تكن البنية التحتيّة الصحيّة خلال القرن الثامن عشر مهيّأة لاستقبال المرضى ولم تكن هناك كفاءات طبيّة بإمكانها مداواة المصابين، إذ يقتصر تدخل الأطباء على تشخيص المرض دون علاجه. وكانت أساليب العلاج خلال القرن الثامن عشر وتحديدا في سنة 1785 تقتصر على اعتماد وسائل تقليديّة مثل الكيّ والمُقيّئات les vomitifs وفتح الدُمّل، وهي وسائل بدائيّة لا يمكنها القضاء

²⁷ حسين بوجرة، الطاعون وبدع الطاعون: الحراك الاجتماعي في بلاد المغرب بين الفقيه والطبيب والأمير (1800-1350)، سلسلة أطروحات

الدكتوراه، مركز دراسات الوحدة العربيّة

²⁸ أحمد بن أبي الضياف، المصدر السابق، ص.ص 127-128

²⁹، 18 أفريل 2020 عائد عميرة، هكذا تعامل التونسيون مع الأوبئة عبر التاريخ

على المرض والوقاية منه. كما اعتمد بعض السكّان على تناول القوارص والبصل والخلّ وتبخير البيوت بغاية تعقيمها. فيما لجأ آخرون إلى الدّعاء وأداء الصلّوات لدرء الأوبئة التي عدّت عقابا إلهيا على تفشّي الفساد في المجتمع، وساهم الفقهاء وممثّلو السلطة الدينيّة في تغذية هذه الممارسات من خلال حثّهم على الصّبر والتسليم بقضاء الله³⁰.

ولم يكن بيد السكّان من حلول غير الهروب أو الالتزام بإجراءات الحجر والعزل. ولكنّ الممارسات الاجتماعيّة السائدة آنذاك لم تكن تحترم التباعد الاجتماعي في إطار الزيارات العائليّة وعبادة المرضى ودفن الموتى وإحياء المناسبات الدينيّة وارتياح دور العبادة وغير ذلك من المناسبات التي تكون فرصة لانتشار المرض، خاصّة الطاعون الرئوي الذي ينتشر من الإنسان إلى الإنسان من خلال استنشاق الرّذاذ المنبعث من الجهاز التنفّسي لحامل هذه البكتيريا. فالطبيعة الاجتماعيّة للإنسان لم تكن تتقبّل فكرة الانخراط في العزل الذاتي والالتزام بالحجر الصّحي داخل البيوت. أضف إلى ذلك عدم تطبيق قواعد الصّحة والنظافة العامّة الذي يعود إلى غياب المرافق الضرورية وندرة المياه النّظيفة التي تُستعمل للتعقيم.

كما أنّ الإجراءات الوقائيّة مثل العزل ومراقبة تحرّك الوافدين من وإلى الإيالة التونسيّة خلال القرن الثامن عشر لم تكن موجودة، بالإضافة إلى غياب مراكز إيواء لتطبيق الحجر الصّحي على المصابين واحتواء المرض ومنعه من الانتشار. فالوسائل الوقائيّة تكاد تكون منعدمة، باستثناء وجود مركز وحيد تمّ إنشاؤه في جزيرة "شكلي" في بحيرة تونس حُصّص لإيداع البضائع. كما يخضع الوافدون من المناطق الموبوءة إلى العزل الإجباري أو يتمّ إجلاؤهم من حيث أتوا، وهو الإجراء الأكثر تطبيقا. ولكنّ هذه الإجراءات الوقائيّة تتطلّب استباقا وتنسيقا ووسائل اتّصال متطورة تُمكن من تبادل المعلومات بشكل حيويّ، وهو أمر غير مُتاح آنذاك. كما أنّ الدولة لم تكن قويّة في الحفاظ على صّحة سكّانها الذين لم ينصاعوا لأوامر الباي بالالتزام بقواعد النظافة وحفظ الصّحة والعزل الذاتي. فما كان منهم إلا أن لاذوا بالفرار، ممّا أثر في تراجع النشاط التجاري إثر إغلاق عدد من المحلات التجاريّة الصغيرة.

ومع انتصاب الحماية الفرنسيّة سنة 1881 بدأ تركيز المستشفيات العسكريّة داخل التراب التونسي، بدءا بجهة الكاف على الحدود الجزائريّة سنة 1882³¹ لتأمين العلاج للمصابين من الجنود. كما تمّ إحداث مركز استشفاء بمنطقة عين دراهم من ولاية جندوبة وإحداث المستشفى العسكري بقابس في 10 ديسمبر 1882 ووحدات صحيّة بكلّ من مدينين وتطاوين سنة 1888، بالإضافة إلى إحداث 41 مستوصفا موزّعة على مختلف المناطق شمالا وجنوبا. وتذكر بعض المصادر أنّ الإيالة التونسيّة كانت تعدّ 19 طبيبا مؤهّلا من الجامعات الأوروبيّة عند انتصاب الحماية الفرنسيّة 16 منهم

³⁰ زاهر كّمون، المصدر السابق

³¹ Benoît GAUMER, « L'organisation sanitaire en Tunisie sous le Protectorat français (1881-1956) », pp.196,197

من يمارسون المهنة في تونس العاصمة³². كما أنشأ الفرنسيون 5 صيدليات فيما كانت توجد صيدليتان أو ثلاث فقط تونسية. وشهدت تلك الفترة تعايشا بين نمطين مختلفين من الطب، الطب الأوروبي والطب "العربي" كما يُصطلح على تسميته. وحسب شهادة الطبيبة ومديرة المركز الوطني للبحث العلمي CNRS آن ماري مولان، لا يوجد فرق شاسع بين الطب العربي وطرق العلاج الأوروبية في ذلك الوقت.

وفي سنة 1892 كان عدد الأطباء المسموح لهم بممارسة المهنة في تونس يناهز 106 طبيبا، منهم 47 متخرجا من أوروبا يزاولون عملهم إما بالعاصمة أو بالمناطق الساحلية، فيما يتم توزيع البقية ممن ليسوا خريجي المؤسسات الجامعية الأوروبية على باقي المناطق. كما تطورت طرق التشخيص والعلاج منذ سنة 1903، حين تمت إعادة تأهيل مركز باستور وإحداث مخبر تحاليل لأخذ عينات من القوارض التي قد تكون ناقلة للطاعون سنة 1907. وبين 1920 و1921 بدأ اعتماد لقاح للوقاية من الطاعون تم تطويره في مخبر معهد باستور بباريس.

وكان قطاع الصحة العمومية مرهقا خاصة إثر الحرب العالمية الثانية التي تسببت في تدمير مراكز الصحة مما استوجب إعادة تأهيلها وتجهيزها من جديد. ويُذكر في هذا السياق أنّ إدارة الصحة العمومية التي كانت تشرف عليها فرنسا قد تلقت آنذاك بين 1945 و1946 223 مليون فرنك فرنسي لإعادة تأهيل القطاع، ولكن دون أن تنعكس هذه المصاريف على جودة الخدمات الصحية.

والملاحظ أنّ الخدمات الصحية بدأت تأخذ ملامحها نحو تكريس التفاوت الجهوي منذ الاستعمار وما تخلّله من أضرار خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية. حيث تمّ التفكير في الابتعاد عن المركز في اتجاه الأطراف، وذلك من خلال إحداث مخبرين فرعيين لمعهد باستور، أحدهما في سوسة سنة 1922 والآخر في صفاقس سنة 1925. ثمّ تمّ إحداث المستشفى الجهوي بسوسة سنة 1935 الذي تطوّر عدد أسرته من 150 إلى 541 بين 1948 و1953. أمّا مستشفى صفاقس فقد تطوّرت طاقة استيعابه هي الأخرى من 219 إلى 300 سرير خلال نفس الفترة.

وبحلول سنة 1953، كانت البلاد التونسية تضمّ 41 وحدة صحية موزعة على مختلف المناطق بطاقة استيعاب متفاوتة، حيث يؤوي مستوصف باجة 100 سريرا فيما يحتوي مستوصف القيروان على 95 سريرا والمنستير 80 سريرا. أمّا تونس العاصمة فقد كانت أكثر حظوة من بقية الجهات، حيث تمّ إنشاء مستشفى شارل نيكول بطاقة استيعاب تصل إلى 450 سريرا سنة 1898، ويضمّ قسما للتوليد أحدث سنة 1908 وقسما للتصوير بالأشعة أحدث سنة 1910. أمّا مستشفى إرنست كونساي الذي أصبح فيما بعد مستشفى الرابطة فهو يحتوي على 180 سريرا موزعة على تسعة أجنحة، ويحتوي مخبرا للتحاليل و21 غرفة معزولة لإيواء المصابين بالأمراض سريعة العدوى

³²المصدر السابق، ص.205

مثل الطاعون والكوليرا والحمى التيفودية. كما يضمّ المستشفى وحدة تعقيم ووحدة تطهير لإعادة تدوير المياه المُستعملة. وتمّ إحداث مستشفى منوبة للأمراض العصبية سنة 1900 بطاقة استيعاب تُقدَّر بـ 200 سرير. كما بادر عدد من الأطباء المنتسبين إلى الديانة اليهودية ومن ذوي الأصول الإيطالية إلى إحداث وحدة صحية سنة 1894 تقدّم خدماتها للجالية اليهودية بتونس هي "المستشفى الإسرائيلي بتونس" الواقع بحي الحارة في ساحة الحلفاوين بتونس العاصمة. وبحلول سنة 1953، أصبحت تونس العاصمة تضمّ 4 مستشفيات هي على التوالي مستشفى شارل نيكول بطاقة استيعاب تناهز 946 سريرا، ومستشفى عزيزة عثمانة الذي كان يُسمّى المستشفى الصادقي نسبة إلى الصادق باي بطاقة استيعاب تُقدَّر بـ 415 سريرا، ومستشفى الرابطة بـ 423 سريرا ومستشفى حبيب ثامر³³ بطاقة استيعاب 334 سريرا.

التفاوت الجهوي بين المركز والأطراف

تعمّقت الفوارق بين الجهات شيئا فشيئا من حيث التركيبة الديمغرافية ونوعية الأنشطة الاقتصادية والبنية التحتية. فنجد المناطق الداخلية تعاني صعوبات على مستوى النفاذ إلى المرافق الصحية والتمتع بجودة الخدمات الصحية. ويمكن تصنيف جودة الخدمات الصحية حسب ثلاث مستويات³⁴:

- عدد الصيدليات على كلّ ألف ساكن
- عدد الأسرة على كلّ ألف ساكن
- عدد الأطباء على كلّ ألف ساكن

وفي سنة 2017، بلغ عدد الصيدالدة في كامل تراب الجمهورية 2615، فيما بلغ عدد الأطباء بالنسبة إلى نفس السنة 14892، منهم 5685 بإقليم تونس الكبرى كأعلى معدّل، و560 طبيا بالجنوب الغربي كأدنى معدّل³⁵. أمّا العدد الجملي للأسرة فيبلغ 26715 سنة 2017، من بينها 2534 بالشمال الغربي و6602 بالوسط الشرقي³⁶.

وتقتضي مكافحة الأوبئة ومنع انتشارها حدّا أدنى من احترام قواعد حفظ الصحة مثل تنظيف الجسم وتعقيم الأسطح والثياب والمأكولات وغير ذلك، الذي يُحيل ضرورةً على توفير المياه النظيفة. ولكن من ناحية أخرى، تطرح مسألة الحصول على الماء الصّالح للشرب معضلة أخرى، إذ أنّ التزوّد

³³ كان يُسمّى مستشفى غاربالدي استعادته الحكومة التونسية إثر الحرب العالمية الثانية وأطلق عليه آنذاك اسم "ليبيراسيون" في إشارة إلى "تحريره" من إيطاليا وإعادة استخدامه من قبل السلطة الفرنسية

³⁴ Institut Tunisien de la Compétitivité et des Etudes Quantitatives, «Inégalités régionales en Tunisie », p.7
URL : <http://www.itceq.tn/wp-content/uploads/files/notes2014/inegalites-regionales-en-tunisie.pdf>

³⁵ Ministère de la Santé, « Santé Tunisie en chiffres 2017 », p.93

³⁶ المصدر السابق، ص.72

بالماء لم يشمل مختلف الجهات، فحسب معطيات المعهد الوطني للإحصاء لسنة 2017 فإن 300.000 تونسي لا يتمتعون بالماء الصالح للشرب منهم 10% في المناطق الريفية. كما يذكر المصدر ذاته أن قرابة 290.000 مقرّ سكنى على كامل الجمهورية ليس موصولاً بالماء³⁷. حيث تُقدّر نسبة التزوّد بالماء الصالح للشرب في تونس والمنستير تباعا بين 99.9% و97.9%. بينما لا تكاد تصل إلى عتبة 50% بالنسبة إلى ولايات أخرى مثل سيدي بوزيد التي تبلغ نسبة التزوّد بالماء الصالح للشرب بها 27.3% وجندوبة 31.2%³⁸.

نستنتج هنا أنّ الدولة التونسية تحمل أوزار حقب تاريخية متتالية ساهمت في تعميق الفوارق الاجتماعية بين المركز والهامش، بحيث عجزت الدولة الحديثة بمؤسّساتها وقوانينها عن توفير مقوّمات العيش الكريم لأبنائها. ولم تكن أزمة كورونا سوى وسيلة لمزيد تأكيد هذه الفوارق خاصّة مع تفسّي احتكار الموادّ الغذائية وإحالة العديد على البطالة الفنية. ولئن قرّر رئيس الحكومة إجراءات وصفها بالاستثنائية مثل تخصيص 100 مليون دينار إضافية لفائدة الفئات الهشة وإسناد 100 دينار إضافية لفائدة المتقاعدين الذين لا تتجاوز جراياتهم 180 ديناراً، وتعزيز المخزون الاستراتيجي من المواد الغذائية والطاقيّة والأدوية بما قيمته 500 مليون دينار³⁹، إلا أنّ هذه القرارات لا تُعتبر استثنائية إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الوضعية الصعبة لهذه الفئات قبل تفسّي الوباء.

فالوضعية الاقتصادية متشعبة، خاصّة مع تغلغل الاقتصاد الموازي الذي يُشغّل 58.8% من العمّال وفقاً لمعطيات المكتب العالمي للشغل، بالإضافة إلى تراجع نسبة الناتج الداخلي الخام بين 4 و5% نتيجة تعطلّ الإنتاج في إطار الإحالة على البطالة الفنية وإقرار إيقاف العمل بالنسبة إلى عدّة قطاعات تدخل ضمن الأعمال الحرة تسمّى صغار التجّار والحرفيين وأعاون النّظافة وعمّال المقاهي والمطاعم وغيرهم. وفي ظلّ تراجع نسبة الناتج الداخلي الخام قد تصل نسبة البطالة وفق المحلّل الاقتصادي عبد الجليل البدوي إلى 20%، ممّا يستوجب إيجاد حلول استثنائية تأخذ بعين الاعتبار تبعات فترة الحجر الصحي على الفئات الهشة. ومن بين هذه الإجراءات يتحدّث عبد الجليل البدوي عن ضرورة توفير موارد إضافية انطلاقاً من مصدر الثروة المتمثلة في أصحاب رؤوس الأموال ومحاربة التمربّ الضريبي وإيقاف توريد الموادّ غير الضرورية من خلال مراجعة الاتّفاقيات التجارية

³⁷ Haifa MZALOUAT, « l'accès à l'eau, une injustice répartition », Inkyfada, 6 mars 2019

URL : <https://inkyfada.com/fr/2019/03/06/tunisie-eau-potable-chiffres/>

³⁸ Mohsen KALBOUSSI, « Accès à l'eau en Tunisie : quelles disparités ? », Nawaat, 26 juin 2017

URL : <https://nawaat.org/portail/2017/06/26/acces-a-leau-en-tunisie-quelles-disparites/>

³⁹ نواة في دقيقة"، نشریات كوفيد 19، موقع نواة، 03 أفريل 2020

URL : <http://nawaat.org/portail/2020/04/03/%d9%86%d9%88%d8%a7%d8%a9-%d9%81%d9%8a-%d8%af%d9%82%d9%8a%d9%82%d8%a9-%d9%83%d9%88%d8%b1%d9%88%d9%86%d8%a7-%d9%81%d9%8a-%d8%aa%d9%88%d9%86%d8%b3-%d9%86%d8%b4%d8%b1%d8%a9-8-%d9%81%d9%8a/>

مع الصّين وتركيا وغيرهما، مع ضرورة مراجعة الامتيازات الجبائية المرصودة للشركات والمؤسسات في ظلّ غياب الاستثمار.

خاتمة:

ما من شكّ في أنّ الأوبئة تلحق الأذى بمختلف الفئات الميسورة منها وضعيفة الحال، ولكنها حتما تكون أشدّ وطأة على من يفتقرون إلى وسائل الوقاية والعلاج. وقد عرفت تونس في فترات تاريخية متقاربة موجات وبائية خلّفت أضرارا مادية وبشرية كبيرة كانت متزامنة مع المجاعات والجفاف والفقر. وقد اجتاح الطّاعون تونس في مناسبات عديدة لعلّ أكثرها عنفا طاعون 1784-1785 الذي راح ضحيّته ثلث عدد سكّان البلاد، فيما كانت الكوليرا أخفّ وطأة حيث لم تُعمّر كثيرا نظرا للتطوّر النسبي على مستوى الممارسات الاجتماعية الوقائية. ولكنّ النّفاذ إلى المرافق الأساسية خاصّة على مستوى التزوّد بالمياه الصالحة للشرب كان يساهم في تفشّي الأوبئة والأمراض نظرا لعدم الالتزام بقواعد النّظافة وحفظ الصّحة، بالإضافة إلى هشاشة البنية التحتيّة الصحيّة التي كانت متركّزة في العاصمة وفي المدن الساحليّة منذ انتصاب الحماية الفرنسيّة إلى الآن. حيث أحدث نظام الحماية مستوصفات ووحدات صحيّة مُجهّزة بتونس العاصمة و صفاقس وبنزرت، في حين كانت المناطق الداخليّة تفتقر إلى هذه الخدمات الصحيّة. ومع أزمة كورونا الحاليّة وضعت تونس نفسها أمام حجم التحديات التي تنتظرها صحيا واقتصاديا وغذائيا وأمنيا في ظلّ وضع اجتماعيّ محتقن نتيجة هشاشة البنية التحتيّة وغياب العدالة الاجتماعيّة.

هوموستازية المجتمع المختل أو في تضاعف إقصاء الهامش زمن الحدث الوبائي؛ قراءة أنثروبولوجية.

حسام سعاد

تلخيص

تشكل كل المجتمعات البشرية من مجموعة هرميات اجتماعية، اقتصادية وثقافية، تحتوي كل منها على مركز وهامش ما، أي على أنماط مختلفة من الاندماج في النسق المجتمعي ككل. اليوم في تونس ومع كل ما سببته الجائحة التاجية من تغير جذري في السلوك اليومي لمختلف فئات المجتمع، بان بشكل جلي هذا الاختلاف في درجات الاندماج من خلال مختلف الرهانات التي تطلب على الفئات الهشة والهامشية مواجهتها. يقدم هذا المقال صورة عامة لبعض خصائص تشكل المجتمع البشري عامة وأثر ذلك على الفئات الهامشية خصوصا في فترات الاضطراب المحيطي، أي تلك اللحظات التي يواجه فيها المجتمع تحديات جديدة تفرض عليه تعاونا شاملا بين كل الفئات لحلها.

Abstract

All human societies are composed of social, economic and cultural pyramids, each one contains a center and a certain margin meaning following different patterns of integration in the societal pattern as a whole. Today in Tunisia and despite all the paradigm shifts in daily behaviour of social classes caused by the pandemic. In a nutshell, this difference in degrees of integration through different challenges that these vulnerable and marginalized categories of the society go through. This article presents a general overview describing some of the characteristics that compose human kind, and their effects in marginalized categories especially during phases of environmental disfunctions, namely these moments where society faces serious challenges that impose total cooperation between all categories.

وجدت الطواغين فالعالم بقدر وجود الحروب. ولكن حين تأتي هذه الاخيرة من جديد فإنها تجد الناس معدمين في كل الحالات .

"ألبار كامو، الطاعون"

مقدمة

لم يكن الأكثر تشاؤماً من بين أصدقائي قادراً على تخيل أننا سنختبر جائحة عالمية أول هذه السنة. ترتبط هذه الأحداث، عند معظمنا، بمُخيلتنا السينمائية أو الفنتازيا التي تعرض نهاية العالم بطريقة مشهوية. وقد صارت بالفعل هذه المُتخيلات رائجة في عصرنا، وسهلت الاستحضار، كما يؤكد "مارك فيشر"، حين يُقرّ أن "تخيل نهاية العالم أسهل من تخيل نهاية الرأسمالية"⁴⁰. ورغم أن الحجر الصحي بدا أول الأمر استتباعاً منطقياً لمتطلبات التوقي من الجائحة، إلا أنه كان مرفوقاً بشيء من الغرابة التي جعلت فهمه عسيراً. هنا تكمن المُفارقة التي عاشها جيلي؛ إذ تأكدنا، رغم ألفتنا بمنتوجات ثقافية تصور نهاية العالم، أن برغسون كان على صواب حين أعلن بأن الواقعي أكثر مُفاجأةً من الخيالي، حين مُعاينته عن قرب.⁴¹

كنت كالجميع، أتابع ما يحدث بهوس مُتصاعد، خصوصاً خلال الأسبوعين الأولين. لا يُمكن إنكار أن الإنسان، مهما كانت صفته وتجزّره السياقي، غير قادر على تجنب الحاجة الذهنية المُلحة لفهم ما يحدث حوله، خصوصاً إذا تبين له، ولو حدسياً، أن أمراً مُريباً قيد الوقوع. لكن، وبعد فترة قصيرة، وخصوصاً بعد مُشاهدة فيديو⁴² الفيزيائي الفرنسي أوريليا بارو (A. Barau) الذي اعتبره أحد اللحظات الفارقة التي أحدثت تغييراً مُهماً في الطريقة التي صرت أتمثل من خلالها مجريات الأحداث، بدأت بتفحص مشروعية الأفق السلوكي للمُقدّمات التي تدفعني كبشري، وتدفع البقية مثلي في مثل هذه الأوضاع. حملتني هذه الوقفة إلى تحويل إطار اختباري لهذا الحدث من خلال تنزيل تجريبي الفينومينولوجية أولاً في إطار تجريبي كتونسي، المُتجذرة في سياق جغرافي، اجتماعي، سياسي، ديمغرافي واقتصادي مُعين، ثم في إطار رهانات طالب أنثروبولوجيا، يحاول فهم هذه التجربة الإنسانية العينية في كليتها، وبجميع أبعادها. قد يبدو هذا الهدف طموحاً جداً. وهذا مُصيب بلا ريب. حيث يتطلب عمل مُماثل سنوات بحث ما بعديا، وتعاوناً يدمج كل الاختصاصات المعنية؛ لتحصيل المُعطيات الميدانية أساساً، وتأليفها ثانياً. ولكن، مسار الألف ميل يبدأ بخطوة.

⁴⁰ Fisher (Mark), Capitalist Realism: Is There No Alternative? U.K, Zero Books, 2009. P81.

⁴¹ Bergson (Henri), La pensée et le mouvant, « Le possible et le réel » (Essai publié dans la revue suédoise Nordisk Tidskrift). 1930.P104.

⁴² <https://www.youtube.com/watch?v=kWYn5isgZ8M&t=61s> 2020 نشر الفيديو في 7 افريل 2020 و عاينته في 8 افريل 2020

على هذا الأساس، تكون الكتابة في إطار هذا الكُراس واحدة من تلك الخطوات. حيث يطمح هذا الكُراس أولاً إلى إلقاء الضوء على الوضعية الاقتصادية للهامش الاجتماعي التونسي خلال مدة الحجر الصحي، ثم يرغب في توفير الفضاء للباحثين الشباب لتقديم رؤاهم بخصوص السياق العام التونسي من خلال تصوراتهم في هذا الخصوص.

وعلى هذا، سأقترح عليكم هذا المقال الذي يُكثف ملاحظاتي الأولية ومُطالعاتي خلال الفترة السابقة، والذي يعكس كذلك تصورا ومشروعا بحثيا قيد التشكل في ذهني منذ فترة سابقة. هذا المقال ليس بالمقال العلمي التقليدي، ولا يأخذ في الحسبان نفس رهانات الصرامة المنهجية المعتادة، ولكنه في نفس الوقت، يطمح أن يكون قراءة أولية قادرة على توفير الحد الأدنى من الفهم لبعض مكونات هذه التجربة الاجتماعية الاستثنائية. على هذا أود في هذا المقال العودة إلى الآليات التي اشتغلت بها ما يمكن تسميته أذفاق توزيع الطاقة داخل نسق ديناميكي خلال فترة الجائحة التاجية في تونس. والطريقة التي تدبرتها الدولة، باعتبارها المُسيطر الإجرائي والشرعي الأساسي، على هذه الأذفاق.

مدخل منهجي.

نظرا للسياق الحالي، وكما ذكرت بدايةً، فإن المقال لا يعتمد على مُعطيات مُحصّلة بالرجوع إلى الوسائل المنهجية المُعتادة. ولكن، ومن خلال القراءة الأنثروبولوجية والجهاز المفهومي اللذين أعتدتهما، فإن تبرير جدية المقال رغم غياب المُعطيات الميدانية المباشرة تظل مُمكنة؛ أولاً من خلال التمييز بين الإثنوغرافية والأنثروبولوجيا. ثم، ونظرا لأن القراءة التي أقدمها ذات طموح ماكرو-اجتماعي، تخص وضعية الفئات الهامشية عامة- باعتبار أنها تتشارك سياقات بنوية مُشابهة- فإن المُعطيات المُتاحة، من خلال المقالات، الأخبار وكل المصادر المشابهة، كافية لهذا الغرض.

الأنثروبولوجيا ليست الإثنوغرافيا.

تُستعمل عادة الأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا كمصطلحات بديلة لبعضها البعض. وفي ذلك بعض الخلط الذي يجب حلّه منذ البداية. يُعرف تيم انغولد (Tim Ingold) الإثنوغرافية باعتبارها مُقاربة منهجية ميدانية، تهدف إلى وصف أنماط الحياة اليومية لمجموعة بشرية ما، في كليتها وشمولييتها⁴³. طوّرها بدايةً الأنثروبولوجيون، على رأسهم مالينوفسكي، لدراسة المُجتمعات المعزولة والبعيدة، التي كانت تُصنّف على أنها "بدائية" أو "همجية". وتعتبر المُلاحظة بالمشاركة أحد أهم المناهج التي تستعمل الإثنوغرافية. تبنّت عدّة اختصاصات أخرى، على رأسها السوسولوجية النوعية، المُقاربة المنهجية واستعملتها كلّما أرادت تحصيل معرفة ميدانية نوعية مُعمّقة حول

⁴³ Ingold (Tim). "Anthropology is not Ethnography". Proceedings of the British Academy 2008. 69-92. P1.

المجموعة البشرية المدروسة. في المقابل، يُعرّف انغولد الأنثروبولوجية بأنها دراسة عامة مُقارنة ونقدية، تهدف إلى فهم الإنسان والعالم الذي يعيشه⁴⁴. أمّا موريس بلوخ (Maurice Bloch) وريتا استوتي (Rita Astuti)، فيعرّفانها على أنّها الإطار المعرفي الذي يطمح إلى التنظير حول النوع الإنساني في عمومياته⁴⁵؛ أي صياغة نظرية شاملة حول الإنسان المُنتفح على بيولوجيته، سيكولوجيته، مُجتمعه وثقافته بجميع أبعادها.

تُعتمد الأعمال الاثنوغرافية عادةً كأسس للقراءات الأنثروبولوجية، ولكن لا يُشترط منهجياً أن تكون أولاً؛ مُحصّلة من قبل الأنثروبولوجي نفسه، في كل أعماله. ثمّ، ثانياً، يُمكن للأنثروبولوجي أن يعود إلى مُعطيات مُحصّلة في عدّة فضاءات معرفية أخرى، كسيكولوجيا، البيولوجيا، علم السلوك، الاقتصاد... إلخ. لتشكيل تصور شامل حول الظاهرة المعنية والمرغوب دراستها.

على ذلك، يُقصد بالقراءة الأنثروبولوجية في هذا السياق، تنزيل الموضوع المُراد دراسته في إطار معرفي يطمح لتقديم بعض الملاحظات العامة التي تخص السلوك الإنساني، بجميع مُقدماته البيولوجية، الاجتماعية، الثقافية الخ، انطلاقاً من سياق التجربة التونسية زمن الجائحة التاجية، ووضعها في سياقها العالمي. فعلى أهمية البُحوث الميدانية، التي تلامس المُعاش اليومي الفعلي، فإنّ الطموح النظري للأنثروبولوجيا يتعلق بإدراك بنية التعقيد النسقي في كل الظواهر البشرية، انطلاقاً من خصوصياتها، وتحقيقها في مختلف الوضعيات من أجل فهم أفق الممكن البشري؛ وفهم الأسس التي يتشكل في حدودها. وقد صار الأمر أكثر إلحاحاً في زماننا هذا بعد أن بلغت النسبوية المعرفية- في شكلها المابعد حداثي-درجة من العجز النظري، وصارت غير قادرة كنموذج معرفي على توليد أفكار نقدية جذرية، في ظرف صار فيه مصير الوجود الإنساني على المحك.

السياق العالمي للجائحة التاجية.

في مقال نشر في فيلوماغ، ترجمته في جريدة المرسل بعنوان " نفتقر إلى المخيال الكافي لفهم ما يحدث لنا"⁴⁶، قدم الأنثروبولوجي الفرنسي فريدريك كيك (Frederic keck) تصوراً مفصلاً عن السياق العالمي الذي مهّد لظهور أنماط جديدة من الفيروسات التاجية. حيث أعاد هذه الحال إلى النِّقَاط التالية. أولاً الترابط الاقتصادي في إطار عولمة عملية الإنتاج وما يعنيه هذا من تمدد جغرافي للمركبات الصناعية على حساب المساحات الخضراء والغابات عامة وكل الأنساق الأيكولوجية التي تسكنها. ثانياً، وعلى هذا الأساس، فإن التقاء البشر، والحيوانات التي يستعملها في حياته مع الحيوانات البرية ضاعف فرصة انتقال الفيروسات التي تسكنها إلى محيط الإنسان وضاعف أيضاً

⁴⁴ Ibid.

⁴⁵ Astuti (Rita)& Bloch (Maurice). "Anthropologists as Cognitive Scientists". Topics in Cognitive Science.2012 4, 453-461.P1.

⁴⁶ فريدريك كيك (21-مارس-2020)، ترجمة حسام الدين سعاف، موقع المرسل. لا نملك المخيال الكافي لفهم ما يحدث لنا.

إمكانية ظهور الأوبئة لعدم وجود أي مقاومة ما قبلية داخل الجهاز المناعي البشري وما يتطلبه هذا الأخير من وقت لتشكيل مناعة ضد فيروس غريب. وقد بين كيك بالفعل أن كلا من تايوان سنغافورة والصين، أو ما يسميه "مرصد الأوبئة"، كانت على علم بهذه الإمكانية منذ مدة طويلة، على الأقل مباشرة بعد جائحة الالتهاب الرئوي الحاد (سارس) سنة 2003. في المقابل يبين كيك أن المركز التقليدي للعالم، أي المتوسط والأطلسي، لا يملك المخيلة المناسبة للتعامل مع هكذا وضعيات، أي يفتقد لمخيلة جماعية مؤسسة تستطيع استيعاب التحدي المطروح بسبب الجوائح، مع أنّ الأوربيين مثلا يمتلكون تاريخ جوائح مهمة، آخرها هو الإنفلونزا الإسبانية. وسبب ذلك يعود لإشكال ثقافي ومجتمعي. أولاً فإن التنظيم الإداري النازع للامركزية يعيق الفعل الحاسم في ظل أوضاع مماثلة. استقالة الدولة من الفضاء العام والتفويت في مواردها وضعها، في أوروبا مثلا، في بداية الأزمة في إشكالات جدية وعجز فعلي عن اتخاذ القرارات اللازمة، عكس الدولة الصينية. فعلى الرغم من الأسبوعين الأولين، نجحت الصين في استيعاب ووهان وتطويرها للحد من انتشار الفيروس. حيث يبين كيك أن الحاجة الوظيفية لمركزية القرار في هذه الوضعيات هو ما يمكن المجتمعات من تجاوز خطر هذا الحجم. ثانيا، يتأتى الإشكال الحالي للوضع البشرية في علاقتها بالطبيعة عامة من فقدانها للمخيلة الكافية لفهم الطبيعة الثقافية لعلاقتها معها. حيث تشكل الفكر الأوروبي الحديث بناءً على مسلمة أن الطبيعة امتداد مُفارق للبشر وقابل للاستعمال الأداة إلى ما لانهاية. هذه الفكرة شكلت المقدمة الأنطولوجية للفكر الحديث الذي يحرك الاقتصاد العالمي الحالي في شكله الرأسمالي⁴⁷. مثلت هذا الرؤية الثقافية الشكل الأساسي للتنظيم الاجتماعي للحقبة الزمنية التي نسميها العصر الأنثروبوسيني "anthropocene"؛ حيث صار خلالها الرهان الأيكولوجي أحد أهم الرهانات المحيطية التي تواجه المجتمع البشري. أي أن النسق الأيكولوجي "ecosystem" صار أكثر ظهوراً⁴⁸ ومحدداً للسلك اليومي للبشر، وذلك نتيجة تصاعد منسوب الانثروبيا⁴⁹ Entropy الذي أنتجته الهوميوديناميكية البشرية منذ الثورة الصناعية إلى اليوم. وتأتي الجائحة التاجية، التي يعيش العالم على وقعها الآن، في هذا السياق المطبوع بتغيرات أيكولوجية جذرية تُهدد جوهرها أسس الحياة

⁴⁷ Descola (Philippe). Par-delà nature et culture. Folio.2015.P16-17.

⁴⁸ مفهوم الظهور عند هيدغار يحيل على التجربة الفينومينولوجية للأفراد، إلى التجربة المعاشة خاصتهم وعلى عالمهم الخاص الذي يتشكل من خلال مقدماتهم وتجاربهم السابقة التي تصنع بدورها عالمهم المعنوي والقيمي. لا تظهر عناصر المحيط كلياً للمجتمع، ولا لأنساقه الثانوية كلياً. بل يتحدد مدى ظهورها أولاً بمكانتها في السردية والنسق الرمزي الذي تتبناه مجموعة بشرية ما. مثلاً تظهر الطبيعة، بالمعنى الأيكولوجي، بصفة أساسية لدى قبائل الأشوار الأمازونية التي اشتغل عليها فيليب ديسكولا وتعتبر امتداداً لتقانيا للحياة الاجتماعية والإنسانية، في حين أنها- الطبيعية- لدى الغربيين امتدت مادياً يمكن الفعل فيه وعليه بطريقة أدائية. ثم ثانياً، في مدى استعجالته، أي كونه يفرض نفسه من الخارج إذا صارت اضطرابات محيطية تُحدث اضطراباً على العالم المعاش وتغير الهرمية التفاضلية للمجموعة البشرية المعنية.

⁴⁹ يمكن فهم الأنثروبيا بمعنيين. المعنى الأول يخص صفتها كمقياس لمدى عشوائية نسق ما. أما المعنى الثاني، والذي استعمله هنا، فيخص الفوضى والانظام اللذين ينتجها تفاعل نسق مع المحيط، في داخله وخارجه. كل نسق يفترض أن يحارب الأنثروبيا داخله لها تدفعها إلى التحلل والتفكك. ولكن بلغ مستوى الأنثروبيا التي أنتجها البشر مرحلة. يعتبر بيرنار ستيفلر أنها مرحلة حاسمة في تاريخ البشرية. يمكن الاطلاع على "The Neganthropocene" لنفس الكاتب.

البشرية على الأرض⁵⁰. وقد بين بحث منشور في مجلة "Nature" أنّ الجوائح ستكون أحد أهم الصفات التي تميز هذه التغيرات الأيكولوجية على المستوى العالمي.⁵¹

نسقية الهامش التونسي أو في البنية العامة للنظام الاقتصادي.

المجتمع التونسي كنسق ديناميكي.

يملك كل نسق مجتمعي تاريخا ما، ينشأ عن العملية الهوموستازية الخاصة به. والهوموستازية "homeostasis"⁵² مفهوم بيولوجي أساسا، طوره والتر كانون "Walter Cannon" من أجل فهم العملية الفيزيولوجية التي يقوم بها الجسد من أجل إعادة إنتاج نفسه وفق متطلباته الداخلية وبالرجوع الى بنية تشريحية معينة يُرغب في المحافظة عليها. تم استعمال هذا المفهوم لإدراك العملية المعقدة التي يقوم بها نسق ما-فيزيائي، بيولوجي، اجتماعي الخ، خلال عملية إنتاج نفسه. على ذلك، يكون النسق الاجتماعي كغيره، راغبا بنيويا في إعادة إنتاج نفسه والمحافظة على هيئته، عن طريق مجموعة من مؤسسات التنشئة الهيمنة والضبط. ولكن نظرا للتغير الدائم الذي يطبع المحيط نفسه، والتغيرات الطفيفة المتراكمة التي تنشأ بناءً على ذلك دخل المجتمع، فإن عملية الهوموستازيا تدفع لنشوء اتجاهات متميزة من التغيرات المختلفة السرعات داخل النسق. ويُقصد بالمحيط كل شي يشكل فضاء النسق، من جغرافية، فضاء أيكولوجي، أنساق اجتماعية أخرى الخ. إذا ينشأ خلال عملية الهوموستازيا المتواصلة التي يقوم بها المجتمع مع محيطه هذا أشكال مختلفة من البنى الاجتماعية الاقتصادية والثقافية الخ؛ التي تتولد بعضها من بعض، وتتشكل في حدود الممكن الذي يسمح به التفاعل بينها.

انطلاقا من هذا التأطير، يمكن أن نعتبر تاريخ المجتمع التونسي، أي نمط تشكله الداخلي، تفاعلا متوصلا بين أنساق متعددة، ثقافية اجتماعية مُحيطية اقتصادية وغيرها. حتى أن الهادي التيمومي يرجع بعضها إلى الفترة الفينيقية⁵³. يمكننا إعادة جزء كبير من مؤسسات الفضاء العام، كالبنية الإدارية، ثقافة الطبقة الوسطى أو مؤسسة الزواج، إلى دولة الاستقلال والتغيرات الثقافية التي طبعها تلك الفترة. ولكن لا تُؤطر هذه الأخيرة كل تفاعلات المجتمع التونسي. حيث أن مؤسسات معيارية، لغوية وقرابية ما-قبل الاستقلال لا تزال تعطي الأسس الأنثروبولوجية لنمط حياة جزء كبير من المجتمع التونسي. تمثل مؤسسات ما-قبل الاستقلال الفضاء الثقافي لجزء كبير من الهامش الاجتماعي والاقتصادي التونسي. حيث تترابط الأحياء الشعبية والمناطق الداخلية عادة مع هذه

⁵⁰ IPCC report puts global warming crisis in Anthropocene framework (2018).

⁵¹ Kate E. Jones, Nikkita G. Patel, Marc A. Levy, Adam Storeygard, Deborah Balk, John L. Gittleman & Peter Daszak (2008). Global trends in emerging infectious diseases.

⁵² Cannon (Walter). The Wisdom of the Body. W. W. Norton and Company, Inc.; Rev. and Enl. Ed edition (April 17, 1963) P25

⁵³ التيمومي (الهادي). كيف صار التونسيون تونسيين. دار محمد علي الحامي. 2015.

المؤسسات الاجتماعية في تونس بشكل كبير. إذ أخذنا مثلا الأحياء الشعبية بتونس العاصمة كحي هلال أو حي التضامن، يمكن أن نلاحظ أن هذه الفضاءات السكنية هي امتدادا ثقافي واجتماعي للمناطق الداخلية التونسية. يمكن من خلال مقارنة خريطة اقتصادية اجتماعية مع الخريطة الثقافية أن نتبين التقاطع والترابط بين المجالين بكل وضوح.

على هذا الأساس، ورغم بعض التغيرات المجالية، فالهامش التونسي، اقتصاديا، اجتماعيا وثقافيا هو جزء بنيوي داخل النسق المجتمع التونسي، يُعاد إنتاجه هيكليا نظرا للطبيعة الداخلية التفاعلية بين كل مجالات والأنساق الفرعية له. أي أن جزءا من المجتمع التونسي يُمنع آليا من الوصول إلى الموارد العامة الثقافية والاقتصادية التي تتشكل داخل الفضاء النسقي التونسي.

أدفاق الطاقة داخل النسق التونسي.

تمثل أدفاق توزيع الطاقة داخل كل نسق إحدى أهم الأنساق الفرعية "Subsystem" التي تخصه⁵⁴. والأدفاق ليست بنية تحتية فقط كطرق التوزيع أو المغازات والبنوك وما إليه، بل هي بالإضافة إلى ذلك مجموعة مؤسسات مجتمعية وتصورات ثقافية شاملة تتشكل من خلال تفاعل الأنشطة الإنتاجية، المعايير التي تحددتها، أشكال معقدة من التصورات الرمزية والثقافية التي تعطي معنى للفعل والتجربة الفينومينولوجية للأفراد من ناحية وتبرر الاختلاف النوعي والكمي لهذه الأدفاق وارتباطها بمختلف الفئات المكونة للمجتمع. يمكن الإقرار بأنه على اختلاف إمكان تشكلات أدفاق توزيع الطاقة نتيجة التجارب الهوميوستازية الاجتماعية المتعددة، فإن المُعطى الثابت هو وجود نزعة تلقائية لتشكل أنماط متميزة وهرمية من الترابط والاندماج بين مختلف فئات المجتمع مع هذه الأدفاق؛ ما ينتج عنه تباعا أنماطا حياتية⁵⁵ متخالفة "différenciées"، باعتبار أن هذا التمايز وهرميته يدفع إلى تشكل مُحيطات فرعية متخالفة "Subenivèrment"⁵⁶ تضم وتؤطر تجارب فئات بشرية، في نفس النسق المجتمعي الكلي.

تونس كذلك، كغيرها من الأنساق الاجتماعية لدول العالم، تمتاز باحتوائها لعدة أنساق فرعية منظمة هرميا وتعكس أنماطا حياتية مختلفة. بناءً عن بعض المعطيات الكمية، التي تجدون تصورا مفصلا عنها في تقرير أجراه عزام محمود في إطار عمل بحثي قام به المنتدى في هذا الإطار، فإننا يمكن أن نقسم الأنساق الفرعية

⁵⁴ Luhmann (Niklas). theory of society voll. Stanford University Press; 1 edition. 2012. P41

⁵⁵ يعرف كليفورد غيرتز الثقافة بأنها نمط حياة "a way of life". أي طريقة نسقية مترابطة من القيم والممارسات والتصورات التي تصنع تجربة بشرية ما.

⁵⁶ تعتبر المحيطات الفرعية تمايزات ثانوية تتشكل في نفس المحيط الأساسي ولكنها تسمح بظهور أنماط حياتية مختلفة. مثلا يعتبر الشاطئ محيطا أساسيا، لكن الشاطئ الصخري يسمح بتشكيل حياة معينة بين الشاطئ الرملي يسمح بظهور أخرى. بالنسبة للمجتمعات البشرية، فإن الاختلافات الحضارية تمثل أساسا هذا التمايز المحيط الذي تنشأ فيه مختلف الأنماط الحياتية.

كالتالي.

نجد أولاً ترابطاً أكثر كثافةً نوعياً وكمياً بين أذواق توزيع الطاقة والمراكز الحضرية الكبيرة كالعاصمة، سوسة، صفاقس الخ، التي تمثل تقليدياً الشريط الساحلي للبلاد التونسية، أكثر من مدن "الداخل" كسيدي بوزيد، قفصة ...

ثانياً، في هذه المراكز الحضرية نفسها، على اختلافها، نجد وحدات مُحيطية فرعية مختلفة، تمثل أحياء متميزة نوعياً وكمياً بعضها عن بعض. حيث يتعايش حي "الكازمات" والخزامة في مدينة سوسة معاً.

ثم، في نفس الأحياء نفسها، نجد تمايزاً وهرمية ما، خصوصاً في الأحياء الشعبية والمناطق الريفية، مؤسساً على الفارق الجندري.

تحليل هذه الهرميات على أشكال مختلفة من توزيع فئات المجتمع داخل بنية النسق المجتمعي الكلي. وهذا ما يدفع تلك الأنساق الفرعية إلى تطوير قدرات معينة على المقاومة ومعالجة اضطرابات المحيط والتعامل معه.

ولكن، تنزع هذه الفروقات إلى التباعد والاختلاف أكثر فأكثر بفعل مبدأ التجاوب الإيجابي "positive feedback"⁵⁷. حيث يتبين فعلياً هذا التباعد من خلال عدة دراسات اقتصادية، على رأسها أعمال توما بيكيتي، التي تبرهن بوضوح التباعد المتسارع بين الفئة القليلة التي تملك الثروة وبين بقية متساكني الكرة الأرضية. حتى أن بعض التقارير تبين أن 1% من أغنياء العالم يملكون أكثر من نصف ثروة الكرة الأرضية⁵⁸. ليس اعتباطياً إذن أن يصير موضوع إعادة توزيع الثروة حالياً أحد أهم الرهانات العالمية. إذ ضاعف مبدأ التجاوب الإيجابي الهوة في توزيع الطاقة داخل المجتمع البشري بدرجة تذكّر بالتفاوتات الضخمة قبل الحرب العالمية الثانية، أولاً بين البورجوازيات الأوروبية والعمال، ثم بين الغرب والجنوب.

الجائحة كاضطراب جذري للمحيط.

يتشكل محيط النسق الاجتماعي من عدة مستويات، يمكن أن يحدث المساس بإحداها اضطراباً داخل البنية الداخلية. والاضطراب المحيطي هو سلسلة من التغيرات المفاجئة التي تحدث في مستوى الترابط البنيوي بين المحيط والنسق وما ينتج عنه من اختلال اشتغاله. الحد الهوي مثلاً،

⁵⁷ يمثل مفهوم التجاوب "feedback" أحد أهم المفاهيم في العلوم السيبرنيتيكية. وهي العلوم التي تدرس الكيفية التي يعدل بها النسق سلوكه نحو غاية ما. أما التجاوب الإيجابي فينشأ كلما كان سلوك النسق مناسباً وموافقاً لغايته، فيدفعه للمواصلة في هذا الاتجاه. أما التجاوب السلبي فهو تجاوب تعديلي، يرغب في توجه النسق نحو اتجاه آخر، أكثر تماشياً مع غاية النسق.

⁵⁸ Credit Suisse report. (2019).

كما نلاحظ اليوم بسبب صعود الخطاب الشعبي، أصبح يمثل دافعا لاضطراب المجتمعات داخليا؛ أي أن ذلك مسّ من تفاعل الأفراد المنتمين لأنساق اجتماعية وثقافية مختلفة، وغير من منحى بنية سلوكهم وتصوراتهم الذهنية، باعتبار أن المعايير الهوية صارت أساسية في تصنيف وتنظيم تجربتهم الإدراكية⁵⁹، وما يعنيه ذلك من إمكانات للتضاد والتصادم داخل نفس المجتمع.

يُواجه كل نسق اجتماعي عادة درجات مختلفة من الاضطرابات المحيطية، وقد جعله ذلك يطور على طول تاريخه استراتيجيات مختلفة لمواجهةها وتعديلها نسبيا. ولكن، وباعتبار أن المجتمع نفسه يتشكل من أنساق فرعية متعددة، تترابط بتمايز مع أدفاق توزيع الطاقة داخله، كما تمت الإشارة إليه، وما يعنيه ذلك من القدرة على تحريك الموارد والتصورات⁶⁰ من أجل مقاومة هذا الاضطراب، فإن أجزاء المجتمع الواحد تعيش تجربة الاضطراب المحيطي بطرق مختلفة.

في تونس، ومنذ أن أعلن إلياس الفخفاخ الحجر الصحي الشامل، تعطلت أدفاق توزيع الطاقة على توليد الموارد. في هذا الحالة، وباعتبار أن أي نسق مركب يطور فضاءات تخزين موارد داخله للرجوع إليها في حالة تعطل عملية التفاعل مع المحيط لسبب أو لآخر، فإن اشتغال الأدفاق وتوزيع الطاقة والمؤسسات المؤطرة لها يختلف نوعا ما. حيث يمثل تحول النسق الاجتماعي من الاعتماد على الموارد المؤلدة يوميا إلى الموارد المخزنة سببا إضافيا لرفع الضغط داخله بين الأنساق الفرعية بسبب الفروقات في مدى ترابطها واندماجها في هذه الأدفاق مؤسستها، وما يعنيه ذلك من اختلاف الإستراتيجية التي يستعملها كل منها في مقاومة هذا الاضطراب المحيطي.

ونظرا لتكوّن السلوك البشري من مستويات مُتداخلة من التعقيد التطوري، النفسي والسوسيو-ثقافي، يُمكن أن تدفع اللحظة الوبائية إلى تغيير نمط ترابط مستويات السلوك جديا، كأن يصبح مثلا الدافع التطوري أكثر وضوحا وتحديدا في توجيه السلوك العام للأفراد مُقابل تراجع النمط السلوكي السوسيو-ثقافي اليومي، أي مُقابل قدرة المعايير الاجتماعية المؤسسة على توجيه التفاعل اليومي للمجموعة. وقد شاهدنا بالفعل ظهورا متسارعا لهذه النزعات السلوكية خصوصا مع بداية الأزمة. حيث تُعتبر النزعات السلوكية للتخزين المُفرط للموارد مثلا، أو ازدياد ظواهر الاحتكار، وتراجع دائرة الاعتبار الأخلاقي للأكثر قربا دمويا واجتماعيا، والنقص في منسوب الثقة

⁵⁹ تقوم مؤسسات المجتمع الخطابية والمعيارية بتحويل الحد الاجرائي للنسق الاجتماعي الى بنية ادراكية وتصنيفية لدى الافراد المكونة لها من خلال عملية ذهنية معقدة يستبطن من خلالها الافراد تصورا ما ويتحول الى مرجع سلوكي وذهني لهم لمعالجة معلومات العالم والفعل فيه. تعمل هذه البنية الادراكية على ترتيب المحيط هرميا، من اجل بناء نسق من التفاضلات الي تسمح بتوفير تلقائية في الفعل والادراك. كل ثقافة، او تصور ما يحمل الى ذهن افراده مجموعة من التفاضلات.

⁶⁰ التصورات، التمثلات، المعرفة والسلوك تعتبر موارد كذلك. أن يعرف الانسان كيفية التصرف في وضعية ما، يعتبر موردا يمكن تحصيله، مضاعفته او فقده بالنسيان. يمكن اذا الحديث عن الموارد العرفانية cognitive resources.

العامة، التي تمثل القيمة الأهم في تحديد مدى أفق التعاون الجماعي، بعض أهم الظواهر التي تطرح تحديا حيويا خلال سياقات مُماثلة.

ولكن، تمس هذا التغيرات الحيوية الأنساق الاجتماعية الثانوية بدرجات مختلفة. فالمنتجون للطبقات الوسطى مثلا، لا يشعرون بنفس الضغط السلوكي للطبقات الشعبية والهامشية، باعتبار أن المحيط الذي يقضون فيه هذه الاضطرابات يتمتع بحصة أكبر من الموارد اللازمة للتعامل مع أحداث كهذه. فالمساحة، تركيبة العائلة، المدّخرات المالية، الاندماج بمسالك التوزيع تسمح مثلا للطبقات الوسطى بمقاومة أكثر فاعلية للاضطراب المحيطي الذي أحدثته الجائحة التاجية أولا، ثم السياسية التي تبنتها الدولة، والتي كانت أكثر تأثيرا على الفئات الشعبية والهامشية بالدرجة الأولى.

تتميز المحيطات الثانوية التي تشكل فضاء الفئات الهامشية باندماج ضعيف بأدفاق توزيع الطاقة عامة. حيث تبين المعطيات التي وفرها عزام محمود⁶¹ أن الفروقات في توزيع الثروة تبين الهوة الكبيرة بين مختلف فئات المجتمع التونسي. ولكن لا يتعلق الأمر هنا فقط بعيش واختبار فترة محنة اجتماعية، بل تمثل الجائح التاجية عاملا مضاعفا للإقصاء النسقي والبنوي للفئات الشعبية والهامشية أكثر من غيرها. إذا يفترض نقص الموارد التي بحوزتها أو غياب استراتيجيات الادخار، أن تعمل هذه الفئات على التوليد اليومي لمواردها الحيوية؛ أي أن تعمل يوميا للحفاظ على وجودها. ولكن مع الحجر الصحي والتباعد الاجتماعي المفروض، وجدت هذه الفئات نفسها في مواجهة مع المعايير الإجرائية المستحدثة التي لا تأخذ بعين الاعتبار الطبيعة المحيطية التي ينشط بها النسق الفرعي الفئات الشعبي. حيث، لا يمتلك عامة المنتمين إلى هذا النسق أية ميولات لادخار بسبب عجزهم عن ذلك، ولا يحوزون ضرورة نفس المعارف واستراتيجيات النظافة أو التّوقّي الصحي المطلوب.

العودة المشهّدية للدولة.

تُمثّل اللحظة الوبائية إحدى أكثر الرهانات الجذرية التي يُمكن أن يختبرها مُجتمع ما ويُعايشها. حيث أنّها تمتحن صلابة التنظيم الاجتماعي والمتانة العلائقية التي تجمع أفرادها، من خلال اختبار قدرته على التوفير الاستثنائي للأطرّ السردية والمؤسّساتية المُمكنة واللازمة لاستيعاب مُختلف الأنماط السلوكية والرهانات الاجتماعية التي تنشأ في أوضاع مماثلة. وقد أدركت الدول التي اختبرت الجائحة ذلك فجأة. حيث لاحظنا خلال هذه الفترة العودة المشهّدية للدولة إلى مجال التصرف العام في الموارد وصياغة تكتيكات مواجهة الجائحة التاجية.

⁶¹ محجوب (عزام). جائحة كوفيد 19 في تونس؛ التفاوت والهشاشة في مواجهة الفقر والبطالة. المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية. 2020.

ولكن رغم أن هذه الدول تتخذ سرديّة الخطر، والحاجة الوظيفية لمركزة السلطة، كمُنطلق استثنائي لإضفاء مشروعية جديدة على اشتغالها، إلا أنها تواصل التسليم بنفس المُقدمات الخطابية للسرديات المُهيمنة. حيث ينزع النسق تلقائياً إلى تفضيل أجزاء داخله على حساب أخرى، ما يعني أن بعض الأجزاء التي تُشكله، تملك الأفضلية في الحصول على الموارد التي ينتجها النسق في كليته، على حساب أجزاء أخرى. ولكن، وعلى عكس مكونات وأجزاء الأنساق الأخرى، كالبيولوجية، أو الفيزيائية، فإن للإنسان، كونه أحد أهم مكونات النسق الاجتماعي، لا يتماهى لا أنطولوجياً⁶² ولا قيمياً مع الوظيفة التي يشغلها داخل النسق ولا مع الجزء الذي ينتهي إليه باعتبار أنه يحوز على القدرة الذهنية التي تمنحه قدرة تخيل نفسه في أجزاء أخرى من النسق، وتمكنه بالتالي من الانفتاح على العالم وإمكانيته. لذلك، فإن جميع أجزاء المُجتمع، وعلى الرغم من اختلاف درجة الانخراط في عملية المحافظة على النسق العام للمُجتمع المؤطر بسردية مُهيمنة، تتصارع وتتدافع داخل سرديات ثانوية لغاية حصولها على أكثر موارد وتعديل أدفاق توزيعها لصالحها، من خلال محاولة التموضع داخل مؤسسات المُجتمع وتوجيهها، وعلى رأسها مؤسسات الدولة، باعتبارها المُهيمن الإجرائي على أدفاق الموارد.

لهذا تكون عادة السياقات المُماثلة حدثاً⁶³ سياسياً، باعتبار أنها، وبدرجات مُختلفة، تضع مؤسسات المُجتمع، أي تلك الفضاءات الرمزية والمعيارية التي تُشكل وتعيد إنتاج معظم التصوّرات المشروعة والمُهيمنة، على رأسها أجهزة الدولة، في مواجهة مع النوازع الذهنية والسلوكية، التي تُميز الطبائع⁶⁴ البشرية لأغلب الفئات المُتضررة داخل المُجتمع. فحتى مع عدم المساس بالإطار العام لمشروعية السرديات الرسمية والمُهيمنة، فإن شرائح مُختلفة من المُجتمع تظهر سلوكيات لا تخضع للمُتطلبات المعيارية التي تريدها السلطة، وتدعوهم إلى الالتزام بها، بكل تلقائية.

الجانحة كاضطراب للمخيل الجمعي؛ تعطل جزئي لطقوس الدفن.

يُعرف كاستورياديس (Castoriadis) المُجتمع كمخيلة جمعية مؤسّسة⁶⁵. تُؤطر هذه الأخيرة تقريباً كل السلوكيات البشرية المعيارية، من أبسط التفاعلات اليومية إلى هيبة طقوس الدفن والتعامل مع الموت. تنزع هذه المُتخيلات المُشتركة للثبات لأنها تحد فوضى العالم وتؤطرها في نظام (order) يسمح للأفراد بالتكهن بسلوك محيطهم، وتحديد أخطاره الروتينية، الفعلية والمُتخيلة.

⁶² أنطولوجياً بمعنى أن كيان الإنسان مفتوح على أكثر مما تمنحه إيه وظيفته داخل النسق المُجمعي.

⁶³ يقصد آلان باديو بالحدث تلك الوضعية الاستثنائية التي تحمل إمكان إدخال تغير نوعي على مجرى الحياة.

⁶⁴ يختلف مفهوم الطبع البشري عن الطبيعة البشرية، باعتبار أن الأول يخص النزعات العام التي تشكل أسس السلوك البشري؛ كالقدرات الذهنية الأولية (اللغة والمخيلة، التماهي مع المُماثل) وكل ما يشكل بنيته العرفانية "cognitive structure" والنفسية، التي تتشكل وتتحقق وفق مُمكنات متعددة لكن محدودة، في سياق ايكو-اجتماعي وثقافي ما. في المقابل فإن مفهوم الطبيعة البشرية هو تصور ميتافيزيقي وأيديولوجي يفترض جوهرًا ثابتاً ومُحدداً ما قبلها للإنسان، كأن يكون شريراً بطبعه، خيراً أو أنانياً الخ.

⁶⁵ Castoriadis (Cornelius), (1998). The Imaginary Institution of Society. The MIT Press , 1998. P16.

ولكن، في المقابل، تُعد الجوائح أحد أهم الأسباب المُحيطة التي يُمكن أن تُحدث تغييرا ما على هذه المتخيلات⁶⁶. يمكن الاستدلال على هذا أساسا بأحداث رفض دفن بعض الموتى بفيروس كورونا في باجة وفي بنزرت وبعض المناطق الأخرى، ما تطلب تدخل مفتي الجمهورية التونسي للتقليل من هذه المقاومة بالرجوع إلى المخيال الديني.

عادة ما تكون الطقوس المرتبطة بالموت مترسخة ومتجذرة بقوة فالمخيل الجمعي لمجموعة ثقافية ما، نظرا لأهمية هذا الحدث وارتباطه بأحد أهم الإشكالات الإنسانية. وقد بين فيكتور تورنر (Victor Turner) بالفعل أن الدقة والصرامة الطقسية التي تحيط بالموت تأتي من الشعور الإنساني عامة بضرورة تحييد الموت وضبط التعامل معه لرسم حد بينه وبين الحياة⁶⁷. تكون على ذلك طقوس الدفن كالغسل وقراءة القرآن الضوابط والحدود التي تسمح بمرور الجثة من عالم الحياة إلى عالم الموت مع المحافظة على العتبة الفاصلة بينهما. ولكن، مع موت بالفيروس، ومع ما يعنيه هذا بالنسبة للأفراد من خطر العدوى، فإن الطقوس التقليدية لتحديد جثة المتوفى صارت تبدو غير ناجعة. تعود هذه الفكرة أساسا لما تسميه ماري دوغلاس (Mary Douglas) بثنائية الطاهر والنجس⁶⁸. إذ أصبحت الطقوس التقليدية للموت، والتي تهدف إلى تطهير الجثة حتى تعبر عتبة الموت، غير قادرة على نزع النجاسة منه. في هذه الحال، ونظرا للفرع الذي يمكن أن يسببه هذا الإشكال، فإن رفض دفن بعض الموتى يعود إلى الاضطراب المعياري التي يحيد خطر عملية الدفن وما يعنيه ذلك من إمكان عبور الموت عتبة الحياة في اتجاه غير مرغوب فيه. فرغم إعلان وزارة الصحة أن الفيروس يموت مباشرة بعد رمي التراب على جثة المتوفى بالفيروس، إلا أن الإشكال في هذه الحال ليس إشكالا تجريبيا يُمكن حله بتجربة علمية. يمكن رصد أنماط مشابهة من هذه المخيلة، حين رفض أطباء وممرضون استقبال حالات من المصابين في عدة أماكن كمدنين والمهدية، فرغم علم العاملين بهذا المجال أن بعض البروتوكولات الفعلية قادرة على عزل الفيروس، إلا أن الخوف الكبير من الاقتراب من المصابين بهذا الفيروس يحيل مباشرة على ثنائية النجاسة والطهارة. فالنجاسة بمعناها هنا تحيل على كل قوى لا يمكن الهيمنة عليها وتحبيدها، فهي قادرة على الإتيان بالشر؛ المرض أو الموت.

⁶⁶ انظر أعمال فوكو حين يبين كيف أن طاعون القرن 16 مثل نقلة نوعية في اشتغال المخيال الأوروبي وتطور اشكال جديد من معيار التصرف في الجسد وتأطيره مثلا.

⁶⁷ Turner. (Victor). The Ritual Process. Routledge (1996). P20.

⁶⁸ Douglas. (Mary). Purity and Danger. Routledge (2002).P 15.

خاتمة

في سياق عالمي مطبوع بخطر الجوائح، نظرا للتنظيم الاقتصادي العالمي الحالي ونتائجه البيئية، يعيش جزء كبير من سكان المجتمع البشري على هامش العالم، أي يُمنعون من الوصول إلى الموارد التي تتيحها التجربة البشرية اليوم. في تونس وكغيرها من البلدان، تختلف سبل المقاومة التي يستطيع المنتمون إلى مختلف الفئات الاجتماعية تحريكها من أجل مواجهة حدث كالجائحة التاجية. فبدءًا من موارد الوقت، المال والمعارف اللازمة والمطلوبة لحماية الذات من خطر كهذا، يُلاحظ توزيعها متفاوت داخل النسق المجتمعي الواحد وأجزائه، ما يعطي ويوفر سياقات مختلفة لتشكيل أنماط سلوكية وتصورات ذهنية متباينة. لعبت الدولة التونسية، من خلال تكتيكاتها في مواجهة الجائحة التاجية دور المعيق الإجرائي الذي صعّب حياة جزء كبير من الهامش التونسي، من خلال وضع قيود على الحركة والتنقل لفئات اجتماعية كبيرة. ما ساهم في مضاعفة إقصائهم ومضاعفة الضغط على مُعاشهم.

تعميق اللامساواة الاقتصادية والاجتماعية بين الفئات المجتمعية في زمن الوباء (مقاربة قانونية)

آية بوصحيح

الملخص

لطالما كان القانون التونسي مكرسا للتفاوتات الاجتماعية والاقتصادية، ولئن بادر المشرع التونسي بعد الثورة بالمصادقة على جملة من القوانين الضامنة لحقوق بعض الفئات الهشة فإنّ الهوة لا تزال قائمة والطبقية مازالت مكرسة في أغلب النصوص القانونية وخاصة منها المتعلقة بالنظام الجبائي وقانون الوظيفة العمومية والقوانين المنظمة للقطاع الخاص وتلك المتعلقة بمنظومة الضمان الاجتماعي.. إلخ.

في هاته الورقة البحثية سنتناول بالدرس كيفية تعميق الأزمة الصحية الوطنية والعالمية لهاته الفوارق وتكريسها للامساواة الاقتصادية والاجتماعية بين مختلف فئات المجتمع، ويبرز ذلك في النصوص القانونية المتخذة أخيرا كإجراءات استثنائية حيث سنتناولها بالتحليل محاولين بذلك الإشارة إلى تداعياتها المباشرة وغير المباشرة على أغلب فئات المجتمع.

Abstract

Tunisian law has long been devoted to social and economic disparities. Although the Tunisian legislature has adopted laws guaranteeing the rights of certain groups after the revolution, the gap remains and social stratification is still enshrined in most legal texts especially those related to the fiscal system, the law of public function, the laws regulating private sector and social security etc. In this research paper, we will be analyzing how the international and national sanitary crisis deepened these disparities and caused economic and social inequality to different groups of society. This is clear in the adopted laws as exceptional measures which we will analyze and show their direct and indirect impacts on the different categories of the society.

"هذه ليست مجرد أزمة صحية فحسب. بل أيضاً أزمة سوق عمل وأزمة اقتصادية كبرى لها أثر هائل على البشر"

غاي رايدر، المدير العام لمنظمة العمل الدولية

وفي سياق متصل، حذرت منظمة العمل الدولية في آخر دراسة أعدتها حول هذا الموضوع، من أن "بعض الفئات ستتأثر من أزمة الوظائف أكثر بكثير من فئات أخرى مما يفاقم عدم المساواة... ومن هذه الفئات العاملون في الوظائف الأقل حماية والأدنى أجراً"

المقدمة

في مستهل هذه الورقة تجب الإشارة إلى أن هذا العمل ليس عملاً بحثياً أكاديمياً خالصاً، بل هو مقال منخرط في باب الكراسات التي يعدها المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية حيث سنحاول اعتماد مقارنة قانونية تخص أساساً تعامل الدولة التونسية زمن الوباء.

يواجه العالم اليوم أزمة صحية إنسانية فرضت عليه اتخاذ إجراءات أدت إلى الكثير من التداعيات الاقتصادية والاجتماعية، فقد فرض الواقع الصحي على أغلب دول العالم اتخاذ إجراءات صارمة لعل أبرزها توجه بعض البلدان إلى فرض الحجر الصحي الشامل والغلق الكلي الحدود. لم تكن تونس بمنأى عما يحصل في العالم مما أدى بالسلطات التونسية إلى استباق حالة الطوارئ الصحية وفرض إجراءات وتدابير من شأنها الحد من انتشار الفيروس خاصة أمام ضعف البنية التحتية الصحية بتونس وضعف الإمكانيات لمجابهة فيروس أضر بأحسن منظومات العالم الصحية.

أعلنت الدولة التونسية يوم 22 مارس الحجر الصحي الشامل على كامل تراب الجمهورية واستثنت الأنشطة الحياتية، حيث أصدرت رئاسة الحكومة بلاغاً في 20 مارس أوضحت فيه أن انطلاق العمل بالحجر الصحي العام يبدأ يوم الأحد 22 مارس على الساعة السادسة صباحاً ويتواصل إلى غاية 4 أبريل 2020 والذي وقع التمديد فيه لاحقاً. وبينت أنه يقصد بالحجر الصحي ملازمة كل المواطنين والمواطنات والمقيمين بالبلاد التونسية منازلهم وعدم الخروج إلا لقضاء شؤونهم الأساسية وفي الحالات الضرورية على غرار التزود بالمواد الأساسية والعلاج، ويستثنى من ذلك العاملون في القطاعات التي وقع تحديدها فيما بعد سواء كان ذلك في القطاع العام أو القطاع

الخاص⁶⁹ مما يعني ملازمة أكثر من 8 ملايين مواطن تونسي ببيوتهم، كما وعدت الدولة بإجراءات اقتصادية واجتماعية استثنائية.

وقد صدر بالعدد 24 من الرائد الرسمي للجمهورية التونسية أمر حكومي يتعلق بضبط الحاجيات الأساسية ومقتضيات ضمان استمرارية سير المرافق الحيوية في إطار تطبيق إجراءات الحجر الصحي الشامل، الذي كان أعلن عنه رئيس الجمهورية يوم 20 مارس، كما صدر بنفس العدد أمر رئاسي ينص على تحجير جولان الأشخاص والعربات بكامل تراب الجمهورية خارج أوقات منع الجولان، المنصوص عليها بالأمر الرئاسي عدد 24 لسنة 2020، إلا لقضاء حاجياتهم الأساسية أو لأسباب صحية مستعجلة ويمنع كل تجمّع يفوق ثلاثة أشخاص في الطريق العام وفي الساحات العامة.

وفي سعي لتسريع الإجراءات أمام تطور الوضع الصحي طالبت الحكومة في شخص رئيسها بتمكينها من تفويض من طرف السلطة التشريعية لتتمكن من إصدار المراسيم⁷⁰ التي من شأنها إدارة الأزمة واتخاذ الإجراءات الكفيلة بالحد من تداعيات الحجر الصحي الشامل الذي سيضر بكل فئات الشعب وخاصة منها الفئات الهشة والمهمشة.⁷¹، ثم بدأت الحكومة في إصدار المراسيم التي لوحظ فيها أساسا تعميق التمييز بين مختلف الفئات المجتمعية وغياب إجراءات ناجعة لصالح الفئات الضعيفة والهشة.

فكيف عمقت المراسيم والنصوص الصادرة في فترة الوباء التمييز واللامساواة بين مختلف الفئات الاجتماعية؟

للإجابة على هذه الإشكالية سنتعرض في بادئ الأمر إلى أبرز النصوص القانونية والإجراءات المتخذة منذ بداية الوباء وكيفية تغييب الحكومة للفئات الهشة والمعدمة من تشريعاتها في مقابل إقرار امتيازات جبائية واقتصادية لأصحاب رؤوس الأموال.

⁶⁹ بالنسبة للقطاع العام تواصل السير العادي للمرفق العام في المجالات الحيوية، الغذاء، الصحة، الإدارة، القضاء، الطاقة، الأمن، الماء، النقل، الاتصالات، الإعلام، النظافة والأنشطة الصناعية الحيوية.

كما يتواصل أيضا النشاط المهني الضروري في القطاع الخاص في نفس المجالات المذكورة.

⁷⁰ الفصل 70 من الدستور:

"في حالة حلّ مجلس نواب الشعب، يمكن لرئيس الجمهورية إصدار مراسيم بالتوافق مع رئيس الحكومة تُعرض على مصادقة المجلس في الدورة العادية التالية.

يمكن لمجلس نواب الشعب بثلاثة أخماس أعضائه أن يفوض بقانون لمدة محدودة لا تتجاوز الشهرين ولغرض معين إلى رئيس الحكومة إصدار مراسيم تدخل في مجال القانون تُعرض حال انقضاء المدة المذكورة على مصادقة المجلس.

يستثنى النظام الانتخابي من مجال المراسيم."

⁷¹ مجتمع الهامش يشمل كل الفئات الاجتماعية والمجالات السكنية التي تتواجد خارج المنظومة الرسمية للإدماج الاقتصادي والاجتماعي للدولة حنين. (م)، سوسيولوجيا الهامش في زمن الكورونا، الخوف والهشاشة والانتظارات، دراسة

وفي مرحلة ثانية ما هي تداعيات هذه النصوص وانعكاساتها على أرض الواقع؟

الإجراءات المتخذة زمن الكورونا: إجراءات عمقت الفوارق الاجتماعية والاقتصادية

عقد مجلس نواب الشعب جلسة عامة بتاريخ 4 أبريل 2020 صادق فيها على مشروع القانون المتعلق بالتفويض إلى رئيس الحكومة لإصدار مراسيم⁷² طبقاً لما جاء بالفصل 70 من الدستور التونسي لسنة 2014 والذي ينص في فقرته الثانية على أنه «يمكن لمجلس نواب الشعب بثلاثة أخماس أعضائه أن يفوض بقانون لمدة لا تتجاوز الشهرين ولغرض معين إلى رئيس الحكومة إصدار مراسيم تدخل في مجال القانون تعرض في حال انقضاء المدة المذكورة على مصادقة المجلس...» ويقتصر التفويض على الميادين التالية:

- الميدان المالي والجبائي والاجتماعي
- ميدان الحقوق والحريات وضبط الجنايات والجنگ والعقوبات والإجراءات أمام المحاكم.
- الميدان الصحي والبيئي والتعلبي والثقافي.
- ميدان تسيير المرافق العمومية والقطاع الخاص والضمانات الأساسية للأعوان العموميين والشغالين.⁷³

أهم النصوص القانونية المتعلقة بإجراءات الحكومة في الميدان الاجتماعي والاقتصادي

ما يهمننا أساساً في ورقتنا البحثية هو الإجراءات والتدابير التي اتخذت خاصة في الميدان المالي والجبائي والاجتماعي ومنها ما جاء به المرسوم عدد 3 لسنة 2020 مؤرخ في 14 أبريل 2020

⁷²تمت المصادقة على مشروع قانون التفويض بـ 178 صوتاً مع تحفظ نائبين ورفض 17 نائباً وقد تم ختم القانون المتعلق بالتفويض إلى رئيس الحكومة في إصدار مراسيم لغرض مجابهة انتشار وباء كورونا (كوفيد-19) من قبل رئيس الجمهورية الذي تلقاه يوم 4 أبريل فور المصادقة عليه من قبل البرلمان ونشر بالرائد الرسمي للجمهورية التونسية يوم 12 أبريل 2020.

⁷³قانون عدد 19 لسنة 2020 مؤرخ في 12 أبريل 2020 يتعلق بالتفويض إلى رئيس الحكومة لإصدار مراسيم لغرض مجابهة تداعيات انتشار فيروس كورونا (كوفيد-19)

الفصل الأول. طبقاً لأحكام الفقرة الثانية من الفصل 70 من الدستور، يُفوض بمقتضى هذا القانون إلى رئيس الحكومة إصدار مراسيم لمدة شهرين ابتداء من تاريخ دخوله حيز النفاذ، لغرض مجابهة تداعيات انتشار فيروس كورونا (كوفيد-19) وتأمين السير العادي للمرافق الحيوية. ولتحقيق الغرض المذكور بالفقرة الأولى من هذا الفصل، يقتصر التفويض على الميادين الأربعة التالية: أولاً: الميدان المالي والجبائي والاجتماعي ويشمل التدابير الهادفة إلى: - الإحاطة والدعم والمساعدة المباشرة وغير المباشرة للأفراد والمؤسسات المتضررين من تداعيات فيروس كورونا، - تعبئة الموارد لفائدة ميزانية الدولة والمستوجبة لتغطية التكاليف المترتبة عن مواجهة تداعيات فيروس كورونا، - تعديل إجراءات وصيغ التغطية الصحية والاجتماعية للمكفولين الاجتماعيين المتضررين من فيروس كورونا. ثانياً: ميدان الحقوق والحريات وضبط الجنايات والجنگ والمخالفات والعقوبات والإجراءات أمام المحاكم ويشمل التدابير الهادفة إلى: - إقرار أحكام استثنائية في الأجل والإجراءات في الدعاوى والطعون أمام مختلف أصناف المحاكم وبصفة عامة في كل الإجراءات والأجل المتعلقة بالالتزامات المدنية والتجارية وغيرها، - تنظيم الحقوق والحريات بما يتلاءم مع التدابير الوقائية المستوجبة لمقاومة تفشي فيروس كورونا وانتقال العدوى به وبما يتماشى مع مقتضيات الفصل 49 من الدستور، - تجريم الأفعال التي من شأنها أن تتسبب في انتشار العدوى بفيروس كورونا أو تعطيل الإجراءات المتخذة لمكافحة هذا الفيروس ولمواجهة التداعيات المترتبة عنه وضبط العقوبات المستوجبة لردع تلك الأفعال. ثالثاً: الميدان الصحي والبيئي والتعلبي والثقافي ويشمل التدابير الهادفة إلى: - ضبط الإجراءات التنظيمية في المجال الصحي وفي المجالات ذات العلاقة لمواجهة فيروس كورونا وتداعياته بما يضمن عدم تفشي العدوى به، - مراجعة تنظيم السنة الدراسية والامتحانات، - حماية البيئة

الذي يتعلق بضبط إجراءات اجتماعية استثنائية وظرفية لمرافقة بعض الأصناف المتضررة ومنهم العاملون لحسابهم الخاص، ومن أهم ما جاء في المرسوم عدد 03 في الميدان الاجتماعي، إسناد بعض المنح الاستثنائية للعاملين لحسابهم الخاص بمائتي دينار من قبل وزارة الشؤون الاجتماعية في إطار الاعتمادات المحولة لها من قبل وزارة المالية. كما صدر مرسوم آخر يشمل دائماً نفس الميدان ويتعلق أساساً بسن إجراءات اجتماعية ظرفية لمرافقة المؤسسات والإحاطة بالمنظومة التشغيلية، وخاصة الإحاطة بالأجراء الذين انقطعوا عن العمل جراء تطبيق إجراءات الحجر الصحي الشامل وذلك بالنظر إلى مراجعة أحكام مجلة الشغل وهو ما جاء في المرسوم عدد 02 لسنة 2020 ومنها خاصة تعليق العمل بأحكام الفصلين 21-12 من مجلة الشغل⁷⁴ المتعلقة بالطرود أو الإيقاف عن العمل.

ولئن اعتبرنا أن أعوان وموظفي الوظيفة العمومية والقطاع العام والمتقاعدين من الفئات التي بقيت في المنازل ولكن تواصل مدتهم برواتبهم وجراياتهم، فإن الحكومة وبمقتضى مرسوم من رئيس الحكومة عدد 5 لسنة 2020 مؤرخ في 14 أبريل 2020 قامت باقتطاع يوم عمل بعنوان شهر أبريل لسنة 2020 لفائدة ميزانية الدولة وذلك يعتبر مساساً من حقوقهم حتى وإن كان السبب المعلن وراء هذا الاقتطاع هو المساهمة في الأزمة الحالية.

ونذكر أيضاً المرسوم عدد 4 لسنة 2020 المؤرخ في 14 أبريل 2020 الذي يتعلق بسن إجراءات اجتماعية استثنائية وظرفية لمرافقة المؤسسات والإحاطة بأجرائها المتضررين من التداعيات المنجزة عن تطبيق إجراءات الحجر الصحي الشامل الذي نص على إجراءات خاصة للمؤسسات وأجرائها، ولعل أبرزها تمكينهم من مساعدات استثنائية وظرفية للتمكن من خلاص الأجور وتمكين أصحاب المؤسسات الصغرى من التمتع بمنح استثنائية خلال فترة التوقف عن العمل وتحميل تكاليف إسناد هذه المنح على ميزانية وزارة الشؤون الاجتماعية.

⁷⁴ الفصل 21 (نقح بالقانون عدد 62 لسنة 1996 المؤرخ في 15 جويلية 1996). ذكر في: مجلة الشغل على كل مؤجر يعتزم طرد أو إيقاف عن العمل لأسباب اقتصادية أو فنية البعض من عملته القارين أو كاملهم، أن يعلم بذلك مسبقاً تفقدية الشغل المختصة ترابياً. ويجب أن يتضمن الإعلام البيانات التالية: اسم المؤسسة وعنوانها الكامل واسم المسؤول عنها وتاريخ بداية نشاطها وطبيعته، الأسباب التي أدت إلى طلب الطرد أو الإيقاف عن العمل. كما يجب أن يكون الإعلام مرفقاً بالمؤيدات اللازمة لطلب الطرد أو الإيقاف عن العمل وبقائمة كافة عملة المؤسسة مع بيان حالتهم المدنية وتاريخ انتدابهم واختصاصهم المهني وكذلك العمال المعنيين بالطرود أو الإيقاف عن العمل.

الفصل 22 (نقح بالقانون عدد 29 لسنة 1994 المؤرخ في 21 فيفري 1994). ذكر في: مجلة الشغل كل عامل مرتبط بعقد لمدة غير معينة وقع طرده بعد انقضاء فترة التجربة يستحق فيما عدا صورة الخطأ الفادح مكافأة لنهاية الخدمة تقدر بأجر يوم عن كل شهر عمل فعلي في نفس المؤسسة وذلك على أساس الأجر الذي يتقاضاه العامل عند الطرد مع مراعاة جميع الامتيازات التي ليست لها صبغة إرجاع مصاريف. ولا يمكن أن تفوق هذه المكافأة أجر ثلاثة أشهر مهما كانت مدة العمل الفعلي، إلا في صورة وجود شروط أحسن جاء بها القانون أو الاتفاقيات المشتركة أو الخاصة.

تغيب الحكومة بعض الفئات المعدمة من تشريعاتها وإقرار امتيازات جبائية و اقتصادية لأصحاب رؤوس الأموال

أصدرت وزارة الشؤون الاجتماعية بلاغا يوم الاثنين 30 مارس 2020 يقضي بصرف مساعدات استثنائية موجهة للعائلات المنتفعة ببرنامج العائلات المتكفلة بأطفال دون سن عائلتي في إطار برنامج الإيداع العائلي والعائلات المتكفلة بكبار السن الفاقدين للسند العائلي في إطار برنامج الإيداع العائلي، بقيمة 200 دينار لكل عائلة وصرف زيادة بقيمة 50 دينار في المنحة الشهرية المسندة للعائلات المنتفعة ببرنامج العائلات المعوزة (260 ألف عائلة معوزة)، عن طريق تنزيلها بالبطاقات الاجتماعية. لكنّ ما نلاحظه خاصة هو تغيب العديد من المواطنين غير المدرجين بسجلات الضمان الاجتماعي والذين لا يعتبرون في نظر الدولة من المعوزين والفئات الهشة، مع العلم أن عدد هؤلاء كبير جدا في تونس كما تتميز حياتهم أساسا بكسب قوتهم وقوت عائلاتهم بالعمل اليومي بما معناه أن الدولة التونسية هنا قامت بإقصاء شريحة من المجتمع وإلزامها بالبقاء في البيوت دون القيام بإجراءات فعلية تخصّصهم.

النصوص القانونية الصادرة زمن الوباء تميزت أيضا بكونها قدمت عديد الامتيازات الجبائية والمالية خاصة لأصحاب رؤوس الأموال من أصحاب الشركات ونذكر هنا خاصة المرسوم عدد 6 لسنة 2020 مؤرخ في 16 أفريل 2020 الذي يتعلق بسن إجراءات جبائية ومالية للتخفيف من حدّة تداعيات انتشار فيروس كورونا "كوفيد-19" وأبرز الإجراءات الواردة فيه كانت أساسا تأجيل دفع الضريبة بالنسبة للشركات إلى غاية 31 ماي وتعليق العمل بخطايا التأخير وتعليق سريان آجال التقادم وخطايا التأخير في مادة استخلاص الديون العمومية المثقلة والتمديد في آجال التقادم وآجال المراجعة الجبائية...⁷⁵ وهي تعتبر إجراءات حصرية وامتيازات كبيرة لأصحاب المؤسسات ورؤوس الأموال وهذا ما يعمق التفاوتات الاقتصادية والاجتماعية ويكرس الطبقية.

التداعيات والانعكاسات على مختلف الشرائح وخاصة الفئات الهشة

رغم سعي الدولة للقيام ببعض الإجراءات الاستثنائية إلا أنها تبقى إجراءات محدودة جدا ودون المطلوب واللازم، خاصة وكما ذكرنا سابقا أنها كانت إجراءات غابت فيها فئات وقدمت امتيازات لفئات أخرى، فكانت التداعيات والانعكاسات كارثية على بعض الفئات وخاصة منها تلك الأكثر تهميشا

⁷⁵ انظر المرسوم عدد 6 لسنة 2020 مؤرخ في 16 أفريل 2020

الانعكاسات على الفئات الأكثر تهميشا

الفئات المقصية: شرط الضمان الاجتماعي

رغم تظافر الجهود الوطنية من قبل الحكومة التونسية ومكونات المجتمع المدني للحد من التداعيات الاقتصادية لأزمة فيروس كورونا، فإن بعض الفئات المهمشة ازدادت تهميشا والفقيرة ازدادت تفقيرا، حيث أن الحكومة التونسية لم تعترف إلا بالمنخرطين في أحد أنظمة النظام الاجتماعي، سواء تعلق الأمر بالأسر المنتفعة ببطاقة علاج مجاني أو ببطاقة علاج بالتعريف المنخفضة، وتم إقصاء كل مواطن تونسي لا ينتهي لأحد هذه الأنظمة، وكأن ما تعيشه هذه الفئة من تهميش من خلال عملهم في قطاعات غير منظمة أو استغلالهم من قبل رؤوس الأموال غير كاف.

الإقصاء الذي ذكرناه سابقا يدل على أن الانتماء إلى الدولة التونسية غير كاف لاعتبارك مواطنا تونسيا له حقوق وواجبات، فرييس الحكومة تصرف كراع لرؤوس الأموال الذين شملتهم أغلب الإجراءات الناجعة وليس كمحدد ومنفذ للسياسة العامة للدولة⁷⁶ التي تعبر عن الأطر الفكرية والعملية للحكومة والغاية منها الارتقاء المجتمعي وإيجاد حلول جذرية للمشاكل العامة والاجتماعية من خلال تحديد الأولويات والموارد والإمكانيات⁷⁷.

إلا أن الحكومة التونسية لم تأخذ بعين الاعتبار الفئات المذكورة سابقا والذين أجبرهم الفيروس على التوقف عن العمل رغم أن الشعب التونسي أشعل ثورات الربيع العربي بسبب التهميش والبطالة، حيث فضلت الحكومة نفي وجودهم في ظل وباء الكورونا العالمي رغم علمها بوجود هذه الفئات، فقد كشف المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية أن الإجراءات المتخذة من قبل الحكومة التونسية ساهمت في ارتفاع وتيرة الحراك واليأس الاجتماعي، إذ بلغ العدد الجملي للاحتجاجات المرصودة طيلة شهر أفريل 254 تحركا احتجاجيا إضافة إلى تسجيل حالة انتحار يوميا⁷⁸.

ونستنتج من خلال ذلك أن هذه الفئات تعتبر نفسها أمواتا بين الأحياء باعتبار أنهم خرجوا للاحتجاج إثر ذروة الكورونا القاتلة لأنهم وجدوا أنفسهم بين خيارين: إما الموت من الجوع أو الموت من الكورونا.

⁷⁶ الفصل 77 من الدستور التونسي:

" يضبط رئيس الحكومة السياسة العامة للدولة، مع مراعاة مقتضيات الفصل 77، ويسهر على تنفيذها"

⁷⁷ Heyderman (R.S), "Policy flow analysis : A conceptual model for comparative policy research", The western quarterly, 1974, p 465

⁷⁸ سحيون (أ)، " رفضا للجوع والعطش: 8 تحركات احتجاجية وحالة انتحار يوميا خلال شهر أفريل"، الشروق، 2020

http://alchourouk.com/article/رفض-للجوع-والعطش-8-تحركات-احتجاجية-وحالة-انتحار-يوميا-خلال-شهر-

افريل?fbclid=IwAR3wNdh1UydDQV2E4Dg5EPrdN7PCgEha5SqlLbAXMpIW-TBuWnDJ15PXfZY

وبالتالي عبرت هذه الاحتجاجات عن حالة الاحتقان الاجتماعي للفئات المهمشة بسبب التمييز والإقصاء التي تعيشه منذ أعوام والذي عمقته إجراءات حكومية تم إفراغها من محتواها المتمثل في إجراءات استثنائية للفئات الهشة والمعطلين عن العمل في مجابهة أزمة فيروس كورونا عالميا، وتحولت حكوميا وقانونيا لإجراءات تعميق الأزمة الاجتماعية والاقتصادية للفئات الهشة والمعطلين عن العمل.

العائلات المعوزة

تم تخصيص مساعدات نقدية استثنائية ظرفية مباشرة لفائدة العائلات الهشة والمعوزة ومحدودة الدخل والمنضوية أساسا تحت نظام العلاج المجاني ذي التعريف المنخفضة طبقا لقاعدة البيانات الموجودة لدى مصالح الشؤون الاجتماعية، وحيث أن هذه المساعدات أسندت عن طريق حوالات بريدية، توجب تنقل هذه العائلات للحصول على هذه المساعدات الاستثنائية التي ساهمت في اكتظاظ الطوابير أمام المراكز البريدية إضافة إلى خرق واضح وصريح للتدابير الوقائية من خلال الحفاظ على صحة الموظفين العاملين بهذه المراكز وتكوم المواطنين أمامها.

إضافة إلى أن هذه المساعدات اعتبرت زهيدة مقارنة بما يتطلبه الوضع المعيشي في تونس⁷⁹ فإنها أجبرت كبار السن على الوقوف طيلة ساعات أمام المصالح الإدارية مما يعرض هؤلاء المسنين للإصابة بالكوفيد الذي اعتبر علميا قاتلا للمصابين بالأمراض المزمنة.

إن هذا الإجراء الاستثنائي لفائدة العائلات المعوزة ومحدودة الدخل أظهر فشل الدولة التونسية في تطبيق الرقمنة الإدارية واستعمال التكنولوجيا العالمية المتمثلة في إمكانية الحصول على هذه المساعدات دون إجبارية التنقل إلى مكان واحد، حيث مكنت الدولة الموريتانية مواطنيها من الحصول على هذه المساعدة من أي مصلحة بنكية عن طريق رموز يتم بعثها على الهاتف الجوال، وذلك بمساعدة المنظمات العالمية⁸⁰.

وبالتالي فإن الإجراءات المتخذة من قبل الدولة التونسية لمجابهة فيروس الكوفيد تبقى محدودة، إذ بدل توسيع شبكات الأمان لتشمل فئات بعينها، أصبحت هدى الفئات أكثر عرضة للخطر، وعض مجابهة هذا الوباء العالمي أصبحت هذه الفئات تصارع للبقاء على قيد الحياة ومن

⁷⁹ OCDE (2018), "Études économiques de l'OCDE : Tunisie 2018", Éditions OCDE, Paris, p 12 : "De fortes inégalités subsistent sur le marché du travail. Le taux de chômage est élevé surtout pour les jeunes diplômés, le travail informel est répandu et de nombreux tunisiens ont des conditions de travail précaires. Les disparités hommes-femmes sont moins importantes que dans les autres pays MENA mais le taux d'emploi est bien plus faible pour les femmes que pour les hommes et les femmes occupent souvent des emplois moins qualifiés. De larges disparités régionales existent en termes de niveau de vie et d'emploi. Une nouvelle politique de développement régional pour valoriser"

⁸⁰ Maarouf, " Tunisie – Covid-19 : La distribution des aides sociales tourne au désastre", webmanagercenter, 2020, <https://www.webmanagercenter.com/2020/04/05/447491/tunisie-covid-19-la-distribution-des-aides-sociales-tourne-au-desastre/>

أجل الحصول على مساعدات غير ضامنة للعيش الكريم أمام موجة ارتفاع أسعار الغذاء واختفاء السلع الأساسية من السوق في ذروة الأزمة الصحية العالمية.

الانعكاسات على بقية الفئات المتضررة

الطرد

رغم جل الإجراءات المتخذة من طرف الحكومة التونسية كتعليق العمل بالفصول القانونية التي تجيز تسريح العمال أو طردهم لأسباب اقتصادية، ورغم الدعم المالي الذي تمتعت به المؤسسات الاقتصادية من قبل الدولة فإن ذلك لم يكن عائقاً لتسريح العمال أو المساس من حقوقهم المكتسبة من قبل أصحاب المؤسسات، حيث أنّ العديد من العمال والموظفين كانوا عرضة لفقدان مواطني شغلهم إما عن طريق الإيقاف عن العمل أو الطرد، وذلك رغم أن الإجراءات الاستثنائية المتخذة لفائدة المؤسسات كانت مشروطة بمحافظتها على مواطني الشغل تفادياً لتفاقم أزمة البطالة.

وبالرجوع إلى الدراسة المنجزة من قبل المعهد التونسي للقدرة التنافسية والدراسات الكمية يتبين أن الإجراءات المتخذة لحماية العمال من الانتهاكات بقيت مجرد حبر على ورق، حيث أن انخفاض الإنتاج في فترة الحجر الصحي أدى إلى زيادة في معدل نسبة البطالة بـ 21.6٪ مقارنة بـ 15٪ حالياً⁸¹.

وبالتالي فإن التدابير الاستثنائية المتخذة من قبل الحكومة التونسية لم ترتقي لخطورة الوضع العام الراهن ولن ترتقي للأفاق المأساوية المرتقبة، حيث أن أزمة وباء كورونا تزامنت مع الأزمة الاقتصادية الخانقة التي تعيشها الدولة التونسية منذ ثورة 2011 والتي أثبتت وجود سلطة تنفيذية وإدارية اقتصر دورها على إثراء أصحاب المؤسسات ورؤوس الأموال مع تغييب كلي للفئات التي تعاني الفقر والخصاصة. أما بالنسبة للعاملين لحسابهم الخاص والمتضررين من تطبيق إجراءات الحجر الصحي الشامل فقد تمتعوا بنفس المبالغ الزهيدة التي مُنحت للعائلات المعوزة

ومن خلال هذا الإجراء، تتجسد اللامساواة التي مارستها الدولة التونسية في إطار مجابهتها لهذا الوباء العالمي مكرسة سياسة التهميش والتفقير من خلال عدم تساوي الحقوق والإمكانيات بين فئات المجتمع دون حماية اجتماعية كافية وشاملة وباسم دولة المؤسسات والقانون.

⁸¹تأثيرات جائحة كوفيد 19 على الاقتصاد التونسي سنة 2020

<http://www.mdici.gov.tn/ar/%d8%aa%d8%a3%d8%ab%d9%8a%d8%b1%d8%a7%d8%aa-%d8%ac%d8%a7%d8%a6%d8%ad%d8%a9-%d9%83%d9%88%d9%81%d9%8a%d8%af-19-%d8%b9%d9%84%d9%89-%d8%a7%d9%84%d8%a7%d9%82%d8%aa%d8%b5%d8%a7%d8%af-%d8%a7%d9%84%d8%aa%d9%88/>

الأجور

رغم تضافر الجهود الوطنية في مجابهة فيروس الكورونا وتداعياته الاقتصادية والاجتماعية المنجرة عن تطبيق فترة الحجر الصحي الشامل، ورغم التبرعات الوطنية والخارجية فإنّ الحقوق المكتسبة للعاملين والموظفين لم تكن بمنأى عن هذه التداعيات، حيث قرر رئيس الحكومة تطبيق إجراءات تقشفية سيتم بمقتضاها منع جزء من المنح وتجميد الترقيات مع اقتطاع إجباري ليوم عمل في إطار التبرع لصندوق مجابهة الأزمة. والأخطر من ذلك هو أنّ الأجور التي دفعت في فترة الحجر الصحي أصبحت محور تجاذبات عمقتها منظمة الأعراف التي اعتبرتها رصيد العطل خالصة الأجر أو تسبقة عنها أو قروضا سيتم تسديدها عن طريق العمل لساعات إضافية.⁸²

نلاحظ من خلال ما سبق أن ديمومة المؤسسات بالنسبة للدولة التونسية تعتبر أهم من حفظ كرامة العامل التونسي أو المواطن التونسي، في حين أن جل دول العالم تضمن حماية رأس المال البشري، لكن في تونس كلّ مواطن خارج دائرة رؤوس الأموال هو مواطن درجة ثانية، والمطلوب إذن ضمان حقوق المواطنين وتمكين الدولة بصفة مستمرة من القيام بواجباتها لمجابهة الأزمات والأوبئة والكوارث عند حدوثها مع دعم المسيرة التنموية لتحسين قدرات الاقتصاد وظروف المواطنين على مواجهة الحالات الاستثنائية ويجب أن يكون ذلك بصفة متوازنة، كما أن الدولة ملزمة أن تبني اقتصادا متماسكا من خلال التصدي للمافيات وأباطرة التهريب وإخضاعهم للمحاسبة

⁸² تبعا للاتفاق الذي تم توقيعه بين الاتحاد التونسي للصناعة والتجارة والصناعات التقليدية والاتحاد العام التونسي للشغل يوم الثلاثاء 14 أبريل 2020 برعاية وزارة الشؤون الاجتماعية المتعلقة بتمكين عمال المؤسسات المعنيين بالإجراءات الاستثنائية والظرفية المنصوص عليها بمرسوم رئيس الحكومة المتعلقة بمرافقة المؤسسات والإحاطة بأجرائها من أجور شهر أبريل 2020 فإن الاتحاد التونسي للصناعة والتجارة والصناعات التقليدية

- يعتبر أن توقيعه على هذا الاتفاق إنما هو تجسيد لدوره الوطني وإيمانه بضرورة التآزر الاجتماعي في هذه الأوضاع الصعبة، والتي تنذر بمزيد التآزم على المستوى الاجتماعي خاصة في ظل تواتر المؤشرات عن حالة من الاحتقان لدى العديد من الفئات الاجتماعية. كما أن هذا الاتفاق هو تأكيد من المنظمة على أنها تضع ضمن أولوياتها المحافظة على القدرة الشرائية لعمال وإطارات القطاع الخاص الذين تعتبرهم الثروة الأساسية للمؤسسات وللبلاد

° يؤكد أنه لكي تتمكن القطاعات التي تمر بظروف صعبة واستثنائية، حتى قبل ظهور جائحة فيروس كورونا، من تطبيق هذا الاتفاق فإنه على جميع الأطراف المسؤولة بالإحاطة بالمؤسسات ومرافقتها من خلال الإسراع بتطبيق الإجراءات التي تم الإعلان عنها سابقا من قبل الحكومة في 22 مارس 2020 وعددها 23 إجراء

° اعتبار المبالغ التي دفعت في فترة الحجر لشهر مارس والتي ستدفع كأجور لشهر أبريل استهلاكاً لرصيد العطل الخالصة أو تسبقة على العطل خالصة الأجر لسنة 2020 أو كقروض يتم سدادها عن طريق ساعات العمل الإضافية حال رجوع الأمور إلى طبيعتها أو عبر منح آخر السنة ° يؤكد أن هذا الاتفاق لا يلغي الاتفاقات السابقة المبرمة داخل المؤسسات حول خلاص أجور شهر أبريل ولا يمنع أي مؤسسة من إبرام اتفاقات مغايرة بالتراضي مع إجراءها شريطة أن تتوقف في التوصل إلى المعادلة بين حفظ القدرة الشرائية لعمالها وديمومة المؤسسة في إطار احترام قانون الشغل

° يطلب من الحكومة ومن البنك المركزي إعطاء الإذن للبنوك بوضع التسهيلات اللازمة لتمكين المؤسسات التي تواجه صعوبات في السيولة من خلاص أجور شهر أبريل ° يهيب بالبنك المركزي الإسراع بتفعيل كل إجراءات المساندة التي تم التوصل إليها ومنها خط الضمان، وحث البنوك على إسناد قروض للمؤسسات حتى تتمكن من المحافظة على مواطن الشغل والانطلاق مجددا في العمل لدعم اقتصادنا الوطني بعد انقضاء فترة الحجر الصحي.

والتعويض والمساهمة الجبائية والاجتماعية وليس عن طريق التسول والضغط على الحلقة الأضعف.

الخلاصة

ما نستخلصه من كل ما ذكرناه سابقا هو أنّ واقع الفئات الهشة والمعدمة وحتى الفئات المتوسطة لو صح تسميتها كذلك لم يتطور إلى الأفضل أثناء الأزمة الصحية والاقتصادية والاجتماعية والإنسانية الأخيرة سواء من ناحية النصوص القانونية الصادرة أخيرا أو الواقع المعيش، فقد عمقت الأزمة الهوة بين مختلف فئات المجتمع إضافة إلى أن أغلب الإجراءات المتخذة كانت عبارة عن مسكنات للشعب التونسي الذي أجبر على لزوم بيته رغم أن الإجراءات المتخذة لم تكن ذات فاعلية تذكر.

ما نعيه خاصة على هاته الإجراءات أنها كانت وفيه كالعادة لسياسة الدولة في رعاية مصالح رؤوس الأموال على حساب المواطن العادي، وربما يمكننا القول اليوم أن هناك نجاحا نسبيا في تطويق الأزمة الصحية من الحكومة، ولكن بالنسبة للإجراءات والتدابير المتخذة لحماية الحقوق الاقتصادية والاجتماعية للمواطنين فقد كانت أقل من المتوسط إن لم نقل ضعيفة جدا، كما كانت لها انعكاسات كبيرة جدا على المقدرة الشرائية للمواطن التونسي وخاصة الفئات المعدمة التي زادت الأزمة الأخيرة تدهورا ولوحظ تغييبها من حسابات الحكومة التونسية كما كان الحال في كل الحكومات التي سبقتها.

الأداء الخطابي لرئيس الجمهورية في السياق الوبائي: كيف خاطب الفئات الأكثر تضررا؟

يوسف موسى

ملخص

ندرس في هذه الورقة انعكاسات الكورونا على الخطاب السياسي الرسمي في تونس من خلال تفكيك خطابات رئيس الجمهورية قيس سعيد ونرصده تفاعله مع هذه الجائحة. ونروم من خلال هذه المقاربة رصد مدى انسجام الأداء الخطابي للسلطة الرسمية مع حقوق المواطنين الاقتصادية والاجتماعية، خاصة الغذاء والدواء. ثم أثره على الفئات الأكثر تضررا في هذا السياق الوبائي، وموقع هذه الفئات ضمن رؤية مراكز القرار لآليات معالجة هذه الجائحة. وقد خیرنا أن نتناول بالتفكيك خطاب رئيس الجمهورية لما توفرت فيه من مادة قابلة للعرض والتحليل والنقد من جهتي الكم والكيف. ويقتضي ذلك النظر في أشكال هذا الأداء الخطابي، من الناحية اللسانية والتداولية. إن تحليل الأداء الخطابي لرئيس الجمهورية قيس سعيد حول الكورونا، وسبل التصدي لها صحيا واجتماعيا واقتصاديا، يكون بتحليل سياقات خطابه ومرتكزاتها ثم النظر في الضمني والمضمر في هذا الخطاب وذلك لا يكون إلا بتحليل الاستعارات النازمة لهذا الأداء الخطابي، ومجمل ذلك سيكشف لنا طبيعة المقاربات الاجتماعية والسياسية التي يتبناها الرئيس.

Abstract

In this paper, we will explore the impacts of Coronavirus crisis on the official political speech in Tunisia through the analysis of the speech of the president Kais Said and the way he dealt with the pandemic. The goal behind choosing this approach is to investigate the extent to which the official speech goes in harmony with the social and economic rights of Tunisian citizens in terms of medication and food. Then, we will explore the impacts of this speech on the most vulnerable people and the attention given by the official government to these social categories in the context of particular circumstances imposed by Covid-19 and to see whether they were considered by the decision-makers as part of special measures and procedures taken. In fact, we opted for the segmentation of the president rhetorical performance as it represents an adequate material to be displayed, analysed, and criticized both qualitatively and quantitative. To do so, the rhetorical performance is to be investigated from linguistic and communicative standpoints. The analysis of the president's rhetorical performance about Coronavirus and the social and economic counter-measures against Covid-19 require the analysis of the context of this speech: its basics, the encoded meaning, the explicit messages and their implications. This can't be achieved unless we analyze the metaphors that conveyed the

meaning intended by this rhetorical performance and that will consequently reveal the nature of social and political approaches adapted by the president Kais Said.

“اللغة طريقة فعالة لتغيير سلوك الآخرين. فبالحديث تستطيع أن تغير فعل المرء. وهذا ينطوي أحياناً على نتائج غير لفظية من مثل ما يحدث حينما نطلب من إنسان أن يحرك شيئاً ما أو أن يأتي بشيء ما إلينا. وأحياناً تكون له نتائج لفظية من مثل ما يحدث حينما نغير ما يجب على أحد الناس أن يقول في شيء من الأشياء”⁸³.

جين أتشنسن، بذور الكلام، 1999

المقدمة:

انتشرت جائحة الكورونا أو كوفيد-19 كما تُعرف عند المختصين في العلوم الطبيّة، طيلة الأشهر الأربعة السابقة (من بداية فيفري 2020 إلى مطلع جوان 2020) بوتيرة سريعة وقياسية، فألزمت الناس بيوتهم وأغلقت المطارات وشلت حركة الاقتصاد العالمي، وفرضت نفسها موضوعاً رئيساً على جميع الصعد، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وإعلامياً وثقافياً. ولا نبالغ إذ نقول إن تأثير الكورونا من جهة الحدة والانتشار قد يضاهي تأثير أزمة 1929 الاقتصادية، ويفوق أزمة 2008 الماليّة. ولئن كانت الدراسات الطبيّة الجادة قد سعت منذ شهر فيفري 2020 إلى فهم خصائص الجائحة البيولوجية وتأثيراتها الفيزيولوجيّة وسُبل إنتاج أمصال لها، فإن الدراسات التي اهتمت بدراسة تأثيراتها الاقتصادية والاجتماعيّة والسياسية والثقافية على الأفراد والمجتمعات، لم تبدأ إلاّ منذ أواسط شهر أفريل، وبشكل محتشم.

وننظر في هذه الورقة في انعكاسات الكورونا على الخطاب السياسي الرسميّ في تونس من خلال تفكيك خطابات رئيس الجمهورية قيس سعيد ونرصده تفاعله مع الجائحة. وقد كنّا في البداية نرمي إلى تحليل الخطاب السياسيّ عند أربع جهات رسميّة لها علاقة بإدارة أزمة جائحة الكورونا، وهي رئاسة الجمهوريّة ورئاسة الحكومة ووزارة الصحة ثم رئاسة البرلمان بدرجة أقلّ، لكنّ الحيز الضيق لهذه الورقة لا يسمح لنا بتناول مختلف هذه الخطابات بالتوسّع والعمق الضروريين، فضلاً عن الاختلاف الكبير والجذريّ أحياناً بين مختلف هذه الخطابات على مستوى الطبيعة والخلفيات، خيرنا أن نتناول بالدرس والتفكيك خطاب رئيس الجمهوريّة عن الكورونا لما يتوقّر فيه من مادة قابلة للعرض والتحليل والنقد من جهتي الكَمّ والكيف.

هذه الورقة تندرج في إطار كُراس جماعي بعنوان "في تدبير أزمة الكوفيد-19: الأداء الحكومي والفئات الأكثر تضرراً" وهو الكُراس عدد 4 الذي يصدره المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية

⁸³ جين أتشنسن، بذور الكلام: أصل اللغة وتطورها، ترجمة: وفيق فائق كريشات، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 1999، ص 45

ومن المهمّ أن نقيّم في هذه الورقة أداء السلطة في إدارة أزمة الكورونا ليس فقط في الجانب الطبيّ والاستشفائيّ منها، بل في مدى احترام إجراءاتها مع الحقوق الاقتصادية والاجتماعية للمواطنين، خاصة في ما يتعلّق بالعلاج من كورونا أو توفير الطعام والقوت اليوميّ للملايين التي ستوقّف عن العمل بسبب الحجر الصحيّ الإجباريّ وحظر الجولان خاصة من الشريحة الواسعة من العمال العرضيين في القطاعات الثلاثة، الفلاحة والصناعة والتجارة، أو العمال في القطاع الخاص الذين يتخوّفون من قطع أجورهم، أما موظفو القطاع العام والوظيفة العموميّة فيبدو أنه لم يكن من المطروح قطع أجورهم. ولكن لا بد من التنويه إلى أننا لن ندرس الإجراءات التي اتخذتها الحكومة وأثرها في هذه الحقوق الاجتماعية والاقتصادية، بل سندرس الخطاب السياسيّ وموقع هذه الحقوق فيه. وندرس نسبة حضوره في الملفوظ السياسيّ لرئيس الجمهورية وأشكال هذا الحضور الخطابيّ، هل كان محورا رئيسا أم أنه قضايا هامشيّة. وأما مدى الإجراءات واحترامها الحقوق الاقتصادية والاجتماعية للأفراد ومدى تفعيلها على أرض الواقع، فستتمّ معالجتها في ورقات أخرى. فما هي خصائص الخطاب السياسيّ الرسميّ لرئيس الجمهورية حول الكورونا؟ وما هي سياقاته وما هي خلفياته الفكرية وما هي منزلة الاجتماعيّ والاقتصاديّ في هذه الخلفيات؟ وما هي المضمرات في الرسائل السياسية التي يوجهها رئيس الجمهورية استنادا إلى خطابه الاستعاريّ حول الكورونا؟

المنهج:

تدبير التسمية وصفويّة اللغة: جائحة أم وباء أم فيروس:

تعدّ تسمية الكورونا أوّل المداخل التي تساعدنا في فهم تمثّل رئيس الجمهورية لهذه الجائحة، فالمتتبّع لخطاباته منذ انطلاق الأزمة يلاحظ الارتباك والتردد في تسميتها بالفيروس أو الوباء أو الجائحة أو المرض، ففي خطابه إثر مجلس الأمن القومي المنعقد يوم 20 مارس نجده يفتح خطابه بالقول "للنظر في هذا الفيروس"⁸⁴، ثم يقول "نحن نخوض مع البشرية كلها وليس تونس فحسب حربا ضد هذه الجائحة أو ضد هذا الوباء"⁸⁵، ويرد بعد ذلك "نتيجة لتفشتي هذا الوباء أو هذه الجائحة التي تُسمّى، أو أطلق عليها الكورونا"⁸⁶، أو قوله "حتى نحاصر هذا المرض أو هذه الجائحة"⁸⁷. ونحن حين نشير إلى هذا الارتباك ليست غايتنا نقد التعامل اللسانيّ أو العلميّ غير الدقيق في خطاب أعلى جهة رسميّة في البلاد، بل غايتنا أن نبين أن هذا الارتباك في التسمية يعكس قلقا في فهم طبيعة هذا الطارئ الجديد وعجزا عن القبض على الظاهرة وتكميمها.

⁸⁴ خطاب رئيس الجمهورية يوم 20 مارس إثر اجتماع مجلس الأمن القوميّ.

⁸⁵ خطاب رئيس الجمهورية يوم 20 مارس إثر اجتماع مجلس الأمن القوميّ.

⁸⁶ كلمة رئيس الجمهورية يوم 20 مارس في اجتماع مجلس الأمن القوميّ.

⁸⁷ كلمة رئيس الجمهورية يوم 20 مارس في اجتماع مجلس الأمن القوميّ.

وهذا الارتباك حالة عامة داخل تونس وخارجها وسيستمرّ إلى نهاية شهر مارس. وأما بعدها فسيستقر استعمال الجائحة كتسمية للكورونا في خطاب رئيس الجمهورية بينما سيرسخ استعمال مصطلح كوفيد-19 عند وزير الصحة وكل العاملين في القطاع الصحي وبعض الصحفيين، بديلا عن مصطلح الكورونا. ويبدو تغيّر رئيس الجمهورية لمصطلح الجائحة منسجما مع إصراره على استعمال العربية الفصحى في خطابه، وقد ألمح إلى أن ذلك كان اختيارا واعيا عندما نقد في خطابه أمام سفراء وبعثات الدول العربية والإسلامية الدبلوماسية عجز المثقفين العرب عن إيجاد بدائل معجمية لمصطلحات وظواهر غريبة⁸⁸.

المدونة:

سننطلق من خطابات رئيس الجمهورية قيس سعيد وكلماته وتعليقاته وحواراته مع الصحافة ومع المواطنين في عديد المناسبات. ولقد اعتمدنا على المادة المتوقّرة في الصفحة الرسمية لرئاسة الجمهورية التونسية في الفايبوك (رئاسة الجمهورية التونسية **Présidence Tunisie**)⁸⁹، بدأ بكلمته في أول اجتماع لمجلس الأمن القومي يوم 09 مارس 2020، وصولا إلى كلمته بمناسبة عيد الفطر. ولابدّ من التنويه إلى أنّنا لن ندرس الخطاب السياسيّ لرئيس الجمهورية بشكل عام بل فقط ما تعلّق منه بالكورونا مباشرة أو بالقضايا التي أثّرت وكانت لها علاقة مباشرة بالكورونا سواء أكانت صحّيّة أو اجتماعيّة أو اقتصادية أو سياسية أو دبلوماسية أو غيرها. لذلك سعينا إلى تقصّي مداخلات رئيس الجمهورية المسجّلة في فيدوهات معروضة في الصفحة الرسمية المذكورة سلفا.

وقد خيّرنا الاقتصار على الفيدهات كمنطلق للتحليل، وهذا التمثّي المنهجي اقتضاه سببان: الأوّل هو ندرة الكلمات المنشورة كتابة، والثاني -وهو الأساسيّ-، وهو اختيارنا القصديّ للكلمات الحيّة المنقولة صوتا وصورة لأنّها أنسب في نظرنا لتحليل الخطاب السياسيّ انطلاقا من الأسس المنهجية التي نتبّهّا عن مفهوم الخطاب، بما هو مفهوم أشمل من مفهوم النصّ، أي الخطاب بوصفه كُلاً مؤثّقاً تتدخل فيه عناصر أخرى بالإضافة إلى النصّ اللسانيّ، كالبينة والمكان والزمان والمتلقّي المباشر والمتلقّي غير المباشر وتفاعلات الخطيب أثناء تقديم كلمته بالغضب والمرح والجديّة وباستعمال قسّمات الوجه وحركة اليدين ونبرة الصوت وغيرها. وسنستأنس في هذه الورقة ببعض التصورات الأساسية في نظرية تحليل الخطاب، خاصة تلك المتعلقة بنظرية الخطاب والسلطة، كما طرحها الفيلسوف الفرنسيّ ميشال فوكو (Michel Foucault)، أو تلك المتعلقة

⁸⁸ كلمة رئيس الجمهورية يوم خطاب 17 ماي بمناسبة مائدة إفطار عقدها على شرف سفراء البلدان العربية والإسلامية.

⁸⁹ رئاسة الجمهورية التونسية **Présidence Tunisie** ، <https://www.facebook.com/Presidence.tn>

بتحليل المضمون اللساني للخطاب كما ضبطتها المدرسة الفرنسية لتحليل الخطاب⁹⁰. وسنحاول فيما يلي بسط تصوّرنا لتحليل الخطاب الذي سنلتزم به في هذه الورقة.

خطابات رئيس الجمهورية منذ بداية أزمة كورونا 9 مارس 2020 إلى عيد الفطر 23 ماي 2020.

1. كلمة رئيس الجمهورية يوم 09 مارس في اجتماع مجلس الأمن القومي.
2. خطاب رئيس الجمهورية يوم 18 مارس إلى الشعب التونسيّ يقدّم فيه التدابير الاستثنائية لمنع تفشي فيروس كورونا.
3. كلمة رئيس الجمهورية يوم 20 مارس في اجتماع مجلس الأمن القومي.
4. كلمة رئيس الجمهورية يوم 20 مارس إثر انعقاد مجلس الأمن القومي.
5. كلمة رئيس الجمهورية يوم 23 مارس في مركز البريد.
6. بلاغ رئيس الجمهورية يوم 23 مارس نشر القوات المسلحة للحفاظ على الأمن العام ومراقبة الالتزام بالحجر الصحيّ وحظر الجولان.
7. كلمة رئيس الجمهورية يوم 28 مارس دعوة لأحرار تونس لتوجيه المعونة الطبية للأشقاء الفلسطينيين.
8. كلمة رئيس الجمهورية يوم 31 مارس في اجتماع مجلس الأمن القومي.
9. كلمة رئيس الجمهورية يوم 31 مارس توضيح حول ما راج عن مصادرة أملاك بعض رجال الأعمال.
10. كلمة رئيس الجمهورية يوم 05 بمناسبة نقل المساعدات في ثكنة الحرس الوطني.
11. حوار رئيس الجمهورية يوم 16 أفريل مع صاحب وحدة صناعة الملابس الواقية في القيروان.
12. كلمة رئيس الجمهورية يوم 17 أفريل في اجتماع مجلس الأمن القومي.
13. كلمة رئيس الجمهورية يوم 18 أفريل في الاحتفال بالذكرى 64 لعيد قوات الأمن الداخلي.
14. خطاب رئيس الجمهورية يوم 23 أفريل إلى الشعب التونسيّ بمناسبة دخول شهر رمضان.
15. كلمة رئيس الجمهورية يوم 11 ماي أمام الجيش بمناسبة افتتاح المستشفى العسكريّ الميداني في قبلي.
16. كلمة رئيس الجمهورية يوم 13 ماي في الإدارة العامة لوححدات التدخّل.
17. كلمة رئيس الجمهورية يوم 16 ماي في الأكاديمية العسكرية بفندق الجديد.
18. كلمة رئيس الجمهورية يوم خطاب 17 ماي بمناسبة مأدبة إفطار عقدها على شرف سفراء البلدان العربية والإسلامية.
19. خطاب رئيس الجمهورية يوم 23 ماي إلى الشعب التونسيّ بمناسبة عيد الفطر.

⁹⁰ Maingueneau, Dominique, Les termes clés de l'analyse du discours, Seuil, Paris, 2009, P.19.

تحليل الخطاب

إنّ الحيز الضيق لهذه الورقة قد لا يسمح لنا بعرض نظريات تحليل الخطاب عرضاً دقيقاً، في ظلّ تعدّد مناهجه ومدارسه وتياراته. فمن المعلوم أنّ أول من نحت مصطلح "تحليل الخطاب" هو زيليج سابيتاي هاريس (Zellig Sabbetai Harris) في مقاله المشهورة مطلع الخمسينات في مجلة "Language" الأمريكية⁹¹، رغم أنّ ممارسة تحليل الخطاب تعتبر أسبق من ذلك بزمان طويل، فإنّها لم تتبلور في مناهج ناظمة إلاّ انطلاقاً من منتصف القرن العشرين، خاصة مع الممارسة الأمريكية التي استفادت كثيراً من الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية واتجهت إلى تحليل المؤثرات الخارجية في الخطاب كالحلقات الاجتماعية والموقع الطبقي والتصورات الثقافية والعادات والتقاليد. أما الممارسة الفرنسية لتحليل الخطاب فقد كانت أكثر التصاقاً بالبنية الداخلية للنص معجمياً ونحوياً وبلاغياً مدفوعة بازدهار البحث اللسانيّ البنيويّ وكذلك بالنتائج الباهرة في علم النفس البنيويّ⁹².

وقد حرص الكثيرون على إعادة النظر في مفهوم الخطاب، لتخليص "تحليل الخطاب" من ربة الدرس اللغويّ الضيق الذي حشره فيها البنيويّون بسعيهم لاستبعاد كلّ ما هو فوق النصّ أو خارجه، وخاصة السياقات الاجتماعية والنفسية والتاريخية والثقافية الحاكمة بعملية القول. ويجدر التنويه أنه لم ينصرم عقد الستينات من القرن العشرين ومع موجة ازدهار الدراسات ما بعد البنيوية، إلاّ وقد صار من الثابت عند جمهور الدارسين أنّ تحليل الخطاب أشمل من تحليل النصّ وهذا ما اختزله فوركلوف في معجمه حين قال "إنّ تحليل النصّ جزء أساسي من تحليل الخطاب، لكنّ تحليل الخطاب لا يقتصر على التحليل اللسانيّ. أرى أنّ تحليل الخطاب يتأرجح بين التركيز على نصوص معيّنة والتركيز على ما أسميه نطاق الخطاب، أي البناء الثابت نسبياً للغة والذي يشكّل مكوّنات بناء الممارسات الاجتماعية والشبكة التي تؤلّفها، الثابتين نسبياً"⁹³. فيغدو بذلك الخطاب شاملاً للنصّ وما يحقّه، كالسياق والبيئة والزمان والمكان وكل ما هو فوق لساني⁹⁴.

وبقدر ما سنحاول في هذه الورقة الاستفادة من التحليل السيميائيّ للخطاب السياسيّ من خلال تعقّب الجهاز المعجميّ والدلاليّ والبلاغيّ الناظم لخطاب رئيس الجمهورية قيس سعيد، وخاصة الثابت المعجمي المتكرّر الذي يستعمله في خطابه عادة، فإنّنا نلمع إلى أنّنا سنحاول -على قدر العلم والجهد- توظيف مختلف مناهج تحليل الخطاب بقدر ما يسمح به الانسجام المنهجيّ للتحليل، وسنركّز أساساً على المقاربة الأركيولوجية في تحليل الخطاب كما صاغها ميشال فوكو في

⁹¹كليب، (سامي)، البلاغياتية {القولفعلية} في تحليل أفعال الخطاب السياسيّ، ط1، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 2018، ص، 29.

⁹²كليب، (سامي)، المرجع نفسه، ص، 52.

⁹³فاركلوف، (نورمان)، تحليل الخطاب: التحليل النصّي في البحث الاجتماعيّ، تعريب، طلال وهبة، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت،

لبنان، 2009، ص، 21.

⁹⁴فاركلوف، (نورمان)، تحليل الخطاب: التحليل النصّي في البحث الاجتماعيّ، ص، 21.

كتابه الشهير "حفريات المعرفة"⁹⁵، للوقوف على الخلفيات الفكرية والاجتماعية والدينية والثقافية التي تسيج خطاب رئيس الجمهورية قيس سعيد عن الكورونا.

سياقات الخطاب ومرتكزاته:

سياقات الخطاب:

يقتضي تحليل الخطاب خطوات منهجية ضرورية أولية ينطلق منها الباحث مثل ضبط محدّدات الخطاب وسياقات القول. وقد أشرنا سابقا إلى أهمية اعتماد سياق الخطاب مدخلا أساسيا لفهم النص. ويرى مانغينو (Maingueneau) أنّ الخطاب "يلعب دورا محوريا في إنتاج - كما في تفسير- الجملة المنطوقة، وإذا كانت الجملة خارج هذا الإطار العام فلا يكون لها سوى معنى محتمل. وإنّ تحليل الخطاب يقتضي ربط الجمل المنطوقة بسياقها غير الكلامي"⁹⁶.

ويتمثل السياق العام لخطاب قيس سعيد في تداعيات أزمة جائحة الكورونا في تونس على مدى ثلاثة أشهر من مطلع مارس 2020 إلى نهاية ماي من نفس السنة، وقد تزامن ظهور الكورونا مع أزمة تشكيل ما يعرف بـ "حكومة الرئيس" وما رافقها من تجاذبات عنيفة وحادة بين مختلف الفاعلين السياسيين والاجتماعيين. فحين أكتشفت أول حالة للكورونا في تونس يوم 2 مارس كان الفرقاء السياسيون في الساحة التونسية مازالوا يتبادلون الاتهامات. لذلك لا يستغرب المتلقي إذا وجد في خطاب الرئيس حول الكورونا رسائل مشفرة إلى أنصاره وردودا ضمنية على خصومه. وهذا ما سنحاول تفكيكه وتعريته من خلال النظر فيما وراء خطاب الكورونا. وإلى جانب السياق العام ثمة سياقات خصوصية ضيقة تتعلق بمناسبة كل خطاب كاجتماع مجلس الأمن القومي أو الاحتفال بعيد قوات الأمن الداخلي أو التهنئة بعيد الفطر أو غير ذلك.

أسند النظام البرلماني المعدّل القائم في تونس لرئيس الجمهورية مجموعة من الصلاحيات المحددة والضيقة، تنحصر أغلبها في مرّع السياسة الخارجية والدفاع، وسنأخذ ذلك في الحسبان أثناء دراستنا لخطاب رئيس الجمهورية إبان أزمة جائحة الكورونا. فسياقات الخطاب تحدّد غايته وتضبط شكله وترسم له ضوابطه المعيارية. ويتمثّل خطاب سعيد حول الكورونا في مجموعة من الكلمات والخطابات والتدخلات، نصنفها ثلاثة أصناف حسب سياقاتها:

• الخطاب في السياقات السلطوية، أمام مجلس الأمن القومي وأمام البعثات الدبلوماسية وأمام الجيش والحرس وقوات الأمن والشرطة في مناسبات متعدّدة. وهو خطاب يكون فيه المتلقي على ضربين حسب السياق: متلق داخلي في "الميكرو سياق" هو الجمهور الذي يلقي الرئيس الخطاب

⁹⁵كليب، (سامي)، المرجع نفسه، ص، 31.

⁹⁶كليب، (سامي)، المرجع نفسه، ص، 67.

أمامه، وملتق خارجي في "الماكرو سياق"⁹⁷ وهو عموم الشعب التونسي والرأي العام الداخلي والخارجي المتابع لكلمة الرئيس في نشرات الأخبار أو عبر صفحة رئاسة الجمهورية في الفيسبوك أو عبر البوابة الرسمية لرئاسة الجمهورية.

• الكلمات المقتضبة في سياق الحوارات المترجلة، مثل حوار الرئيس مع صاحب مصنع الكمامات في القيروان، أو كلمته أثناء شحن المساعدات. وهي كذلك ينطبق عليها ما ينطبق على الصنف الأول رغم كونها تتميز بالارتجالية والتفاعلية.

• الخطابات الموجهة إلى الشعب بشكل مباشر وهي كلمة رئيس الجمهورية لإعلان التدابير الاستثنائية لمواجهة الكورونا، وخطاب التهئة بمناسبة حلول شهر رمضان وخطاب التهئة بعيد الفطر. ويكون المتلقي فيها هو الشعب برمته، إليه يوجه الرئيس خطابه مباشرة ويكون الخطاب فيها معدًا سلفًا.

ويمكن تصنيف خطاب الرئيس حول جائحة الكورونا إلى ثلاثة أصناف أخرى حسب نوع الخطاب ومضمونه:

• خطاب في سياقات أمنية وعسكرية وفي سياق مجلس الأمن القومي ويغلب عليها البعد السلطوي والنبرة الحازمة التي لا تفوّت فرصة للإشادة بالجهود العسكرية والأمنية في مواجهة الأزمة والتي تظهر فيها نزعة الرئيس إلى تشييد صورة الزعيم الحازم المرابط الحامي للسيادة الوطنية وأمنها القومي، الضامن لهيبة الدولة ووحدتها المهددة بالتفكك في ظل النظام السياسي المريض في نظره.

• خطاب في سياقات دبلوماسية مثل الخطاب أمام البعثات الدبلوماسية ومثلا البلاغ الصادر عن رئاسة الجمهورية الداعي إلى جمع التبرعات للشعب الفلسطيني. وفيها يستهدف الرئيس بناء صورة الزعيم الإقليمي والأممي الساعي لاقتراح حلول عالمية لصد أزمة الكورونا من خلال المساعي الدبلوماسية مع الزعماء العرب وغيرهم وفي إطار مجلس الأمن الدولي.

• خطاب في سياقات دينية مثل خطاب التهئة بمرضان وخطاب التهئة بالعيد وفيها يرتفع منسوب النبرة الدينية الوعظية والرمزية وفيها يؤكد سعيد في كل مرة تأصله في هويته العربية الإسلامية وتماهيه مع الجماهير في خلفياتها العقدية.

هذه النبرات الثلاث في الخطاب قد تتقاطع في الخطاب الواحد، وتتجاوز مع نزعة اجتماعية بارزة تحتفي بخطاب المظلومية الاجتماعية، اعتبرناها مرتكزات إيديولوجية موجهة لخطاب رئيس

⁹⁷كليب، (سامي)، المرجع نفسه، ص، 68.

الجمهورية حول الكورونا، وسنحاول فيما يأتي من هذا المقال تفكيكها وبيان صلتها بخطاب أزمة كورونا.

مرتكزات الخطاب:

ونقصد بها الخلفيات الفكرية والقناعات الإيديولوجية التي يتأسس عليها خطاب رئيس الجمهورية حول الكورونا، والتي تظهر صراحة في ثنايا الملفوظ أو في مضمراته. ولعلّ أهم هذه المرتكزات، قناعات الرئيس ذات الخلفية الاجتماعية والتي لا يخفيها بل لا يفوت فرصة إلا ويذكر المتلقي بها، أهمها حق الفقراء والمسحوقين والعاطلين في الحياة الكريمة وفي العدل، فنجده يذكر دائما أن إجراءات الحجر الصحي في البيوت وحظر الجولان ستأخذ في الاعتبار أوضاع الطبقات الاجتماعية التي تحتاج الخروج إلى العمل لتأمين قوت يومها وقد قال في ذلك "كيف سيعيش إليّ عندو صغير وإلي ما عندوش عشاء كيفاش يقعد في الدار"⁹⁸.

وما يشد الباحث في هذا القول ليست فقط لغته المنحازة إلى الفقراء في مضمون كلماتها وفي لهجتها الدارجة⁹⁹، بل أيضا أسلوبه الاستفهامي الذي يضع القارئ إزاء حيرة فيما إذا كان الخطاب خطاب حكم أم خطاب معارضة؟ فهل الاستفهام يجري على معناه المباشر وفيه يستفسر رئيس الجمهورية من وزراء الحكومة والمسؤولين الحاضرين في اجتماع مجلس الأمن القومي، عن خطتهم لمواجهة التبعات الاقتصادية والاجتماعية للجائحة؟ أم أن الاستفهام يخرج إلى معنى الإنكار وفيه يستهدف الرئيس مساءلة الحكومة أمام الرأي العام وأمام الجماهير سيما وأنه يعلم مسبقا أن كلمته ستسجّل وستبثّ في النشرة الرئيسية للأخبار، فيصبح بذلك الحاضرون في الاجتماع مجرد متقبّل مباشر لكنه ثانويّ قياسا إلى المتقبّل غير المباشر الغائب في المكان الحاضر في الخطاب وهو الشعب. ونحن نميل إلى التفسير الثاني، إذ لا نعتقد أن الرئيس يجهل الإجراءات التي تعتمدها الحكومة اتخذها للتخفيف من حدة التداعيات الاقتصادية والاجتماعية المترتبة عن الحجر الصحي وعن إيقاف النشاط الاقتصادي على الفئات المسحوقة، خاصة وأنّ رئيس الحكومة يستشير به بشكل دوريّ. وبناء على ما سبق فإنّ هذه الاستفهامات مُساءلة سياسية وأخلاقية من رئيس الجمهورية للحكومة، وكأنتنا إزاء نظام رئاسيّ فيه يرسم رئيس البلاد السياسات ويكلف مجلس الوزراء بتنفيذها ثم يحاسبهم على ذلك، في حين أنّ النظام السياسي التونسيّ الحاليّ قد جعل الحكومة مسؤولة أمام البرلمان حصرا، منه تستمد شرعيّتها.

وتعدّ هذه المساءلة في قراءة من القراءات، من رواسب خطاب قيس سعيد المعارض، الذي لازمه طيلة حملته الانتخابية التي قادته إلى رئاسة الجمهورية، أو لعلّه خطاب معارضة مقصود -من

⁹⁸ كلمة رئيس الجمهورية يوم 31 مارس في اجتماع مجلس الأمن القوميّ.

⁹⁹ من رئيس عُرف عنه تشبّهه بالفصحيّ في معظم الأحيان حتى صار الأمر محلّ تنذّر.

داخل أجهزة الحكم- يؤسس صاحبُه لحملة انتخابية مبكرة تهدف إلى خلق استعداد لدى الجماهير لطرح مشروع استفتاء على تغيير نظام حكم يبدو أن رئيس الجمهورية لا يعتقد في جدواه وفاعليته.

ومن هذا المنطلق نجد رئيس الجمهورية في خطابه يرسم للحكومة خطوط سيرها والمخاطر التي يجب أن ينتبه إليها المسؤولون، وأهمها حليب الأطفال¹⁰⁰ وقوت الفقراء والعمال العرضيين والدواء "توفير الحاجيات الضرورية للمحتاجين البؤساء والفقراء والمحرومين الذين لا يستطيعون ملازمة بيوتهم"¹⁰¹. ولا يخفي رئيس الجمهورية في جل خطاباته انحيازه للفئات الفقيرة ويتعهد دائما بالعمل على تحقيق مطالبها "سنعمل بكلّ جهدنا وبكلّ ما أوتينا من قوّة للاستجابة لمطالبهم"¹⁰². بل ويذهب في انحيازه الطبقيّ أبعد من المعهود -على مستوى الخطاب المعلن على الأقلّ- حين يمدح المتطوعين الفقراء الذين يجودون بالقليل¹⁰³، ويهاجم الأثرياء ورجال الأعمال المتهربين من دعم جهود الدولة في مواجهة الأزمة، بل وينعت بعض أصحاب رؤوس الأموال الذين يحتكرون الغذاء والدواء بمجرمي الحرب. ويذكر بأن البلاد لا تشكو قلة الأموال بل تشكو التوزيع غير العادل لها "هناك أموال كثيرة ولكن هناك توزيع غير عادل لها"¹⁰⁴. ويذهب بعيدا في مهاجمة رجال الأعمال حين يلمح إلى أن أموالهم في البنوك، فيُفهم من ذلك أن المضمّر في الخطاب هو أن هذه الثروات تحت أنظار الدولة وبإمكانها في أيّ وقت مصادرتها ووضع يدها عليها، وتخيل هذا السيناريو أثار مخاوف رجال الأعمال ودفعهم لتكثيف ضغطهم عبر مراكز القوى فكان أن أصدرت رئاسة الجمهورية بلاغا توضيحيًا يوم 31 مارس 2020 إثر اجتماع مجلس الأمن القوميّ، أوضحت فيها أن لا نيّة للدولة في مصادرة أموال رجال الأعمال¹⁰⁵.

ونلاحظ من خلال المعجم المستعمل في هذا الشاهد تخيّر المتكلم لعبارات شديدة الوقع على نفسية الجماهير المتقبّلة، عبارات لم يعتد التونسيون سماعها في خطاب رسميّ، بل ظلّت حكرا على رموز المعارضة الاجتماعية واليسارية. فمن عادة المسؤولين تلطيف العبارات وتسمية هذه الفئات بـ "ذوي الدخل المحدود".

إنّ عدم التناسب بين طبيعة الخطاب وموقع صاحبه (خطاب معارض من رئيس جمهورية) يدفعنا إلى البحث في تفكيك هذه الإشكالية وهنا نجد فرضيتين تفسيريّتين: الأولى أنّ رئيس الجمهورية يتبنى خيارا اجتماعيًا جذريًا ويسعى إلى تفعيله ولكن النظام السياسي الحالي لا يعطيه فرصة فوجد أزمة الكورونا سياقًا مناسبًا لتكثيف نقده للأوضاع الاجتماعية المتردّبة وتحميل الحكومة ومن ورائها

¹⁰⁰ كلمة رئيس الجمهورية يوم 31 مارس في اجتماع مجلس الأمن القوميّ.

¹⁰¹ كلمة رئيس الجمهورية يوم 20 مارس في اجتماع مجلس الأمن القوميّ.

¹⁰² كلمة رئيس الجمهورية يوم 31 مارس في اجتماع مجلس الأمن القوميّ.

¹⁰³ كلمة رئيس الجمهورية يوم 31 مارس في اجتماع مجلس الأمن القوميّ.

¹⁰⁴ كلمة رئيس الجمهورية يوم 31 مارس في اجتماع مجلس الأمن القوميّ.

¹⁰⁵ كلمة رئيس الجمهورية يوم 31 مارس توضيح حول ما راجع عن مصادرة أملاك بعض رجال الأعمال.

الأحزاب والطبقة السياسيّة برمتها مسؤوليّة ذلك، وذلك ما يعطيه شرعيّة لطرح بدائل أخرى أهمّها تغيير نظام الحكم ومنوال التنمية ومشروع مصالحة جديد. وأمّا الفرضيّة الثانية فهي أن نقد الرئيس لأداء الحكومة والمجتمع السياسيّ يدخل في سياق لعبة الشرطيّ الخيّر والشرطيّ الشرير، وفيها تمثّل رئاسة الجمهوريّة بما تحمله من رمزيّة دور الشرطيّ الخيّر وصوت الجماهير لتخفيف احتقان الشعب ودفعه إلى الانضباط لتوجهات الرئيس إلى وجوب الالتزام بالحجر الصحيّ وحظر الجولان. وكأننا بالحكومة الجديدة المولودة في ظروف سياسيّة صعبة وقلاقل برلمانية وتجاذبات عنيفة بين الكتل البرلمانية المشكّلة للائتلاف الحكوميّ فيما بينها، تريد الاستثمار في الكاريزما الناشئة لرئيس الجمهوريّة من أجل إقناع الشعب بالإجراءات الصارمة في ظروف اقتصادية واجتماعيّة محتدمة، وما كان ذلك ليتحقّق إلا بالتنفيس الخطابي وبمغازلة الجماهير عبر خطاب ينتصر لهموم الفقراء.

لكن الإشكال الأكبر هو وعي الرئيس أنّ هذا الخطاب الاجتماعيّ الحماسيّ في غياب القرارات وأدوات السلطة يبقى مجرد إنشاء خطابي. وهذا مأزق سيحاول تجاوزه عبر ما وقّر له النظام السياسيّ من آليات وهي السياسة الخارجيّة والدفاع والأمن. مع هامش الحركة الجيّد نسبيًا الذي تتيحه فكرة "حكومة الرئيس".

ولا يكفي فهم السياقات الحافة بخطاب الرئيس أو خلفيّاته أو مرتكزاته الاجتماعيّة الموجّهة له، بل لا بدّ من تفكيك المرجعيّات التي تسيّجه بتحليل الاستعارات الناظمة لسيرورته الداخليّة. وسنركّز في عملنا على ثلاث استعارات مهيمنة، الأولى هي الاستعارة الرعيّة كما صاغها ميشال فوكو، التي تستحضر علاقة الراعي بالرعيّة بكلّ ما تتأسس من تصوّرات، والثانية هي الاستعارة الطبيّة والثالثة هي الاستعارة العسكريّة.

الاستعارات الناظمة لخطاب رئيس الجمهوريّة حول جائحة كورونا: الاستعارة الرعيّة:

يعتبر ميشال فوكو صاحب الفضل في نحت مفهوم الاستعارة الرعيّة أو استعارة الراعي والرعيّة، ويقصد بها أحد أشكال السلطة في المجتمعات القديمة وخاصة الشرقيّة منها. ويقوم هذا التصوّر للسلطة على اعتبار الحاكم راعيًا والشعب رعيّة، ومن ثمة يترتّب على الراعي قيادة قطيعه نحو المرعى والسهر على سقيه وإطعامه وحمايته وتأمينه في الزبيّة، وعلى الرعيّة أو القطيع طاعة الراعي. ويستخدم الراعي أدوات متنوّعة مثل العصا (عنف الدولة) والمزمار (الجهاز الإيديولوجي). وقد نشأت هذه الاستعارة في الحضارة الفرعونيّة، ثم تسرّبت إلى اليهوديّة فتجلت في التوراة التي صوّرت يهوه بمثابة الراعي لشعبه، وصوّرت بعض الأنبياء في صورة الرعاة الذين يقودون الشعب اليهوديّ وهذا ما نجده في صورة داود وصورة موسى. وتتجلّى هذه الاستعارة بوضوح في الإرث السياسيّ

العربي الإسلامي الذي تأسس على المقولة الشهيرة "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"، بل مصطلح الراعي والرعية مصطلحان دارجان بكثافة في الآداب السلطانية.

إن فوكو حين استفاض في شرح مقولة الراعي والرعية¹⁰⁶ لم يكن يهدف إلى دراسة أنماط الهيمنة في الخطاب السياسي القديم، بل كان يسعى إلى الحفر في طبقات خطاب السلطة والهيمنة في الثقافة الغربية الحديثة والمعاصرة فقادته بحثه إلى النباش في رواسب أنماط السلطة الكلاسيكية والتي تسربت إلى اللاوعي السياسي الغربي المعاصر رغم احتكامه لعلاقات هيمنة حديثة ومختلفة مثل المواطنة والاستغلال الطبقي والعقد الاجتماعي واحتكار العنف وغيرها.

وفي هذا السياق تعقب الاستعارة الرعوية في خطاب رئيس الجمهورية حول الكورونا، مذكرين بخلفيته القانونية التي تقتضي منه ضرورة انتقاء معجم قانوني يتمحور حول مقولة المواطنة وحقوق الإنسان والدولة والفرد والتعاقد وغيرها. فبرغم حرص الرئيس على التأكيد على المقاربة القانونية، إلا أن صورة الأمير العادل والراعي الحكيم الروع التي ترسخت في المخيال العربي الإسلامي، والتي تجد تكتيفها الأبرز في صورة الخليفة عمر بن الخطاب تبرز في كل مرة يتحدث فيها الرئيس عن الحقوق الاقتصادية والاجتماعية للشعب.

وتحضر صورة الراعي الملهم بوضوح، عند ذكر عمر بن الخطاب مرتين: الأولى في حادثة تحميل المساعدات عندما همّ أحد أعوان الحرس بحمل صندوق المساعدة عن الرئيس إلى طائرة الشحن، فسرد عليه حادثة عمر بن الخطاب وأحد عمال بيت المال "حينما كان [عمر بن الخطاب] بالليل يتفقد أمر الرعية واستمع إلى امرأة تشتكي إلى ربها وتقول: تولى أمرنا وأهملنا، فعاد إلى بيت مال المسلمين وأخذ جزءاً من القمح، ومصاحباً بأحد الأعوان، فقال له من كان معه: أحملها عليك أم أحملها عنك يا أمير المؤمنين؟ فقال: احملها عليّ. فقال أحملها عنك أم أحملها عليك يا أمير المؤمنين؟ قال ويحك أستحملها عني يوم القيامة؟"¹⁰⁷.

ويكشف لنا هذا الشاهد المرجعيّات الأخلاقية والحضارية التي ينطلق منها الرئيس في تمثّل صورة الحاكم المثاليّ والراعي المسؤول عن رعيته في قوتها والمسؤول عنها أمام ربّه. فكأننا بقيس سعيد يسعى جاهداً إلى ترسيخ صورة الحاكم المتواضع في أذهان الجماهير، تلك الصورة التي احتفت بها متون التراث العربي الإسلامي بصفتها صورة منشودة تجد تمثيلها في الخلفاء الراشدين وفي عمر بن عبد العزيز، على عكس صورة أخرى مستهجنة كرّسها خلفاء بني أمية وبني العباس الذين كانت تحجهم عن الرعية جحافل الجند والعسس والحجّاب وأبواب القصور.

¹⁰⁶ Michel Foucault, «Omnes et singulatim: Vers une critique de la raison politique», Le Débat 1986/4 (n° 41), p. 5-36. <https://www.cairn.info/revue-le-debat-1986-4-page-5.htm>

¹⁰⁷ كلمة رئيس الجمهورية يوم 05 بمناسبة شحن المساعدات إلى مستحقّها في كئنة الحرس الوطني.

وأما الحادثة الثانية التي يستحضر فيها الرئيس صورة عمر بن الخطاب بشكل صريح فهي حين قال "يوم أمس قمت بزيارة في الليل لأتي لا أريد أن يراني أحد في الواقع إلى ولاية القيروان إلى العلا أسوة بالفاروق عمر بن الخطاب حتى لا يراني أحد"¹⁰⁸. إذن هو رئيس جمهورية هياأة راع عادل يتجول بالليل متفقدًا أحوال الرعيّة مستمعًا إلى شكواها. وقد فهمت هذه التصريحات حينها على أنّها ضرب من ضروب الشعبويّة المفضوحة، ولعلّها تكون كذلك، ولكن من الإنصاف أن نقول أنّ الرجل يبدو أنه يؤمن حقًا باتباع هذا النموذج وهذا المنول السياسي، وأنه منسجم مع قناعاته أكثر مما هو بصدد ممارسة المخاتلة الخطابية.

وبالنظر إلى مجمل الاستعارات الرعويّة الواردة في خطاب الرئيس عن الكورونا نجده متخما بالإحالات الدينيّة التي ترد بصيغ شتى إما استشهادًا بآيات وأحاديث أو بتضمين المعجم القرآنيّ في الخطاب أو باستعارة الخطاب القرآنيّ بطريقة تذهب بالاستعارة الرعويّة إلى أبعد مدى، حين قال مبرّرا إجراءات الحجر الصحيّ ومطمئنًا الشعب على قوته وأمنه "هذه الإجراءات هي لتأمينكم من كلّ خوف ومن كلّ جوع"¹⁰⁹. وفي هذا القول ينتقل صاحب الخطاب من مرتبة محاكاة السلف والمنوال التليد إلى مرتبة محاكاة سلطة الإله حين يستحوذ على العبارة القرآنيّة الواردة في سورة قريش "الذي أطعمكم من جوع وأمنكم من خوف"¹¹⁰. ونحن وإن كنّا لا نشكّ في أن رئيس الجمهوريّة لا يقصد مماثلة نفسه بالإله وأن العبارة تجد تبريرها في الرغبة المحمومة في تحقيق مطلب الفصاحة، والبحث عن أقصى درجات التأثير في المتقبّلين، إلّا أنّنا نلمع إلى أن وضع الحاكم لنفسه في مرتبة الإله مسؤولًا عن إطعام شعبه ليست سابقة في الإرث الخطابيّ العربيّ الإسلاميّ، بل نعثر عليها عند زياد بن أبيه في خطبته البراء، أو عند أبي جعفر المنصور.

ويحرص رئيس الجمهوريّة على تأصيل خطابه عن الكورونا في الموروث الدينيّ الإسلاميّ دائمًا، فالتباعد الاجتماعيّ والالتزام بالحجر الصحيّ يدخلان في باب حفظ الأنفس وهو مقصد كبير من مقاصد الشارع عند المسلمين "هذه الإجراءات ثقيلة ولكنّ الحفاظ على الأنفس وعلى الصّحة هما من مقاصد الشريعة، والعادات والتقاليد لا يمكن أن تغلب على مقاصد العبادات وأهدافها، قال جلّ من قائل: ولا تقتلوا أنفسكم إنّ الله كان بكم رحيم"¹¹¹.

¹⁰⁸ كلمة رئيس الجمهوريّة يوم 17 أفريل في اجتماع مجلس الأمن القوميّ.

¹⁰⁹ خطاب رئيس الجمهوريّة يوم 20 مارس إثر اجتماع مجلس الأمن القوميّ.

¹¹⁰ القرآن الكريم، سورة الإيلاف.

¹¹¹ خطاب رئيس الجمهوريّة يوم 23 أفريل إلى الشعب التونسيّ بمناسبة دخول شهر رمضان.

ويبدو توظيف هذه الترسانة من الحجج والمأثورات الدينية مفهوما في سياق محاولة إقناع أفراد من الشعب بملازمة بيوتهم وإلزامهم بذلك. وهو إجراء عسير التطبيق وقد احتاجت دول عدة إلى تنفيذه بقوة العنف المادي لأجهزتها الأمنية كما في الهند.

الاستعارة الطبيّة:

في هذا المستوى من التحليل نظرنا في خطاب رئيس الجمهورية عن الجائحة فلم نجد له مواقف أو آراء ذات مضمون طبيّ مباشر، إلاّ قوله وحيدة بسيطة دعا فيها الشعب إلى عدم تصديق بعض الذين يبشون خطابا تشاؤميّا¹¹²، والاكتفاء بأخذ المعلومة الدقيقة عن الجائحة "لا تستمعوا إلاّ إلى المختصّين الصادقين"¹¹³. لذلك لن نبحت في المقاربة الطبيّة التي يتبناها قيس سعيد في مواجهة الكورونا، بل سندرس التوظيف السياسيّ للخطاب الطبيّ. فقد حوّل رئيس الجمهورية الكورونا إلى استعارة سياسيّة يوظّفها في توصيف خصومه السياسيّين في تونس. فهم تارة جوائح يتعمّد بمحاربتها "سننطلق بعد أن تمت محاصرة هذه الجائحة لمحاصرة كل الجوائح الأخرى الطبيعيّة والمفتعلة"¹¹⁴. ويعدّ بالانتصار على الكورونا وعلى خصومه السياسيّين "صبرا جميلا وسنتنصر إن شاء الله على هذه الجائحة وعلى الجوائح كلّها بما في ذلك الجوائح السياسيّة"¹¹⁵. وطورا يصنّف أفكار خصومه ومعارضيه بأنّها جوائح تصيب العقول "أخطر أنواع الجوائح هي التي تصيب الأفكار والعقول قبل أن تصيب سائر أطراف الجسد"¹¹⁶.

ويبدو أنّ رئيس الجمهورية استشعر رغبة بعض القوى السياسيّة في الحد من سلطاته وتحركاته وخاصة نقده للنظام السياسيّ القائم وخاصة الأحزاب السياسيّة، لذلك نجده يتخذ الكمامات مدخلا استعاريّا لكي يردّ بعنف خطابيّا على الذين يعتقد في أنّهم يستهدفون إخماد صوته "قد توضع الكمامات خوفا من العدوى ولكن أخطر أنواع الكمامات هي التي توضع في الشرعيات المزعومة لاعتقال الفكر وأسر العقل"¹¹⁷.

الاستعارة العسكريّة:

ذكرنا في بداية هذه الورقة أن تدبير رئيس الجمهورية لجائحة كورونا لا يخرج عن فهمه للسلطة وعن تمثله لعلاقاتها، وقد ذكرنا ولع الرئيس صورة الزعيم الحازم المرابط في الدفاع عن وحدة البلد وسلامته، ولا يخفي خطابه إعجابه بالمصطلحات السلطويّة التي تحيل على شكل

¹¹² إشارة إلى الطبيب الذي صرّح في إحدى القنوات الفضائيّة أنّه يتوقع وصول عدد المصابين في تونس إلى 300 ألف بحلول نهاية أبريل.

¹¹³ خطاب رئيس الجمهورية يوم 23 أبريل إلى الشعب التونسيّ بمناسبة دخول شهر رمضان.

¹¹⁴ خطاب رئيس الجمهورية يوم 23 ماي إلى الشعب التونسيّ بمناسبة عيد الفطر.

¹¹⁵ حوار رئيس الجمهورية يوم 16 أبريل مع صاحب وحدة صناعة الملابس الواقية في القيروان.

¹¹⁶ خطاب رئيس الجمهورية يوم 23 ماي إلى الشعب التونسيّ بمناسبة عيد الفطر.

¹¹⁷ خطاب رئيس الجمهورية يوم 23 ماي إلى الشعب التونسيّ بمناسبة عيد الفطر.

مخصوص من أشكال السلطة، ذلك الذي يعلي من قيمة الدور العسكري في تحقيق الوحدة والانضباط. وهذا المنع في التحليل لا يبرز فقط في خطابات الرئيس في سياقات أمنية وعسكرية وفي سياق مجلس الأمن القومي، أين لا يفوت فرصة للإشادة بالجهود العسكرية والأمنية في مواجهة الكورونا، بل تبرز أساسا في الاستعارات العسكرية التي أطلقها على الأطباء في مجلس الأمن القومي حين نعتهم بقوات الطلائع البيضاء "وأتوجّه [بالشكر] أيضا في هذه المناسبة لقوات الطلائع البيضاء من الإطّار الطيّ وشبهه الطيّ والإداريين"¹¹⁸. ثم كرّرها بعد أسبوع في خطاب التهنئة بشهر رمضان "لابدّ من التوجّه مجددا بأسى آيات الشكر للجميع، لقوات الطلائع البيضاء"¹¹⁹.

ولا تقتصر عسكرة الخطاب على نعت الأطباء والجهاز شبه الطيّ بقوات الطلائع، بل تتحوّل الكمامات إلى سلاح ويتحوّل تصنيعها في ظروف الأزمة إلى شكل من أشكال دعم المجهود الحربي "هي سومها بـ 300 مليم وتولي بدينارين فين المجهود الحربي؟ والتطوّع كما تطوّع العمال هو مجهود حربي، ليا عطى ربّي موش باش يلوج على الربح، يلوج باش يساهم في المجهود الحربي الكمامة سلاح في مواجهة الفيروس أو الجائحة"¹²⁰. ويصبح المحتكرون مجرمي حرب في نظر رئيس الجمهورية.

على سبيل الخاتمة:

حاولنا في هذه الورقة أن ندرس خطاب رئيس الجمهورية قيس سعيد حول الكورونا، وسبل التصدي لها صحيا واجتماعيا واقتصاديا، من خلال تفكيك سياقات خطابه ومركزاته ثم نظرنا في استعاراته الناظمة والتي من خلالها حاولنا اكتشاف طبيعة المقاربات الاجتماعية والسياسية التي يتبناها الرئيس. وانتهينا إلى أن الكورونا بقدر ما كانت غاية الخطاب في كثير من الأحيان يستهدفها الرئيس بالإجراءات والقرارات، فأنها أيضا كانت في كثير من الأحيان مناسبة لطرح تمثلاته السياسية وقناعاته الاجتماعية في إدارة أزمة الخيارات السياسية في تونس على جميع الأصعدة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وكانت مناسبة لإطلاق تصريحات قوية ضد خصومه المفترضين، ومن ثمة تغدو السلطة صانعة للخطاب والخطاب بدوره منتجا للسلطة¹²¹. حتى أن هاجس الأزمة السياسية يطغى أحيانا على تفكير الرئيس حتى يغطي الهاجس الصحي، فتعترضنا في خطابات المرتجلة زلات لسان فرويدية يسمها النحاة بدل الغلط والنسيان، حين يقول في مستهل كلمته في افتتاح اجتماع مجلس الأمن القومي يوم 20 مارس "نعتزّ باستقلالنا وبحريّة قرارنا في ظلّ أوضاع سياس-صحيّة

¹¹⁸ كلمة رئيس الجمهورية يوم 17 أبريل في اجتماع مجلس الأمن القومي.

¹¹⁹ خطاب رئيس الجمهورية يوم 23 أبريل إلى الشعب التونسي بمناسبة دخول شهر رمضان.

¹²⁰ حوار رئيس الجمهورية يوم 16 أبريل مع صاحب وحدة صناعة الملابس الواقية في القيروان.

¹²¹ Foucault Michel, La volonté de savoir, Gallimard, Paris, 1976, P. 133.

وسياسية أيضا"¹²². فقد كان ينوي الحديث عن الأوضاع الصحية لكن الأوضاع السياسية فرضت نفسها على القول فارتبك ثم صححها.

¹²² كلمة رئيس الجمهورية يوم 20 مارس في اجتماع مجلس الأمن القومي.

المحور الثاني:

**بورتريه الفئات السوسيو- مهنية الأكثر تضرراً من
الحجر الصحي**

النساء العاملات بحقول الاستلاب زمن الكورونا: ذكورية الفضاء، والهيمنة المزدوجة¹²³.

رضا كارم

الملخص

لم تغير مسارات الثورة أوضاع العاملات في القطاع الفلاحيّ تغييراً جذرياً، بل نعتقد أنّها سلّطت أضواء لا عهد لنا بها على مجمل الشروط التاريخيّة والرّمزيّة التي تصف نظام عمل هذه الفئة الاجتماعيّة في المزارع. فدفعت بقضيتهم إلى طاولات النقاشات، ومركزتها ضمن الأدب الاحتجاجيّ و"سوسيولوجيا الفعل الجماعيّ في تونس"¹²⁴. ونحن ندرس رهن هؤلاء الكادحات ضمن سياق يسوده فيروس كوفيد-19، محاولين الكشف عن بنية الهيمنة الممارسة على الكادحات وتأصيلها ضمن سياقات إنتاجها وتأثيرات الحجر الصحيّ في علاقاتهم بمحيطهم العائليّ وموقعهم في سياسات الحكومة. ونهتمّ بفحص دور البطركيّة والهيمنة الذكوريّة في الاضطهاد المسلّط على عاملات القطاع الفلاحيّ والآثار السوسيولوجيّة والطبقيّة والنفسية لعمليات الاضطهاد تلك خصوصاً ضمن راهنية يسودها سياق كورونيّ متشنّج. ونتسلّح ببعض المكتسبات النظريّة للدراسات الجندريّة والدراسات الذكوريّة، لمحاولة متابعة الجهود السّابقة ولكن من زاوية نظر مختلفة.

Abstract

The revolution paths have not changed the situation of women workers in the agriculture sector radically. Rather, we believe that it has brought to light all the historical and symbolic conditions that characterize it and describe the work system of this social group on farms, it pushed their cause into discussion tables and placed in the form of protest literature and the sociological of the collective action in Tunisia, and we are studying the situation of this hard workers in a context dominated by Covid-19 virus. Trying to reveal the structure of domination practiced on them and the effects of quarantine in their relationships with their family surroundings and their position in government policies. We are interested in examining the role of the patriarchal and masculine domination in the persecution of female agricultural workers as well as the sociological, class and psychological effects of such persecution especially in a current period of tension due to coronavirus. Armed with some theoretical gains of gender studies and masculinity studies to follow up on previous efforts but from a different perspective.

¹²³ أتوجّه بالشكر والعرفان إلى الأستاذة آمال قرامي، وخالد عبداوي، وكريم فارح، ومنذر اليوسفي، ومحجوب نصيبي، وعلاء حامدي، وبشير البوكاري، وطارق دريدي، وخالد عبيدي، ونسيم الكافي، وهدى بحروني.

¹²⁴ عنوان الكراس عدد 2 للمنتدى التونسيّ للحقوق الاقتصاديّة والاجتماعيّة، إشراف، سفيان جاب لله، تونس، 2019.

في لحظات التحول الجذري - الثورة بالمعنى العتيق - فإن هذا على وجه الدقة ما يتيح القدرة الشعبية على ابتكار سياسة جديدة تماما، واقتصاد جديد تماما، وأشكال اقتصادية جديدة تماما.

ديفيد جريبر

أحبنا في مستهل هذه الورقة أن نضعها الموضوع الذي تدرج ضمنه حتى نؤسس لبيدات تواصل سليمة مع جمهور القراءة. فهي ليست عملا بحثيا أكاديميا خالصا، ولا هي من جنس المقالات المحكمة. إنه مقال منخرط في باب الكراسات التي يعدّها المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، ونحن نخطّ عملنا هذا بهدف كتابة واقع الكادحات وقد انطبع بخاصية تاريخية وراهن معقد وملغز يسوده الكوفيد-19. وبذلك فإنّ المقال بعض من كراس يضمّ مقالات أخرى، وهو مؤطر "بفعل نضاليّ بحثي" يتحرّك معرفيا، مثلما نأمل، ضمن خطة ديفيد جريبر David Graeber في الذهاب إلى الفاعلين التاريخيين المهمّشين من قبل السّيادات الطبقيّة والسلطويّة المهيمنة لتمثّل واقع الجماهير وإدراك خلاصاتهم ومجمل حلولهم لمغالبة المآزق وتشديد حيواتهم رغمها¹²⁵. وفضلا عن سياقات المقال المعرفيّة، لا بدّ من وضعه ضمن تاريخه المحايث الموصول إلى الحجر الصّحّي وأوامر الحكومة والخوف من الفيروس وأثاره.

فطالما أعاد زمن الأوبئة تشكيل بنيات التّمثّل والتّجريد والحركة وملامسة التّاريخ العيني. إنّه زمن تتخفّى خلاله المجتمعات خلف خطاب "التّباعد" لتأمين السّلامة العامّة للأفراد. ولم تنشأ مقولة التّباعد من وحي الرّاهن ومجازاته بل هي حالة تاريخية وخبرة راكمتها البشريّة نجد صدى لها في كتاب المراقبة والمعاقبة لميشال فوكو Michel Foucault الذي أشار إلى "أنّ أعلى درجة يمكن أن تصل إليها السّلطة هي عندما يصبح النّاس الخاضعون لها يتوهّمون أنهم أحرار مخيرون. وهذا النوع من السّلطة لا يحتاج إلى تعاقد اجتماعي، بقدر ما يحتاج إلى إطار عام تتحرّك من خلاله السّلطة، بحيث تبدو أهدافها متّفكّة مع الاختيارات القسريّة للأفراد، كما هو الحال في زمن الأوبئة والكوارث"¹²⁶.

فالخوف من الموت، يدفع النّاس إلى قبول سياسات العزل الكليّ للأفراد المسماة حجرا صحّيّا شاملا يمنع كلّ التّقاء بشريّ باعتباره مقدّمة حتميّة لانتقال العدوى وانتشار الوباء بين المجموعات البشريّة. وفي تقبّل هذا الحظر تنحسر حرّيّة الإنسان إلى مستوى البقاء مجردا من كلّ معنى خارج وجود جسديّ رثّ محاصر بالجدران وممنوع من الاتّصال الحميم بالآخر والمشاركة المباشرة في تدبّر

¹²⁵ جريبر، ديفيد، وميلستين سيندي، الأناكيتية، والثورة، والإنسان، ترجمة، أحمد حسّان، القاهرة، 2016، مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحّية والمعلومات، ص-ص، 64-65.

¹²⁶ أنزولا، علي، الطّاعون والسلطة، الرابط: <https://www.alaraby.co.uk/opinion/2020/4/28/>، تاريخ النّشر، 2020/04/29، تاريخ الاطّلاع، 2020/05/04.

الشأن المعتاد بما في ذلك تقاسم حديث صباحي تؤمنه قهوة لطيفة قبل الانصراف إلى العمل. إن هذا الخوف من النهاية جعل الإنسانية قاطبة تقبل مجرد "الحياة العارية" بعبارة جورجيو أغامبن Giorgio Agamben؛ مجرد النجاة والخلص الفردي بما هما مطلبان ذاتيان لا يستقيمان دون هجر الآخر مجتمعاً كان أو ثلّة من الأصدقاء أو عائلة. "من الجلي الآن أن الإيطاليين مستعدون للتضحية بكل شيء أو ما يقرب من كل شيء: شروط حياتهم الطبيعية، وعلاقاتهم الاجتماعية، مهتهم، وصولاً إلى صداقاتهم، ووشائجهم فضلاً عن اعتقاداتهم الدينية والسياسية حتى لا يمرضوا. إن الحياة العارية- والخوف من فقدانها- ليس أمراً يضرّ بالإنسان بل هو إعماء للبشرية وفصل بينها"¹²⁷. والواقع أنه ما من مجتمع أبدى سلوكاً مخالفاً جذرياً لسلوك الإيطاليين وخضوعهم الإرادي لسياسات الخوف التي تبناها أو فرضت عليهم ضمناً.

يمكن أن نوّكد دون حذر علني أن المجتمع التونسي بدوره لبي بطريقة أو بأخرى أوامر الحكومة التونسية وانضبط لما قرّرت من حجر صغي وحظر جولان ليلاً ومنع كلّ تجمع وإغلاق المقاهي والمطاعم والمؤسسات التربوية والمساجد والأسواق فضلاً عن منع التنقل بين الجهات وحتى داخل الولاية الواحدة. ولكي ينجح مبدأ الفصل بين الأشخاص وتعميم ما سمي لاحقاً "التباعد الاجتماعي"، كان لزاماً على أهل الحكم تنظيم إجراءات الحجر حتى لا يتحوّل الخوف من الموت كورونياً إلى الموت جوعاً. ولذلك تواصل عمل قطاعات عمالية كثيرة أهمها المخازن ومواد التنظيف التي باتت ضرورة تجاوزت وظيفتها التقليدية إلى وظيفة حادثة قد تفوق في أهميتها الأدوية، خاصة وأن كوفيد-19 أبان عن بدائية تلك الأدوية التي طالما اعتقدنا في "نجاتها التطبيبية".

ومن بين فئات المجتمع وطبقاته التي أعيها التهميش وتجاهلتها الذاكرة السوسولوجية والمذكّرة السلطوية لدولة الاستغلال، نشير إلى "المليون ونصف المليون" من العاملات والعمال بعبارة الفخفاخ متحدّثاً عن الذين ظلّوا يكافحون في مقارّ تشيئتهم لصناعة ما به تستقيم نظافة البيئة المنزلية تعقيماً وتطهيراً من شوائب الفيروس من جهة، وما يؤسس المائدة الغذائية اليومية من أطعمة وأشربة: خبز، وخضرا، وغلالاً من جهة أخرى. وضمن هذه الفئات المهمشة التي تباين تصريف جهودها بين الإحضار والتغيب، نشير إلى النساء العاملات بقطاع الفلاحة عامّة، وما يكابدنه من مشاقّ ينوء الرجال بحملها. وهي مشاقّ لا تبدأ من معضلة التنقل وشروطه الاستعبادية، ولا تنتهي عند سياسات التّأجير المهينة والمخالفة للتّظم القانونية المتبعة المسمّاة الأجر الأدنى

¹²⁷ Agamben, Giorgio, «Qu'est donc une société qui ne reconnaît pas d'autre valeur que la survie?»,

<https://www.nouvelobs.com/idees/20200427.OBS28058/giorgio-agamben-qu-est-donc-une-societe-qui-ne-reconnaît-pas-d-autre-valeur-que-la-survie.html>, publié, 27/04/2020, consulté, 05/05/2020.

الفلاحيّ. ذلك أنّ العودة إلى المنزل هي مواصلة للعمل من تنظيف وطبخ ومواصلة للعناية بالآخر ممثلة في الرّوج وحاجاته والأبناء وانتظاراتهم.

ونسعى في هذا المقال إلى تتبّع ملامح يوميات العاملات في الفلاحة في الشّروط التّاريخيّ المميّز بسيادة فيروس كوفيد 19 على الواقع والمعنى؛ سيادة برز بعض منها في بكاء ممثلي السّلطة وجزع جماعة الفريق العلميّ المؤهل وفق منطوق أهل الحكم لقراءة يوميات الفيروس ويومياتنا استتباعا. ونسأل: فيم تتمثّل سياسات الحجر الصّحّيّ وأوامره ونواهيه في الحالة التّونسيّة؟ ما هي الصّورة العامّة للنّساء العاملات في حقول الفلاحة الرّاكبات "شاحنات الموت"؟ أيّ دلالة طبقيّة وجندريّة وذكوريّة وثقافيّة للحجر الصّحّيّ الذي ينتظر خروج النّساء إلى العمل دون شروط حماية مهما كان نوعها؟ لماذا يقتصر العمل الفلاحيّ في الحقول على النّساء دون الرّجال، خاصّة في الرّاهن من السّياقات الكورونيّة؟

المنهج

نعمد في مقالنا هذا على نصوص منشورة في مواقع إلكترونيّة وحلّلنا بياناتها واستفدنا من معطياتها. ولم نكتف بذلك بل تحدّثنا عبر "الميسنجر" إلى أصدقاء من سيدي بوزيد، وباجة شاركونا ما يعرفونه عيانا ويعيشونه يوميّا فضلا عن اطلاعهم المباشر من خلال العمل التّضامنيّ على البيئة الاجتماعيّة لعموم هؤلاء النّسوة وما يتعرّضن له من استغلال من أصحاب الشّاحنات التي تقلّهم ومن مالكي الأرض. وبذلك فإنّنا سنعمد "معطيات من الدّرجة الثّانية"، إن صحّت العبارة، وذلك لاستحالة التّنقل في هذه اللّحظة التّاريخيّة. ولتحليل المعطيات والبيانات والنّصوص والفيديوهات التي أمكننا جمعها، سنستأنس ببعض المكتسبات النّظريّة للدّراسات الجندريّة والدّراسات الذّكوريّة. ونرنو من خلال العرض النّظريّ اللاحق إلى تقديم الإطار العامّ النّاطم لحركة التّحليل في حواريّة مع جمهور التّلقيّ تفترض تعريفا مسبقا ببعض المفاهيم وسياقات إنتاجها المعرفيّة، ومن ثمّ نقترح مدخلا إحصائيّا يتضمّن بيانات حول وضعيّة المرأة الريفيّة العاملة في قطاع الفلاحة.

الدّراسات الجندريّة والدّراسات الذّكوريّة

إنّ الدّراسات الجندريّة حقل بحثيّ يكشف عن تشكيل الأنوثة والذكورة لأشكال تفكير النّاس، وتمثّلاتهم لممارسات السّلطة والعلاقات بين الأشخاص وفهم مسائل مثل الهويّة والجنسانيّة. أي أنّهم يصفون على تلك القضايا صورة الرّوج أنوثة / ذكورة. وتركّز الدّراسات الجندريّة على نقد أبويّة المجتمعات واستتباعاتها المختلفة على الرّجال والنّساء وعلى المؤسّسات السياسيّة وقضايا الأسرة والعمل والفنّ والرياضة. وتمتّح هذه الدّراسات من علم الاجتماع والأنثروبولوجيا والفلسفة ومكتسبات العلوم الإنسانيّة في مختلف أنماط التّمثّل، وتشير إلى بنية النّظام القائم على

السيطرة على الإناث وقمعهم من قبل الذكور. وهي دراسات تهتم بتحليل النظام الجندري بأسره من جهة الوسائل التي تعتمدها الثقافات والمجتمعات والتنظيمات السياسية وأنماط التفكير في إنتاج مفهوم يقوم على الثنائية المتباينة للجندر، ثم اعتبار ذلك المفهوم قانونا يجدر بها اتباعه والخضوع إليه. فالجندر مقولة سوسيوثقافية وليس ظاهرة طبيعية. وتميل المجتمعات إلى تحديد كلا الجندين تحديدا بيولوجيا ومن ثم تتبني تصورات متخيلة حول ما يبدو لها اختلافا طبيعيا بين المرأة والرجل¹²⁸. وبناء على ذلك الاختلاف الطبيعي، يتم توزيع الأدوار الاجتماعية للمرأة والرجل ضمن المجتمع الواحد توزيعا جندريا يحول الفعل الاجتماعي إلى فعل مجندر خاضع لإيدولوجيا التفوق الذكوري ودونية المرأة وتبعيتها.

أما الدراسات الذكورية فقد نشأت بما هي مبحث ضمن مجموع أبحاث النسويات وباعتبار الرجال جندرا بالنهاية وليس فيهم ما يميزهم من النساء¹²⁹ غير التلميحات ذات الطبيعة الثقافية والاجتماعية التي تبدي انبهارا بالأندرو والفاليس Andro et Phallus أي الذكر والقضيب حتى تحولا إلى نمطين فكريين يركزان ما هو ذكوري وما هو قضيبي، وبمباشرة بالاستتباع ما هو أنثوي وما هو مدور كثنائي¹³⁰. ولا تركز الدراسات الذكورية على الزوج أنوثة / ذكورة ولا على الوجهين الجندريين لبنية هذا الثنائي بل تحصر دراستها على الرجال بما هم جندر مستقل وتهتم بالبحث في التراتبيات والبطركية ضمن هذا الجندر والكشف عن حجم التناقضات داخله¹³¹. وهي تناقضات تنبني على بنيات اجتماعية وثقافية مثل العرق والإثنية والطبقة والسن واللون. وتطورت هذه الدراسات "في السنوات الأخيرة تطورا ملحوظا في الغرب فظهرت اختصاصات فرعية كعلم نفس الرجال وسوسولوجيا الرجال وذاع صيت عدد من الدوريات العلمية المتخصصة في هذه النوعية من الدراسات"¹³².

وتمثل هذه المرحلة التاريخية المتميزة بالحظر والإلزام والمنع والفرض والضبط أرضية خصبة لعودة الهيمنة الرجولية. إنها مرحلة تجعل وضع النساء العاملات بحقول الفلاحة وضعا أشبه ما يكون بمنبوذ جورجيو أغامبن الذي يستمر في الظهور "في الوجود المعاصر من خلال وضع المهتمشين والمقصيين والأجئيين والمرحليين إلى معسكرات الاعتقال. ومعسكر الاعتقال ليس مؤسسة سجنية عقابية وحسب، بل هو اليوم كل فضاء لا تميز فيه بين الحياة العارية (...). نعتي

¹²⁸ Roof, Judith, Gender Studies, in Encyclopedia of Sex and Gender, edited by, Malti-Douglas, Fedwa, Detroit, 2007, p-p, 624-626.

¹²⁹ لمزيد الاطلاع، انظر/ي، عبداوي، خالد، بناء الرجولة من خلال خطاب المغازي، إشراف، أمال قرامي، ماجستير مرقونة بكلية الآداب والفنون والإنسانيات بمتوبة.

¹³⁰ Dialmy, Abdessamad, Ville, sexualité et islamisme, 2018, IMPR RECHERCHE, p-p, 44-49.

¹³¹ Kimmel, Michael, Masculinities, in, Men and Masculinities A social, cultural and Historical Encyclopedia, Edited by Michael Kimmel and Amy Aronson, SantaBarbara, Denver, and Oxford, 2004, ABC CLIO, p, 503.

¹³² قرامي، أمال، تصدع بنية "الذكورة المهيمنة" ومحاولات إنقاذها، في باحثات الكتاب الثاني عشر: تفكيك مفهوم الذكورة المهيمنة الرجولة والأبوة اليوم، بيروت، 2006-2007، المركز الثقافي العربي، ص، 101.

الحياة الطَّبِيعِيَّة التي لا همَّ لها إلا العيش ومواصلة البقاء والحياة المؤهَّلة سياسيًا¹³³. أي بين الوجود الحيواني في حدِّه البيولوجي والوجود الثقافي بما هو فعل وتفاعل وخلق وصناعة موقف وسياسات.

مدخل إحصائي

يُلْقَى على المرأة أغلب ثقل العمل الفلاحيّ سواء تعلّق الأمر بتربية النحل أو تربية الدواجن أو الأغنام والأبقار والماعز. وتصل نسبة النساء المهتمّات بتربية الدواجن أو النحل إلى 14.3% مقابل 4.3% من الرّجال. وتعتبر المرأة الرّيفيّة العاملة بقطاع الفلاحة المسؤول الأوّل على طعام أفراد العائلة وهنّ مطالبات بالعناية بمطالب الأطفال والزّوج. وتقوم 67.2% من النّساء بهذه الأعمال مقابل 2.5% من الرّجال. ومن بين 33.9% من المستجوبين الذين أعلنوا أنّهم ينهضون بأعمال منزليّة، تشير البيانات إلى نسبة 64.4% من النّساء مقابل 1.5% فقط من الرّجال. ومن بين المعطلّين عن العمل غير الباحثين عن شغل، ونسبتهم قياسا إلى مجموعة المعطلّين أكثر من 25%، تقع المرأة الرّيفيّة في أعلى سلّم التّهميش وتصل نسبة إقصائها إلى 41.2% مقابل 8.5% من الرّجال. وتقتصر مهن المرأة الرّيفيّة على "الإعانة المنزليّة"، والرّعي، والعمل الفلاحيّ ذي الأجر المنخفض، والنّساء مطالبات أكثر من الرّجال في المجال الرّيفيّ بإنجاز الأعمال الفلاحيّة المتنوّعة وتحمل مشاقّها وأعبائها. وتزداد معاناة المرأة الرّيفيّة في حال تظافر عوامل ضاغطة مثل قضايا التّمدرس والشيخوخة والمرض. ذلك أنّ نسبة عالية من النّساء الواقعات ضمن آثار هذه العوامل يواصلن رغم ذلك القيام بالأعمال المنزليّة ويعتبرن أنفسهنّ غير معنيّات بالبحث عن فرص شغل خارج منازلهنّ. ومن الجليّ وجود تقسيم واضح للأدوار في العائلة الرّيفيّة. إذ تظهر الأرقام أنّ المرأة تساهم ب 12.9% من نفقات العائلة ولا تساهم في القرار المتّصل بالنّشاط الاقتصاديّ العائليّ إلا بنسبة 3.5%. ووحده الزّوج من يقرّر في مسائل مثل التّربية بنسبة 72.7%. ويستبعد ما يقرب من ثلث النّساء من عمليّات بيع المحصول فيما يشير 66.7% من المستجوبين إلى فعل تشاركيّ بين المرأة والرّجل. أمّا إذا رغبت المرأة في تغيير نشاطها دون استشارة زوجها، فإنّ 25.4% من النّساء يفعلن ذلك، مقابل 74.6% من الرّجال. ويبدو الشّبّان من الجندرين أكثر استقلاليّة وأقدر على الدّفاع على هذا الخيار¹³⁴.

ومما توصّلنا إليه من مقاطع فيديو ومن شهادات ميدانيّة، نشير إلى تباين صريح في الأجور بين النّساء الفلاحات والرّجال، وإلى استغلال لا قانونيّ للعاملات في قطاع الفلاحة اللّاتي لا يتجاوز

¹³³ أغامين، جورجيو، المنبوذ السلطة السيادة والحياة العارية، ترجمة، عبد العزيز العيادي، بيروت، 2018، منشورات الجمل، ط1، ص، 6.
¹³⁴ B'chir, Abdelkhalek, Lahmar, Hafed, La femme acteur émergent rapports de genre et mutations multiformes dans le monde rural Etude sociologique dans le centre-ouest de la Tunisie, CREDIF, 2016, p-p, 140-151.

الأجر بالنسبة إليهنّ عتبة 13 ديناراً في أفضل الحالات و10 دنائير في الغالب الأعمّ. ولم يتغيّر الوضع كثيراً أثناء الحجر الصّحّي العامّ، بل مازلنا إلى أيّامنا هذه نشهد حوادث مرور قاتلة تذهب عاملات الفلاحة ضحايا لها دون قدرة أجهزة الدّولة على بذل أيّ جهد لتغيير واقع التّنقّل فضلاً عن قضايا الأجر والمساواة والضّمان الاجتماعيّ والتّغذية الصّحيّة.

حقوق الفلاحة التّونسيّة فضاءات خارج الحجر الصّحّي وخارج تمثّلات السّلطت

أعلنت الحكومة التّونسيّة الحجر الصّحّي ابتداء من 22 مارس المنقضي. وأورد موقع "حقائق أونلاين" ما يلي: "أفادت رئاسة الحكومة في بلاغ لها بأنه على إثر اجتماع مجلس الأمن القومي المنعقد اليوم الجمعة 20 مارس 2020 انتظم مجلس وزاري مضيق بإشراف رئيس الحكومة إلياس الفخفاخ للتداول في التدابير العمليّة والإدارية لتنفيذ القرارات المعلن عنها من قبل رئيس الجمهورية. وأكدت أنه تقرر انطلاق العمل بالحجر الصحي العام ابتداء من يوم الأحد 22 مارس على الساعة السادسة صباحاً ويتواصل إلى غاية 4 أبريل 2020"¹³⁵. واستثنت الحكومة من المعنيّين بإجراءات الحجر العاملات والعاملين في القطاعين العامّ والخاصّ في مجالات "الغذاء، الصحة، الإدارة، القضاء، الطاقة، الأمن، الماء، النقل، الاتصالات، الإعلام، النظافة والأنشطة الصناعيّة الحيويّة"¹³⁶. ولم يشر بيان الحكومة إلى النّساء العاملات بالمزارع رغم أنّهنّ يشكّكن 80% من اليد العاملة في القطاع الفلاحي¹³⁷ وفق ما أفادت به نائلة الزّغلامي الكاتبة العامّة للجمعيّة التّونسيّة للنّساء الديمقراطيّات.

وفي جميع تدخّلات رئيس الحكومة ومجمل الأسئلة التي تلقّاها لم يشر البتّة إلى النّساء العاملات في القطاع الفلاحيّ، ولم يتعرّض إلى أدوارهنّ الاقتصاديّة، ولا إلى أوضاعهنّ في تلك المزارع وأشكال تنقلهنّ وظروف ذلك التّنقّل. ولم تكن أسئلة محاوراته ومحاوريه لتلتفت إلى وضع أولئك النّساء، فقد كان الإلحاح السّياسي والملقّات التي تنبئ بالفساد المبرّر من الدّولة في خطاب رئيس الحكومة، أكثر أهمّيّة وضروريّة من حياة عاملات تعرّضن يوم 8 ماي المنقضي إلى حادث جديد أدّى إلى مأس جديدة¹³⁸ لا تشير إليها بيانات الحكومة زمن الحجر الصّحّي وفي الزّمن العاديّ على حدّ

¹³⁵ انظر/ي الرّابط التّالي: <https://www.hakaekonline.com/article/117016/>، تاريخ النّشر، 2020/03/20، تاريخ الاطّلاع، 2020/05/11.

¹³⁶ موقع حقائق أونلاين، <https://www.hakaekonline.com/article/117016/>.

¹³⁷ الشّيخاوي، يسرى، العاملات بالقطاع الفلاحيّ عن نساء يضمنّ الأمن الغذائيّ بالعرق والدّم، <https://ultratunisia.ultrasawt.com>، تاريخ النّشر، 2019/09/27، تاريخ الاطّلاع، 2020/05/05.

¹³⁸ انظر/ي الخبر في الرّابط التّالي، <https://www.nessma.tv/ar/>، تاريخ النّشر والاطّلاع، 2020/05/08.

السّواء. وقد يعود ذلك إجمالاً إلى ثقافة سياسيّة سائدة في تونس، قوامها أنّ الأعلى صوتاً هو الأقدر على فرض شروطه.

وباعتبار أنّ عاملات الفلاحة غير منتظمات في هياكل نقابيّة أو جمعيّة، ولأنّهنّ منسيات من المتدخّلات والمتدخّلين في العمل المدنيّ، فإنّ دولة الأمر الواقع القائمة لم تتمكّن بعد من إدراك اللّا تلازم الصّارخ بين الأدوار الاقتصاديّة للعاملات في قطاع الفلاحة، ونظام التّأجير وأشكال الرّعاية الاجتماعيّة ومستويات تنظيم تلك الأدوار وتقنيها ومراقبة الأرستقراطيّة المالكة للأراضي الفلاحيّة الكبرى وعلاقتها بالنّساء، نقلاً، وتواصلًا، وتأميناً ضدّ الفيروس، ووسائل تطهير، وضمّاناً لخطط عمل تجنّب إكثاريّة انتقال العدوى بين العاملات. وليس غريباً أن يستند العقل السّياسيّ للحاكمين إلى مخيال عامّ يغدّي التّصوّرات والأفهام ويطبّعها بخصائص هيمنيّة موصولة إلى الرّوج رجل مهيمن/امرأة خاضعة.

ولكنّ تجاهل رئيس الحكومة وأسئلة الصّحافة للنّساء العاملات بالقطاع الفلاحيّ، يثبي بتجنّد مقاربة سياسيّة تميل إلى التّركيز على ما تمّ تنفيذه، وتنأى بنفسها عن طرح ما لم يُلتفت إليه، وظلّ طيّ النّسيان. التقى الفخفاخ محاورين، كان يتسيّد الصّورة مبتسماً فيما جلس الصّحافيّان مصطفيّين أفقيّاً يطلقان كلّ مرّة سؤالاً يشكّل في الحقيقة فرصة خطابيّة لرئيس الحكومة ليسترسل في إمدادنا بمعطيات نعلم أنّها غير صادقة. يتحرّك الفخفاخ خطابياً ضمن نظام مدروس صوتياً ومعجمياً. كان يتخيّر مفرداته، ويتحكّم بالصّوت رفعا وخفضا وفق مؤشّرات تداوليّة ضاغطة على الجالسين أمامه دون قدرة على ردّتهافته، وعلى الجالسين خلف أجهزة التّلفاز منتظرين قرارات تخرج عن الأطر التّقليديّة وتنتهي إلى موائد المفقرين والمهمّشين. ولا شكّ أنّ عاملات القطاع الفلاحيّ انتظرن من هذا السّياسيّ إجراءات فوريّة لم تأت ولا يبدو أنّ موعدها قريب أو ممكن دون ما يكفي من الضّغط.

إنّ ما رشح من تجاهل في الخطاب لعاملات حقول الاستلاب بعض من المألوف سلطويّاً والدّارج المعتاد إعلامياً. فقد عوّدتنا سياسات الرّأسماليّة المتوحّشة على النّظر إلى العالم باعتباره انعكاساً لمصالحها الخاصّة، وهي لا تعبأ لقضايا اجتماعيّة حارقة كالتي نحاول تقديمها¹³⁹. وبنظّارات تأويليّة، سنلفي الحكومة ممثّلة في رئيسها تتأبّط الفيروس وتستدعيه للتّغطية على عقود من التّهميش

¹³⁹ تعبر الاحتجاجات الشّعبية المتواترة منذ 2012، عن وجود مأزق عميق عصي عن الحلّ. يمكن تلخيص هذا المشكل في تواصل سياسات التّفاوت الجهويّ والإقصاء الطّبقيّ والتّهميش لفئات اجتماعيّة واسعة. تكفي رؤية صفوف التّونسيّين أمام مراكز البريد انتظاراً لمنحة حكوميّة، لتَمثّل جزءاً من المشكل. والعمليّة الانتخابيّة هي تنافس بين مرشّحين ضمن سياق مغلق تمّ إحكام تسيّجه بالقوانين حتّى لا يتسرّب إليه مطنون في خلوّ سجلّه من رفض السّلطة والهيمنة والليّاتهما الخفيّة في الخطاب والممارسة.

تطال المرأة العاملة بالفلاحة¹⁴⁰. يستلقي كوفيد 19 على طاولة الفخفاخ النيولبرالية مستأذنا جماعة الصحّة معلنا أنّه تحت الطلب الخطابي، وأنّه جاهز ليكون بضاعة تموهية ومعجما رمزيا وسوقا خطابيا حارسا لمقالات السلطة مخفيا لفشلها مؤسسا لذريعة خصوصية المرحلة وسيادة الكوفيد19، وفرضه لاشتراطات من خارج إرادة الإصلاح وخطاب "الريشة" الشهير للفخفاخ.

إنّه تغييب نمطي لا جديد حوله، وهو جوهر العنف الرمزي الظاهر في التهميش ذاته. ففي حدث النسيان ثمة حدث حضور¹⁴¹، والحاضر هنا استتباعا عن النسيان هو مجموع المنسيات في مزارع الفلاحة. ونسياننّ تعبير عن ترابنية طبقية بين الفخفاخ رجل الأعمال البورجوازي المنحاز إلى الطبقة المهيمنة، وعاملاتنا المغيبات. ثمّ هي ترابنية اجتماعية بين أصحاب رأسمال سياسي فرضوا حضورهم وصاحبات الأدنى من رأس المال هذا اللاتي غُيبن. وهنّ ضحايا عنف رمزي "هذا القهر الذي لا ينشأ إلا عبر وساطة الانخراط الذي لا يتأخر المسيطر عليه على منحه للمسيطر"¹⁴²، عنف رمزي ناتج عن تطبع ثقافي واجتماعي، ودخلنا لأنظمة هيمنة سلطوية طبقية وجندرية وثقافية رمزية تمرّ خفية دون تسجيل حضورها. وهي ترابنية جندرية يتجاهل من خلالها المسيطر الذكر المسيطر عليها الأنثى ولا يشكّل خطابه المركز على طمأنتها اجتماعيا من خلال تشييد سوق لغوية تزيّف الوعي، أي أمل في الحلّ لأنّ الواقع العينيّ مازال خاضعا للبورجوازية والذكورية.

صورة المرأة كادحة في حقول الاستلاب قبل انتشار الفيروس

وأثناءه

لمحاولة تعرّف الملمح العام لهذه الكادحة اعتمدنا على مقاطع مصوّرة: الأول من إنتاج الاتحاد العام التونسي للشغل¹⁴³، والمقطع المصوّر الثاني من إنجاز المنتدى التونسي للحقوق

¹⁴⁰ يجمع فلاسفة وعلماء اجتماع ومفكرون مثل شومسكي ودافيد هارفي وهابرماس وآلان باديو وجوديت باتلر وجورجيو أغامبن وإدغار موران وآلان توران على ضرورة الانتهاء من الرأسمالية المتوحشة أو النيولبرالية. في حين تواصل الحكومات ضخّ أموال دافعي الضرائب لإنقاذ كبرى الشركات الاحتكارية. ولا يختلف الحال عندنا من إجراءات لدعم المؤسسات وتجاهل الحرفيين والعاملات في القطاع الفلاحي وغيرهم من الفئات الهشة.

يمكن متابعة أغلب هذه المواقف على الرابط التالي، <https://www.afrigatenews.net/article/>. وتجدون موقف آلان باديو على هذا الرابط، <http://awanmedia.net/opinion-analysis/> ونُشر موقف دافيد هارفي على هذا الرابط، <https://couua.com/2020/03/25/>

¹⁴¹ لمزيد الاطلاع، انظر/ي، بنعبد العالي، عبد السلام، أسس الفكر الفلسفي المعاصر مجاوزة الميتافيزيقا، الدار البيضاء، 1991، دار توبقال للنشر، ص-ص، 39-59.

¹⁴² شوفالبيه، ستيفان، وشوفري، كريستيان، معجم بورديو، ترجمة، الزهرة إبراهيم، الجزائر، ودمشق، 2013، دار الجزائر، ص، 219.

¹⁴³ يوميات المرأة الريفيّة بالقطاع الفلاحي غير المنظم: المشاكل وظروف العمل،

<https://www.youtube.com/watch?v=DuQvFbsprDQ>، تاريخ النشر، 2016/09/06، تاريخ الاطلاع، 2020/05/12.

الاقتصادية والاجتماعية¹⁴⁴ وفيديو ثالث منشور على موقع "برّ الأمان"¹⁴⁵. فضلا عن ذلك، جمعنا اتصال بصديقين من سيدي بوزيد وصديق من باجة. وقد أكدوا جميعا معرفة دقيقة بوضعية الكادحة في أعمال الفلاحة باعتبار عامل الجيرة والعمل التضامني عند بعضهم. واعتمدنا بعض البيانات من الصحافة المكتوبة والإلكترونية وتقارير مختلفة أمكننا الوصول إليها. ونشير في البداية إلى مآزق الأرقام المتباينة واختلاف طبيعة العمل الفلاحي بين مناطق الشمال الغربي ومناطق الوسط التونسي باختلاف المنتج ذاته وما يتطلبه من جهود طويلة موسم فلاحيا كامل.

ونحن نتحدث عن نساء يضعن على رؤوسهنّ ما اجتمع لديهنّ من أوشحة متخذة أغطية للرأس وقاية له، وأغطية للشعر تلازما مع مقولات الحشمة المتجذرة اجتماعيا. ومن بين هذه الأغطية "المحرمة" المحتفلة بربيع دائم يظهر في الأزهار التي تزيّنها، و"الحجاب" وهو وشاح أكبر من المحرمة ويضمن مزيدا من الدّفء. وتلفّ الكادحات أجسادهنّ بما توفرّ من معاطف وألبسة صوفية تتحدّى شدة البرد بالإكثار من الخشن من اللباس. ولذلك يرتدين سراويل رياضية فوقها لباس فضفاض، وجوارب صوفية خشنة، وينتعلن حذاء قديما تخلّى عنه الابن أو الزوج، أو يرتدين "البوت" الشهير الذي يغطّي الساق ويؤمن تنقلا يسيرا في الحقل أو المزرعة، وبقي من القرّ شتاء. ولا تكاد هذه الملابس تختلف جذريا بين الفصول مثلما يؤكّد ب. ب من باجة. فاتقاء الأغيرة يفرض وضع لثام على الوجه ولباسا يغطّي اليدين حتّى المعصمين وسروالا يمنح المرأة القدرة على التنقل السريع وهي تضع فوقه فستانا واسعا لا يظهر شيئا من جسدها ويغطّي ما عجز السروال عن حجبها.. وهنّ مرفوقات بسلات تجتمع فيها وجبات غذائية وقارورة من ماء. ولا تضع أيّ من النسوة لثاما مانعا لنقل العدوى أو قفازات واقية مثلما يفترض ولا تستفدن من وسائل التعقيم أثناء العمل. أمّا في أيام رمضان الحالية فإنّهنّ يبدأن العمل باكرا ويعدن إلى منازلهنّ الساعة العاشرة والنصف تقريبا وفق شهادة ب. ب من باجة.

ومما تقدّم تتشكّل صورة إنسان محجوب يعن في إخفاء ذاته مغالبة للمناخ ومصادقة على متخيل اجتماعي وثقافي سائد واتقاء لوصم ينتهي تنميطا متعدّد الطبائع. كادحة تواجه البرد الشديد بالصوف، والحرّ الشديد بلثام تقدّه فورا من حجابها، وتواجه الكوفيد-19 بوجه عار معلنة تجاهله ورفض قراره المتواطئ مع الدولة عبر الحجب أو من خلال استيطان الأجساد وكولونيالية الكورونا. تواجه الكادحة عوامل المناخ والوباء الطّاريئ بإستراتيجية ذات بعدين. فهي تختفي خلف حُجُب من لباسها شتاء وصيفا، وتختفي خلف أغطية الرأس وما رشح من فتنة الجسد وراء المزيد من اللباس الواسع، فتسكت "فتنتها" المعلنة ثقافيا وتسكت فرص الطّمع الممكن ذكوريا أي بمنطق العقل

¹⁴⁴ العطار، حياة، عاملات القطاع الفلاحي زمن الكورونا : منسيات أيضا، <https://fides.net/ar/femmes-agricole/>، تاريخ النّشر، 2020/04/11، تاريخ الاطلاع، 2020/05/05.

¹⁴⁵ فلاحات تونس يوم عمل=9د، <https://www.youtube.com/watch?v=COKFI46N7n8>، تاريخ النّشر، 2020/01/06، تاريخ الاطلاع، 2020/05/12.

الذُكوريّ المسيطر. وتدخّلن بذلك قيم المجتمع لتصبح تمثّلاتها الخاصّة. وهي تمثّلات¹⁴⁶ لا تتغيّر أثناء العمل المضني الذي يحتاج إلى التّخفّف من ثقل الملابس للقدرة على الحركة السريعة وتحمل التّعب. فتصرّ الكادحة على الاحتجاب استجابة للقرار الاجتماعيّ بحجبها باعتبارها امرأة حامله لجسد الرّغبة وحضور النّفس الشّهوانيّة، وتحتجب مناورة لإخفاء قعود زوجها أو ابنها وخروجها بالمقابل إلى الأهوال، ثمّ تحتجب لمقارعة الطّبيعة ومغالبتها بوسائل بسيطة وهو احتجاب إراديّ نابع من الدّات. وهي بهذا كادحة تصمّت جسدها وتقمعه خضوعا واختيارا؛ خضوعا من حيث أنّ حجب النّساء فرض اجتماعيّ وقانون عامّ يهيكل المتخيّل، وتسندّه أعراف وتقاليد وموروثات ثقيلة الأثر متجذّرة في القدم. واختيارا ينتج عن تقبّل الخضوع باعتباره ضرورة أمّلتها التّقاليد والموروثات نفسها. وهي أبنية ثقافيّة منغرسه في أصول دينيّة وأخرى أبعد من الدّين وأقرب إلى سياسات الهيمنة الذُكوريّة القائمة على غلبة القضيب على الكثيب، وفلسفة الرّكوب وما تشير إليه من سيطرة الرّكاب وتبعيّة المركوب وهي في مثالنا المرأة القائمة بأعمال الفلاحة.

لكنّ حجب الجسد وإخفائه عند مغادرة المنزل وركوب وسائل النّقل إلى المزارع ومن ثمّ العودة إلى المنزل، لا تنفي تعريته الاقتصاديّة واستغلاله عاريا من كلّ كرامة. فصاحب الأرض لا ينشغل عامّة بما هو محتجب وهو منحاز إلى تكديس الأرباح وغير شغوف باكتشاف المتواري غالباً. على أنّه يعرّي حاجات النّساء إلى الغذاء والملبس والسّكن وتعليم الأبناء وخلافها من هموم اليوميّ. وبذلك يعرّي طاقات الجسد، ويفكّ شيفرات الحشمة، ويتوغّل في التّعرية ساعات حتّى يظفر منهنّ بمنتوج وفير يضمن الأرباح المأمولة. وفي انهماك الجسد العاري من وقار الحقوق وهيبة التّأمين الصّحّي وقداسة الأجر المجزي، تظهر الدّات الجشعة لبورجوازيّة لا تلوي على شيء غير استنفار تلك الأجساد وسلّمها حرّيتها واستعبادها. وهو يعلم أنّها أجساد ظمئة إلى التّحرّر من نير الفقر المدقع والمسكونة بأمل خادع في الخروج من عباءة العري أو استغلال أجسادهنّ فيما يماثل الاغتصاب الاقتصاديّ المبرّر سلطويّاً والمباح بمنطق الدّولة المتواطئة ضدّ من همّشهنّ.

وهنّ كادحات أميل إلى الصّورة الأسطوريّة لمحاربات الأمازون، عندما تخرجن إلى مواجهة وباء، تأمرنا الحكومة بالاختباء تجنّباً لأذيتّه، بوجوه مكشوفة وإعلان مواجهة معقّدة تقوم على التّجاهل الذي يصل حدّ الإنكار. "نخرج صباحاً من السّابعة حتّى الثّالثة بعد الزّوال. زوجي في المنزل، ليس من عمل، بسبب الكورونا. هو نائم في المنزل قاعد عن العمل، ولديّ أربعة أطفال كيف سأوقّر حاجاتهم دون خروجي إلى هذا العمل؟"¹⁴⁷. إنّهنّ يغادرن أمان الجدران المانعة لانتقال الفيروس بين

¹⁴⁶ يعتبر جون كلود أبريك أنّ للتمثّلات الاجتماعيّة أربع وظائف، وهي الوظيفة المعرفيّة، والوظيفة الهويّة، والوظيفة التّوجيهيّة، والوظيفة التّبريريّة. ونحن نوّكد في هذا السّياق على الوظيفة التّوجيهيّة فحسب. لمزيد الاطّلاع يمكن العودة إلى: Abric, Jean-Claude, Les représentations sociales: aspects théoriques, in Pratiques sociales et représentations, Paris, 1994, Presses Universitaires de France, p-p, 20-24.

¹⁴⁷ عاملات القطاع الفلاحي زمن الكورونا: منسيّات أيضاً، مقطع مذکور، من الثّانية 12، إلى الثّانية 26.

أفراد عائلاتهم، ليخرجن إلى العمل الشاقّ مواجهات خطر الإصابة بالمرض العضال الذي يخشاه الرجل صاحب السّلطة؛ الفخفاخ رئيس الحكومة والزّوج المستلقي على فراش الحجر الصّحّي اضطرارا. وأثناء هذه المواجهة ليس من صاّد لمغامرة العمل ضمن ظروف وبائيّة. تظهر في الصّورة وجوه نساء يغطّين أفواههنّ فحسب بأغطية رؤوسهنّ، ولسنا واثقين من أنّ ما يقمن به عمل وقائيّ من اجتراحهنّ لمحاولة منع أيّ عدوى، أو ربّما هو تصرّف معتاد لمقاومة الأعباء وما ينبعث أحيانا من روائح مزعجة نتيجة استعمال المبيدات. وفي كلّ الحالات، ليس من لثم مهيّأة لمنع العدوى ولا من مياه وصابون لغسل اليدين بين الفينة والأخرى وليس من وقت للقيام بذلك ولا معقوليّة لحركة مماثلة، لأنّ الجني أو العزق أو الحفر أو حمل الأكياس أو صناديق الخضر والغلال حركة دؤوبة مستمرة ولا تحتل قطعا كلّ عشر دقائق من أجل تلبية نصيحة طبيّة بغسل اليدين مقاومة لاحتمال العدوى.

الرّجولة والاضطهاد فعلا وانفعالا¹⁴⁸

في المشهد نساء منتشرات بين الحقول التي تسلمنّ حريّاتهنّ وتضطهدنّ مستفيدة من تواطؤ الدّولة بأسرها¹⁴⁹ وصمت المجتمع وتخاذله والجموح البورجوازيّ إلى الرّبح الوفير الفوريّ. وخلف المشهد رجال خارج الحقول مسلوبو القرار ومسلوبو الدّور ومسحوقون ينتظرون عودة زوجاتهم لممارسة طقوس الدّكوريّة ومحاولة إيهام الدّات برجولة القرار والحكم المنزليّ في مستعمرة خلو من كلّ مظاهر الكرامة. أراض فلاحية مجندرة تغمرها أوشحة مرهقة وعرق يتصبّب غزيرا وأنوثة مستلبة. صاحب الأرض يدفع لهنّ في هذا الظّرف الوبائيّ ثلاثة عشر دينارا وصاحب البيت وفق السّائد ثقافيا يأخذ منهنّ ما تيسّر لتوفير حاجات العائلة. يقول ب.ب، "إنّ زوجها ضخم يكاد شارباه يعقلان بغلا، ولكنّه ينتظر عودتها ليرحل نحو السّوق". هناك سيّدعي أنّه صاحب القوامة، هو لن يصحّ بذلك جهرا، لكنّ حركته ستشي بأنّه رجل حاكم بأمره ولا خروج عن طاعته. سيشتري ما أمكن ثمّ سيعود إلى البيت وليس على فمه لثام. لقد وضعه داخل رأسه ليصمت ثورة داخل عقله تسائله ألف مرّة: "كيف لا تخرج إلى العمل وتخرج إلى السّوق؟ ليست الكورونا من تمنعك بل لعلّه أمر مختلف". لا يذهب العقل بعيدا في التّعرية، ويظلّ مكتفيا بإيحاء كاف لتخريب توازن نفسيّ هشّ، يتكرّر حدث خلخلة بناه يوميا.

¹⁴⁸ نركّز في هذا القسم على صورة الرّجل المهتمش مقابل صورة الرّجل المهيمن. نحن لا نجزم بأنّ جميع الرّجال بلا عمل ويكتفون بانتظار بناتهم أو زوجاتهم، بل نقدّم الصّورة التي وجدناها في ما وقع بين أيدينا من مقاطع مصوّرة. وقد ذكرت الشّهادات أنّ أعدادا من الرّجال عاجزة أصلا عن العمل لأسباب صحّية. إذن نحن لسنا في مستوى التّعميم أو التّنبؤ الاجتماعيّ والثّقافيّ.

¹⁴⁹ يكشف تعدّد حوادث شاحنات نقل العائلات وتواصلها في هذا السّياق الوبائيّ، عن تواطؤ أجهزة الدّولة من وزارة الفلاحة ووزارة المرأة ووزارة الدّاخلية ورئاسة الحكومة. وهو تواطؤ بالصّمت وادّعاء الألاحدث.

الكورونا الفاعل المعري الحاجب تفضح الرجولة المبنية اجتماعياً¹⁵⁰ وفق مقالات الفحولة والفتوة والقوامة والدفع عن الأهل والأرض، وتحجب ما تلقاه الرجل من نشئة اجتماعية تحولت إلى مقولات إيدولوجية نهائية. "الحقول للنساء وحدهن ولا اختلاط فيها. ولأن الأجر زهيد فإن الرجال لا يقبلون العمل في تلك الظروف، فيما تخرج النساء مضطرات إلى العمل"، وفق ما أخبرنا به م.ن.ع.ح من سيدي بوزيد. ويشكل هذا الحجب الرمزي تغطية على واقع أن الرجولة التي خسرت مواقعها الاقتصادية في المنزل فقدت هيمنتها رمزياً وتم تأنيثها عملياً. فخرج المرأة إلى العمل يقابله قعود الرجل، وبين الناهض والقاعد فجوة ثقافية تشير إلى الفاعل مقابل العاجز، وإلى الكريم مقابل البخل، وإلى القيم مقابل التابع. وبذلك يهيم "التشويش الجندري" بعبارة جوديت باتلر Judith Butler ويزلزل الأدوار الاجتماعية للأنوثة والذكورة¹⁵¹. وفي عملية الزلزلة يحصل قلب للأدوار الجندرية¹⁵² ذاتها، وينتهي التشويش على تلك الأدوار إلى ضرب فعلي للمكانة الاجتماعية للرجل ضمن العائلة باعتباره قائداً، وتحويله إلى فرد ينتظر إعالته مثل الأطفال.

ترتسم في هذا المستوى صورتان: صورة الرجل المضطهد المهتمش اقتصادياً والمؤنث سلطوياً بقرار حكومي قديم مازال فعله يستمر حاسماً في التاريخ المحايث، وصورة الرجل المضطهد البورجوازي المهيم الذي انفتحت أمامه قوانين وكلائه في الحكم وانعكست تغطية على جرائمه. وهكذا تنكشف بنيتا الهيمنة والهامشية. رجولة مضطهدة طبقياً وملغاة عملياً تراقب انقلاب سلطتها المنزلية الموروثة ثقافياً والمؤمنة سوسولوجياً إلى انحسارات متواترة ضيّقت الخناق على أنطولوجيا الرجولة بعد أن سحقت السلطة أنطولوجيا الإنسان. يدافع رجل يكافح للحصول على عمل في الفلاحة عن نفسه فيقول: "لا يترك الفلاحون تعمل حتى إذا رغبت في عمل آخر غير جمع الجلبان، فهم يفضلون توظيف النساء بدل الرجال"¹⁵³ ويصنعون دون وعي صراعاً حول القوامة في البيت، مازال في الغالب رمزياً ولا يُعلم إذا ما تحول في بعض الحالات إلى مقاومة نسائية لقوامة مهداة لم تكتسب على الأرض جهداً وعملاً. وربما يكون الوسط الريفي ضاغطاً عنيفاً ورئيساً حجب ارتفاع أصوات نساء يفتككن تدبير شؤون الأسرة كاملة من الرجال وتغيير الشروط الجندرية للعلاقات داخل العائلة بالكامل.

أما الرجولة المضطهدة فلا تبدي أي احترام للجسد العامل المكافح من أجل جماعته العائلية الخاصة. تقول كادحة من بلارجيا بأحواز جندوبة المدينة، "نصل إلى المزارع والطقس بارد والثَّلج يتساقط وأحياناً يرفض الفلاح أن يمنحنا زمناً لإشعال النار طلباً للدَّفء ويطلب منا أن نباشر

¹⁵⁰ الرجولة بناء اجتماعي وثقافي ثابت وهي عكس الذكورة المتغيرة والتاريخية، لمزيد الاطلاع، انظر/ي،

Whitehead , Stephen M. , Manhood , in international encyclopedia of men and masculinities, edited by, Flood Michael and others , Abingdon , 2007,Routledge, 1st published , p,380 .

¹⁵¹ Butler, Judith, trouble dans le genre le féminisme et la subversion de l'identité, traduction, Cynthia Kraus, Paris, 2005, La Découverte, p-p, 45-46.

¹⁵² Roof, Judith, Ibid, p-p, 616-617.

¹⁵³ فَلَاحَات تونس يوم عمل=9د، مقطع مذکور، من الدَّقِيقَة 4و15ث، إلى الدَّقِيقَة 4و22ث.

العمل على الفور"¹⁵⁴، في حركة لا تلتزم غير سرديّة المغنم واستغلال هذه الكائنات الحيّة حتّى تحقيق القدر الأقصى الممكن من الإنتاجيّة وما يستتبعها من ربح. هي رجولة تسلعن الجسد وتشيئ الكينونة البشريّة وتستثمر مآسي العاملات مرّات ومرّات. فالرجولة المهيمنة¹⁵⁵ بعبارة راويين كونل Raewyn Connell تفضّل توظيف النّساء وتستغلّ ما علق بالمتخيّل من رفض الرّجل جمع البطاطس والجلبّان والخيار والفول، مقابل إقبال المرأة على أعمال مماثلة. يقول م.ن: "تعمل المرأة لعشر ساعات لقاء مبلغ بين عشرة دنانير وخمسة عشر دينارا، والرّجل لا يقبل ذلك" و"يفضّل العمل بالسّاحل في البناء لأنّ الأجر أكثر ارتفاعا" وفق ع.ح. ونتيجة اضطهاد هذه البورجوازيّة للعمّال من جهة، وطبيعة الأعمال المقيّمة ثقافيّا باعتبارها غير لائقة برجل، ثمّ نتيجة قدرة البعض على التّنقل خارج الأرياف للعمل بقطاعات غير الفلاحة من جهة ثالثة، تحافظ الرّجولة المهيمنة على علاقات عمل تصل حدّ الاستعباد وفق شهادات مصوّرة كتنّا أشرنا إليها.

وبهذا يكون الاضطهاد قدرا رجوليّا يسير في اتّجاهين متناقضين بين الفعل الاضطهاديّ في جهة، والانفعال بنتائج ذلك الاضطهاد في جهة مقابلة. رجولة منكسرة تخضع للاستغلال وتضطهد، ورجولة مفرطة في الهيمنة منتشية بثرواتها تضطهد. ويمكننا القول إنّ الرّجولة التي تعاني من سلب العناصر المكوّنة لبنية رجولتها هي "رجولة مهمّشة" طبقيا وتعاني بدورها من ازدواج الهيمنة. ونقص ذلك هيمنة السّلطة وسياسات التّفاوت الجهويّ الحادّ، وتأثير المجتمع لرجل يترك زوجته تخرج إلى العمل وهو إمّا مكتف بالبقاء في المقهى مثلما يشير إلى ذلك مقطع الفيديو المصوّر في بوسالم أو شهادة ب.ب. من باجة، أو يغادر الرّيف ليعمل بمناطق حضرية وفق شهادة كلّ من م.ن. وع.ح. وفي جميع الحالات يظلّ تقييم البعيدين عن المأساة الاجتماعيّة والطبقيّة والمكتفين بالفرجة ومسرحة التّاريخ، حكما قاسيا على هذه الرّجولة المنكوبة أو "المهمّشة" بعبارة كونل دائما. وبين الرّجولتين تتموقع المرأة مستلبة بين الأرض والمنزل وبين العمل الفلاحيّ والعمل المنزليّ وبين الأجرة والمجانبة المفروضة. وإذا كان الوضع الأكثر حضورا في المجتمع هو تبعيّة النّساء للرّجال بما هي تبعيّة اقتصاديّة واجتماعيّة تحدّد الأدوار ضمن المؤسّسة العائليّة تنظيما ما قبليا ومعترفا به، فإنّ وضعيات العاملات بالقطاع الفلاحيّ تحفل بتناقضات عميقة، وأشكال متنوّعة من الاضطهاد.

¹⁵⁴ فألاحت تونس يوم عمل =9د، مقطع مذکور، من الثّانية 27، إلى الثّانية 37.

¹⁵⁵ في كتابها، ذكورات، تحدّد راويين كونل عالمة الاجتماع الأستراليّة أربعة تفضيلات تاريخيّة لذكورات متعدّدة، هي الذّكورة المهيمنة، والذّكورة المتواضعة، والذّكورة الخاضعة، والذّكورة المهمّشة. نركّز في عملنا على ذكورتين وهما المهيمنة والمهمّشة. ونعرّب masculinity بالرجولة، لأنّ الرّجولة بناء ثقافيّ واجتماعيّ ونظام قبليّ مغلق وهو المصطلح الأنسب لسياقنا الاجتماعيّ والثّقافيّ المحليّ (الوطنيّ). لمزيد الاطلاع، انظر/ي الكتاب،

Connell, Raewyn, Masculinities, Berkeley, 2005, University Of California Press, 2nd edition, p-p, 76-77.

الاضطهاد المزدوج لعاملات الفلاحة ووجوه المتعددة في الرأهن الكوروني

إذا سلّمنا بالواقع القائم وترتيباته القانونيّة، أي وجود دولة ترعى مصالح النّاس جميعا، واعتبرناه وضعا شرعيّا، وهو ليس كذلك بالمرّة من وجهة نظرنا، فإنّنا نرى أنّ اضطهاد العاملات ذو ثلاثة وجوه ذكوريّة سلطويّة. ونبي على ما عرضناه من شهادات لنذهب إلى أنّ صاحب الأرض يسرق جهود الكادحات عندما يخالف نصوصا قانونيّة صريحة تحدّد الأجر الأدنى الفلاحيّ ب15.504د، تضاف إليه منحة عامل مختصّ قيمتها 0.826د أو منحة عامل ذي كفاءة مقدارها 1.555د¹⁵⁶. ولا تعتبر الكادحة الريفيّة مختصّة ولا ذات كفاءة، رغم أنّها أهمّ فاعل في عمليّة الإنتاج. وفي كلّ الأحوال، فإنّ جميع ما بين أيدينا من معطيات يحصر الأجر بين 9د و15دينارا ويُقدّر ب13د في زمن الكورونا يُخصم منها معلوم التّنقل، مع انعدام كل تغطية اجتماعيّة أو حماية صحّيّة أو بدل تنقل أو بدل طعام. وهذا يشي باستغلال اقتصاديّ فائق يصل إلى حدود سرقة أغلب الأجر، ودفع فتات الفتات فحسب، وهو الوجه الطّبيقيّ للاضطهاد الذّكوريّ.

ولمّا كانت الدّولة وأجهزتها التّنفيذيّة والتّشريعيّة والقضائيّة عليمّة بطبيعة الاستغلال المشار إليه، ولم تبد أيّ استعداد حقيقيّ لوقفه فهي تعدّ بذلك جزءا من المشكلة. وقد أشرنا إلى تجاهل الفخفاخ طيلة ظهوره الإعلاميّ لمجهودات الكادحات وهنّ دون ريب يوقرن في هذه المرحلة مائة بالمائة من الخضر والغلال، والأجهزة السّلطويّة تدرك ذلك تمام الإدراك وتغمض عيونها بالكامل عن أشكال نقل عاملات كُنّا لنجوع أو نهلك دونهنّ. وبدل وضع سياسات فوريّة لمراقبة أنظمة التّأجير وطرق استلام الأجور ومعضلة النّقل وشروط الحماية من العدوى، انزاحت الرّجولة المتسلّطة في أعلى هرم الدّولة إلى انتهاج "التّواطؤ الذّكوريّ" والتّغطية على فظاعات البورجوازيّة وجرائمها الثّابتة عيانا. وتشكّل هذه التّواطؤات الوجه السّياسيّ والإيديولوجيّ للاضطهاد الذّكوريّ.

وبالعودة إلى المنزل لا تتوقّف مسيرة المعاناة بالنّسبة إلى الكادحات، بل يخفت صوت الاضطهاد الطّبيقيّ وتعلو أشكال أخرى من الاضطهاد. بعضها بين في صراخ أطفال ينتظرون خدمة، أو أب أو زوج أقعدتهما الأمراض، أو أمّ عاجزة عن الحركة، أو زوج قاعد فارّ من مواجهة مسؤوليّاته في حالات محدّدة. تعود الكادحة زوجة أو ابنة لتطهو طعاما وتغسل أثوابا وربما تراقب طفلا يستعدّ لإنجاز فروض منزليّة أخوا كان أو ابنا، وهي بين هذا وذاك تتخلّص من ضغط البورجوازيّ وسائق الشّاحنة وتقع تحت ضغط الواجب العائليّ والمسؤوليّة التي ألزمت بها جنديّا. ذلك أنّ المطبخ من

¹⁵⁶ أمر حكومي عدد 455 لسنة 2019 مؤرخ في 28 ماي 2019 يتعلق بضبط الأجر الأدنى الفلاحي المضمون، الرابطة،

عمل النساء دون الرجال، وكذلك الشأن بالنسبة إلى الثياب غسلا ونشرا وكيا وطيا. إنها الأدوار الجندرية ضمن البيئة المنزلية والتي تؤدي فقط، أي تؤدي لأن ذلك من نتائج التقسيم الجندري للعمل والوظائف في البيت على الأقل¹⁵⁷. وهي أعمال تصنف وضيفة في المخيال العام الريفي بشكل خاص، وإن رجلا ينهض بأعمال مماثلة إنما هو رجل يري الشروط لوصمه بشبه الرجل الواقع تحت هيمنة زوجته واليائس من مقومات الفحل المسيطر والممسك بتلابيب السيادة والمعنف للزوجة أو الابنة إن صدر منهما شائن وفق التنميط الثقافي والاجتماعي. وبذلك فإن عشر ساعات من العمل وساعات أخرى من عمل آخر، يزينان يوميات كادحة تقع بين هيمنة وأخرى واستلاب وآخر وتصميت دائم. ويدل العمل المنزلي ونظام القوامة وواجبات الكادحة تجاه زوجها أو أبيها أو أخيها على الوجه الاجتماعي والثقافي للاضطهاد الذكوري.

إن هذا الاضطهاد ثلاثي الأبعاد في زمن وباء كوني مماثل "يعكس اللامساواة الاجتماعية والاقتصادية التي ستصنع فيروسا عنصريا لا يمارس الفيروس في ذاته التمييز غير أننا نحن البشر، نمارس ذلك باعتبار تكويننا وحركيتنا في إطار القوى المتشابكة في القومية والعنصرية ورهاب الأجانب والرأسمالية. ويبدو من المحتمل أننا سنصل السنة المقبلة إلى سيناريو مؤلم إذ يطلب مئات من الناس حقوقهم الطبيعية في الحياة على حساب الآخرين أي إعادة إنتاج التمييز المخل بين الحياة الأليمة والحياة المستحيلة، أي بين أولئك الذين ينبغي أن يكونوا محميين ضد الموت بأي ثمن وأولئك الذين تعتبر حيواتهم غير حقيقة بأن تحمي من المرض والموت"¹⁵⁸. ونضيف إلى اللامساواة الاجتماعية والتطبيقية لا مساواة جندرية، تظهر أيضا في أجر العامل الفلاحي الذي يصل إلى ضعف أجر العاملة¹⁵⁹.

خاتمة

لم يكن حضور الكورونا مؤثرا في تغيير واقع الكادحات في العمل الفلاحي، بل أكدت ما هو قائم في البنية التاريخية العينية وراسخ في المتخيل الجماعي من سلب وجود المرأة وفكها عن حميميتها واعتبارها شأنا رجاليا خالصا أي مكوّنا من مكوّنات الرجولة وحاجة جنسية تناسلية لتأمين الإنجاب واقتصادية للقيام بأعمال المنزل والنهوض بأعبائه من جهة، ومتابعة الخضوع في المزارع

¹⁵⁷ العمل المنزلي ضمن المتخيل الثقافي هو عمل غير مأجور. وهو نتاج تقسيم أدوار على أسس جندرية لم تُراجع عندنا مراجعة واسعة وفي الأوساط الاجتماعية الريفية خاصة حيث تهيمن الأبوية على البنى الاجتماعية وتعطل إمكانية التفاوض معها. للمزيد من الاطلاع انظري، كانديوتي، دينيز، التفاوض مع النظام الأبوي، ترجمة، سيرين الحاج حسين، <https://hekma.org/>، تاريخ النشر، 201/06/30، تاريخ الاطلاع، 2017/07/30.

¹⁵⁸ Butler, Judith, Capitalism Has its Limits, https://www.versobooks.com/blogs/4603-capitalism-has-its-limits?fbclid=IwAR3N5j5Xz19MzOM31GDtImCMnW5GXV4bx_gm1hikz_W2tGQoEft-o57-gdk Usa-1584098952-, published, 30/03/2020, consulted, 05/05/2020.

¹⁵⁹ فآلات تونس يوم عمل=9د، مقطع مذکور، من الدّقيقة 4 و10ث، إلى الدّقيقة 4 و20ث.

السّالبة للوجود الحرّ من جهة ثانية. لكنّها ضحيّة سلطة لا ترى من ضرر قد يلحق بالكادحة جزاء الخروج إلى العمل الفلاحيّ دون أيّ شكل من أشكال الحماية والتّأمين وإجراءات الوقاية والسّلامة ضدّ الكوفيد-19. وبهذا تكون الكورونا سياقاً تاريخياً زاد تعرية سلطة بلا حشمة تتمايل عارضة قضيتها وما من رجولة تتصدّى.

والرجل الذي ينتظر زوجته هو ذاك المهّمّش المصمّت اللامرئيّ السّاكن ريفاً قصياً والذي يسكنه جوع تاريخيّ إلى الكرامة. إنّه بعض من "رويحة" صاحب البيضة الذي لم نعرفه إلا بعد أن تحرّكت كاميرا الدّولة المتسوّلة إلى الرّيف. تقول هـ.ب. وهي من المحيط العائليّ لـ"رويحة": "إنّه معدم وساذج وقد أهلكه الفقر إهلاكا". والزّوج أو الأب منتظرين زوجة أو ابنة تعود محمّلة بعبء رمزيّ وتعب عنيف وعنف رمزيّ يتمايل بين مسيطر متوحّش ومسيطر عليها قابلة، ليس بالضرّورة وحشا قاعدا عن العمل. إنّه من زاوية الدّراسات الذّكوريّة رجل مهّمّش طبقيّاً ومغيّب أنطولوجيّاً ومنفيّ إبستيمولوجيّاً من دائرة المعرفة. هو مهّمّش لا يعرف، ولم يعرف رغم سنوات من الدّرس في مدارس النّظام التي أسكنت في رأسه بؤسا تطبّع عليه سابقوه في الوجود. فأنظمة السّوق المدرسيّة تعيد إنتاج البضاعة اللّغويّة السّائدة وتضبط المناويل الجندريّة ذاتها وتقدّم تنشئة اجتماعيّة مفلسة. ولذلك لم نظفر برجل مختلف "يزامن تاريخه" بعبارة الجابري، ويسكن واقعه الخاصّ لا واقعا ماضيا. ونحن نشاهد هذا عينيّاً مثلما نشاهد كادحات الأعمال الفلاحيّة يُسلبن حرّيتهنّ ويخضعن للعنف الذّكوريّ وأنظمة السّيطرة الإيديولوجيّة ومقالات البطركيّة ويُزرعن في مواقع الإنتاج مجردات من كلّ وجود غير الوجود الميكانيكيّ للجسد العامل. وربّما يكون من أوكد المهامّ النّضاليّة لمرحلة ما بعد الكورونا، طرح قضيّة النّساء العاملات بالفلاحة طرحاً جذريّاً يعيد لهنّ على الأقلّ بعضاً من كرامتهنّ في انتظار تثوير البنى المهيمنة على الواقع، أي البنى الذّكوريّة التي خرّبتنا نساء ورجالا دون استثناء، وإن كان الخراب عند النّساء أظهر. "سنحتاج علاقة تشكّل تنتج نسيجا جديدا" نابضا بالحياة ومنخرطا ملتزما بقضاياها الكبرى مثل بعض الحركات الاجتماعيّة التي برزت¹⁶⁰ وتمّ تحليل بنيتها وأشكال تحرّكها.

¹⁶⁰ جاب الله، سفيان، "مانيش مسامح، فاس نستناو، باسطا" مقارنة سوسيلوجيّة للحملات الشّبابيّة في تونس، في سوسيلوجيا الفعل الجماعيّ في تونس منذ 14 جانفي 2011 في تونس تعدّد طرق الانخراط وتنوّع أشكال الاحتجاج، تونس، 2019، المنتدى التّونسيّ للحقوق الاقتصاديّة والاجتماعيّة، والمرصد الاجتماعيّ التّونسي، ص، 151.

عمال البناء: الواقع، الحجر والإجراءات قراءة في آثار الجائحة وتفكيك الأزمة

مدوري هيثم

ملخص

مع كل أزمة، تعود الفوارق والمشاكل الاجتماعية الاقتصادية لتطفو على السطح مجدداً، حيث أدت الجائحة "كوفيد-19" وإعلان الحجر الصحي العام في تونس إلى انقطاع نشاط كثير من العمال في أغلب المجالات، وهو ما أنتج تدهوراً في أوضاعهم الاجتماعية وعودة قضاياهم وأحوالهم إلى طاولة النقاش.

في مسألة هؤلاء العمال المتضررين، تخصص هذه الورقة البحثية، في إطار هذا الكراس المشترك، لدراسة آثار التدابير الوقائية الحكومية على عمال البناء قبل الجائحة وخلالها. وذلك باستعمال أدوات البحث السيكلوجي كالمقابلات المباشرة والتحليل والمكتسبات النظرية مع الاستدلال بما جاء في الصحف الإلكترونية نظراً لإلزامية التباعد ومنع التنقل. كما سنتطرق إلى الإجراءات الحكومية المتخذة ومدى ملاءمتها وجدواها، وهل أنّ المساعدات المالية والاجتماعية ساهمت في التخفيف من وطأة الأزمة، دون أن ننسى تناول المعايير الحكومية في التعامل مع هذه المجموعة الواسعة في إطار طبيعتها الاجتماعية التي تحتويها.

Abstract:

Social & economic problems return usually to show up with every crisis to highlight the real cracks that exist hiddenly in our social building. In fact, those cracks are not hidden but ignored till the crisis come to bubble them. The aimed purpose of this study is to highlight the life conditions of construction workers and builders before and during the epidemic "covid-19". Moreover, the governmental's actions will be discussed in term of impact and effectiveness. Precisely, an social analysis is presented in this paper basing on direct interviews that have been handled using sociological and ethnographical tools and methods.

"كنت في شدة الجوع الهائلة، فتناولت قطعة خشب من الطريق أوكها في فمي. وقد أفادتني بالفعل، فكيف أني لم أفكر فيها من قبل"

رواية الجوع لـ كنوت هامسون

يعتبر ما وصل إليه علماء الآثار والحفريات في موقع "غوبكلي تبه" بالأناضول دليلاً على أن الإنسان الأول قد اعتمد البناء كأول المهن الحضارية، بعد الصيد للبقاء، في انتقاله من مرحلة الترحال إلى مرحلة الزراعة مع بداية تشكل المجتمعات الأولى في بلاد الرافدين¹⁶¹. منذ ذلك الحين تعتبر العمارة والإنشاءات أول ألوان الحضارة فهي أول ما يجذب الباحثين إليها. ولكن حضارة الإنسان وإن خُطت في عقول المهندسين، فإنها بنيت وشيّدت بسواعد البنائين والعمّال الكادحين الذين ترى أعمالهم في كل حضارة ماثلة، يبنون أهرام الفراعنة ومعابد أثينا ومسارح روما وقصور قرطبة. كل هذا في زمن السلم، أما في زمن الحرب فهم وقودها، مع زملائهم "ملح الأرض"، وأعمالهم هدفها (احتلال المباني التي بنوها والمدن). ولهم في زمن الأوبئة أيضاً نصيب من الشقاء، فقد قسّمهم "فوكو"، مع غيرهم من الفقراء، إلى فقراء أصحاء وفقراء مرضى¹⁶²، حيث الاختلاف هنا ليس في درجة البأس بل القدرة على معاشته، حيث صار التهديد لصحة البسطاء "خدّامة الحزام" تهديداً وجودياً باعتبار أن صحتهم هي مصدر رزقهم الوحيد. ومن هنا، نمضي في هذه الورقة البحثية إلى تناول أثر الوباء، الذي حل بالعالم مؤخراً، على حياة عمّال البناء، كجزء من الطيف الأكثر تضرراً من الوباء و/أو من تدابير الحكومية. تندرج هذه الورقة ضمن كراس يعده المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية لتسليط الضوء على أضرار الجائحة على الفئات المقصية.

في سياق متصل قبل أن نمر إلى تناول موضوع الورقة، سنعمد أولاً لسرد الأحداث الموجبة له كتأثير مكاني وزماني وسببي مع تمثيل مقارن لتسليط الضوء على الفوارق الاجتماعية في أبسط بديهيات الحياة. فقد أدى مؤخراً إعلان منظمة الصحة العالمية وباء "كوفيد-19" جائحة عالمية إلى شروع العديد من بلدان العالم، ومن بينها تونس، إلى فرض إجراءات وقائية كالحجر الصحي العام وإيقاف كل النشاطات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ومع مكوث الناس في منازلهم وحالة الشلل العام وأخبار الضحايا والإصابات، عادت العديد من الروايات والأعمال التي تناولت أحداث مشابهة إلى الذاكرة المجتمعية ومن بينها روايتنا "الطاعون" لألبير كامو و"العى" لخوسيه ساراماغو. كما أن تزامن الحجر مع صدور الفيلم التايواني "The platform" ساهم في تسليط الضوء على الطبقية الاجتماعية والصوررة التاريخية. وباعتبار الظروف الحالية، فقد بادر الكثيرون، إما شغفا وفضولاً

¹⁶¹ Yuval Noah Harari, Devine Intervention, Homa sapiens : a brief history of humankind, United kingdom, Cloth¹⁶¹ edition published 2014, p80

² كمال الرياحي، تهريب الأجساد الثقيلة من "الاعتقال الكبير"، موقع إلترا صوت، مقال بتاريخ 12 أبريل 2020.

أو مللا، إلى شراء هذه الروايات ومطالعتها إلكترونيا، ومشاهدة هذا الفيلم وغيره عبر الإنترنت من الشاشات الصغيرة.

يبدو الأمر لوهلة شاعريا ملهما، لولا أن الأبطال الواقعيين، الذين تجسدهم هذه الأعمال وهم جوهرها، لم يسمعوا على الأغلب بتاتا بهاتاه العناوين، ناهيك عن مشاهدتها وتناول ما تطرحه. فمن أين للمهمشين قسريا، عمالا وفلاحين، استثنيتهم الدولة من اعتباراتها، أن يحصلوا على بطاقة بنكية للقيام بالشراءات الإلكترونية المفترضة باعتبار منع التنقل، والحال أن البطاقة الوحيدة التي يملكونها هي "كارني الكريدي"، ذلك الذي يسجلون فيه دينهم للتجار. هذا على افتراض أن لهم بالا لهذا الرفاه المعرفي والثقافي، رفاه التمدد المطمئن على فراش ومطالعة الروايات ومشاهدة الأفلام.

فقد بادرت الحكومة التونسية إلى إعلان الحجر الصحي بعد توصيات من منظمة الصحة العالمية وتعليمات مجلس مجابهة الكورونا الذي أحدث للغرض، وأيضا تحت مطلب شعبي أطلقه العديد من المواطنين عبر حملة "شد دارك". للوهلة الأولى نرى أن الدولة (أو دولة فيبر¹⁶³) صادرت حق حرية التنقل وحق العمل المكفولين دستوريا بدعوى تفويض شعبي عام من المواطنين قصد "الحماية الوقائية الجماعية العامة"، أو ما يعبر عنه بـ "مصلحة الناس الكل". فمن هم هؤلاء "الناس الكل"؟؟ ولكن قبل، هل هي فعلا "مصلحة" الناس الكل؟

مدخل إشكالي:

إذا فقد أحييت البلاد بالإكراه إلى "البطالة التقنية" بأمر حكومي أسنده آخر رئاسي بتاريخ 20 مارس 2020. وبقراءة سريعة لتواتر النتائج إثر ذلك، نرى المبادرة المبكرة والمشروطة لاتحاد النقابات ومنظمة الأعراف للتنصيب على مؤازرة جهود الحكومة في مجابهة الجائحة. حيث اشترطت هذه المنظمات العريقة مصلحة وصحة منظورها من موظفين عموميين صحتهم فوق كل اعتبار. كما بادرت الحكومة، عبر رئيسها، إلى تطمين الجميع أن الدولة ستقوم بدورها الاجتماعي ولن تتخلى عن أحد. فمنح الاتحاد وعدا باستمرار تحويل مرتبات الموظفين، وقطعت منظمة الأعراف وعدا لأرباب الأعمال بعطايا تضبط في الإبان. وأخيرا منّت الحكومة على العائلات "المعوزة"، والمسجلين بسجلاتها، بمساعدات اجتماعية ظرفية، وبإعانات مالية لمن قطعت الجائحة رزقهم.

لوهلة تبدو السماء صافية ونكاد نفقد المغزى من هذه السطور! ولكن غيمة قاتمة تأتي إلا أن تشوب زرقة سماء الحكومة: ماذا عن أولئك الذين لم تضمّمهم دفاترها؟ الآخرون، المغيبون في تاريخ تونس

³ استعمل هنا مفهوم دولة "فيبر"، للتدليل على مفهوم الفيلسوف الألماني "ماكس فيبر" الذي شرع في كتابه "رجل العلم و السياسة" للدولة احتكار العنف المادي لفرض النظام و السلطة بموجب العقد الاجتماعي. ذكر هذا المفهوم هنا للتدليل على مصادرة الدولة لحق التنقل إجباريا مع التهديد باستعمال ازدواجية "الصحة مقابل الحرية"

الاجتماعي، الكادحون في القطاع "الموازي"¹⁶⁴؟ أولئك الذين أسقطوا عمدا عبر العصور من حسابات الحكومات المتعاقبة على البلاد، وتركوا هذه المرة أيضا وجهها لوجه مع فيروس من شيمه العدل بين ضحاياها.

يستقطب الاقتصاد الموازي أو غير المنظم تقريبا 50% من الناشطين في البلاد، حسب دراسة للمركز التونسي للدراسات الإستراتيجية¹⁶⁵، مما يعني تقريبا 1.5 مليون ناشط وناشطة. ويستحوذ قطاع البناء والأشغال العامة على نصيب الأسد من هذه الثروة البشرية الثمينة قيمة والقليلة تأجيرا، أين يشتغل تقريبا 36% من إجمالي العمال (حوالي نصف مليون بين مباشر وغير مباشر¹⁶⁶) سوادهم الأعظم لم يتجاوزوا التعليم الابتدائي. بطبيعة الحال، السوق الموازي لا يوفر تغطية صحية/اجتماعية، ناهيك عن أبسط حقوق الشغل كعقد التشغيل.

فكيف أثرت الجائحة العالمية على هذه الفئة من الشعب؟ وما مدى مردودية الإجراءات المتخذة من قبل الحكومة في تهوين الضرر؟ وما هي العقبات والصعوبات التي عاشتها الفئة المستهدفة أثناء فرض الإجراءات الوقائية للحجر الشامل؟ لكن قبل ذلك، هل التزمت هذه الفئات بالحجر، هذا إن توفرت لها الامتيازات اللازمة لذلك أصلا؟.

المقاربة المنهجية:

يرتكز بناء هذه الورقة أساسا على شهادات للفئة المعنية من خلال الاتصال ببعض العمال، الذين أحيلوا على البطالة الإجبارية، استجابة للوازم المنهج الكيفي¹⁶⁷ الذي نعتمده لعدم توفر الأرقام والدراسات في هذا السياق من جهة، كما أنّ منع التنقل حال دون استعمال المنهج الإثنوغرافي من جهة أخرى. لذلك سيقع الاتصال كخطوة أولى بالمستهدفين عبر وسائل الاتصال التكنولوجية لتوجيه أسئلة مؤطرة ونصف موجّهة لاستخراج الأدلة. الخطوة ثانياة هي تحليل هذه الشّهادات عبر المكتسبات النظريّة من خلال الدّراسات الاجتماعيّة المناسبة، ومقاربتها نظريًا وذلك بالاستناد إلى مقاربات سوسيولوجيّة وأنثروبولوجيّة، إضافة للمراوحة مع أعمال أدبيّة وفلسفيّة.

⁴ حسب "فيليب بارتيلبي" يشمل الاقتصاد الموازي في تعريفه الواسع القيام بأعمال قانونية بطرق غير قانونية. من بين هذه الطرق الغير قانونية نجد تشغيل عمال البناء في شركات المقاولات بدون عقود ولا تغطية اجتماعية. تاريخ الاطلاع: 07 ماي 2020.

رابط المقال: <http://ses.ens-lyon.fr/articles/economie-souterraine-42368>

⁵ دراسة أجراها حسب دراسة للمركز التونسي للدراسات الإستراتيجية بالتعاون مع مؤسسة "فرانس ستراتيغي" صدرت في فيفري 2019. تاريخ الاطلاع: 08 ماي 2020

¹⁶⁶ التعداد الوطني للسكان 2014: <http://www.social.gov.tn/fileadmin/user1/doc/statistique2014.pdf>

¹⁶⁷ المنهج الكيفي: أو المقاربة الكيفية، وهي طريقة يعتمدها الباحثون في علم الاجتماع في فهم الواقع عبر تمثلات الفاعلين ومقولاتهم في بيئتهم.

في مرحلة أولى سنعمل على تحديد خصائص عمّال البناء كفئة سوسيو-مهنيّة، حيث سنحاول إنتاج مسوّدّة فهم لكيفية عيش هؤلاء، كعمّال بناء ممنوعين من البناء، قبل إبان أزمة الوباء بالاعتماد على تمثّلهم وتعريفهم لوضعياتهم.

في مرحلة ثانية سنقوم برصد التّأثير الإعلامي والخطاب الرسمي على عمّال البناء بالذّكر والدّرس من منطلق أنه قد وقع تهويل الجائحة في بدايتها باستهتار عبر عاصفة إعلاميّة كما أشار لذلك الفيلسوف الفرنسي "ميشال أونفراي"¹⁶⁸، مع النظر إلى مدى اتخاذهم للتدابير الوقائيّة كالتّباعد الجسدي والحجر الصّحّي.

في مرحلة ثالثة وأخيرة، سنبحث مدى تأثير الجائحة على الأحوال الاقتصادية والاجتماعيّة لأصحاب هذه المهنة مع تسليط الضوء على مساهمة المساعدات الحكومية في التخفيف من وطأة الحجر عليهم مع التّدليل والتّطرّف في فاعلية وجدوى طرق توزيع الإعانات الماليّة والمساعدات منذ بداية الحجر وحتى تاريخ كتابة هذه السطور.

"هذا المنفى الداخلي الذي يفصل ملايين الرجال عن بلادهم"- ألبير كامو.

يقول أيضا ألبير كامو في كراس مذكراته "لقد فضلت دائما أن نشهد، إذا استطعت القول، بعد أن نتعذب"¹⁶⁹، حيث يرى أن يترك الفضاء ويهيأ للمعنيين ممن قست عليهم الحياة حتى يعبروا كما يرتؤون، لا أن يتكلم على لسانهم الكتاب والباحثون مما يوحى بالاستيلاء على معاناتهم أيضا فيصوغونها في نصوصهم على شكل هيمنة وصائية فوقية. لكن واجب الباحثين الفاعلين¹⁷⁰ في المجال السوسولوجي هو أن يكونوا كفرسان التنوير¹⁷¹ في المجال الأدبي، حيث يؤتمنون على نقل معاناة المهمشين وتقريبها لبقية المجتمع بالاعتماد على رأسمال معرفي وتكوين أكاديمي سعيا لكسر الحصار/الهيمنة/التمهيش الذي تعاني منه الفئات المهمشة.

¹⁶⁸ نشر "ميشال أونفراي" مقالا بعنوان "Qu'est-ce qu'un chef?"، في موقعه الخاص بتاريخ 08 أفريل 2020، حيث برر فيه الصخب الإعلامي الذي رافق اكتشاف الفيروس واعتبر أنه استثمار من كارتيلات صناعة الدواء عبر الشبكات الإعلامية حتى تستفيد من ترويج الأدوية ظلنا منها بحتمية إيجاد لقاح حينها.

¹⁶⁹ Albert camus, Œuvres complètes, Gallimard.

¹⁷⁰ موضوع ورقة بحث لأمين الحسيني في كراس عدد 2: "سوسولوجيا الفعل الجماعي في تونس منذ 14 جانفي 2011". إصدار المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية. جويلية 2019. ص 9-11.

¹⁷¹ عبارة لبوشكين يصف بها المترجمين. رابط لمصدر: <https://arabic.sputniknews.com/art/201510011015798602/> تاريخ الاطلاع: 08 ماي 2020.

طرح تقريبي لحياة وظروف عمال البناء:

قبل المضي قدما في الاستقصاء والتحليل، وجب أولا وضع رسم/بورتريه تقريبي لهذه الفئة: الانتماء الطبقي/ الفئوي، الحال الاجتماعي، توزيعهم الجغرافي وذلك باستعمال سلسلة المحادثات مع المستجوبين في هذا البحث (عبر الهاتف ومسنجر).

عمال البناء كفئة سوسيو-مهنية هشة:

كان أول الأسئلة التي وجّهت للمستجوبين هي أن يعرفوا فئتهم أو المجموعة المهنية التي ينتمون إليها في محاولة منا لحصرها حتى نخصّصها بالبحث والتحليل لاحقا، وحتى لا يقع تعويمها ضمن طبقة اجتماعية شاسعة ومتباينة الملامح والخصائص. في الشهادة التالية، نجد تمثلا وتعريفا للوضع المعيش من أحد المستجوبين والتي اخترناها لتمهيدا مع تمثلات أغلب المستجوبين:

"خدّامة المرممة هي الناس لي دايرة بالخلطة ويديها نهاز الكل بالسيمان بين السطل والملعقة والباله، ولي البقية إلي نهاز الكل ماشين جايين في وسط الشانطي، جماعة الستيلو، بالاسم متسمين على المرممة. ناس شاخة".

حمزة، 22 سنة، القيروان

إذا ينقسم عمال البناء هرميا إلى عدة أطراف مختلفة:

- العمال اليوميون: أو "خدّامة الحزام"، يعتبرون بمثابة مساعدي البنائين أيضا، وتوكل إليهم معظم الأعمال الجسمانية، كما تنسب إليهم بعض الأعمال التقنية تدريجيا بالتقادم إلى أن يصبحوا بنائين.
- البناؤون: يسمون أيضا "سطاوات"، هم النواة الأولى والمكونة للفئة، ويتمتعون بخبرة ومعرفة تقنية بالعمل، ويستطيعون المبادرة إلى العمل الحر بعد اكتساب رأسمال اجتماعي، ويصطحبون مساعديهم من العمال اليوميين.
- تقنيو البناء: خريجو المعاهد المهنية والتكنولوجية، يشتغلون عادة في خطة مراقب أشغال ويملكون جانبا علميا تقنيا. هم قلة لا يستطيعون العمل إلا ضمن الحظائر أو بعث مناوالات صغيرة بعد اكتساب رأسمال ثقافي اجتماعي.

هناك أيضا أطراف ومكونات أخرى داخل حظائر البناء "الشوانط أو les chantiers"، كتقنيي الكهرباء وشبكات المياه والصرف والتجارة، والمقاولين والسواق... وإن كانوا في نفس القطاع إلا أنهم لا ينتمون، -حسب ما لمسناه من المبحوثين-، إلى نفس الفئة موضوع البحث لأن أفرادها يعتبرون

أولئك من المحظوظين لامتلاكهم صنعة مريحة نسبياً بالمقارنة بهم. ولذلك، فمن الواضح أنه من الإجحاف تناولهم ضمن نفس الفئة للأسباب المذكورة حتى لا نقع في تغييب متعمد أو تعميم لوجهة نظر الخاضعين للهيمنة كما حذر من ذلك الباحث ماهر حنين¹⁷²، فسنعرض اهتمامنا فيما يلي بالمجموعتين الأوليين.

التوزع و/أو الانتماء الجغرافي:

بالنسبة للتوزع الجغرافي، ينتمي عمال البناء عموماً إلى المناطق "الطاردة/المنفرة/النائية" التي لا تتوفر فيها سبل الحياة¹⁷³ وهي عادة ولايات الداخل والحزام الهامشي للعاصمة. يعيش عادة هؤلاء اللامرئيون اجتماعياً "les invisibles" بمحاذاة مواقع عملهم بالأحياء الجديدة التي ينشئونها في إطار توسعات المدن الكبرى، الساحلية والعاصمة، التي تشهد حركية اقتصادية واجتماعية وتكثر فيها الاستثمارات العقارية والسكنية. ومن المتناقضات التي تروى بين أصحاب هذه الأعمال¹⁷⁴ أن الأحياء التي تسمى لاحقاً "راقية"، مثل أحياء الـ AFH¹⁷⁵، يسكنها هؤلاء أولاً أثناء فترة إنشائها (يعيشون عموماً أين يعملون في مواقع البناء ربحاً لمعلوم الكراء)، ثم يغادرونها بعد إنهائها لأصحابها الذين يستنكرون رؤيتهم فيها مستقبلاً لأنهم لا يتماهون مع المشهد العام الذي صارت إليه هذه الأحياء. يرتحل العمال "ولاد الشانتي" كالعادة مع العمل من مدينة إلى أخرى في نمط حياتي هش يشبه الـ précarité الذي تحدثت عنه بيتلر¹⁷⁶. وعلى عكس المقصيين الآخرين، يختار هؤلاء أن يكونوا بلا وجوه،¹⁷⁷ les sans-visages، حيث يتخذون مبدأ حياتياً يتبنونه دائماً "عاشر متوالفش"، في تذكير لأنفسهم بأن لا يرتبطوا وجدانياً بالمكان والأشخاص فهم مفارقون، فيتخذون "العشرة" للعيش المشترك وينكرون "الألفة" لما قد تخلفه من مرارة في كل مرة يألفون ثم يرحلون، فيختصرون ارتباطهم الاجتماعي أثناء فترة العمل بصداقات عميقة مع زملائهم باعتبار غريبتهم في المدن كل مرة.

¹⁷² أنظر ماهر حنين – كراس FTDES بعنوان "سوسيولوجيا الهامش في زمن الكورونا" – ص 10

¹⁷³ سبل الحياة: بمعنى مقومات الحياة الأساسية الاقتصادية واجتماعية كالعمل.

¹⁷⁴ تجربة شخصية: زاولت هذه الأعمال طيلة العطل فترة الدراسة، كما أنتهي اجتماعياً إلى نفس الطبقة، فأعلم ما يدور بين أفرادها من نكات و يخالج صدورهم من مرارة. (الكاتب)

¹⁷⁵ أحياء الـ AFH هي أحياء تقوم بإنشائها الوكالة العقارية للسكنى تكلفه منخفضة نسبياً لفائدة الموظفين. الفئة موضوع هذا البحث غير مشمولة بمثل هذه الامتيازات.

¹⁷⁶ Judith Butler, « vie précaire », Éditions Amsterdam, 2005.

¹⁷⁷ نفس المصدر السابق. و تحدثت بيتلر في مقال آخر أن les sans-visages يسعون لفرض ظهور إيتيقي في الفضاء العام قصد إحراج الآخر.

رابط المقال: <https://www.philomag.com/les-idees/la-vulnerabilite-des-sans-visage-37761>

معدل الأجور والطبقة الاجتماعية:

تعتبر الجامعة العامة للبناء والخشب "FGBB" هي الممثل النقابي لعمال هذا المجال. أنكر المستجوبون في هذا البحث علمهم بوجودها، ويرجع ذلك لضعف الصلة بين النقابة والعمال حيث أنّ الأغلبية الساحقة للعمال ينشطون في إطار العمل الحرّ أو غير المقنّن،

كما أنّ الأرقام الرّسمية الدّقيقة غير متوفّرة، حيث يعتبر هؤلاء ضمن عمال الفلاحة والصناعة، كما تضبط أجورهم بقانون الحد الأدنى للأجور¹⁷⁸ SMIG والذي يحدّد بـ 403 دينار. لكن هذه الرّقم بدا غير واقعي للمستجوبين مما دفعنا لاستجوابهم حول الأجور التي يتقاضونها فعليًا.

جدول أجور عمال البناء

خارج الأطر القانونية	داخل الأطر القانونية	
30-25	20-17	الأجر اليومي بالدينار لعمال بناء (مساعد في) نظام 48 ساعة أسبوعيا
60-50	40-35	الأجر اليومي بالدينار لعمال بناء (في) نظام 48 ساعة أسبوعيا

المصدر: السؤال المباشر للمستجوبين من قبل المحرر.

إن مؤشرات المعهد الوطني للإحصاء لا تكفي لتحديد الانتماء الطبقي لهذه الفئة¹⁷⁹ فمؤشر الفقر المادي¹⁸⁰ الأدنى هو 2.8 دينار في اليوم، والمؤشر الأعلى هو 4.7 دينار في اليوم. وبمقارنة هذه المؤشرات مع الأرقام في الجدول، نجد أنّ هذه الفئة بعيدة جدا عن الفقر. كما أنّ مواصفات الفقر الإداري¹⁸¹ الذي تحدده وزارة الشؤون الاجتماعية لا يمكن تطبيقها هنا¹⁸² (سنرى تأثير ذلك لاحقاً في تأثيرات الجائحة على هذه الفئة). أغلب الدّراسات الاجتماعية تركّز على تداول معطيات الفئات الفقيرة وتحديد نمط حياتها في حين أنّ الدّراسات تكون منعدمة حول الطبقات الأخرى. كما أنّ الحدود بين الطبقة الفقيرة والمتوسطة بالخصوص متداخلة جدا وضبابية. لكن بالاعتماد على دراسة لرضوان الفيلاي وأنيس بوعبيد¹⁸³، يمكن استنتاج أنّ هذه الفئة تنتمي إلى "الطبقة الوسطى

¹⁷⁸Article de journal «la presse» nommé «Le gouvernement décide d'augmenter le SMIG de 6.5%». lien : <https://lapresse.tn/5329/le-gouvernement-decide-daugmenter-le-smig-de-65/>. Publié le 01/05/19. Consulté le 12/05/2020.

¹⁷⁹ هل هي ضمن الطبقة فقيرة، المتوسطة الدنيا، المتوسطة الوسطى، المتوسطة العليا...؟

¹⁸⁰ الفقر المادي: هو تصنيف يخضع لمقاييس/معايير/مؤشرات تحددها مؤسسات مختصة كالمعهد الوطني للإحصاء...

الفقر الإداري هو تصنيف يخضع لمواصفات أو شروط معدة مسبقاً من قبل وزارة الشؤون الاجتماعية¹⁸¹

¹⁸²Azzam MAHJOUR, Pandémie COVID 19 en Tunisie, pages 11-13.

¹⁸³ Radhouane FILALI, Anis BOUABID, PROFILS ET DÉTERMINANTS SOCIOÉCONOMIQUES DE LA CLASSE MOYENNE EN TUNISIE, Région et Développement n° 44-2016, lien de l'article : https://regiondeveloppement.univ-tln.fr/wp-content/uploads/5_Filali_Bouabid.pdf

الدنيا". تعدّ هذه الطبقة طبقة هشّة وتحت تهديد عام مباشر بالفقر والبطالة وخاصة إثر الأزمات الاقتصادية كالجائحة¹⁸⁴.

في هذا الجزء، قمنا بتحديد الفئة المستهدفة مع تحديد تموقعها الجغرافي، كما قدّمنا قراءة لنمط حيات أفراد هذه الفئة، وفي الأخير سعينا إلى حصر عمال مجال البناء داخل طبقة اجتماعية معينة لفهم أعمق لما يحيط بهم.

تأثير الجائحة والحجر على عمال البناء:

عمال البناء في فترة ما قبل الحجر:

"لو كنت تشعر باشمئزاز من مذاق الطعام الرديء والجوارب الملتصقة والثياب القذرة، فلا بد أنك تملك فكرة عما هو جيد، لا بد أنك تذكر وقتاً ما كانت الأمور مختلفة"¹⁸⁵. هكذا عاب جورج أوريل على المتذمّرين تدمّرهم. وذكرنا هذا بتدمّر بعض "المترفين" من تأخر الدولة لإعلان الحجر (رغم أنّه كان باكراً حسب منظمة الصحة العالمية التي باركت ذلك)، لكن لم يكن هذا حال العمّال كما سنرى فيما يلي.

نتناول هنا الوضع النفسي والمعنوي لعمال البناء منذ تواتر الأخبار عن اكتشاف الفيروس في الصين وإلى غاية إعلان الحجر الصحي العام وبادرنا كما قدمنا مسبقاً بالقيام بعدّة اتّصالات مع العاملين بالقطاع.

سمعنا بها كيما الناس الكلّ ملوّف في الشّتاء لكنّ معطينهاش بال، بعد كيف بدات تكثر لحكايات، بدينا نتحيروا شوي كيما بقيّة الخلق، خاصة كيف ربتهم يحكوا على الحجر في التّلفزة الفايصوك وبدات أكا الحملّة تع "شدّ دارك"، ياخي ساهل هو شدّان الدّار أكا؟ زيد شمينها العادة باش تجي في روسنا. المصايب كيما هادي ميخلصها كان الزوالي. أما هاذاكا ربي شحبت. كنّ إيه و براا خفنا نحبسوا الخدمة يعني؟ يا ولدي الخدمة هادي ما تخدمش ما تخلصش، تي بو تخدم وعادي متلقاش حقلّ ويقلبوك. وحديث التلافز منعدلوش عليه، من وقتاش يههم بينا وزيد من وقتاش حكوا الحقيقة ماهم ديما يكذبوا كان باش تبّعهم يضيّعوك. وزيد ملخّر بهمهم كان في مصالحهم ومصالح الناس لي كيفهم. في بالك يههمهم في الزوالي؟".
عبد الباسط، 43 سنة، سليانة.

¹⁸⁴ Azzam MAHJOURB, Pandémie COVID 19 en Tunisie, page

¹⁸⁵ رود هذا بمقال "تسنيم فيهد" بمجلة "نون بوست" ضمن مقال بعنوان "حين اختار "جورج أورويل" الوقوف على حافة البؤس في باريس

ولندن" بتاريخ: 29 سبتمبر 2017. رابط المقال: <https://www.noonpost.com/content/20060>

قد تبدو شهادة "عبد الباسط" غريبة ومتهورة إذ نلاحظ فيها ثلاث اعترافات مبطنة: اللامبالاة، الضيم والشعور بتهديد وجودي. وكما يشير دولوز ونيتشه¹⁸⁶ في التحليل النفسي، سنبتعد عن الدور الوصائي وسنكتفي بما لمسناه في الشهادة بعيدا عن كل هيمنة فوقية.

● الضيم: يعيش هؤلاء العمال خطر الخوف الدائم نتيجة لظروف عملهم أين تنعدم وسائل الحماية. فيتم التصالح بـ"التقادم" مع فكرة الخطر المحدق حتى تصير نمطا معيشيا، ويمكن لمس هذا من خلال تعبير "زيد شمينها كالعادة باش تجي في روسنا. المصابب كيما هادي ميخلصها كان الزوالي". كما أن هناك تسليما بالقضاء والقدر يعززه إيمان ووازع ديني يتسلح به هؤلاء في مواجهة خطر "الأخر". من جهة أخرى، يعترى هذه الفئة شعور ضمني بالخضوع للهيمنة بسبب إقصائها عن المشهد العام وإبعادها عن المشاركة في صناعة الرأي مع غيرها من المهتمين فيولد هذا شعورا باللامبالاة.

● اللامبالاة: انطلاقا من الانسلاخ القسري في البداية ثم الطوعي لاحقا، والذي يعيشه الهامشيون في المشهد العام، يلجأ أفراد هذا الجزء من البروليتاريا لصناعة وصفهم وكلماتهم الخاصة لمعيشتهم اليومية خارج المتداول الإعلامي بما يمثله من سلطة، وهو ما سماه بورديو¹⁸⁷ "الطبقة المشيأة" في إشارة للفلاحين الراحين تحت الهيمنة، فيلجؤون لتكوين رأس مال ثقافي جماعي بعيد عن الرأس المال الثقافي المهيمن الذي سبق أن أقصاهم. كما يمكن تفسير ذلك بغياب التصادي/الصدى/الرنين la résonance بين الخطاب الرسمي واللامبالين. ومنه يمكن تحسس الاعتراف بسلطة الدولة في ظل تواصل سياسية الهيمنة والتجاهل والإقصاء.¹⁸⁸

● الشعور بتهديد وجودي: الضيم واللامبالاة ما هي إلا نتائج مباشرة للشعور بالتهديد الوجودي وعدم القدرة على مواجهته (الضيم)، ومن ثم المرور إلى القبول بالواقع في مرحلة أولى ثم تجاهله في مرحلة ثانية (اللامبالاة)، فيغدو العمل في هذه الحالة أكثر من مجرد دور في النشاط الاجتماعي أو مهنة في إطار الدورة الاقتصادية¹⁸⁹ بل تمثلا وجوديا وارتباطيا بالحياة. إذ أنه ليس خيارا بالنسبة لأفراد هذه الطبقة عموما بل هو ضرورة وجودية مستعجلة تضمن البقاء في الإطار الشرعي أو القانوني، وعليه فإن كل تهديد بإيقاف العمل يعتبر تهديدا بإيقاف الحياة.

هكذا اتسم شعور عمال البناء وشعور أبناء طبقتهم، في إطار توصيف البراديجم الماركسي، لطبقة البروليتاريا في المجتمع. حيث يفرض الحاضر نفسه كالحقيقة الوحيدة التي تستدعي التدبر،

¹⁸⁶Gilles Deleuze et la psychanalyse, <http://psy-enfant.fr/gilles-deleuze-et-la-psychanalyse/>, consulté le 17/05/20

¹⁸⁷ Rosende Remuinan, Simon, Lecture de la "théorie de la pratique" de Pierre Bourdieu, lien : https://matheo.uliege.be/bitstream/2268.2/6676/4/TFE_Rosende%20Simon.pdf, Consulté le 17/05/2020.

¹⁸⁸ سفيان جاب الله، ورقة حول احتجاجات 2018، الحق في الماء، المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية.

¹⁸⁹La meme source numéro '18'.

والحاضر وقتها (قبل الحجر) هو حاضرهم الأبدي، عمل روتيني لسداد ديون وضممان البقاء، لكن لا يخفى على أحد أن حاضرهم قد اتسم بالحيرة والتوجس من المستقبل بعد تخمة التحذيرات وهيستيريا الخوف التي عايشتها البلاد كلها. ولذلك عمد جلّ الناس إلى العمل حتى آخر يوم قبل الإعلان عن الحجر، قصد تحصيل ما يمكن تحصيله تحضيراً لقادم ينبيء بالسوء وهو ما سنراه في الفقرة الموالية.

عمال البناء في الحجر:

بعد تبين حال الفئة المعنية بهذا البحث قبل إعلان الحجر الصحي من خلال الشهادات التي يؤكد أصحابها أنهم وزملائهم قد عملوا إلى غاية يوم 20 مارس 2020، تاريخ الإعلان عن الحجر الصحي الذي سينطلق فعلياً يوم 22 مارس 2020، سنجد في الشهادة التالية ملخصاً لما عاشه المستجوب وزملاؤه من ليلة سماع الإعلان، وذلك كما ذكرنا سابقاً عبر أسئلة نصف موجهة وبعد اتصالات عديدة:

"كيف سمعنا بالحجر ودارت التليفونات وقلقنا مئماًش خدمة ديراكت حضرت روجي باش نروخ من غدوة الصباح قبل ما يتقص النقل، لكنّ فما صحابي نعرفهم بقاؤ يستنوا في الفلوس حتى يخلصوهم، بطبيعتو وقتها راس شهر وحد ما كان قاري حسابو، يخدموا مع (ش.إ)، ياخي مخلصهمش وقتها، خلصهم هالنهارين (الأسبوع الثاني من شهر ماي 2020)، أما البريمّ تع عمناول لتو ما صبّو. يا كهو عاد تراصّتلهم محصورين غادي لي مروخ مرسكي في كميون خضرة بين الصنادق ولي مروخ تقول "حارق"، الأسوام بين 50 و 100، يعني لا يزي بطالّ وزيد يعطي خلاص نهارين ولا ثلاثة باش يروخ. كهو وصلت للدار، نلقى الناس خايضين على الإعانات، أحنا بطبيعتنا معناش الحقّ فيهمّ مناش مقيدين ومعناش الحقّ في حتّى كزني لا أبيض لا أصفر، وزيد حتى كان عطونا مناخدوش. بالنسبة للقعدة في الدار مقعدتش، منجمش. ناس داخله خارجة برشا حسن. وزيد نقلق نتخنق، كل يوم نخرج مع الأولاد، لا حجر لا شي في الحومة نعيشوا عادي. وهانا قاعدين نستنوا في الفرخ من عند ربي".

ناجي، 28 سنة، الكاف

إذا اعتمدنا المقاربة التفكيكية في معالجة نص الشهادة حسب توجه "داريدا" في مراجعة

النصوص، يمكن التّفاذ إلى العديد من الأحداث والمشاكل سواء التي تتعلّق بصفة مباشرة أو غير مباشرة بالجائحة، كما يمكن أيضاً رصد آثار الإجراءات الحكومية مباشرة:

❖ أزمة التنقل: نظرا للنمط المعيشي للفئة المدروسة والتموقع الجغرافي لأفرادها، تحول أمر الحكومة بمنع التنقل بين المدن أثناء فترة الحجر إلى ما يشبه "الاعتقال الكبير"¹⁹⁰. فهم بعيدون عن أهلهم وذوئهم في مدن غريبة مع اعتبار سيطرة الخوف حينها على الجميع كما قال "إبيكدات"، كما أنهم لا يستطيعون أن يمكثوا في أماكنهم خاصة مع ظروف الإقامة الصعبة في حظائر الأشغال. هذا ما دفعهم للجوء إلى عمليات "حرقة" داخلية كانت قد انتشرت كثيرا في الأيام الأولى للحجر المبالغت بين جميع الطبقات الاجتماعية. هذا دون أن ننسى أزمة العمال التونسيين في ليبيا، حيث يعتبر البناء نشاطا مستقطبا للتونسيين في ليبيا، فقد احتُجز هؤلاء في الجزء الليبي للبوابة ولبثوا ينتظرون أياما حتى أقدموا على اقتحامها بعد أن ضاقوا ذرعا. كالعادة، فقد ظلم قرار الحجر المبالغت العديد من التونسيين بعد أن سلمهم حقا دستوريا (حرية التنقل) بحجة الجائحة، وقد تضرر من هذا القرار خاصة العمال الرحل "nomades"¹⁹¹.

❖ أزمة التأجير: يبدو الأمر وكأننا نتحدث عن البوتقة العامة لهابرماس "sphère public" لكن بطريقة مختلفة، حيث يُحشَرُ هؤلاء العمال بين رجال الأعمال وزبانيتهم من مقاولين ووسطاء من جهة، والدولة وإجراءاتها من جهة أخرى. فمند لوححت الحكومة، عبر رئيسها بالتهديد والوعيد لمن يتخلف من رجال الأعمال عن مسانديتها، بادر هؤلاء أيضا للتكتل والتحصن. ويبدو أن ما بادرت إليه الشركة المذكورة من حبس أجور شهر مارس يأتي ضمن هذه التحصينات. فقد كان الوضع مبهما حينها والرؤية غير واضحة، فعمدت إدارة الشركة المذكورة، حسب شهادة المستجوب، إلى إبراز شخصية الرجل الحذر "l'homme prudent"¹⁹²، ويتمثل ذلك في قطع الأجور لتوفير السيولة تحسبا لما ستؤول له الأوضاع، تاركة منظورها عرضة للأزمات وهم على أبواب الجائحة، في أبرز تجل لمقولة: "الرأس مال جبان".

❖ أزمة في توجيه المساعدات لمستحقيها: تسببت إجراءات الدولة في صعوبات كبيرة لهذه الفئة التي كنا قد صنفناها ضمن "الطبقة الوسطى الدنيا"، مما جعلها فئة هشّة معرضة للفقر والبطالة، وتسمى هذه الوضعية "تهديد هشاشة خارجية" باعتبار أن سببها ظرفي كالجائحة¹⁹³. ولمساندة المتضررين، وعدت الحكومة بمساندة الفئات المتضررة، لكن هذا الوعد واجه عديد العراقيل ونذكر منها:

¹⁹⁰ الاعتقال الكبير: عبارة استعملها ميشال فوكو لوصف الإجراءات الأوروبية لضبط المرضى والمجانين في العصر الكلاسيكي.

¹⁹¹ أنظر مقال في الإكسبراس الفرنسية:

, publié le 15/06/2006 https://www.lexpress.fr/region/la-dr-ocirc-le-de-vie-des-ouvriers-nomades_481479.html

¹⁹² يعتبر آدم سميث، مؤسس علم الاقتصاد الحديث، أن الحذر هو أحد أهم صفات التي يجب أن يتحلّى بها رواد الأعمال المعاصرون.

¹⁹³ Azzam Mahjoub, « les inégalités, les vulnérabilités à la pauvreté et au chômage », Cahiers FTDES, page 17.

1. الفئة الأولى المعنية بالإعانات "الفقيرة إداريًا" وتسمى أيضا معوزة حسب التعبير الرسمي، هي العائلات المسجلة في قوائم وزارة الشؤون الاجتماعية، والتي طالب عديد الناشطين مرارا بتحسينها ورقمنتها¹⁹⁴، وتسمى أيضا "أصحاب البطاقات العلاجية المجانية (AMG1)" وهي ما سماها المبحوث بـ "الكرني الأبيض".

يتطلب الحصول على هذه البطاقات منذ الزمن البائد نوعا من التزلف إلى العمد من جهة، ومن جهة أخرى بيروقراطية مقبولة تتضمن إجراءاتها "شهادة فقر"، ويتطلب الحصول عليها أحيانا دفع رشوة أو الاعتماد على "واسطة"، ما جعل الكثيرين يتعففون عن التسجيل حفظا لكرامتهم وتجنبنا للإهانة.

2. الفئة الثانية "الهشة أو المعرضة للفقر"، تشترط الحكومة أن تكون من حاملي بطاقات العلاج ذات التعريف المنخفضة (AMG 2) أو "الكرني الأصفر"، ما يعني ألا تكون منخرطا في أي منظومة رعاية صحية أخرى (AMG1, CNSS, CNRPS)، وشروط أخرى كأن لا يتجاوز دخل رب العائلة مرتين الأجر الأدنى SMIG في عائلة تتضمن خمسة أفراد في أقصى الحالات، ما يعني 806 دينار لخمسة أفراد.

تبدو الشروط لا منطقية تماما، فالمبلغ الأقصى هنا خيالي ولا يمت للواقع بصلة، ناهيك عن الاستثناءات العديدة التي تحرم الكثيرين من الحصول على هذه الإعانات. لتقريب الصورة، فلنفترض عاملا كان قد اشتغل طيلة سنة 2019 بمصنع يندرج ضمن القانون 72 ثم انتهى عقده فلجأ بداية 2020 إلى "المرممة" كحلّ وقي ومرحلة انتقالية في إطار نضال البقاء، فتصادف ذلك مع الجائحة، كيف يجرمه انخراطه في الصندوق الاجتماعي CNRPS من حقّه في الإعانات. وهذا هو أغلب حال هؤلاء العمال "خدّامة الحزام"، النواة الأولى لعمّال البناء، تارة يعملون بمصنع وتارة أخرى بمقهي أو ورشة مع اللجوء إلى العمل في حظائر البناء عند كلّ فراغ "مهني" أو متى توقّف العمل التّادر عموما في بعض المناطق.

أما بالنسبة للمسجّلين بدفاتر الدولة، فقد أدّى سوء التّدبير الإدارة وغياب التحضير المسبق لظهور "طوابير البؤس وكرنفلات التسول الاجتماعي"¹⁹⁵، حيث حرمتهم الدولة قسريا من حقوق دستورية (حق العمل وحق التنقل) بحجة الكورونا وبتفويض شعبي من طبقة (أو طبقات) مترفة تتمتع بامتيازات عديدة مثل: امتياز المأوى، العمل عن بعد والأجر المستقر... هذه الامتيازات أعمت هذه الطبقة والسلطة فأدى ذلك لإعادة إنتاج الهيمنة، حسب تعريف بورديو، هيمنة فوقية اجتماعية قد تؤدي إلى مزيد تعميق الطبقة السائدة واللامساواة بين الفئات والجهات في ظل ما يهدد البلاد من أزمة اقتصادية لم يسبق لها مثيل منذ الاستقلال حسب صندوق النقد الدولي وخبراء

¹⁹⁴ تعهدت وزارة الشؤون الاجتماعية أكثر من مرة بتحسين السجل لكن ذلك لم يتم إلى حد اللحظة. الرابط: [http://www.social.gov.tn/index.php?id=7&tx_ttnews\[tt_news\]=5524&cHash=ccd06dce4109136108286559c1b9a5ec](http://www.social.gov.tn/index.php?id=7&tx_ttnews[tt_news]=5524&cHash=ccd06dce4109136108286559c1b9a5ec)

¹⁹⁵ عنوان مقال خليفة شوشان بجريدة "الصباح" التونسية نشره بتاريخ: 11 أبريل 2020.

❖ **عدم الالتزام بقواعد الحجر الصحي:** "القعدة في الدار مقعدتّش، منجمّش..." هكذا كانت إجابة معظم المستجوبين، فالفكرة لا تطاق شكلا ولا سبيل للخوض فيها. حسب الإحصاء الوطني لسنة 2014¹⁹⁷، فإن 27.6% من المساكن تتكون من أقل من غرفتين، كما أن 53.8% من المساكن في المناطق غير البلدية هي "دار/حوش عربي"، كما يمثل هذا النوع ربع مساكن البلاد، مما يعني تجمعا لـ 4 أو 5 أفراد في "دار عربي". هذا ما عبر عنه ناجي بـ"نقلق ونتخفق"، ولا داعي للحديث عن التباعد الاجتماعي، "فمناعة البشر ضد الاحتكاك الاجتماعي ضعيفة حيث لا يحقق أغلبهم ذواتهم إلا عبر اعتراف الآخر"¹⁹⁸.

تطرقنا فيما سبق إلى ظروف فئة "عمال البناء" قبل وأثناء الجائحة، ووقع التدابير والإجراءات الحكومية عليها وآثارها في تعميق أزمتها. وبالإضافة إلى الامتيازات التي ذكرنا والتي لا تتمتع بها هذه الفئة وشركاؤها أيضا ضمن نفس الطبقة، فإن الحديث عن النجاة من الجائحة والبقاء هو أيضا امتياز مقارنة بالحاجة إلى البقاء، حيث بلغ معدل العدوى الوطني في أقصى حالاته 7 في 100 ألف¹⁹⁹، وهو ما يجعل مراجعة "الحاجة إلى الأمان الصحي" مع "الحاجة إلى البقاء" نوعا من البذخ حسب هرم "ماسلو"²⁰⁰.

عمال البناء الأجانب (من أصل إفريقي جنوب الصحراء):

"على أمل ألا تسيطر الوسيلة (البراغماتية) على الإنسان أبدا، وعلى تطويع الإنسان للإنسان. مما يعني رضوخي أنا للآخر، أتمنى أن أكتشف الإنسان أينما كان". هكذا كتب فرانز فانون في كتابه "بشرة سوداء، أقنعة بيضاء"، حيث دعا إلى مناهضة العبودية والاستعباد، كما دعا إلى التكافل بين الأفارقة، فالخلاص حسب قوله، لا يكون إلا جماعيا. وباعتبارهم يمثلون نسبة هامة من هذه الفئة، أردنا تخصيص هذا الجزء لعمال البناء الأجانب في البلاد. وبعد التنسيق والاتصال كانت هذه شهادة أحدهم²⁰¹:

¹⁹⁶Hakim Ben Hammouda, entretien avec journal 'le point' en 06/05/2020. Lien : https://www.lepoint.fr/afrique/tunisie-la-pire-recession-depuis-l-independance-06-05-2020-2374385_3826.php

¹⁹⁷RECENSEMENT GÉNÉRAL DE LA POPULATION ET DE L'HABITAT 2014, lien : <http://www.ins.tn/sites/default/files/RGPH-national-logem-me%CC%8Inage-site6.pdf>

¹⁹⁸ عبارة للروائي التونسي ومدير بيت الرواية "كمال الرياحي"، كتبها بمجلة رمان الثقافية بتاريخ 16 أبريل 2020، الرابط: <https://rommanmag.com/view/posts/postDetails?id=5680>

¹⁹⁹ حسب تصريح وزير الصحة لوكالة تونس أفريقيا للأنباء بتاريخ 12 أبريل 2020. الرابط: <https://www.tap.info.tn/fr/Portail-R%3%A9gions/12557254-tataouine-covid19>

²⁰⁰ رتب "الحاجيات البشرية" ترتيبا تصاعديا حيث وضع الحاجيات الفيزيولوجية، ومنها البقاء، في قاعدة الهرم.

²⁰¹ عكس توقعاتي الماقبلية للشهادة التالية كما وردت لسان المبحوث "تيموكو"، فقد أنكر المبحوث أي تمييز داخل حظيرة البناء، بينما أكده خارجها ضمن حياته اليومية.

"نحن لا نعمل حالياً، زوجتي كان تشتغل معينة منزلية وأنا في حظيرة بناء. لدي ابنة وأعيش حالياً على المساعدات التي تقدمها جمعية خيرية. انتقلنا مع عائلتين ثانيتين للعيش في منزل عائلة رابعة صديقة لنا، فليس لدينا مال كاف لدفع الإيجار. الوضع قبل الحجر كان مقبولاً نسبياً فلم نشعر بأي فارق في التعامل بيننا وبين التونسيين. لا أتوقع أن يتغير الوضع كثيراً، فوسائل الحماية المفترضة في هذا القطاع لم تكن متوفرة أساساً، فكيف تتوقع أن نعمل بالكمامات؟، لكن يبقى الأمل في الانتقال قريباً، فالوضع سيصبح صعباً قريباً مع فصل الصيف ومع كثرة الأفراد في المنزل".

الشيخ تيموكو، 29 سنة، ساحل العاج.

تميزت فترة الحجر وطوال ذروة الجائحة بتأزر وتكافل مجتمعي مواطني فعال على جميع الأصعدة، وهو ما ساهم في تقليص حدتها نسبياً. كما أن هذا هو الحل الأمثل لمجابهة الوباء حسب المؤرخ "يوفال نوح هراري"²⁰² والمنظر "جاك أتالي"²⁰³. لكن هذا الجزء من عمال البناء، المهاجرين، لا يمكن تصنيفهم والتعامل معهم ضمن نفس الفئة مع العمال المحليين لأن وضعهم أسوأ، فهم هنا يصنّفون ضمن الطبقة الفقيرة والمهددة بالفقر الشديد عكس المحليين. لكن لهؤلاء نصيبهم من الإقصاء والتهميش²⁰⁴. وحسب الطرح السيكلوجي لفرانز فانون، فإن الأفارقة يعانون من احتقارهم لذواتهم نتيجة لما أقنعهم به الاستعمار من دونية، فخلق ذلك في داخلهم اغتراباً بسبب سعيهم الدائم لكي يصبحوا أسياداً ولو في مخيلتهم، وهو ما سيقضي لاحقاً على التضامن فيما بينهم، ويضرب "فانون" مثال السود الأميركيين واحتقارهم للسود الأفارقة بسبب فقدانهم الارتباط بجذورهم نتيجة سياسة الأسياد البيض.²⁰⁵

إلا أن "الشيخ تيموكو" أكد أنه يتلقى أجراً مساوياً لأجر زملائه من التونسيين، وأنكر أي إحساس بالعنصرية داخل الحظيرة، في حين أكده خارجها أثناء حياته اليومية، ويرجع ذلك إلى انحصار العمال، ضمن هذا الحقل المهني في تكوين رأس مال اجتماعي بهدف توفير التضامن، بالاشتراك في نفس الواجهة الاجتماعية (العمل في مجال البناء خاصة والمهن الشاقة عموماً)، لينتهي ذلك بتوفير أريحية نسبية (تعاوض مهني) في العمل الشاق. والدليل أن كل ذلك ينتهي بمجرد الانتهاء

²⁰² مقال نشره بموقع مجلة فايننشال تايمز بتاريخ 20 مارس 2020. الرابط: https://www.ft.com/content/19d90308-6858-11ea-a3c91fe6fedcca75?sharetype=blocked&fbclid=IwAR1ehf7faF4TkfOaOtlvZKCqr33XotZwLGBJZNn6MRuscQzRc7_Foa9_3Lo

²⁰³ مقال نشره بموقع "espace manager" بتاريخ 04 أبريل 2020. الرابط: <https://www.espacemanager.com/predictions-de-jacques-attali-face-au-coronavirus.html>

²⁰⁴ Tunisie, des migrants subsahariens toujours exclus du rêve démocratique, Vincent Geisser. Lien : <https://www.cairn.info/revue-migrations-societe-2019-3-page-3.htm>

²⁰⁵ فرانز فانون. كتاب بشرة سوداء وأقنعة بيضاء. الفارابي منشورات أنيب، 2004، ترجمة خليل أحمد خليل.

من العمل، فيعود العمّال للانصهار في المنظومة المجتمعية وما تتضمنه من ممارسات تجاه المهتمّين الأجانب حسب ما وضّح قانون.

كان الهدف من هذا الجزء هو التأكيد على تقاسم المهاجرين الأجانب المصير مع المحليين، وذكر الوطأة المضاعفة للجائحة عليهم، نظرا للاغتراب الذي يعيشونه اقتصاديا، والغربة مكانيا وسوسولوجيا²⁰⁶ على أمل أن يقع تخصيص مادة كاملة تعنى بهم مستقبلا.

الخاتمة:

ستظلّ الأزمة في البلاد اجتماعية اقتصادية خالصة، فبالرغم من التشريعات المختلفة، سيبقى التحدي في تجسيد أسطر أجندات المنظمات الاجتماعية الحكومية والجمعياتية كواقع ملموس تحديًا قائمًا ما دامت لم تتوقّر الإرادة السياسية الجادة لتحقيقه.

رغم التهديدات الصحية الخطيرة التي يمثلها الفيروس، فقد ساهم في إحداث رجّة لدى النخب المهينة حتى تضع في اعتبارها مستقبلا أحوال المقصّيين، بعد أن كشف عجز المنظومة الاجتماعية على استيعاب الجميع. وترجّح الأرقام الحكومية والدولية حول الآثار الاقتصادية للوباء أن عدد المهتمّين سيتضاعف في الأيام القادمة، كما سيتعمّق التفاوت الاجتماعي الاقتصادي بين الطبقات والجهات.

الارتجال والاعتباطية في الإجراءات دفعا بالطبقة المتوسطة الدنيا إلى أقصى الحدود وربما احتلّت مكان الطبقة الفقيرة التي صارت بدورها تلاصق الطبقة الأشدّ فقرا، مما يحيل إلى تمّدد الطبقة الفقيرة وتقلّص الطبقة المتوسطة. ولذلك، صارت مراجعة أدوات الحوكمة وأجهزة الدولة حتمية وذلك حفاظا على السلم الاجتماعي.

أما على الصعيد التنظيمي، وجب هيكلة القطاع ومراقبة المشغّلين من خلال تفعيل قوانين مجلة الشغل وتكثيف تفقيديات الشغل حتى يتمّ القطع مع أدوات التشغيل الهشّ والمؤقت، حتى يتسنى ضمان حقوق الشغّلين، حيث أن واقع عمال البناء هو تمثيل لكل القطاعات المشابهة والتي تركز على استغلال اليد العاملة خارج الأطر الرسمية كعمّال الفلاحة وعمّال المصانع، مما يحيل إلى تكثيف وتفعيل الدور النقابي في الإحاطة أكثر بهذه الفئات المنسية عمدا، بالإضافة لدور الإعلام في تسليط الضوء وتوجيه الأنظار نحو قضايا هؤلاء.

²⁰⁶ « La proximité et la distance émotionnelle ne sont plus liées à la distance spatiale, ce qui veut dire que notre voisin peut être pour nous un parfait étranger, alors qu'une personne située à l'autre bout du monde peut être notre partenaire le plus intime ». Hartmut Rosa, Aliénation et Accélération vers une théorie critique de la modernité tardive, La découverte/Poche, Paris.

صار من الضرورة الملحة أيضا مراجعة السجلات الاجتماعية، بالإضافة إلى المعايير المجحفة لتحديد الفقر من قبل الدولة، وجب تحيين هذه السجلات وملاءمتها مع الواقع لضمان فاعلية البرامج الحكومية. أخيرا، تبقى الأزمات فرصة للمراجعة وإعادة التموقع، لكن تبقى الكتابات في هذا الشأن وكل التقارير والدراسات مجرد أرقام وآراء وتحاليل ما لم تتوفر الإرادة السياسية لتبنيها.

ملف: عاملات النظافة: الفاعلات في المعركة من أجل الحياة

الهازل أمل

ملخص:

تقنعنا الحكومة التونسية بأنّ الوباء يعاملنا بنفس الطريقة وبأنّنا نتحمّل نفس المسؤولية ولدينا نفس الوسائل للتغلّب على الوباء، والحال أنّ الوباء لا يعاملنا بنفس الطريقة مادام التفاوت الاجتماعي قائما في تونس، فهناك فئات هشّة معرّضة أكثر من غيرها للعدوى ولا تملك الوسائل الكافية لحماية نفسها. مع تزامن بداية انتشار الوباء في تونس، كانت عاملات النظافة تمثّل الفئة الأكثر مساهمة في مقاومة الوباء داخل المؤسسات الصحيّة وقد كنّ الأكثر عرضة لخطر العدوى بالفيروس المستجد لتعاملهنّ الدائم مع النفايات الصحيّة والاستشفائية. في هذا الحقل البحثي، تندرج هذه الورقة في سياق كراس من إنجاز المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، لفهم آثار الجائحة على العديد من الفئات المهنية والاجتماعية الهشّة ولتسليط الضوء على ظروف العمل داخل المستشفيات خلال انتشار الوباء.

Abstract:

The Tunisian government insists on the fact that the Covid epidemic is the same everywhere and that we bear the same responsibility and have the same strategies to defeat it. However, the situation is different; this virus is not the same everywhere. Therefore, claiming that it is the same everywhere is a huge mistake. Social inequalities in Tunisia have been prolonging a public dispute lately. Poor people and citizens with low incomes and small wages will be affected by the Covid more than others. And the problem is that we lack means and tools of protection and not everyone can afford to buy a mask.

In Tunisia, cleaning staff and workers are the ones that participated in fighting the Covid epidemic as they work hard in hospitals and medical institutions. They were at risk of catching the virus because of the nature of their job. In this research field, these are extracts from the **Tunisian Forum of the Economic and Social Rights**.

This research aims at comprehending the effects of the pandemic on middle class and poor workers and social groups. And to study profoundly the situation of cleaning staff and workers during their shifts at hospitals in this exceptional moment of history.

كلّ إستغلال، كلّ خضوع وخنوع، يجب أن يُشرعن كي يقبله أولئك الذين يعانون من وطأته، يجب أن يعتبره ضحاياه شرعياً

"جون ماري آديافي"

توطئة:

وضع تفشي الوباء الدّولة التونسية أمام واقع جديد، فأصبح من الضروري مراجعة بعض الخيارات السياسية التي انتهجتها الدّولة منذ سنوات عديدة، لما لهذه الخيارات من انعكاسات سلبية على صحّة وظروف الفئات الهشّة اقتصاديا والمهمّشة اجتماعيا. إذ صار من غير الممكن اليوم، العيش في نفس الظروف الصحيّة والاجتماعية. تخبرنا هذه الأزمة كثيراً عن حقيقة أننا كائنات واعية يجب أن تجد توازنا جديداً مع المحيط الذي تعيش فيه. ومن الضروري أن يكون هذا المحيط سليماً وأن تكون ظروف العمل سليمة أيضاً. لاحظنا أنّ أساليب مقاومة الوباء هشة وغير فعالة من طرف مؤسسات الدّولة التونسية. فمن المعلوم أنّ المنظومة الصحيّة في تونس تعرف العديد من النقائص، وهي لا تستوعب كامل الفئات الاجتماعية لتأمين الرعاية الصحيّة الضرورية في حالة الإصابة بفيروس كوفيد-19. في هذا السياق، أكد غاي رايدر، المدير العام لمنظمة العمل الدوليّة على أنّ: "هذه ليست مجرد أزمة صحيّة فحسب، بل أيضاً أزمة سوق عمل وأزمة اقتصادية كبرى لها أثر هائل على البشر". نحن إذن إزاء أزمة صحيّة قابلة لأن تتفاقم في أي لحظة، لذلك اخترنا تسليط الضوء على عاملات النظافة باعتبارهن الفئة الأكثر هشاشة، ونحن لا ندعي الإلمام بظاهرة العمالة وبكامل واقع عاملات النظافة، بل إنّ هذه الورقة تندرج في سياق نضالي وفي كراس يصدره "منتدى الحقوق الاقتصادية والاجتماعية" دفاعاً عن الفئات التي تعرف واقعا اقتصاديا واجتماعيا هشاً ويقع تغييبها في منابر الإعلام والبرامج السياسية.

مدخل إشكالي:

أجبرت الحكومة التونسية مواطنيها على الالتزام بالحجر الصحي، ممّا منع الناس من النزول إلى الشوارع أو التجمع في مجموعات للاحتجاج. ولكنها في المقابل، تتناسى أنّ خلف الأبواب تقبع أسر محدودة الدخل، في السجون والأحياء الفقيرة ومخيمات اللاجئين والمناطق المهمّشة، أينما كان الناس فهم يعانون الجوع والمرض والتعدي على حقوقهم حتى قبل تفشي الوباء. يقول عالم الاجتماع الإيطالي بياترو بيرو: "لقد انفجرت القنبلة الاجتماعية لفترة طويلة. كيف لا تسمع صرخة الأرض وصراخ الفقراء؟ يجب أن نكون صُماً وعمياً. جعلت هذه الأزمة بؤس العالم، وظلمه أكثر وضوحاً".

"في 23 مارس 2020، وبعد إعلان وزارة الصحة، جزيرة جربة "بؤرة وباء"، تعددت المبادرات الرامية إلى المشاركة في دعم الجهود الكبيرة التي يبذلها الإطار الطبي وشبه الطبي بالمستشفى الجهوي الصادق المقدم بحومة السوق جربة".²⁰⁷

أعلنت جزيرة جربة أنّها أكثر المناطق التي عرفت انتشارا واسعا لفيروس كوفيد-19 وهو ما جعل السلطات تتخذ قرار عزلها وتطبيق الإجراءات اللازمة لإغلاقها ومنع أيّ خروج منها أو دخول إليها، وشملت هذه الإجراءات التونسيين المقيمين داخل تونس وخارجها وحظر أيّ تنقل، وقد عجل هذا بضرورة اتخاذ إجراءات استثنائية لتجهيز المستشفى بما ينقصه من وسائل استقبال ورعاية المصابين بفيروس كورونا، خاصّة الذين يحتاجون إلى العناية المركّزة، ورغم ذلك بقي المستشفى يعاني من نقص كبيرا في عديد الجوانب وخاصة منها نقص الأطباء.

في زيارة وزير الصحة عبد اللطيف المكي في 23 مارس 2020 لمستشفى الصادق المقدم بحومة السوق، اكتشف الوزير الصعوبات والنقائص التي تعترض الإطار الطبي وشبه الطبي والعملة، ومنها نقص أطباء الاختصاص في قسم الإنعاش وبطء نتائج التحاليل ونقص المعدات للتوقي من فيروس كوفيد-19.²⁰⁸ رغم هذه الصعوبات، تحسّل الطاقم الطبي وشبه الطبي والعملة على مساندة المجتمع المدني والقطاع الخاصّ وتمّ إنشاء وحدة ودائرة COVID-19، وقد وقع تجميع الأموال لهذا الغرض، فالنداءات التي أطلقتها عديد الجمعيات الناشطة في المجتمع المدني بجربة من أجل تقديم كلّ أنواع الدعم لاقت دعما كبيرا، كما فتحت بعض الجمعيات حسابات بنكية للراغبين في تقديم التبرعات لتوفير التجهيزات للمستشفى على غرار ودادية أطباء جربة التي جمعت مبلغا ماليا هاما من أجل اقتناء مجموعة من التجهيزات بعد التنسيق مع إدارة المستشفى.²⁰⁹

تنقسم هذه الورقة إلى قسمين، القسم الأول خصصناه للحديث عن الإطار النظري والبراديجم المعرفي الذي يتنزل فيه بحثنا. أما القسم الثاني، فيتعلّق بالعمل والوباء (ظروف العمل في المستشفيات) إضافة إلى الدور الاجتماعي للعاملات وظروف عيشهن

يمكن حصر إشكالية البحث إذن في التساؤل الرئيسي التالي: نظرا لعدم إمكانية التنقل لمكان البحث وانتشار فيروس كوفيد-19 في جزيرة جربة، تساءلنا عن تجربة عاملات النظافة في مواجهة الجائحة داخل المستشفيات عموما، وبالتحديد داخل مستشفى الصادق المقدم في جزيرة جربة، وبعد اتصالنا بالعديد من المستشفيات خاصّة في المناطق التي عرفت انتشارا أكثر للفيروس مثل المستشفى الجهوي قبلي ومستشفى فرحات حشاد بسوسة ومستشفى فطومة بورقيبة

²⁰⁷ موقع موزاييك أف ام، "جربة، المحامون يوفرون تجهيزات لمستشفى الصادق المقدم"، 23 مارس 2020.

²⁰⁸ موزاييك اف ام، مستشفى الصادق المقدم نقائص بالجملة، 26 مارس 2020.

²⁰⁹ Haouari Imen, « Djerba (Houmet Souk)/Covid-19 : L'hôpital Sadok Mokaddem échoue à prendre en charge une patiente dans un état critique, La Presse, 16 avril 2020.

بالمستير وغيرها من المستشفيات، تحصلنا على ردّ بالموافقة من إدارة مستشفى الصادق المقدّم بجرية حومة السوق. انطلقنا من فرضية مفادها أنّ عاملات النظافة يواجهن مخاطر العدوى بالبواب يوميًا، بسبب ظروف العمل الهشّة التي يشتغلن فيها.

وقد قادنا هذا التساؤل أيضا، إلى تساؤل ثانٍ حول الإجراءات، التي اتخذتها الدولة التونسية لفائدة عاملات النظافة؟ وهل فهمت مؤسسات الدولة حاجات الفئات الهشّة والأكثر تعرضا للأخطار الصحيّة؟، ومن جهة أخرى، تساءلنا عن الدور الاجتماعي لعاملات النظافة؟ وفيما تتمظهر ظروف العمل داخل المستشفيات؟ وما هي انعكاساتها على ظروف حياة العاملات؟

اخترنا الحديث عن "عاملات" النظافة داخل المستشفيات، لأنّ هذه المهنة تزاوّلها النساء فقط، إذ تدلّ الدراسات الجندريّة²¹⁰ على أنّه يقع تقسيم الفضاء إلى ثنائية الخاصّ والعامّ على حسب توزيع الأدوار الاجتماعية. أماكن العمل أيضا لها هويّات جندريّة، تتراوح بين الفضاء الخاصّ "الأنثوي" (داخل المستشفى) الذي يحيل إلى عاملات النظافة وقيامهنّ بأعمال التنظيف والعناية بالمكان تماما مثل الأعمال المنزلية المرتبطة بدورهنّ الاجتماعي، أمّا عمّال النظافة، فهم يقومون بأعمال التنظيف في الشوارع أي في الفضاء العامّ "الذكوري" وفقا لدورهم الاجتماعي. داخل المنشآت الطبية، تتعامل عاملات النظافة مع كميات كبيرة من النفايات الطبية والاستشفائية تماما مثل عمّال النظافة الذي يشتغلون خارج المستشفيات ويقومون بنقل وفرز النفايات في ظروف عمل غير صحيّة لا تراعي شروط الصحة.²¹¹

يرى علم الاجتماع أنّ البوباء ليس حدثا بيولوجيا فقط، وإنما هو أيضا ظاهرة اجتماعية معقدة، ترتبط بالعديد من المتغيرات الاجتماعية والثقافية، فلا يمكن اختزال البوباء في بعده البيولوجي فقط لأنّ ذلك ينتج فهما مشوها لتلك الظاهرة، فالأبعاد الاجتماعية وتقسيم العمل يكشف عن الأدوار الاجتماعية لعمّال النظافة باعتبارهم أكثر العمّال تعرضا لمخاطر البوباء. فما هو الدور الاجتماعي الذي تضطلع به عاملات النظافة في هذا السياق؟

المقاربة المنهجية:

في هذه الورقة البحثية، اعتمدنا البراديجم المعرفي "علم اجتماع الصحة"²¹² والمنهج الوصفي لسرد الحقائق والمعلومات النظرية، وكذلك المنهج التحليلي الاستقصائي الذي يقوم على

²¹⁰ Löw, Martina, "Gender and space alike are a provisional result of an – invariably temporal – process of attribution and arrangement that both forms and reproduces structures", European Journal of Women's Studies, Volume: 13, 2006.

²¹¹ ورفلي مجيد، "إخلالات في معالجة النفايات الاستشفائية"، إنكفاده، 14 ديسمبر 2014.

²¹² Ellen Annandale, Vololona Rabeharisoa, Graham Scambler, Clive Seale, Debra Umberson, Théorie sociologique et sociologie de la santé et de la médecine dans les revues internationales, Sciences sociales et santé 2013/1 (Vol. 31), pages 13 à 35.

دراسة الحالة وتحليل النتائج التي توصلنا إليها. اعتمدنا أيضا على جملة من المراجع السوسيوولوجية والمقالات والتحقيقات الصحفية المنشورة قبل وأثناء الحجر الصحي، وانطلقنا من عاملات النظافة باعتبارهن فاعلات أساسيات وجّهن فعلهنّ لمواجهة الجائحة.

بعد الاتصال بإدارة مستشفى الصادق المقدم في حومة السوق بجزيرة جربة، أجرينا مقابلة عن طريق الهاتف مع إحدى عاملات النظافة بالمستشفى، وطرحنا جملة من الأسئلة نصف الموجّهة على المبحوثة، فكانت إجاباتها تحتوي على معطيات داعمة لزواية بحثنا ومثيرة للجوانب الغامضة فيه، كما كشفت شهادتها عن ظروف العمل تزامنا مع انتشار الجائحة ومع تزايد خطر العدوى داخل جزيرة جربة.

في مرحلة أولى، تطرقنا إلى الجانب النظري باعتباره مدخلا أساسيا لفهم علم اجتماع الصحة في المؤسسات الصحية والمهنية. ثم في مرحلة ثانية، تحدثنا عن النفايات الطبية وذكرنا أنواعها ومصادرها، لأنها تشكل جزءا أساسيا من مشهد المؤسسات الصحية زمن الوباء، وأي تعامل غير دقيق أو غير مدروس معها قد يزيد من خطر إصابة عاملات النظافة بالعدوى، فقد مثلت النفايات الطبية التحدي الأكبر الذي واجهته عاملات النظافة بشكل يومي. وفي مرحلة ثالثة وأخيرة، نقلنا تمثلات وتجربة عاملات النظافة للعمل، وكانت الغاية الأساسية هي الكشف عن المحيط المهني وتأثيراته الاجتماعية زمن الجائحة ومختلف تأثيراته النفسية والاجتماعية على العاملات.

المدخل النظري: علم اجتماع المرض والصحة:

يهمنا في هذه الورقة أن نتطرق إلى تاريخ ظهور علم اجتماع الصحة، الذي يتفرع من علم الاجتماع، ويرجع الباحثون أنه قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كانت المسائل الصحية والمرضية موضوع اهتمام المختصين في العلوم الطبية لا غير. ثم مع ظهور بعض التحولات مثل الثورة الصناعية التي جاءت بتغييرات عميقة في المجال الصحي والمهني (أشكال العمل) وظروف الحياة وظاهرة التحضر والهجرة إلى المناطق الصناعية، لم يعد الاهتمام بالصحة والمرض موضوعا طبيا فقط، عندما بادر فريق من الباحثين الاجتماعيين إلى دراسة العوامل الاجتماعية المرتبطة بالصحة والمرض. فالتحولات العميقة التي أحدثتها الثورة الصناعية الأولى، من تغيير في أنماط الإنتاج واختراعات لسلسلة من الآلات، هذه العوامل جعلت أصحاب المصانع يتجهون إلى الاهتمام بالآلات والتركيز على مراكمة الإنتاج أكثر من الاهتمام بظروف العمل والعمال. هذا ما أدى إلى سوء الحالة الاجتماعية والصحية للعمال. أمام هذه التحولات في العمل، بدأ الباحثون الاجتماعيون في التفكير في هذه المعضلة الجديدة واكتشفوا الأنماط والظروف المعيشية للعاملين. واستخلصوا منها أنّ الأوضاع المهنية والاقتصادية للعاملين مرتبطة بظروفهم الاجتماعية والصحية أيضا. كانت الغاية

من هذه الملاحظات هي تجميع جملة من المعطيات العلمية لتحسين ظروف عمل الطبقة العاملة ونمط عيشهم وصحتهم.²¹³

هذا ما ساهم في ازدياد مساهمة الباحثين الاجتماعيين في مجال الصحة من أجل إجراء البحوث والدراسات لتطوير الخدمات الصحية في المجتمع. ويجدر بنا الإشارة هنا إلى أنّ "ديفيد ميكانيك"، كان من رواد علم الاجتماع الطبي، وعرفه بأنه "مجموعة الجهود الرامية إلى تطوير الأفكار السوسولوجية في داخل سياقات الأنساق الطبيّة، وإلى دراسة القضايا التطبيقية الهامة فيما يتصل بعمليات المرض ورعاية المريض". وأضاف مصطلح "سلوك المرض"²¹⁴ إلى الحقل المعرفي السوسولوجي وصاغه حسب التباينات والاختلافات التي تؤثر على الأفراد في علاقة بعوامل المرض الاجتماعية والبيئية والثقافية. رغم المساهمة الهامة لـ"ديفيد ميكانيك" إلا أنّ مفهوم "سلوك المرض" قد سبق الإشارة إليه في مقالة (هنري سيجرست) H. Siegrist عنوانه الوضع الخاص للمريض²¹⁵ The special position of the Sick، ويرجع كذلك إلى نموذج بارسونز حول دور المريض²¹⁶ Sick Role. أدّت هذه المساهمات إلى الخروج من قالب المنظور الطبي الكلاسيكي وإعادة تمثّل المرض، فأصبح التعامل مع المرض بمثابة إدارة محن الحياة Manage life adversities أو كما يسميها سيجرست "الكفاح من أجل العيش The struggle of living" وبالتالي لم يعد المرض يشير إلى حالة المريض فقط، وإنما يمثل أيضاً نمطا للتكيف.

يفسّر "ديفيد ميكانيك" سلوك المرض، بأنّ الظروف أو الحالة الجسدية التي تجعل الأفراد يشعرون بعدم الارتياح أو بالمشقة وعدم السلامة – مثل وضعية عاملات النظافة – والكيفية التي ينتبه بها الأفراد إلى أجسادهم وسلامتهم الجسدية ويحددون الأعراض المرضية بالتوجه إلى مصادر الرعاية الصحية داخل المؤسسات الصحية. هذا ما يسمى بأنماط الإدراك والتقييم للمرض والتفاعل مع المرض أو خطر العدوى. في هذا السياق، يكشف ديفيد ميكانيك بأنّ أعراض المرض يتم إدراكها وتقييمها والتصرف حيالها بطريقة متباينة، حسب اختلاف الأفراد والخبرات والتمثلات الاجتماعية. وبناءً على ذلك نجد أن بعض الأفراد يستخفون بالمرض، ويتحاشون البحث عن المساعدة الطبية، في حين نجد آخرين يستجيبون للقدر الضئيل من الألم وعدم الراحة، ويبحثون بجديّة عن العلاج، كما أنهم يعفون أنفسهم من العمل والواجبات الأخرى، بل ويصبحون أكثر اعتماداً على الآخرين.²¹⁷

²¹³ Alfons Labisch et Marie France Morel, "Aspects historiques, anthropologiques et sociologiques de la santé et de la maladie en France et en Allemagne." Compte rendu de la table ronde internationale du centre de recherches interdisciplinaires (ZIF) de l'université de Bielefeld (11-13 juin 1987), Sciences sociales et santé, 1988.

²¹⁴ David Machenic, "Medical Sociology", (2nd Edition), The Free Press, New York, 1978.

²¹⁵ H. E. Sigerist, « The Special Position of The Sick », in M. Roemer (ed), Henry Sigerist on Sociology of Medicine (New York) : MD publications, 1960 ; originally in German, Kyklos, 1929.

²¹⁶ Parsons, T., « Structure sociale et processus dynamique. Le cas de la pratique médicale moderne », Paris, Ed. Plon, Coll. Recherches en Sciences Sociales, 1955.

²¹⁷ Sean McHugh and T. Michael Vallis, « Illness Behavior : A Multidisciplinary Model », University of Toronto, Canada, Plenum Press, 1986, New York.

النفايات الطبيّة:

نتيجة لتطور الرعاية الصحية وما رافقها من زيادة في إنتاج النفايات الطبيّة والاستشفائية، تعتبر المستشفيات اليوم، مصدرا أساسيا لإنتاج النفايات الطبيّة. لهذه النفايات تأثيرات خطيرة على البيئة والصحة العامة. في هذا الإطار، أكّدت التشريعات الوطنية والدوليّة على ضرورة الاهتمام والبحث بطرق إدارة وفرز ومعالجة النفايات الطبيّة للتقليل من انعكاساتها على البيئة والصحة العامّة.

تعريف النفايات الطبيّة:

تعرف النفايات الطبيّة على أنّها المخلفات التي تنتج من مصادر ملوثة ومعديّة أو كيميائية ومشعّة. وهي مخلفات تأتي من مؤسسات المعالجة والرعاية الصحيّة مثل المستشفيات والمراكز الصحية والمستوصفات والعيادات الصحيّة والمختبرات الطبيّة. تمثّل النفايات الطبيّة خطرا على صحة العاملين في المؤسسات الصحيّة على المجتمع والبيئة أثناء عملية جمعها والتخلص منها وفرزها. إذا اعتمدنا تصنيف منظمة الصحة العالمية لأنواع النفايات حسب درجة خطورتها، تعدّ من 75% إلى 90% نفايات مشابهة للنفايات المنزلية وغير خطيرة نسبيا، أما من 10% إلى 25% فهي تعدّ نفايات طبيّة خطيرة.²¹⁸

"أشيع حديثا استخدام مصطلح "نفايات الرعاية الصحية" بدلا من مصطلح "النفايات الطبيّة" ليشتمل على كل أنواع النفايات المفترزة من المنشآت الصحية بكافة أنواعها، الطبيّة أو الشبيهة بالمنزلية."²¹⁹

أما بالنسبة للمفهوم القانوني التونسي، يعرف الرائد الرسمي للجمهورية التونسيّة، حسب الأمر عدد 2745 لسنة 2008 المتعلق بضبط شروط وطرق التصرف في نفايات الأنشطة الصناعية والصحيّة على أنّها كل مخلف إنتاج أو تحويل أو استعمال مواد أو منتجات بالمؤسسات الصحية وبصفة عامة كل منقول يتخلص منه أو يُنوى التخلص منه وتكون هذه النفايات ناتجة عن أنشطة التشخيص أو المتابعة أو الأنشطة الوقائية أو العلاجية أو الملطفة في ميدان الطب البشري.

كما تعتبر نفايات أنشطة صحيّة، النفايات المتأتية من أنشطة حفظ الجثث والنفايات المتأتية من أنشطة البحث والتعليم والإنتاج الصناعي في ميدان الطب البشري.

²¹⁸ موقع منظمة الصحة العالمية، 2018.

²¹⁹ وليد يوسف الصالح، إدارة المستشفيات والرعاية الصحية الطبيّة، دار أسامة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان، الأردن، 2016.

وتنطبق أحكام هذا الأمر على كلّ عمليات التصرف في نفايات الأنشطة الصحيّة المصنّفة نفايات خطرة بالأمر المشار إليه أعلاه عدد 2339 لسنة 2000 باستثناء النفايات المشعّة ونفايات أنشطة العلاج البيطري، وتقسّم نفايات الأنشطة الصحيّة إلى نفايات خطرة ونفايات غير خطرة.²²⁰

كانت منظمة الصحة العالمية، قد أشارت إلى خطورة بعض أنواع النفايات الصحيّة، بإصدارها وثيقة إرشادية عالمية وشاملة بهذا الخصوص، وهي تحمل عنوان "الإدارة المأمونة لمخلفات أنشطة الرعاية الصحيّة"²²¹، وتتناول جوانب من قبل الإطار التنظيمي، ومسائل التخطيط، والحد من المخلفات إلى أدنى مستوى ممكن وإعادة تدويرها، والخيارات الخاصة بمناولة المخلفات وتخزينها ونقلها ومعالجتها والتخلّص منها، وهي موجهة بالتحديد إلى مديري المستشفيات وسائر مرافق الرعاية الصحيّة، ورأسي السياسات، ومهنيي الصحة العمومية، والمديرين المعنيين بإدارة المخلفات بجميع أنحاء العالم.

ينص المنشور عدد 77 الصادر في سبتمبر 2016 على ضرورة اتخاذ كافة الإجراءات الكفيلة بفرض احترام عمليات إحكام التصرف في نفايات الأنشطة الصحيّة من قبل المسؤولين عن الهياكل والمؤسسات الصحيّة والأشخاص الماديين الذين يمارسون نشاطا صحيا، وتنفيذ النصوص الترتيبية المتعلقة بالإدارة الآمنة لهذا النوع من النفايات مع إيلاء عناية خاصة بتحسين عمليات الفرز الانتقائي، النفايات الأنشطة الصحيّة عند المصدر.²²²

أنواع النفايات الطبيّة:

تنقسم النفايات الطبيّة إلى أنواع عديدة، حسب النشاط الناتج عنها والمصدر المتعلّق بها. فأهمها:

- النفايات المعدية: وهي النفايات التي تحتوي على جراثيم ممرضة، مثل المناديل القطنية والمعدات التي لامست المرضى.
- النفايات الممرضة: مثل السوائل البشرية والدّم وسوائل أخرى وأعضاء الجسم.
- النفايات الحادة: مثل الإبر والآلات الحادة.
- النفايات السامة: وهي النفايات التي تحتوي على بقايا العقاقير السامة (عقاقير لعلاج السرطان مثلا).

²²⁰، 12 أوت 2008 الرائد الرسمي للجمهورية التونسية

²²¹ Reference of the World Health Organization, Safe management from health-care activities, Second edition, 2014, P: 03, 2016.

²²²، 12 أوت 2008 الرائد الرسمي للجمهورية التونسية

- النفايات الكيميائية: مثل المطهرات والمذيبات.
- النفايات المشعة: وهي النفايات التي تحتوي على مواد مشعة (سوائل المرضى الذين تمّ فحصهم بمواد مشعة والسؤال الناتجة عن العلاج الإشعاعي).
- النفايات التي تحتوي على المعادن: مثل الأجهزة التالفة وغاز التخدير والبطاريات وغيرها من النفايات التي تحتوي على المعادن.
- النفايات الصيدلانية: مثل المواد الصيدلانية المنتهية صلاحيتها.²²³

مصادر النفايات الطبيّة:

يمكننا تصنيف مصادر النفايات الطبيّة إلى مصادر رئيسيّة وثانويّة. تتمثل المصادر الرئيسيّة في المستشفيات ومؤسسات الرعاية الصحيّة (مثل العيادات الخارجية) والمختبرات ومراكز الأبحاث ودور التمريض وغيرها. أمّا بالنسبة للمصادر الثانوية فهي تشمل مؤسسات الرعاية الصحيّة (العيادات الصغيرة) ومؤسسات الرعاية الصحيّة ومراكز الطبّ التجميلي ودور الوشم.²²⁴

المحيط المهني والاجتماعي لعاملات النظافة:

المحيط المهني وظروف العمل:

إنّ العمل هو ظاهرة إنسانية واجتماعية وأنثروبولوجية شاملة حسب عبارة عالم الاجتماع والأنثروبولوجيا مارسال موس، ذات أبعاد متعددة منها البيولوجي والجسدي أي ما يبذله العامل من جهد ومن طاقة جسدية لممارسة وإنجاز عمله. هذا الجهد الجسدي مرتبط بالجانب النفسي وما يخلفه الجهد المبذول من انفعالات وأحاسيس وتفاعلات، أي التفاعلات المتعلقة بمحيط العمل والمكان والظروف. أمّا بالنسبة للجانب الاجتماعي، فيظهر في جملة العلاقات الاجتماعية التي تنشأ بين العاملين الموجودين في نفس مكان العمل أو الذين يزاولون نفس النشاط المهني.²²⁵

أثناء مزاولتهم لعمليهنّ، تتعرض عاملات النظافة بمؤسسات الرعاية الصحيّة بالإضافة إلى المرضى، لخطورة العدوى بالأمراض المعدية التي قد تنقلها إليهنّ النفايات الخطرة الناتجة عن المصادر التي ذكرناها (مصادر النفايات الطبيّة). النفايات تصنّف خطرة على صحّة عاملات النظافة وملوثة للبيئة وناقلة للوباء²²⁶. في هذا الإطار، يهمننا أن نفهم تأثير الجائحة باعتبارها معضلة تهدد

²²³ نفس المصدر

²²⁴ نفس المصدر

²²⁵ Françoise Gollain, « Penser le travail dans son historicité », Quelques réponses à Yolande Benarrosh, Revue du Mauss, n°18, 2001/2.

²²⁶ رحاب مبروكي، مقال " : المستشفى المحليّ بأمّ العرائس : إشكالات تحول دون توقيع العقد القانوني للتصرف الآمن في مخلفات الأنشطة الصحيّة، منتدى الحقوق الاقتصادية والاجتماعية، 29 ماي 2020.

صحة عاملات النظافة داخل مؤسسات الصحيّة.²²⁷ ونبحث في دور عاملات النظافة ونظام وأساليب العمل المعتمدة في ظلّ الوباء.

في هذه الورقة، سنبيّن أنّ دور عاملات النظافة، لا يقتصر على الزاوية الفردية بل سنتجاوزها إلى الزاوية الجماعية، من خلال دراسة الوحدات المكونة، العلاقات المهنية والتفاعلات الاجتماعية التي تسود بين الأفراد، داخل المنشأة الطبيّة أو بين بقية أفراد المجتمع. يعرّف "فرنسوا دوبوي"، الفاعل الفردي من خلال استبطانه لكلّ ما هو اجتماعي. أمّا الفعل فيتمثّل في تحقيق معايير وحدة اجتماعية متكاملة حول المبادئ المشتركة بين الجهات الفاعلة والنظام. فالمجتمع بالنسبة لدوبوي، وجوده هو عبارة عن مجموعة متكاملة ومترابطة الوظائف والقيم وحتى الصراعات المركزية. بناءً على هذا، المجتمع هو ضدّ الجماعة، ومن ثم فإنّ المجتمع يقترن بالدولة الوطنية التي "تبدو كإطار سياسي للمجتمع الحديث لأنها تضمن إدماج الثقافة والاقتصاد ونظام سياسي حول سيادة واحدة"²²⁸. طوال فترة الحجر الصحيّ، لم تنقطع عاملات النظافة عن العمل. كنّ يقمن بتنظيف الغرف والمستشفيات بحذر كبير منذ وصول أوّل طائرة إجلاء إلى جزيرة جربة. بما أنّ علم الاجتماع هو اختصاص يهتمّ بوظيفة وبناء وأدوار المؤسسات والتنظيمات المهنية والاجتماعية، كما أنّه يأخذ بعين الاعتبار، السلوك الاجتماعي داخل وخارج المؤسسات والتنظيمات. يربط الباحثون الطبيّون صحة الإنسان بسلامة الظروف الحياة والعمل والمناخ. فالبيئة الاجتماعية والمهنية والطبيعيّة تمثّل مداخل لفهم مظاهر الصحة والمرض أي تكشف عن العوامل المساهمة في سلامة الإنسان أو في نشأة مرض معين. إنّ إدراك الرابط المتين بين هذه البيئة وعلاقتها بصحة أو مرض العاملين هو إدراك للخصائص الصحيّة لمجموعة مهنية أو اجتماعية معيّنة. يتمحور اهتمام علم اجتماع الصحة إذن حول المظاهر الاجتماعية للصحة والمرض. وأيضاً، حول الكيفية التي يتشكّل بها نظام الرعاية الصحيّة وعلاقته بالنظم الاجتماعية الأخرى. كما أنّ لهذه النظم وظائف اجتماعية تفسّر سلوك الأطباء والعاملين الصحيّين وعاملات النظافة والمرضى الذين يرتادون المؤسسات الصحيّة.²²⁹

أجرينا مقابلة هاتفية مع سنية، التي ولدت بمنطقة حومة السوق بجربة. وهي متزوجة وأمّ لطفلين تبلغ من العمر 33 سنة. تزاول سنية العابد مهنة عاملة نظافة في مستشفى الصادق مقدّم منذ 2005 إلى اليوم وهي تجتهد في هذه المهنة على حدّ قولها وبشهادة زملائها في العمل. في بداية المقابلة الهاتفية، سألتنا سنية باعتبارها عاملة نظافة، عن الإجراءات التي تمّ اتخاذها وتطبيقها منذ بداية تفشي الفيروس إلى اليوم فأجابتنا بأنّه في بداية شهر مارس، كانت وسائل الوقاية عاديّة ومتوفرة بشكل محدود مثل الكمّات والقفازات. ولكن مع تطوّر وازدياد خطورة الوضع الوبائي

²²⁷ ورفلي مجيد، إخلالات في معالجة النفايات الاستشفائية، تحقيق إنكفاد، 14 ديسمبر 2014.

²²⁸ François Dubet, Sociologie de l'expérience, Paris, Seuil, 1995.

²²⁹ Pierre Aïach et Didier Fassin, Les paradigmes des professions de santé in Les métiers de la santé. Enjeux de pouvoir et quête de légitimité, Editions Anthropos, Paris, 1994.

وتوافد المرضى أو المشتبه في إصابتهم بالفيروس، تمّ إلزام لباس الكمامات والقفازات وغطاء الرأس واللباس المخصّص الواقي داخل المستشفى وفي غرف الوافدين إلى الجزيرة في طائرات الإجلاء.

روت لنا سنية العابد تفاصيل أوّل خيبة أمل عاشتها في بداية تفشي الوباء، وذلك بعد وصول أوّل طائرة إجلاء وكيفية تعاملها مع أوّل شخص مصاب بالفيروس. كان كهلا قادما من بلجيكا، قالت أنّها تأثرت لدرجة البكاء، بعد أن توفيّ المصاب. ووصفت الوضع بالمربك ومثير للقلق، فالمريض قد توفي رغم أنّه تلقى العناية اللاّزمة، وهو أمر محبط.

"فما نهار، بكيّت برشا لأنو أوّل مريض خدمت معاه و نظفتله وحكيّت معاه برشا، توفيّ".
سنية، 33 سنة من جربة

تواصل الأمر إلى العمل في وحدة الكوفيد-19 التي أحدثت لمجابهة الفيروس وتواصلت معها ضرورة مواصلة العمل، اعتبرت سنية أنّ الإحساس بالمسؤولية كان مرافقا لها طيلة يوم عملها الذي يمتد إلى أكثر من 10 ساعات ويصل إلى 12 ساعة يوميا. إذ أنّ تواجدها بالمستشفى لساعات طويلة جعلها تقلّل من التقائها بالناس، وتعتبر أنّ عاملات النظافة كنّ في الواجهة للتصدي لفيروس كوفيد-19 وكنّ أكثر فئة متواجدة بالمستشفى لاستقبال الوافدين من الحاملين للفيروس وللقيام بأعمال التنظيف بشكل مستمر. هذا ما جعلنا في تحليلنا، ننظر إلى المستشفى باعتباره نسقا اجتماعيا وأنّ الجائحة كانت بمثابة التجربة التي كشفت عن دور عاملات النظافة ودور الحاملين للفيروس ودور الأطباء أيضا.²³⁰

"النّاس محجورين في ديارهم و أحنا تحجرنا في السبيطار".
سنية

هذا السياق، جعل سنية وبقية عاملات النظافة يقمن بمجهودات إضافية رغم الإحساس بالاختناق والقلق والاجهاد. فهنّ لا ينكرن إحساسهن بالخوف مع تزايد حجم المسؤولية الموكلة لهنّ. فهنّ يعترفن بأنهن كنّ سندا لبعضهن وضحّين معًا. مؤكّدة أنه تمّ التعامل مع الوافدين من الأماكن الموبوءة وفقا لبروتوكولات النظافة وتوجيهات المسؤولية عن قسم النظافة بمستشفى الصادق المقدّم وعملا بتوصيات الأطباء كذلك.

²³⁰ Danièle Carricaburu et Marie Ménoiret, Sociologie de la santé. Institutions, professions et maladies Paris, Armand Colin, 2004.

"خدمت بالليل زادا، كيف يجيوا طيارات إجلاء نقوم بأعمال التنظيف".
سنية

رغم قبولها بالأمر الواقع وتأقلمها مع الوضع فإنَّ سنية، كغيرها من عاملات النظافة، وجدت نفسها خاضعة للظروف الضاغطة في العمل. فهي تعمل لساعات متأخرة في الليل وتأتي للعمل باكرا، وتركيزها على مسؤوليتها، جعلها تحسَّ بإجهاد نفسي وجسدي متواصل.

"أنا تحطيت قدام الأمر الواقع وقبلت بيه، لكن نفسيتي تعبت وماعادش ناكل. نخدم نهار كامل وروح ساعة نرتاح ونعاود نرجع في الليل. يجيو برشا طيارات في الليل فيهم برشا مرضى وعاملات النظافة عددهم قليل".

سنية

من النقائص التي ذكرتها سنية أنَّ عدد عاملات النظافة قليل مقارنة بحجم المرضى الوافدين من المناطق، فهناك تقريبا 23 عاملة بالمستشفى، إلى جانب هذا النقص، فإنَّ العديد من الممرضات قد تغيبن عن عملهن طيلة فترة تفشي الوباء، أما عاملات النظافة فقد واصلن عملهن بشكل مستمر.

إجمالا، اعتبرت سنية أنَّ ظروف العمل كانت هشة في البداية، إذ أنَّ العاملات كنَّ يتعاملن مع النفايات العادية والخطرة ويستعملن مواد التنظيف والتعقيم في التعامل مع أكياس القمامة ويضعنها في مكانها المناسب كما تمَّ توصيتهنَّ.

"الخطورة تشوفي فيها لكن كيفاش تتصديلها ما نعرفوش".

سنية

بحثا عن تطوير المعرفة حول الرابط بين البيئة الاجتماعية والصحة، قسم روبرت ستراوس (1957)²³¹ علم اجتماع الصحة إلى فرعين هما علم الاجتماع في مجال الطب وعلم الاجتماع الطبي.²³² هو علم الاجتماع الطبي لأنَّه تطرَّق إلى دراسة تنظيم المؤسسات الصحيَّة والعلاقات والأدوار الاجتماعية داخل المؤسسات. الغاية الأساسية هي إدراك أهميَّة الصحة والبيئة الصحيَّة في العمل والمجتمع. تمثَّل كلها بناءً نسقيًا متكاملًا يركز على مبادئ أساسية. أولها، المساهمة في وضع

²³¹ Uta Gerhardt, Ideas about Illness: An Intellectual and Political History of Medical Sociology, New Studies in Sociology, British Library Cataloguing in Publication Data, 1989.

²³² علي محمد المكاوي (فهد عبد الرحمان الناصر ووسام أحمد عثمان)، "دراسات في علم الاجتماع الطبي"، كتب عربية دوت كوم، 1998.

سياسات صحّية من خلال إجراء بحوث وصياغة مقترحات بديلة ومتجددة. ثانياً، الأخذ بعين الاعتبار البيئة الاجتماعية والمهنية والمشاكل التي يواجهها الأفراد بشكل يومي ومتكرر في عملهم، مثلاً ماهية الأمراض المهنية وكيفية انتشارها وكيفية المحافظة على صحّة الأفراد والعاملين في محيط العمل. ثالثاً، دراسة المؤسسة الصحّية باعتبارها مؤسسة كاملة تتفرّع منها علاقات اجتماعية بين الأطباء والعاملين والممرضين والمرضى والإداريين والتقنيين لفهم تمثلائهم الاجتماعية وممارساتهم داخل المستشفى. كما أنّ هذا يشمل تحسين الوضع الصحيّ للعاملين والأفراد بصفة عامّة من خلال تشخيص الأبعاد الاجتماعية للمرض وتأثيرات العوامل الاجتماعية والمهنية على الصحّة العامّة. في هذا المستوى، يهمننا أن نكتشف أيضاً إيكولوجيا المرض أي الارتباط بين المرض والبيئة الاجتماعية والمهنية (مثل التلوث، المخاطر الصحّية...). فإذا افترضنا أنّ الصحّة هي غياب المرض والعلل، فهذا يحيلنا إلى مفهوم واسع للصحّة بما أنّ خلو جسم الإنسان من المرض يرجع بالنظر إلى بيئته المهنية والاجتماعية والبيئية.

لا شكّ في أنّ التعامل مع النفايات الاستشفائية، شكّل خطورة على صحّة عاملات النظافة، باعتبارهن المسؤولات بدرجة أولى عن تنظيف وجمع النفايات التي تنتج عن المصابين بفيروس كوفيد-19. وسنية قد أكّدت لنا أنّ الإجراءات الوقائية كانت صحّية وأنّ سلامة العاملات كانت مهمّة، فقد اتّخذت المسؤولية عن قسم النظافة السيدة فايزة الشاوش، المسؤولة عن قسم النظافة بالمستشفى جملة من التدابير الوقائية لحماية عاملات النظافة من مخاطر العدوى وإرشادهنّ في كافة مراحل عملية التعامل مع المصابين بالفيروس. وقد تواصلت عمليّة تدريب وتوعية عاملات النظافة حول كيفية التعامل مع مختلف أنواع النفايات الطبية. فقد قامت السيدة فايزة الشاوش، والتي تكفّلت بالإحاطة بعاملات النظافة بالحرص على تأطير مجهودات العاملات وتوعيتهن حول طرق التعامل مع الفيروس المستجد في مختلف المراحل.

في فترة تقلّص الخطر من العدوى، بدأ الإحساس بالخوف يتلاشى ليتحوّل إلى شعور بالفخر والاعتراف الاجتماعي. هذا ما أكّده لنا سنية بقولها أنّ كلّ الإطار الطبيّ قد اعترف وأثنى على مجهوداتهن وتضحيتهم بصحتهم. ف"الجميع يقدر التضحيات التي قمنا بها، حتى أنّ إحدى الطبيبات بالمستشفى نظمت قصيدة شعريّة حول خدمات عاملات النظافة"، على حدّ قول سنية. ولكن إلى جانب مشاعر الاعتراف والفخر، لم تشهد عاملات النظافة تحسّناً في وضعيتهن المهنية. إلى اليوم، لا نعرف برامج جديدة وجديّة من طرف الحاكمين وأجهزة الدّولة، لتحسين ظروف عمل الفئات الهشّة والفقيرة أو لتحسين الرعاية الصحّية. فالحكومة التونسية لم تقرّ أيّ إجراءات جديدة تقديراً لمجهودات عاملات النظافة في التغلّب على معركة محاربة فيروس كوفيد-19 رغم أنّهن كنّ يقفن ليلاً ونهاراً أمام أبواب المستشفيات للتصدي للجائحة. رغم أنّهن كنّ يتركن عائلتهن وأطفالهن

ويضحون بصحتهم كل يوم، إلا أنهم يقين في أسفل السلم المهني ولا يزال هذا الأمر ينعكس على مستوى حياتهم الاجتماعية والأسرية أيضا.

المحيط الاجتماعي:

إن ظاهرة التفاوت الاجتماعي، تبرز بشكل جلي في اختلافات دخل الفئات الاجتماعية. هذه الاختلافات تدل على أن عاملات النظافة لا يتمتعن بظروف معيشية ملائمة. وهو شكل من أشكال الضعف المالي ومحدودية الموارد الاقتصادية. فمسار حياة عاملات النظافة، يدل على هشاشة ظروف العمل، وهذه الهشاشة بدورها تنعكس على حياتهم الاجتماعية والأسرية. سنوية، تعرف ظروفًا صحية متردية وازدادت هذه الظروف تفاقمًا نتيجة الإجهاد في العمل خلال فترة الحجر الصحي. وهي أيضا أمام مسؤولية مضاعفة، فهي المسؤولة الوحيدة عن الإنفاق على ابنها في غياب زوجها.

"أنا نهار بديت نخدم 8 متع الصباح و عندي القرح و مريضة دخت و في رمضان ما نرقدش بالقدا. عندي مسؤولية، نخدم و نصرف على صغاري و راجلي حرق لفرنسا".
سنوية

ينتج عن هذا انعدام الأمن الاقتصادي في ظروف وأنماط الحياة (صعوبات في التغذية والسكن ...) ويعرقل التنظيم والتخطيط للحياة على المدى القصير والمتوسط من خلال إجبار الناس على العيش "يوما بعد يوم"، مع عدم وجود إمكانية النظر إلى المستقبل²³³. فالدخل المحدود هو أحد أوجه عدم المساواة التي ينظر إليها على أنها غير عادلة في عالم العمل حسب دراسة أشرف عليها فرنسوا دوبي حول عمال بوردو، حيث قسّم مظاهر اللامساواة إلى قسمين، القسم الأول، يربط الطبقة الاجتماعية بغياب الاحترام وبالتالي انعدام المساواة، فالمسافات الاجتماعية تكون مؤلمة وتتجسد في صورة "الذين من فوق" أي المؤسسات ومديري المؤسسات والأغنياء في تعاملهم مع "من هم تحت" أي العاملين والفقراء ومن يختلفون عنهم في احتياجاتهم وتطلعاتهم. يبدو عالم العمل غير العادل انعكاسا للوضع الاجتماعي. أما القسم الثاني فيتعلق باستغلال الشعور الناتج عن عدم التوازن العميق بين المساهمات والمكافآت، وهو ما قد يدفع العمال الذين يعملون في ظروف قاسية إلى قياس الجدارة فيما بينهم وهو ما ينتج عنه سلسلة مستمرة من الإحباطات النسبية.²³⁴

²³³ Paugam Serge, « L'exclusion. L'état des savoirs », La Découverte, Paris, 1996.

²³⁴ François Dubet, Recherches dirigées par F. Dubet, « Injustices. L'expérience des inégalités au travail », publié aux éditions du Seuil, mars 2006.

الخاتمة:

يمكننا القول إجمالاً، أنّ العلاقة وثيقة بين الصحة، المرض والمحيط، فمن خلال الكثير من البرامج الطبية ومخططات الرعاية الصحية لا يهمل المتخصصون تأثير العناصر المهنية والاجتماعية. لم تكن الجائحة مؤثرة على صحة عاملات النظافة فقط، بل إن تجربتهن في مواجهة الجائحة، عرفت معضلات وصعوبات عديدة وتأثرت بيئة العمل والمحيط المهني. هذا ما خلف بدوره انعكاسات سلبية على صحتهم النفسية لأنّ دورهن الاجتماعي والمهني كان كبيراً وحجم المسؤولية التي وُضعت أمامها كانت أكبر. إذ أنّ المؤسسة الصحية لا تقدم خدمات صحيّة للمجتمع المحلي أو الوطني فقط، بل هي نسق اجتماعي يتوزّع على مجموعة من الأدوار المتكاملة، وتشتغل وفقاً لأنماط معينة من العلاقات وتحكمها ضوابط ومعايير وبناءات هرمية وجماعات عاملة تحرص على اشتغاله بشكل مستمر ومتكامل. ورغم اهتمام الدولة التونسية بالصحة ورغم التطور العلمي والتقني في المجال الطبي ومجال الصحة، فإنّ عاملي النظافة لازالوا يعملون في ظروف عمل غير سليمة ويتعرضون لضغوطات الحياة اليومية. كما أنّ ارتفاع التكلفة الطبية والمستشفى والأدوية، هذه العوامل من شأنها أن تزيد من معاناة الأشخاص المعرضين لخطر المرض والأوبئة في بيئة العمل. هذا ما يجعلنا نستخلص أنّ الاستفادة من العلاج والعدالة الاجتماعية بين جميع الفئات يجب أن تكون مبدأً وطنياً وتتحوّل إلى برامج وإجراءات لصياغة سياسة وطنية في مجال الصحة العموميّة.

بورتريهات عاملي²³⁵ المقاهي والحانات في زمن الكورونا: من أجل رسم صورة للهشاشة الاجتماعية

منتصر النغموشي

المُلخَص

وباء كورونا لا يمثّل مشكلة بقدر ما يبدي عوارض مشاكل الأنظمة النيوليبرالية الحديثة. منذ ثمانينات القرن الماضي وانسحاب الدولة من دورها الاجتماعي رويدا رويدا، تفاقمت مشاكل قطاعات واسعة تمثل ضروريات للمجتمعات، أهمّها قطاع الصحة. فرض تدهور هذا القطاع اعتماد سياسة غلق كامل وحجر صحيّ شامل مبكّر تفاديا لكارثة محتملة تعجز البنية التحتية الهشة لقطاع الصحة عن تحمّلها. آثار هذا الحجر يمكن تقصّيها من خلال وضعيّة الفئات الأكثر تضرّرا من الحجر مثل عاملي المقاهي والحانات الذين وجدوا أنفسهم خارج حسابات الدولة لأسباب عدّة ندرسها في هذا المقال من خلال بورتريهات البعض منهم.

Abstract

The pandemic caused by the Corona virus is not a problem as much as it highlights problems caused by the neoliberal systems. Since the 80s governments abandoned their social roles slowly, the problems of large sectors that present necessities to societies aggravated more and more, the public health sector is one of the most damaged sectors. Precisely, it is the bad public health infrastructure that lead a country like Tunisia to go directly under lockdown in a very short time span, in efforts to avoid a catastrophic situation that authorities knew for sure that they could not outstand any delays. The lockdown however was the origin of more social and economic problems that the most fragile workers like those who work in coffee-shops and bars suffered as they remained out of any procedures took by the authorities. We try to study their situations using different sociological portraits of these workers.

²³⁵ أنظر مؤطر 1

إنّ عبارة "نحن أمام عدوّ لا مرئي" هي استعارة قلقية. إذ لا يمكن تصوّر نزاع سياسي يكون العدوّ فيه لا مرئياً. ومن ثمّ فإنّ الخطاب السياسي الذي يراهن على تنصيب الوباء بوصفه عدوّاً لا مرئياً، هو يضلّنا. إنّ الوباء ليس عدوّاً سياسياً إلاّ مجازاً. وهو مجاز فلسفي لكنّه غير مفيد سياسياً. ذلك أنّ الدّولة التي تلجأ لهذا الخطاب تُعفي نفسها من وظيفتها "السياسيّة".

فتحي المسكيني²³⁶

في ساعة مبكرة من يوم الخميس 27 فيفري 2020، تحصلت حكومة إلياس الفخفاخ على موافقة المجلس بـ 129 صوتاً، إنه أقل عدد أصوات تتحصل عليه حكومة في المجلس منذ حكومة الباجي قايد السبسي في 27 فيفري 2011 التي جاءت نتيجة لتوافق مكونات المشهد السياسي من أجل الإعداد لانتخابات مجلس تأسيسي وتحقيق الانتقال الديمقراطي.

حكومة إلياس الفخفاخ التي جاءت بعد مخاض عسير، هي بالتأكيد ليست من أقوى الحكومات منذ 2011، لكنها جاءت في سياق يمثل تحدياً لتونس وللعالم.

في نفس الوقت الذي عاشت فيه تونس هذا المسار السياسي (أي بعد الانتخابات بداية من أكتوبر 2019 حتى 26 و 27 من فيفري 2020)، انطلق فيروس كورونا في الربع الأخير من سنة 2019 في الصين، وأصبح جائحة تهدد العالم في الربع الأول من سنة 2020.

منذ البداية، كانت مقاربات دول العالم في التعامل مع هذا الوباء مختلفة وغير منسقة: من الحجر الشامل (الصين) إلى الحجر الموجه (ألمانيا) إلى دول رفضت الحجر وتبعاته وحاولت التوجه نحو المناعة الجماعية (السويد، بريطانيا، الولايات المتحدة الأمريكية) ثم عادت إلى أحد أشكال الحجر الصحي بعد انفجار عدد المصابين والوفيات. تونس كانت من الدول التي خيرت الحجر الصحي الشامل، تم تسجيل أول حالة عدوى في الثاني من مارس 2020، لتنتقل الحكومة مباشرة في تطبيق إجراءات تدريجية أفضت إلى الحجر الشامل وإغلاق الحدود منذ 22 مارس. هذه السرعة في تطبيق الحجر خوفاً من سيناريو إيطالي أو فرنسي، فسرتها الحكومة بأن البنية التحتية الصحية في تونس ليست بأي حال من الأحوال قادرة على التعاطي مع ما قد يسببه هذا الفيروس، وإلى حد الأسبوع الأول من أبريل، كان رئيس الحكومة قد أعلن بأنه تم إعداد 250 سرير انعاش في 3 مستشفيات للتكفل بالحالات التي تتطلب عناية طبية، هذا الرقم الذي وصلته الحكومة بعد مجهودات طويلة أيام الحجر الأولى لا يبنى سوى بتدني وضع المنظومة الصحية في تونس، ممّا زاد من

²³⁶ فتحي المسكيني (1961) هو فيلسوف ومترجم تونسي، له العديد من المؤلفات، يشغل كأستاذ تعليم عال في جامعة تونس. القولة من مقال بعنوان "مشهد البابا وحيداً والحرم المكي فارغاً حدث ميتافيزيقي غير مسبوق يقلب العلاقة بين الرّمزي والرّوحي (ج3)" صدر في موقع الأوان بتاريخ 8 ماي 2020. رابط المقال [consulté le 10 Mai 2020]

حالة الهلع العامة التي جعلت الشعب التونسي يأخذ الوضع بجديّة تامّة ويخضع مباشرة للأوامر الحكومية التي تفرض التباعد الاجتماعي والحجر الصحي الشامل وإيقاف كافة النشاطات التي تسبب التجمعات البشرية، على عكس عديد الشعوب الأخرى التي تمسكت بحريتها بداية. مخلفات فيروس كورونا ليست فقط مخلفات صحية، فإن كان هذا الفيروس مسبباً لمضاعفات صحية، فإنه من وجهة نظر اجتماعية واقتصادية، هو كاشف (révélateur) ومسرّع (accélérateur) للمشاكل التي تعاني منها الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية حول العالم منذ 1980 وبداية اعتماد الدول سياسات نيوليبرالية. تونس لا تختلف عن هذه الدول، فمنذ بداية اعتماد الخطط الحكومية لمجابهة وباء كورونا ومخلفاته، بدأت عيوب المنظومة الاجتماعي-اقتصادية تظهر، من الآلاف غير المدرجين في منظومة الضمان الاجتماعي، إلى الآلاف الذين يعملون في قطاعات هشة تغيب فيها الوسائل التنظيمية وبالأخص الوسائل الضامنة لحقوقهم الاجتماعية مثل التأمين على المرض و منح التقاعد وطرق التعويض والدعم.

في كل خطاباتها، حرصت الحكومة على إبراز اهتمامها بالأجراء وبحمايتهم من المخلفات التي يسببها الحجر الصحي وانقطاعهم عن العمل، وعمدت إلى إحداث منح تختلف عناوينها من منح بطالة تقنية إلى مساعدات اجتماعية، إلا أن مدى جدوى هذه المنح ومدى وصولها إلى مستحقيها يبقى أمراً يستحق الدراسة.

مؤطر 1: الاصطلاح

نستعمل في هذا المقال مصطلح عاملي بدل عمّال عندما نتحدث عن العاملين في المقاهي، وذلك لاحتواء كلمة "عمّال" على دلالات (connotation) تنتفي في حالة العاملين المذكورين.

أولها أن كلمة "عمّال" تتضمن بعداً سياسياً أو مسيئاً يفيد التآزر العمّالي ووجود شكل من التنظيم (نقابة، مجموعة موحدة) بهدف البحث عن مزيد من الحقوق والمكاسب، نذكر كمثال مصطلح "عمّال الحضائر" الذي يتم استعماله دائماً في سياق نضالي معيّن مرتبط بنضالات المنتفعين بالآلية 16.

في سياق عاملي المقاهي، تنتفي بالأساس هذه الأبعاد التنظيمية وتغيب أشكال العمل النقابي أو تفشل في خلق نوع من التنظيم القطاعي الدائم في هذا القطاع الذي يعاني جلّ العاملين فيه من غياب عقود العمل ويبقون في حالة عمل غير منظم (travail informel).

مدخل إشكالي

الحديث على وباء كورونا كتجربة جماعية مشتركة دون الغوص في اختلافات عيش هذه التجربة حسب اختلافات مهن وحرف من يعيشها لا يستقيم، فلا يصح بأي حال من الأحوال أن نضع في نفس الكفة تحت عنوان "تجربة جماعية مشتركة" ذلك الذي عاشه مليون ونصف المليون من التونسيين الذين واصلوا عملهم بصفة عادية أثناء الحجر و/أو ذلك الذي عاشه الآلاف منهم الذين واصلوا العمل أو الدراسة عن بعد مع ذلك الذي عاشه التونسيون والتونسيات الذين أجبرهم الحجر على الانقطاع عن العمل وأحالمهم على البطالة لأجل غير مسمى. بينما يواصل العديد عملهم أو يتحصلون على رواتبهم الشهرية بصفة عادية، عاملو وعاملات المقاهي والحانات وجدوا أنفسهم عاطلين عن العمل، هؤلاء الذين يمتنون مهنة يومية خارج حسابات الدولة وفي أغلب الأحيان مهنة دون حقوق اجتماعية هم اليوم دون قوت يومهم، حيث تخضع مهنتهم إلى قاعدة بسيطة: "تخدم تخلص، ما تخدمش تقعد."

البحث عن تجليات الحجر من خلال تمظهراته في تغيّر العادات والسلوكيات اليومية يكشف مدى أهمية المقهى، ليس كمكان مجرد من وظيفته (بحكم إغلاقه) بل كمكان ذي بعد رمزي نستكشفه من خلال تجمّع مرتادي المقاهي قربها ومدى حرصهم على تتبع أحوال مقهى الحي والتساؤل عن نكهة رمضان مفقودة نظرا لغياب المقهى في الليالي الرمضانية.

المقهى هنا يتجاوز دوره الترفيهي ليلعب دور حاضن اجتماعي لروّاده الذين يلتقون فيه دون سابق موعد، هو مكّون رئيسي للفضاء العام التونسي وفي جلّ المناطق الداخلية بصفة خاصة نظرا لغياب الفضاءات الأخرى، المقهى هو "ساحة الندوة" / أغورا (*Agora*) في نسخها التونسية. إنّه "المكان الثالث" (*Tiers-lieu*)²³⁷ في إشارة للمكان الذي يأتي بعد المنزل والعمل، يتميز بالحياد (*Terrain neutre*) حيث يخلو من منطلق الضيف والمضيف على عكس المنازل ممّا يسهّل خلق الصداقات وتطويرها وبالانفتاح (*Ouverture*) بما هو مفتوح للجميع ومتاح دائما (*Accommodant et accessible*).

ما يمتلكه المقهى من رمزية ومكانة، والتطينب في وصف المقهى كمكان ذي بعد اجتماعي وكعنصر أساسي في الحياة اليومية لجلّ التونسيين لا يجب أن يحجب حقيقة أن المقهى هو أيضا مكان للعمل (*Lieu de travail*) تنطبق عليه علاقات الهيمنة بين الأجراء والمؤجر، إنّه هذه الفئة المغيبة عند الحديث عن المقاهي التي تدفع لكتابة مثل هذه الورقة البحثية، فإن كان خطاب

²³⁷ Ray Oldenburg, The great good place : Cafés, coffee shops, bookstores, bars, hair salons, and other hangouts at the heart of a community, Marlowe, (1999).

مفهوم "المكان الثالث" (من الإنجليزية the third place) هو موضوع أطروحته في علم الاجتماع الحضري. لمزيد من المطالعة حول المفهوم يمكن الانطلاق من الفصل الثاني: مواصفات المكان الثالث (الصفحة 20).

السلطات الرسمي هو حماية الأجراء وتمكينهم من حقوقهم الاقتصادية والاجتماعية في ظل توقف نشاط مكان عملهم لتطبيق الحجر الصحي عن طريق إجراءات استثنائية وشعارات مثل "بلادكم ما تخلفهاش بيكم"، فإن مدى تمتع هؤلاء بهذه التدابير الحكومية وتغير علاقات الهيمنة بينهم وبين مؤجريهم هي مسائل يجب طرحها ودراستها بحكم أن الكورونا هي طارئ على هذه العلاقات.

سنحاول في هذا المقال الإجابة على العديد من الأسئلة، وأهمها:

كيف عاش العاملون في المقاهي والحانات الحجر الصحي؟

ما مدى تمتعهم بالمساعدات والإجراءات التي أقرتها الدولة للفئات الأكثر تضرراً؟

كيف كانت علاقة عاملي المقاهي بمشغلهم فترة الحجر؟

كيف تعامل القطاع النقابي مع الوضعية؟

مدخل منهجي

الإجابة على مثل هذه التساؤلات تستدعي بالضرورة القيام بالعديد من المقابلات مع عاملي المقاهي والحانات من أجل القيام بعمل إحصائي سليم نستخلص منه بعض الإجابات، لكن القيام بتحويل ما عاشه هؤلاء طيلة الشهرين إلى إحصاء وبتحليل أرقام ينفي من هذا العمل بعدا اجتماعيا وإنسانيا مهماً وهو نقل تجربة معيشية لأفراد من فئة هشة قد تكون أكثر فئة هدّتها الكورونا، لذلك اخترنا بناء هذا المقال انطلاقاً من بورتريجات (portraits) نرسم من خلالها صورة لعمال وعاملات المقاهي. من زاوية نظر أخرى، القيام بدراسة جماعية لما عاشه العاملون في المقاهي والحانات قد يحرمنا من مزيد فهم التأطير (framing)²³⁸ الشخصي للواقع وهو ما يكتسبه العامل بطريقة فردانية تحكمها تجاربه الحياتية ومحيطه الاجتماعي، من منطلق فهم كل شخصية في محيطها على حدة نتمكن من مزيد فهم مقدرات الفعل (capacité d'action) وطرقه في زمن الحجر، حيث تختلف على مستوى شخصي طرق العيش تحت الحجر.

ليس المقصود من الصور السوسولوجية (portraits sociologiques) فهم حياة الفرد بل تجاوزه. تسعى هذه التقنية إلى دراسة جزء من المجتمع، كون عامل المقهى جزءاً من هذا المجتمع يجعله يتأثر أساساً بالحياة الاجتماعية ويستوعب الاجتماعي باعتباره متلقياً.

²³⁸ Erving Goffman, Frame Analysis, Northeastern University Press. Boston (1974).

التأطير هو عمل تقديم "إطار معرفي" بالشكل المناسب للتأمل في موضوع ما، من هذا المنطلق فإن فهم الإطار المعرفي لكل شخصية على حدة يمكننا من مزيد فهم فعلها. الفصل الثالث "المفاتيح والمفاهيم" (صفحة 40)

نسعى من خلال الصورة السوسولوجية إلى رصد الاختلافات الفردية، ويظهر من خلالها أن طريقة حياة الأفراد تتوافق مع التصرفات التي يقدمون عليها، معتبرين هنا أن التصرفات التي أقدمت عليها شخصياتنا المدروسة من كسر الحجر والعمل بشكل سرّي إلى إيجاد عمل آخر مؤقت أو ببساطة عدم فعل شيء هي تصرفات تحددها الصورة الاجتماعية نفسها، وأن منطق العمل يتم غرسه في الأفراد من خلال وضعهم الاجتماعي وحياتهم اليومية.

رسم بورتريه سوسولوجي يفترض أن كل شخص هو حامل لفكر ومشاعر وطرق فعل وتفاعل تحكمها وتحددها التجارب التي عاشها: إنها نتاج تجارب اجتماعية يمرّ بها الفرد.²³⁹

لرسم بورتريهات عاملي وعاملات المقاهي في زمن الكورونا، قمنا بالتواصل بطرق مختلفة مع ثلاثة عاملي مقاهٍ، أثناء فترة الحجر الصحي ومتابعة منشوراتهم على وسائل التواصل الاجتماعي والاتصال بهم هاتفياً وحتى لقاءهم بصفة مستمرة في إحدى الحالات.

جغرافياً، تتوزع المقاهي التي تعمل بها هذه الشخصيات بين جندوبة وتونس. أما عن أنواعها، فهي تتراوح بين مقاهٍ شعبية في أحياء شعبية، مقهى حانة، ومقاهٍ راقية.

أثناء الحجر، قمنا بطرح العديد من المواضيع مع هذه الشخصيات، مواضيع مختلفة وفي مناسبات عدّة: العمل، العائلة، الحجر الصحي، الوضع السياسي، الأصدقاء، الصحة، كيفية تمضية أوقات الفراغ، الحالة النفسية، الإجراءات الحكومية، الانتظارات، النظرة لمستقبل ما بعد الكورونا.. من خلال هذه المواضيع المطروحة وإجابات الشخصيات عليها بسؤال ومن دون سؤال أحيانا نظرا لعلاقة الصداقة مع بعض هذه الشخصيات، تمكّنّا من نقل القارئ لعالم شخصياتنا من خلال وصف ممتع يتخلله تحليل اجتماعي قد ينجح في فهم تجربة حياتية محددة لهذه الفئة رغم التباعد الجغرافي والاجتماعي للشخصيات المدروسة.

تُفرد هذا الصفحات في زمن الحجر والكورونا، ممّا يجعلها تتناول البنى المدروسة من علاقات هيمنة وأنشطة نقابية وسوسولوجيا فردية²⁴⁰ للشخصيات المدروسة وجماعية لقطاع المقاهي ليس بطريقة جديدة بقدر ما هي مرتبطة بحالة الحجر وإنّما بطريقة سياقية ينزل فيها الظرف الطارئ (الكورونا) على مجموعة من النواميس مسبقة الوجود في هذا القطاع.

²³⁹ Bernard Lahire, Portraits sociologiques : Dispositions et variations individuelles, (2005).

²⁴⁰ يمكننّا البورتريه من دراسة الشخصية مفردة عن الجماعة، حيث في هذا السياق ما تعيشه كل شخصية من تجارب اجتماعية وما تحمله من تصوّرات وأفكار عن البيئة التي تتحرك فيها وتتفاعل معها هو عامل محدد لقدرة الشخصية على الفعل ورد الفعل.

عناصر سياقية

منذ تولي الحكومة الجديدة السلطة، باشرت اللجوء إلى تدابير مالية استثنائية، تشمل تخصيص ميزانية مفتوحة لمكافحة الفيروس. كما أعدت وزارة المالية صندوقاً تطوعياً للإسهام في مكافحة انتشار الفيروس، وحتى الآن جمع الصندوق أكثر من 62 مليون دينار تونسي (7 أبريل 2020)، من المقرر أن يساهم هذا الصندوق في تخفيف آثار الجائحة على الأسر منخفضة ومعدومة الدخل، والأعمال التجارية الصغيرة والمتوسطة.

في 18 مارس 2020، فرض الرئيس حظر تجوال لمدة 12 ساعة يومياً لمواجهة انتشار الفيروس وفي 22 مارس تم توسيع هذا القرار ليمنع التنقل بين المدن ويغلق الحدود البرية والجوية لتونس.

حالة الطوارئ وتوجه رئيس الحكومة إلى البرلمان الذي تردد قبل منحه صلاحيات أوسع و قام بمناورات تضمن مواصلة عمل المجلس وجلساته عن بعد عبر التطبيقات من جهة، والفصل 80 الذي يعطي رئيس الجمهورية صلاحيات أوسع "في حالة خطر داهم مهدد لكيان الوطن وأمن البلاد واستقلالها، يتعذر معه السير العادي لدواليب الدولة" من جهة ثانية، ثم من جهة ثالثة قانون الجماعات المحلية الذي يدعم اللامركزية ويمنح البلديات صلاحيات في مجالها، خلق تنافسية وتضاربا أحيانا بين السلطة المركزية والسلطات المحلية من جهة (مثل بلدية حمام الشط التي رفضت تحويل أحد النزل إلى مركز حجر صحي إجباري لمصابي الكورونا)، وبين مكونات السلطة المركزية نفسها من جهة أخرى حيث ظهر تنافس بين السلطات الثلاث في إدارة الأزمة، هذا الاضطراب كان له تأثير على مدى نجاعة وسرعة تطبيق القرارات ووصول المساعدات لمستحقيها حيث تمر عبر مراكز البريد والعمد ومراكز تجميع المساعدات في المدارس وغيرها.

التنافس بين السلطة المركزية والسلط المحلية واختلاف المناطق ومدى انتشار الوباء فيها يدفعنا أيضا للغوص في جغرافية الحجر واختلافات تطبيقه وطيف (spectre) الممكن وغير الممكن في كل منطقة، حيث نعتبر هذا عنصرا مهماً في تحديد مقدرات الفعل ورد الفعل في زمن الحجر والتفاعل مع مشاكله.

منذ بداية الأزمة، مثلت المعلومة عائقاً أمام أي إجراء يهدف لمكافحة آثار الجائحة على الفئات الأكثر تضرراً، مزاولي المهن والحرف التي لا يرافقها ضمان اجتماعي لأسباب مختلفة هم تقنيا خارج كل الحسابات²⁴¹ ببساطة لأن وضعيتهم وعددهم غير معلوم، إذا تحدثنا عن عمال وعاملات

²⁴¹ ليلى الرياحي، الناشطة التونسية وعضو "مجموعة العمل من أجل السيادة الغذائية"، أشارت في أحد مناشيرها على وسائل التواصل الاجتماعي إلى أن حزمة الإجراءات المزمعة أولاً لا تشمل كل اليد العاملة المنخرطة في القطاع الرسمي كما أنها تهمل تماماً الناشطين في القطاع

المقاهي والحانات، فإن أغلبهم لا ينخرطون في منظومة الضمان الاجتماعي لأنهم في الغالب ليسوا أجراء قارّين ويعملون بمرونة بين عديد من المقاهي وفي أوقات مختلفة، شحّ المعلومة دفع الدولة إلى الاعتماد على العمد في عماداتهم لتحيين قائمة المستحقين للمساعدة ولهؤلاء العاملين أنفسهم ومؤجريهم ليتقدموا بطلب مساعدة من السلطات، ونظرا لعدم إمكانية السماح بالتجمعات والاحتفاظ عمدة الدولة إلى محاولة جعل العملية ممكنة عن بعد عن طريق الهاتف، ممّا زاد في صعوبة المهمة وتأخيرها، حيث اضطرت وزارة الشؤون الاجتماعية مثلا لرقمنة سريعة لقرابة الـ 630 ألف المتمتعين ببطاقات علاج بالتعريف المنخفضة (دفاتر صفراء).

الغرفة الوطنية لأصحاب المقاهي المنضوية تحت لواء الاتحاد التونسي للصناعة والتجارة والصناعات التقليدية هي إحدى المنظمات النقابية الممثلة لقطاع المقاهي وتدافع على مصالح أصحاب المقاهي والعاملين فيها، الغرفة تنقسم إلى غرف جهوية في كل ولاية وقد خاضت طوال فترة الحجر وبعده العديد من التحركات منها وقفة احتجاجية أمام المقر الرئيسي للاتحاد التونسي للصناعة والتجارة والصناعات التقليدية في حي الخضراء في 19 ماي 2020، هذه الوقفة التي سبقتها العديد من البيانات والتصريحات لرؤساء الغرف الجهوية لأصحاب المقاهي ورئيس الغرفة الوطنية لأصحاب المقاهي تأتي على خلفية عدم تمتع عاملي وعاملات المقاهي بالمنح الحكومية التي وصفها الغرفة بالـ "زهيدة"، إضافة إلى عدم تمتع أصحاب المقاهي بالقروض التي وعدتهم بها الحكومة من أجل مجابهة آثار الكورونا بسبب الشروط "التعجيزية" و "المجحفة" على حد تعبير رؤساء الغرف، في إحدى البيانات الصادرة عن الغرفة الجهوية بين عروس، حيث تشكى رئيس الغرفة من غياب دعم جامعة المهن لهم طيلة فترة الحجر.²⁴²

في حين تدافع الغرفة الوطنية لأصحاب المقاهي بالأساس على مصالح مالكي المقاهي أولا ثم سياقيا على العاملين في المقاهي نظرا للوضعية التي يمر بها هؤلاء أثناء فترة الحجر، فإن "نقابة قطاع المقاهي والمطاعم والحانات والمؤسسات المشابهة لها" المنتظمة داخل الجامعة العامة للصناعات الغذائية والسياحة والتجارة والصناعات التقليدية تحت لواء الاتحاد العام التونسي للشغل من المفترض أن تكون المنظمة المهتمة بشأن العاملين في المقاهي أساسا والمدافعة عن حقوقهم في ظل غياب عقود العمل غالبا وغياب التغطية الاجتماعية من تأمين على المرض

غير الرسمي الذين يمثل قرابة الـ 54% من الاقتصاد التونسي. من غير المشمولين بهذه التدابير أيضا، العمال الموسميون والمؤقتون، عمال العقود الأعداد للحياة المهنية، العمال اليوميون مثل عاملي المقاهي.

²⁴² بيان الغرفة الجهوية لأصحاب المقاهي بين عروس كمثال، صدر في 15 ماي 2020 ويحمل الدولة الوضع المتأزم الذي تعيشه المقاهي في ظل الإهمال و "سياسة اللامبالاة والمغالطة" التي اعتمدها الدولة إزاءهم حيث عمدت لقطع موارد رزقهم والترويج لإجراءات داعمة للقطاعات المتضررة دون تمكينهم منها فعليا على حد نص البيان.

وتقاعد، هذه المنظمة تبدو غير فعّالة وغير قادرة على استقطاب عاملي المقاهي ولا على تنظيم صفوفهم، حيث نلاحظ غيابا شبه كامل لهذه المنظمة.²⁴³

في هذا السياق المضطرب سياسيا والموسوم بالتنافس بين السلط المركزية بين بعضها وبين السلطات المحلية، وفي سياق يوجد فيه الآلاف خارج حسابات الدولة، وعدم تمتعهم بالإجراءات التي وعدت بها الحكومة وغياب الدعم النقابي، يجد عمال وعاملات المقاهي أنفسهم في وضع لا يستطيعون فيه العمل وأمل في الحصول على مساعدة يتضاءل يوميا نظرا للصعوبات والتأخيرات.

جندوبية، من مارس إلى ماي

فيروس كورونا هو جائحة لا تعترف بالحدود والتأثيرات، ولعلّ أول ما سببته هذه الجائحة هو غلق هذه الحدود بالذات حيث لمدة قرابة الشهرين أصاب العالم شلل في حركة التنقل بين البلدان وبين المدن في نفس البلاد. إنّها العولمة القاسية الذي تجعل شابا يجلس تحت حائط مقهى "أرابيسك" المغلق في جندوبية يقول: "يأكل خفاشا في الصين فنجلس نحن تحت حيطان المقاهي" مازحا ساخطا في أحد أيام شهر أفريل.

رغم إغلاق المقهى، واصل رواده اللقاء تحت حائطه وقبالته في الأوقات المعتادة صباحا ومساء قبل حظر الجولان. الكلّ يستشف أثر الفراشة في جندوبية، الولاية لم تعش وقع الكورونا كوباء لأنها كانت خالية من الحالات النشطة طوال فترة انتشار الفيروس، لكنّها عاشت وقع الحجر الصحي وحظر الجولان تماما مثل باقي الولايات، ولو أن الحجر لا يمكن الحديث عنه كتجربة جماعية متطابقة نظرا لاختلاف طريقة تطبيقه ومعايشته من منطقة لأخرى، إلاّ أنّه يبقى تجربة مشتركة عاشت على وقعها تونس لمدة تناهز الثلاثة أشهر.

دراسة حالة: عاطف

يدخّن سيجارتين أمام الستار الحديدي المسبل على باب رزقه، المقهى المغلق منذ قرابة الشهر، يراقب الشارع الصباحي الفارغ بعين حذرة، ما إن يتأكد من غياب "الأعين"، ينسلّ إلى المقهى، يعدّ العشرات من الكؤوس الكرتونية، يملأها بالقهوة، يرصّفها بعناية في سطل من البلاستيك، يحكم إغلاق السطل، يعلّقه بعناية على مقبض دراجته الهوائية، يجاهد من أجل الحفاظ على توازنه،

²⁴³ غياب عن التحركات، غياب حتى على وسائل التواصل الاجتماعي حيث يعود أحدث منشور على صفحات هذه النقابة القطاعية لسنة 2018، وبينما لاحظنا الحضور الإعلامي لممثلي غرفة أصحاب المقاهي حيث قام العديد من رؤساء الغرف الجهوية ورئيس الغرفة الوطنية بتدخلات اما في الإذاعات أو في البرامج التلفزيونية أثناء فترة الحجر، تبدو نقابة قطاع المقاهي والحانات مغيّبة تماما.

ليس خوفاً من السقوط، بل خوفاً من انسكاب القهوة من الكؤوس المرصفة، ينطلق في رحلة يكرّرها عدة مرات كل يوم: يوزّع القهوة على المجموعات البشرية تحت الحيطان وفي الأزقة، "البعض منهم يطلب توصيلها حد منزله، هم متعودون على قهوتي، حتى أن الوباء لن يمنعهم من الحصول عليها." عاطف، ذو الثلاثين ربيعاً، كان يعمل في مجزرة، ثم قرر الابتعاد عن الدماء واللحوم، عمل عدة مهن هنا وهناك، قبل أن يستقر على عمله في مقهى الحي، منذ سنتين.

على عكس العديد من المهن المنتظمة²⁴⁴ التي تختلف درجة تأثرها بالحجر الصحي حسب القطاع، فإن عاطف عاملاً يومي، وهذا يعني ببساطة أنه إن لم يعمل اليوم، فلن يتحصل على قوت يومه. الكورونا "كارثة ومصيبة" في هذا القطاع على حد قوله، بالنسبة له كعامل يومي في مقهى، قرار الحجر هو حكم بالجوع والخصاصة، فبينما لا تنقطع جرايات وشهاري الموظفين الحكوميين والموظفين في القطاع الخاص الذين يتمتعون بدخل شهري، ففي حالته وحالة الآلاف مثله التوقف عن العمل يحمل مضاعفات تغفل عنها السلطات التي وضعت خطة لمساعدة المتضررين من الحجر دون آليات وحلول لمن هم في حالة عاطف.

المقهى الذي يعمل فيه عاطف هو مقهى صغير، لا يعمل به سوى عاطف كنادل وعامل آخر وراء النضد يعد المشروبات، بينما حضور مؤجرهم دائم، منذ بداية الأزمة، أوضح لهم المالك بأنه لن يستطيع مساعدتهم مالياً طوال فترة الحجر، نظراً لأن عاملي المقهى يتحصلون على أجر يوميهم من مداخيل اليوم نفسه

في العادة، في آخر الليلة، ينزل عاطف الستار الحديدي مع مغادرة آخر زبون، ينطلق في ترصيف الكراسي وكنس المقهى، بينما يستمر العامل الآخر في غسل الكؤوس وترصيفها وتنظيف آلة القهوة وأباريق الشاي وإعادة ملء المبرّد بقوارير المياه والمشروبات الغازية، تستغرق هذه المهمة اليومية قرابة الأربعين دقيقة، ينتبذ خلالها مؤجرهم ركناً قصياً في المقهى، يأخذ الكراسي الذي يسجل فيه العامل وراء النضد طلبات الزبائن التي أعدها وجراب عاطف الذي يجمع فيه أموال الزبائن، يعدّ النقود، يقارن المداخيل بما تشير له الكراسي من مبيعات، ثمّ "يحاسب" عامله، ويعطيهما أجره يومهما، عادة 15 ديناراً، في صورة ما كان كل شيء على ما يرام، في صورة نقص ما في الجراب من أموال عمّا كتب في الكراسي، تخصص الدنانير الناقصة من أجر عاطف، في صورة

²⁴⁴ هي مهن يدفع العاملون فيها الضرائب والمساهمات الاجتماعية ويتمتعون بالضمان الاجتماعي، على عكس المهن غير المنتظمة التي تكون عادة موسمية ودون عقود ولا يدفع ممتهنوها الضرائب والمساهمات.

نقص ما في الكراس عما تم استعماله من مواد مثل القهوة أو المشروبات الغازية، تخصم النقود المفقودة من أجر العامل وراء النضد.

لا أحد من العاملين في المقهى يعمل بموجب عقد واضح الملامح، هذا يمنح مشغليهما مزيدا من الحرية في تقرير عقوبات الخصم من الأجرة اليومية ولا يجعله مضطرا لتحمل تكاليف الضمان الاجتماعي أو التقاعد للعاملين في المقهى.

في فترة التدرج في الحجر الصحي، لم يتأثر العمل كثيرا، واصل الزبائن التردد على المقهى لأخذ قهوة محمولة في كأس كرتوني حتى وإن لم يستطيعوا البقاء في المقهى فقد كانوا يبقون في محيط المقهى، في تجمعات صغيرة وقوفا وجلوسا، غير أن هذا لم يستمر مع بداية الحجر الشامل وأمر إغلاق المقاهي وتكثيف الرقابة عليها. فجأة انقطع حبل النجاة القصير، عدم تمكن المقهى من بيع مشروباته حتى للمارين وأمر إغلاقه جعل مداخل المقهى تنزل إلى الصفر، أي أن العاملين لن يتحصلا بعد الغلق على أية أجرة يومية.

عاطف متزوج و له بنتان، زوجته تعمل في أحد محلات بيع اللحوم البيضاء (الدواجن)، واصلت العمل أثناء الحجر بنفس الأجرة اليومية، لكن ما تتحصل عليه من أجر لم يكن كافيا لتغطية مصاريف الأسرة الصغيرة، "توقفت عن العمل قرابة شهر، فلم أستطع حتى تغطية مصاريف سجائري، في البداية حاولت التخفيض في عدد السجائر، ثم لم أستطع شراءها، عمدت إلى الاستدانة من الكشك، ثم امتلأت الصفحة في كراس الكريدي " كل هذا كان قبل رمضان، ذات صباح في أفريل، قبل رمضان، استوقفتني مشهد عاطف على دراجته، في أول النهج، يبيع قهوته على ناصية الطريق لكل مجموعة تستوقفه، اقتربت منه، أخذت قهوة في كأس كرتوني، كانت أول قهوة لم تعد في المنزل منذ قرابة الشهر، ثم أعلن عاطف بأنه سيبيع القهوة هكذا طوال اليوم قبل رمضان، على أن يواصل بيعها في رمضان ليلا، "ربما لن نتمكن من قضاء رمضان بطريقة عادية، لكننا على الأقل لن نحرم من القهوة المعتادة"، يقول أحد الواقفين.

بالفعل، واصل عاطف العمل خلال رمضان، وكنت أشتري القهوة منه تقريبا كل ليلة، في محادثاتنا القصيرة، أخبرني بأنه لم يرض بالبقاء في المنزل بينما تنزاد صفحات أخرى في كراس ديونه، وأنه مع قدوم رمضان وعدم استطاعته حتى شراء مستلزمات بيته، قام بالاتفاق مع صاحب المقهى الذي تربطه به علاقة صداقة وقرابة عززتها وضعية الحجر، أن يستغل عاطف المقهى بداية فقط لإعداد القهوة وإخراجها لبيعها، ثم مع الخوف من الأعين وما قد ينجر عنها من خطايا على المحل قام عاطف بنقل آلة القهوة إلى منزله الخاص في رمضان ليواصل عمله من هناك تفاديا لمشاكل السلطات.

هذا العمل الذي قام به عاطف، برّره بأنه لم يكن بأية حال من الأحوال سينتظر منحة "موعودة" من عند الدولة، منحة لم يتحصل عليها رغم كل الإحصائيات التي تتداولها الأخبار ويذكرها رئيس الحكومة في خطابه ورغم تقدم صاحب المقهى بطلب مساعدة لخلاص مستحقات العاملين لشهري مارس وأفريل التي وضعتها الدولة.²⁴⁵

عاطف هو أحد المعنيين بهذه المنح، لكنه لم يتمتع بها، ولم يسعفه الحظ أن ينتظر إجراءات قد تأتي متأخرة وقد لا تأتي، فعمد إلى كسر الحجر الصحي وإيصال القهوة إلى الزبائن، في عكس لمفهوم المقهى بما هو مكان نقصده ليس فقط لتناول القهوة بل كمنشأة اجتماعية. تمكن عاطف من كسر الحجر ومواصلة العمل كان ممكنا في سياقه لأن ولاية جندوبة كانت بعيدة عن الأرقام المتصاعدة بشكل يومي في تونس والعالم ولأن الخروج إلى الشوارع لملاقاة الزبائن كان ممكنا نظرا لضعف الرقابة من جهة وتسامح قوات الأمن مع جانبي الشوارع من جهة أخرى. هو فعل في حدود إمكانية الفعل (*capacité d'action*)، حيث لاحظنا في فترة الحجر تنوع أشكال الفعل الاحتجاجي في فترة الكورونا²⁴⁶ ودخول تغييرات على علاقة الهيمنة بين العاملين والعمّال في المقاهي والحانات ومالكها. التباعد الاجتماعي والحجر هو أكثر من عزل في المنزل بالنسبة للعمّال، بل هو تفريد لعلاقتهم مع أرباب العمل حيث أن التواصل بينهم يصبح تواسلا بشكل فردي، يمكن ملاحظة هذا في حالة عاطف، حيث أنّ نوع علاقته مع مؤجره جعلت كسره للحجر واستغلال آلة القهوة من أجل مواصلة العمل من المقهى المغلق في مرحلة أولى ثم من منزله في مرحلة ثانية أمرا ممكنا، في حين لم يقم العامل الآخر في المقهى من التمتع بنفس القدرة على كسر الحجر وقام بالالتزام بالحجر.

في نفس هذا السياق الذي نراه في جندوبة، لم تخل وسائل التواصل الاجتماعي من بيانات ومنشورات لعاملين آخرين في المقاهي وبالأخص في تونس العاصمة، حيث تختلف الحثيات من ناحية مدى نجاعة الحجر وضرورته ومدى حرص السلطات على تطبيقه وذلك إما بتسليط العقوبات المالية والجزائية (الغلق النهائي للمقاهي المخالفة للحجر)²⁴⁷ على المحلات وبمنع التجوال

²⁴⁵ في 22 أفريل وخلال نشرة الأخبار، بثت القناة الوطنية تقريرا عن مشاكل المقاهي في أريانة، كل المتدخلين أشاروا إلى عدم جدوى وغياب الإجراءات الهادفة للحفاظ على مواطن الشغل في المقاهي ومساعدة أصحابها على تحمل النفقات أثناء الإغلاق، وطالب رئيس غرفة أصحاب المقاهي بأريانة الدولة بمنح أصحاب المقاهي قروضا لمجابهة الأزمة، في نفس السياق، طالب رئيس الغرفة الوطنية لأصحاب المقاهي فوزي الحنفي في تصريح لإذاعة موزايك اف ام الحكومة بالتسريع في إسناد قروض لأصحاب المقاهي حتى يتمكنوا من تسديد مستحقات شهري مارس وأفريل من معاليم كراء وخالص أجور، ورغم كل هذه الأصوات المطالبة بحلول، بقيت نجاعة تطبيقها مختلفة من مكان لآخر ورغم أن قطاع المقاهي مشمول بمنحة ال 200 دينار، إلا أنهم لم يتمتعوا بها حسب تصريح نائب رئيس الغرفة الوطنية للمقاهي لإذاعة موزايك اف ام في 26 أفريل 2020.

²⁴⁶ وقفة احتجاجية بتاريخ 19 ماي دعت إليها الغرفة الجهوية لأصحاب المقاهي بين عروس امام مقر الأوتيكما احتجاجا على وضع المقاهي المتردي أثناء الحجر وغياب إجراءات الدولة والمساندة النقابية للمنظمة.

²⁴⁷ قامت وحدات الحرس الوطني مثلا، حتى تاريخ 6 أفريل، بتحرير 260 مخالفة ومحاضر عدلية في تتبع أصحاب المحلات المخالفة لقرارات الغلق، وغلقت 200 محل أغلبها من المقاهي.

في نفس السياق قامت العديد من البلديات بإصدار قرارات بلدية تقضي بغلق المطاعم والمقاهي، نذكر أيضا قرارات الغلق الصادرة أيضا عن والي بنزرت في حق 3 مقاهي وغيره من الولاية.

والتجمعات في محيط المقاهي مما يجعل أي محاولة للوصول للزبائن شبه مستحيلة وصعبة وغير مربحة أساسا.

هذه الاختلافات بين جغرافية الحجر وأنواع المقاهي (شعبية أم لا) والحانات تجعل الممكن وغير الممكن في إطار الحجر يختلف من مكان إلى مكان ومن عامل إلى آخر، وهو ما سنحاول دراسته من خلال البورتريهات الموالية.

تونس العاصمة، ماي وجوان

أثناء الحجر، على وسائل التواصل الاجتماعي، شارك عماد العامل بمقهى في تونس العاصمة، خبرا مفاده أن صاحب منزل يكتريه عامل وزوجته العاملة معه في نفس المقهى في البحيرة طرد الزوجين من المنزل الذي يكتريانه في سيدي حسين منذ أشهر، بسبب عدم قدرتهما على دفع مستحقات الإيجار. الخبر المنشور على الفايسبوك حصد أكثر من 500 تفاعل.

دراسة حالة: عماد

لا يكاد يستقر في مكان واحد أثناء العمل، الصينية (الطبق) في يده والجرب القماشي الأسود يحزّم خاصرته، بين طقطقة القطع النقدية المعدنية وقهقهته البسيطة، يمكن أن ترى شخصية تستحق المحادثة، شخصية تخفي وراءها الكثير من الدعابة، تعباً خجولا وراء الابتسامة المعهودة. عماد، ذو الستة والثلاثين سنة، أصيل ولاية القيروان، أعزب. يعمل في مقهى الراشدية في لافايات منذ قرابة الخمسة سنوات، تقلب بين العديد من الوظائف قبل أن يستقر على هذا العمل. المقهى القابع في نهج هادئ وراء غريبة (معبد يهودي) لافايات مع المطعم التابع له يوفر موطن شغل لسبعة عاملين قارين.

هاتفته مرتين أو ثلاثة أثناء الحجر، في مرة منها، علّق على خبر طرد الزوجين قائلاً بأنه لا يفهم كيف يمكن أن يتزوج عامل المقهى، في تونس، "الجرناطة" أي أجرة اليوم أقصاها 20 دينارا، وهي مداخل تجعل التفكير في الزواج مهمة صعبة.

عماد، طوال فترة التوقف عن العمل لم يتحصل على المنحة الحكومية الموعودة رغم ملئه لاستمارة مساعدة، ولم يتحصل سوى على مقدار راتب شهر واحد. في الأيام الأولى اضطر إلى التداين من جيرانه، الذين أظهروا لحنمة وتضامنا.

مع تواصل التمديد في فترة الحجر التي فاقت كل التوقعات، بحث عماد عن عمل آخر حتى يعيل نفسه، فلجأ إلى إحدى المهن التي امتنها في السابق: طلاء المنازل.

عمل دهانا لمدة تناهز الأسبوع، وتمكن بهذا الأجر أن يعيل نفسه حتى العيد، ثم عاد لعمله في المقهى بعده. عندما تحدثنا على ما بعد الكورونا، أخبرني بأنه يفكر جدّيا في الهجرة، ربما إلى الجزائر أو المغرب بداية، بالنسبة له، الكورونا كانت كاشفا لمدى هشاشة وضعه الاجتماعي المحكوم بعمله في المقهى الذي يمكن أن ينتهي في أية لحظة الآن نظرا لتفكير صاحب المقهى في التخفيض في عدد العاملين.

عماد يعمل عادة في المناوبة المسائية، حيث تمتد ساعات عمله من الثانية مساءً حتى العاشرة مساءً في الشتاء، وحتى منتصف الليل صيفا، بين الثمانية والعشرة ساعات يقضيها واقفا بين طاولات الزبائن أو خلف آلة القهوة، ليتحصل في نهاية اليوم على عشرين دينارا.

عماد العامل ستة أيام في الأسبوع وأحيانا سبعة، لا ينفك يمزح بشأن مظهره، حيث رغم قضائه أغلب ساعات يومه الصباحية في الفريب (ملابس مستعملة) وغيره مقتنيا الثياب، لا يجد وقتا حتى لارتدائها نظرا لطول ساعات العمل، حتى أنه في أوقات فراغه يقصد المقهى نفسه الذي يعمل فيه لتمضية الوقت، وكأن حياته سلبت من أي معنى آخر.

"خلال الحجر، حاولت البحث عن معنى آخر لحياتي، زرت القبروان مجددا، بمناسبة العيد، قررت قضاء بعض الأيام، غير أنه منذ فتح المقاهي مجددا، قفلت راجعا إلى تونس، لألتحق بعملتي".

علاقة عماد بمالك المقهى كانت متوترة قبل الكورونا، والجفاء بينهما زاد أثناءها، حيث مثل الحجر فرصة لصاحب المقهى أولا لتجديد المكان وإدخال تحسينات عليه، وثانيا لإعادة التفكير في طاقم العملة. تفريد العلاقة بين العرف والعامل من جهة، وبين العاملين بين بعضهم من جهة أخرى، كان أسهل خلال الحجر. حيث كان المؤجر يتواصل مع من يريد ويتحاشى من يريد، وفي نفس الوقت تعرضت اللحمة بين العاملين الذين كان يجمعهم نفس مكان العمل إلى تصدّع غذاه المجهول الذي تعد به الكورونا، الحفاظ على موطن الشغل في ظل شبح الأزمة وأخبار ارتفاع عدد فاقد العمل والمحالين على البطالة جعل ما كان يجمع العمال في المقهى من تضامن جفاء يجعل مهمة المشغل أسهل. الكورونا بما هي طارئ ساهمت بشكل لافت في تغيير موازين القوى في علاقة الهيمنة بين المشغلين والعمّال حيث استغلّ العديد منهم الأزمة للقيام بتسريح المتعاقدين بداية والتخفيض في العاملين بالاستغناء عن الخدمات تدريجيا بتعلّة استحالة المحافظة على مواطن الشغل في مثل هكذا

أزمة. هذه العلاقة المتوترة بين عماد ومشغله هي ترجمة لمخلفات الأزمة ووقعها على علاقات الشغل بصفة عامة، قد يفقد عماد عمله، قد يهاجر، قد يواصل العمل من أجل بشائر غد أفضل، لكن بالتأكيد وقع الحجر الصحي كتجربة اجتماعية سيكون له أثر دائم عليه كعامل مقهى.

غير بعيد عن مقهى الراشدية في لافايات، تتركز المقاهي والحانات الأكثر شهرة في العاصمة: مقاهي وحانات شارع الحبيب بورقيبة.

مقهى حانة لونيفار مغلق منذ الثاني والعشرين من مارس، بادر رواده منذ 23 مارس بإنشاء مجموعة على الفاييسوك بلغت قرابة الألف عضو، مجموعة "أصدقاء وصدقات مقهى لونيفار" مثلت فرصة لمرتادي المقهى والحانة للتفاعل افتراضيا بين بعضهم ومع عمالي المقهى طوال فترة الحجر.

مؤطر 2: مقهى حانة لونيفار

منذ 1948، يقبع مقهى حانة لونيفار، محاذيا لقاعة سينما البرناس (Le Parnasse). منذ أكثر من سبعين سنة، يجذب المقهى نخبة من الفنانين والمثقفين اليساريين، ومثل بقية محلات شارع الحبيب بورقيبة، تم حصر "الطبرنة" في الداخل لتبقى مصطبة المحل (terrasse) مقهى وداخله حانة. مؤسس المقهى وصاحبه الأصلي، جاكوب طرطور، تونسي يهودي من حلق الواد وكان مشرفا على السوق البلدية هناك وله مصالح ومساهمات في عديد المقاهي والحانات، كان مالك المقهى حتى سنة 1964 سنة سفره لفرنسا. المقهى والحانة كان قبلة للطلبة التونسيين واليساريين تاريخيا مما يفسر نوعية زبائنه حتى اليوم من يساريين وتقدميين، حيث يمثل هذا المقهى ملاذا تاريخيا للقاءات والنقاشات خاصة منها الحزبية التي لا تستوعبها مقرات الأحزاب والمنظمات.

تاريخ المقهى، موقعه، نوع الزبائن المترددين عليه، كلها عوامل تؤخذ بعين الاعتبار في دراسة العاملين فيه، حيث يتم اختيارهم على أسس تتماشى مع هذه العوامل كما يكتسبون في وقت لاحق مؤهلات اجتماعية (معجم لغوي، طرق حلّ نزاعات، علاقات، هيئة، أفكار ..) تمكّنهم من الانخراط في علاقات مع الزبائن، هذه المكتسبات تأتي على إثر تنشئة اجتماعية²⁴⁸ (socialisation).

²⁴⁸ التنشئة الاجتماعية عند اميل دوركهايم هي استبطان ما هو اجتماعي في علاقة الفرد بالمجتمع. هنا، علاقة عامل المقهى بالمجتمع المصغر المكون من الحرفاء، الزملاء، المشغّل/ الوكيل، تنتهي بالضرورة بتنشئة اجتماعية تمكنه من مواصلة العمل في هذا المجتمع، او مغادرته في حالة الفشل.

دراسة حالة: ماهر

مرتادو حانة لونيفار أو المقهى يعرفون ماهر، تربطه علاقة وطيدة مع أغلب زبائن المقهى الذي يجمع كافة أطراف اليساريين. ماهر نفسه، كان منتظما في حزب العمال، بالنسبة له زبائنه هم أكثر من كونهم زبائن، هم رفاقه. إذا جلست بمقهى لونيفار في السابق، فلن يفوتك مثلا أن ماهر يعرف كل أحوالهم أو أنه مثلا يتدخل ليحل مشكلة ما سمعها تطرح في إحدى طاولات المقهى، حيث لا ماهر يتحرج من التدخل الذي يحمل اعترافا ضمنيا باستراقه للحديث ولا الزبائن يتخرجون من مفاتحته بالمشكلة والبحث عن المعونة منه.

ماهر، العامل في لونيفار، يبلغ من العمر 34 سنة، يوقع كل منشوراته على وسائل التواصل الاجتماعي بـ "عامل من أجل غد أفضل".

"حكايته حكاية"، علق ماهر ضاحكا على العبارة التي يستعملها دائما عندما سألته عن القصة وراءها، ثم أخبرني بأنه يعمل من أجل مستقبل أفضل لنفسه ولعائلته، غير أن هذا المستقبل الأفضل صار يبدو بعيد المنال في زمن الكورونا.

ماهر يقيم رفقة والدته المريضة وأخ له في معتمدية واد الليل التابعة لولاية منوبة، منذ إغلاق المقهى، خيّر ملازمة البيت والاعتناء بصحة والدته رافضا كسر الحجر خوفا عليها وبتحتملا مسؤولية عائلته، لا مكان للاستمرار في زمن الأوبئة. عندما بلغه أن الحكومة تعزم مساعدة الفئات المتضررة من الكورونا، قام بطلب المساعدة من السلط المحلية وذلك بملاً استمارة مساعدة الـ 200 دينار، لم يتحصل عليها، مثل بقية المعطلين عن العمل بواد الليل.

طوال فترة الكورونا، لم يكن للعائلة المكونة من ثلاثة أفراد أي دخل، سوى تمتع أمه المريضة بمساعدة قدرها 190 دينار وأخيه الحامل لبطاقة العلاج الصفراء بمساعدة قدرها 50 دينار. كان لابد من التداين، من أجل توفير مستلزمات المنزل والدواء لوالدته المريضة، وهو ما فعله مرّة، حيث اضطر للتنقل حتى باب الخضراء للاستدانة من صديق، ومنعته الشرطة من ركوب الحافلة نظرا لغياب الترخيص بالتنقل رغم أنه فسّر وضعيته الحرجة، فقام بالعودة حتى واد الليل على الأقدام.

عمال مقهى لونيفار لم يتوقفوا عن التواصل بين بعضهم في فترة الحجر، ونظرا لقلّة ذات اليد وضعف الحيلة، قاموا بالاتفاق على التواصل مع صاحب المقهى ليساعدهم.

صاحب المقهى، كان قد ساعد كافة العاملين بمبلغ 200 دينار منذ العشرين من مارس قبل الغلق، ثم مبلغ إضافي قدره 150 دينارًا للعازبين من العمال و 200 دينارًا للمتزوجين في نصف شهر أفريل، ومبلغ آخر إضافي في رمضان.

أمّا عن كيفية حصول ماهر على هذه المبالغ، فقد قال بأن صاحب المقهى قام بالتنقل حتى منزله في ولاية منوبة.

على عكس عاطف وعماد، ماهر لا يشتغل بأجرة يومية بل يتحصل على راتب شهري، ومع تواصل المساعدات من قبل مشغله كان ماهر يبدو أكثر اطمئنانا وفي وضعيّة مريحة - رغم اضطراره مثلا للتخلي عن بعض حاجياته مثل التدخين - أكثر من عاطف الذي اضطر لكسر الحجر ومواصلة العمل بطريقة سرية أو عماد الذي اضطر لمزاولة عمل آخر بطريقة وقتية من أجل القوت.

جغرافية الحجر أيضا، الذي تختلف حدّته وتطبيقه من مكان إلى آخر مثلما يختلف مدى التقيد به من مكان إلى آخر: مقهى حانة لونيفار الموجود في شارع الحبيب بورقيبة يمثل حالة مستحيلة من ناحية مواصلة العمل بأي شكل من الأشكال نظرا لموقعه في وسط العاصمة وشدة الرقابة عليه، زد على ذلك محل سكني ماهر في واد الليل من ولاية منوبة الذي يفرض عليه التنقل في ظروف لا تسمح بذلك، على عكس المقهى الشعبي الذي يعمل به عاطف مثلا في جندوبة والذي أتاح له التملص من القيود التي يفرضها الحجر.

عنصر تحليلي

ما يمكن استخلاصه من دراسة الحالات الثلاثة المذكورة، أن الطاغي في حالة عاملي المقاهي هو غياب العقود وبقاء هذه الفئة في حالة شغل غير منظمّ لعدّة عوامل، لعلّ أبرزها غياب نقابة منظمة للقطاع ومهتمة بالدفاع عن العاملين فيه في وجه نقابة قوية تدافع على مصالح أصحاب المقاهي (الغرفة الوطنية لأصحاب المقاهي التابعة للأوتیکا UTICA) متعلقة بالحفاظ على مواطن الشغل رغم ما يعيشه العاملون من غياب تغطية صحية وضمن اجتماعي وتقاعد، هذا التقاعد والتغافل على تنظيم القطاع في ظل غياب إرادة الدولة وغياب نضالات العاملين جعل علاقة المشغلّ بالعاملين علاقة مختلة من ناحية موازين القوى حيث تغيب الوسائل التعديلية (تنظّم نقابي، تدخل تنظيمي تعديلي من قبل الدولة..) لتترك العاملين محلّ استغلال ودون حقوق اجتماعية.

هذا التواطؤ الذي يبقى أغلبية العاملين في القطاع غير المنتظم (informel) سبب أزمة على مستوى التوثيق حيث عجزت الدولة بداية على معرفة الأرقام الحقيقية للذين أحالتهم قرارات الحجر على البطالة الإجبارية المؤقتة أو الدائمة، ثم عجزت على توفير الدعم المادي الموعود لهذه الفئة الهشة. على مستوى آخر، غياب أي نوع من التأمين والضمان الاجتماعي نتيجة للانخراط في هذا النوع

من التشغيل جعل وضعية العاملين في القطاع أسوأ نظرا للبطالة التي رافقها غياب أبسط الحقوق الاجتماعية مثل العلاج والقروض الاستهلاكية.²⁴⁹

من جهة أخرى، نقف على اختلاف ردود الفعل للشخصيات المدروسة: كسر الحجر الصحي والعمل خفية، اللجوء إلى مهنة مؤقتة، الالتزام بالحجر والركون إلى المنزل. ما يمكن ملاحظته في مستوى أول، أن المقدرة على الفعل يختلف طيفها في حالاتنا حسب الصورة الاجتماعية للشخصيات وحسب الجغرافيا والإطار الذي توجد فيه كل شخصية، هذان العاملان يتأثران ببعضهما تأثيرا متبادلا، حيث يؤثر الإطار على الصورة الاجتماعية وتؤثر فيه هذه الأخيرة بصفة عكسية من خلال تجاوب الشخصية وفعلها في محيطها في نفس إطار الفعل الذي يحدد كما قلنا الممكن وغير الممكن. هذه الصورة الاجتماعية تنبها بالضرورة التجارب الحياتية ومراكمتها، مثل المهارات المكتسبة (مثلا القدرة على أداء أعمال أخرى مثل طلاء المنازل) وتأطير الواقع من وجهة نظر الشخصية المعنية به (مثلا في حالة ماهر، انتماؤه السابق لحزب سياسي يساري ونوعية الزبائن الذين يترددون على المقهى يجعل تأطيره للواقع وفهمه لمقدرات فعله متأثرا بشكل كبير بما يتداول في ذلك الإطار من وعي مجتمعي وسياسي أعطى أولوية لتطبيق الحجر واحترامه).

خاتمة

منذ بداية الأزمة، بقيت البشرية مترقبة لنهاية مؤكدة لوباء أخضع لأول مرة البشرية إلى حجر ذاتي وإجباري في المنازل. هذا الترقب يكاد لا يخلو من اليقين حول حتمية انتهاء الكورونا وانتصار البشرية التي لا تعرف الخسارة. لكن نعوم تشومسكي الذي يخفف من هول الأزمة يشير إلى أنها مؤقتة ولا تعدو أن تكون جزءا صغيرا من الأزمات المقبلة مثل الاحتباس الحراري، أزمات حتمية لأن ما يحركها هو الداء الحقيقي: الرأسمالية المتوحشة التي تهتم بمنطق الربح وحده.

إنها نفس هذه الرأسمالية التي دفعت الدولة للتخلي على دورها الاجتماعي والاكتفاء بتسيير ورعاية مصالح الرأسماليين، متسببة في تدهور قطاع الصحة وقطاع البحث العلمي وتقهره. علاقة الدولة بالعلم، التي يصفها آلان باديو بالضعيفة، تترك اليوم العالم يتربق لقاحا قد يأتي من مؤسسة خاصة، طارحا مشاكلا من قبل إتاحتها للجميع، مما يعمق مشاكل البشرية جمعاء.

في هذا السياق السريالي الذي تصيبه حتى الرأسمالية والعولمة القاسية التي تكشف اليوم ارتباط مصائر البشرية بشكل غير مسبوق، يجد المليارات أنفسهم خارج الحسابات في أحلك الفترات. عاملو المقاهي والحانات ليسوا أبدا بمعزل عن هذا السياق، حيث غياب التنظيم النقابي

²⁴⁹ لمزيد التعمق في الأرقام والاحصائيات حول الاقتصاد غير المنظم في تونس راجع هذا المقال <https://www.tanitjobs.com/blog/158/1-emploi-informel-en-Tunisie.html> [consulté le 19 Mai 2020]

والتواطؤ بين السلطة والمشغل أوصلهم لوضعية كانت سلّطت عليها أزمة وباء كورونا الضوء كاشفة مدى هشاشة هذه الحياة المهنية ومدى عدم قدرة ورغبة الدولة للتدخل. ربّما تنطلق الدولة في خطاب رسمي يفيد هزيمة الكورونا وبداية الانتعاش الاقتصادي في "ما بعد الكورونا"، لكن ما لم ترافق إجراءات دعم المؤسسات والضخ في ميزانيتها من أموال القروض إجراءات أخرى تضمن تنظيم القطاع غير الرسمي ومحاولة إدماجه في الاقتصاد الرسمي لتفادي مثل هذه الأزمات وضمان حقوق العاملين في هذا القطاع، تبقى مرحلة ما بعد الكورونا مجرد مصطلح لألوف مؤلفة من فئات هشة دائماً ما تجد نفسها وحيدة في فوهة مدفع الأزمات.

طبيب في مواجهة الكوفيد 19: كيف عاش الأطباء الموجة الأولى للوباء

فهمي البلطي

ملخص

تعرّضت تونس مثل سائر بلدان العالم إلى اجتياح وبائي: كوفيد 19، أفزع البشرية جمعاء وأودى بحياة الآلاف في كامل أصقاع الأرض، ليس هذا فقط بل إنّه غيّر الخارطة السياسية والاقتصادية للعالم. تبدو تونس في الظاهر قد انتصرت بالكامل على هذه الجائحة انتصارا يشهد له العالم وذلك نتيجة التدابير الحكومية الاستباقية واليقظة الكبيرة لمسؤوليها، لكنّ الكواليس تقول عكس ذلك، على المستوى الصحيّ الأساس والذي حاولنا نحن التّركيز عليه في هذه الورقة البحثية، بل إننا حاولنا أيضا تسليط الضوء على واقع الصحة العمومية في تونس قبل الجائحة. وصفنا واقعنا اليومي أين نشغل في مستشفى محليّ ناء قبل وباء كورونا وإبانه، ووصفنا الواقع المزري لعملنا في ظروف أقلّ ما يقال عنها أنّها ظروف حرب ثمّ حللنا التناقض الصارخ بين هذا الواقع الميداني والتدابير الحكومية المزعومة لمواجهة الوباء. كما حاولنا وصف علاقتنا المباشرة كطبيب بالسياق الوبائي في جميع تفاصيله اليومية، وكيف أنّ هذا الوباء في لحظة من اللحظات تحوّل من كارثة صحيّة مزعومة إلى ذريعة حكومية لتغطية الكثير من النقائص والإخلالات داخل البلاد، ليس الصحة فحسب بل السياسية والاقتصادية والاجتماعية أيضا. كما تساءلنا عن حقيقتيّة هذا الوباء، في تونس بالتحديد، وحاولنا الكشف عن المضاعفات الجانبية للصحة للحجر وحقيقة الخدمات الصحيّة وواقع المستشفيات والمرضى، والإطارات الطبية وشبه الطبية بعيدا جدّا عن عدسات التصوير والبروباغندا الإعلاميّة، مستشهدين في ذلك ببعض الإحصائيات من هنا وهناك وبيعض الوقائع الميدانية أيضا أو الوثائق المتعلقة بعملنا عموما.

واستخلصنا في النهاية أنّه، وإنّ كنا فعلا قد تجنّبنا السيناريو الأفظع على الإطلاق، فلاّن ذلك لم يكن نتيجة الإجراءات الحكومية بل نتيجة أسباب أخرى منها ما عرفناه في الحاضر ومنها ما سنكتشفه في المستقبل. كما ركزنا أساسا على معطى جوهري، ألا وهو أنّ الصحة العموميّة في تونس، وفي جميع الحالات، ليست مأزومة فحسب، بل هي بصدد الانهيار إن لم يتمّ أخذها على محمل الجدّ باعتبارها قطاعا استراتيجيا وحياتيا يجب إنقاذه على وجه السرعة كأولويّة سياسيّة قصوى.

Abstract

Tunisia, like all other countries around the world, was subjected to an epidemic invasion, covid 19, which terrified all mankind and claimed the lives of thousands everywhere , not

only this, but it has also changed the political and economic map of the world. On the surface, Tunisia appears to have completely triumphed over this pandemic, a victory that the world is witnessing, as a result of the proactive government measures and the heightened vigilance of its officials. Yet the scenes say the opposite, mainly on the health level that we tried to focus on in this article, and we even tried to highlight the reality of public health in Tunisia before the pandemic . We described our daily reality, where we work in a remote local hospital before the epidemic of Corona and during it . We described the miserable reality of our work in conditions that are, to say the least, war conditions and then we analyzed the stark contrast between this field reality and the alleged government measures. We have also tried to describe our direct relationship as a doctor with the epidemiological context in all its daily details, and how this epidemic at one point transformed from an alleged health disaster into a government pretext to cover a lot of shortcomings and breaches within the country, not only health ones , but also political, economic and social as well. We also questioned even the real existence of this epidemic, particularly in Tunisia, and we tried to expose the health side complications of the quarantine and the true situation of health services and the real conditions of hospitals, patients and medical and paramedical staff very far from the camera lenses and media propaganda, citing some statistics from here and there and some field facts as well, or documents related to our work in general. We finally concluded that, even though we had really avoided the most horrific scenario, it was not due to government measures but rather the result of other reasons, we know about some for the time being and we will discover others in the future, focusing mainly on something essential, namely, that public health in Tunisia, in all cases, is not just in a crisis, but is in the process of collapse if it is not taken seriously as a strategic and vital sector that must be quickly saved as a top political priority.

« Presque tous les hommes meurent de leurs remèdes et non pas de leurs maladies. »

MOLIÈRE (1622-1673), Le Malade imaginaire (1673)

لا ندعي أن هذه الورقة إنتاج محكم لمقال علمي، ولم يكن ذلك أبدا الهدف من كتابتها، بل هي محاولة لوصف حالتنا وصفا ميدانياً، نحن أطباء الصحة العمومية في تونس، زمن الجائحة. محاولة لوسط هذه التراجيديا بين واقع نعيشه نحن ونعرفه حق المعرفة سنوات طويلة قبل الكورونا وأسابيع طويلة إبان الكورونا، مثلما سوف نعيشه- إن كان في حياتنا نصيب- شهورا أو سنوات أخرى بعد الكورونا دون أن يكون لدينا أمل كبير في أن يتغير، وبين تداعيات تحايط هذا الواقع سياسياً وإعلامياً، لكنّها تتضارب معه وتناقضه في أحيان كثيرة كي يضعنا كلّ ذلك أمام مفارقات مدهشة، مضحكة أحيانا، ومبكية أحيانا أخرى.

هذه الورقة تندرج في إطار كراس جماعي من إصدار المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية يسعى إلى تجميع أكثر كمّ وكيف ممكنين من الورقات التحليلية التي تسلط الضوء على الواقع المخفي زمن السياق الوبائي. هي ورقة تحليلية في شكل مقال سوف نحاول نحن من خلاله الحديث عن كواليس الصحة العمومية ليس زمن الجائحة فقط بل قبلها أيضا، انطلاقا من تجربتنا كطبيب مباشر ومُمارس ومُعاش للظاهرة إبان حدوثها، في ربط منهجي لحقتين مختلفتين لأننا على قناعة تامة بأنّ الرّاهن يستمدّ وجوده دائما من الماضي وأنّ القفزة على الرّاهن نفسه بإصلاحه أو هدمه أو الثّورة عليه لا يمكن لها أن تحدث ما لم يتمّ استيعاب هذا الماضي وتفكيكه ومحاولة فهمه، وإلا فإنّ ذلك سيكون مجرد تلفيق أو ترفيع سينكشف زيفه عاجلا أم آجلا.

واقع الجائحة، كما عايشناه كأطباء، هو واقع معقد ومركب يدفعنا لطرح أسئلة نسعى من خلالها لمقاربة تحليلية لما حدث وكيف ولماذا حدث.

فكيف يمكن إذن تشخيص واقع الصحة العمومية في تونس قبل الجائحة؟ وهل أن هذا الواقع يمكنه أو أمكنه فعلا مجابهة وباء الكوفيد 19؟ أم أنّ هشاشة الإمكانيات وتدني القدرات يجعلنا نلمس بالكاشف التناقض الواضح بين الإجراءات الحكومية "المزعومة/المُعلنة" وما نعيشه فعلا في/ وعبر عملنا الميداني نحن كأطباء زمن الوباء؟ وكيف كانت ظروف عملنا الحقيقية في ذلك الوقت بعيدا عن البروباغندا الإعلامية؟ وهل أنّ الحكومة كانت تجابه معنا حقاً هذا الوباء ميدانياً أم أنّها استثمرت ذلك سياسياً كي تخرج من بعض المطبّات وتصبح الجائحة ذريعة للتنصّل من الكثير من مسؤولياتها؟

مدخل منهجي:

باعتباري فاعلا باحثا²⁵⁰ إن أمكنني اعتبار نفسي كذلك، في انتهاج للمقاربة الأوربستيقية²⁵¹ L'approche heuristique، واستئناسا بتجربة الكرّاس الثاني للمنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية "سوسيولوجيا الفعل الجماعي في تونس منذ 2011: تعدّد طرق الانخراط وتنوّع أشكال الاحتجاج"²⁵²، عبر اعتماد تقنية الوصف الاتنوغرافي وذلك بتدوين كلّ ما عايشته كطبيب إبان أزمة الوباء في منطقة ريفيّة في غرب البلاد (لن نذكر المنطقة لتجنب الوصم) عبر اعتماد "الملاحظة بالمشاركة L'observation participante" عبر اجتهاد وبحث وجهد إضافي بحكم أنّي لست باحثا بل فاعلا في الحقل الذي أشغل فيه، وبحكم إمكانية فريدة أتيحت لي بالنفوذ للمعطيات في سياق وبائي لا يمكن للباحث النفاذ إليها وذلك باعتماري لقبّعتين: قبّعة الطبيب وقبّعة المهتمّ بالشأن العام. كلّ ما دوّنته من ملاحظات "خام" حوّلته إلى معطيات ميدانية منظّمة ومصنّفة، حسب إشكالية الورقة بالخصوص والكرّاس عموما، وحاولت من خلال المعطيات المستخرجة إنتاج هذه "الشهادة التشخيصية/التحليلية" التي لا تستطيع سلطة البروباغندا الإعلامية للسلطة إنكارها أو التشكيك فيها، والتي توفّر للباحثين مادّة يمكنهم استعمالها في بحوث تحتاج لمثل هذه المادة الميدانية التي من الصعب الحصول عليها، وكذلك للفاعلين المنخرطين في فعل جماعي ينشد تغيير واقع الصّحة العمومية في تونس.

الانتقال من طب الحرب قبل الجائحة إلى طب حرب إضافيّة إبان الجائحة:

لا ينقصنا سوى جائحة عالميّة هي بصدد تركيع دول عظمى يتّسم نظامها الصحيّ بالصلابة والقوّة والقدرة الاستشرافيّة، فما بالك بتونس، هذه الدّولة التي تعيش منذ عشر سنوات انحلالا سياسيا منقطع النّظير وانخراما اقتصاديا كبيرا وتدهورا صحيا لم نشهده بتاتا حتّى في سنوات الجمر أيام الدكتاتورية. صحيح أنّ الصّحة العمومية في تونس أيام بن علي كانت متدهورة لكنّها زمن الثّورة أصبحت متدهورة للغاية.

²⁵⁰الخسيني، أمين، "الباحثون الفاعلون كأفق تفكير" في سوسيولوجيا الفعل الجماعيّ في تونس منذ 14 جانفي 2011 في تونس تعدّد طرق الانخراط وتنوّع أشكال الاحتجاج، تونس، 2019، المنتدى التونسيّ للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، والمرصد الاجتماعيّ التونسيّ، ص، 8-19.

²⁵¹جاب الله، سفيان، "مانيش مسامح، فاس نستناو، باسطا" مقارنة سوسيولوجية للحملات الشّبانية في تونس، في سوسيولوجيا الفعل الجماعيّ في تونس منذ 14 جانفي 2011 في تونس تعدّد طرق الانخراط وتنوّع أشكال الاحتجاج، تونس، 2019، المنتدى التونسيّ للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، والمرصد الاجتماعيّ التونسيّ، ص، 151.

²⁵² الكرّاس عدد 2 للمنتدى التونسيّ للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، إشراف، سفيان جاب الله، تونس، 2019.

نذكر على سبيل المثال أنّ الموازنات المخصصة لوزارة الصحة تمثل 5,1 بالمائة من إجمالي الميزانية العامة للدولة سنة 2019
 علما أنّ 87% منها تُوجّه إلى نفقات التصرف والتسيير في حين لا تتجاوز النفقات المخصصة للتنمية والتطوير 269 مليون دينار أي ما نسبته 13% من ميزانية وزارة الصحة فقط.
 كما ندكر أيضا بأنّ إيقاف الانتداب في الوظيفة العمومية منذ 2016 دفع الكثير من الأطباء الشبان إلى مواصلة مشوارهم المهني في الخارج وهو ما يجعلنا نواجه في نفس الوقت إفراغا تدريجيا للمستشفيات العمومية في تونس مقابل نزيف حقيقي للإطارات الطبية: 600 طبيب هاجروا سنة 2018 والمرجح أنّ الرقم سوف يصل إلى 2700 بحلول سنة 2022²⁵³.
 وهي أرقام تعتبر مفعجة فعلا بالمقارنة مع زمن ما قبل الثورة.

هكذا كنتُ أقول في نفسي منذ بدأت تدقّ نواقيس الخطر في بلادنا في منتصف شهر مارس المنقضي، وفي الحقيقة، كنت أتوقع الأسوأ على الإطلاق كطبيب، بل إنّ الوضعية الأكثر قربا إلى ذهني ووجداني في ذلك الوقت كانت التراجيديا في شكلها اليوناني القديم، أي الفاجعة في أقصى درجاتها.

شهادة شخصية عن ظروف العمل في المستشفى قبل الوباء:

سأحاول أن أضعكم أكثر داخل الإطار:

البلدة التي أشتغل فيها معتمدية في الشمال الغربي التونسي عامرة ببضعة آلاف من المواطنين، أما المستشفى الذي أشتغل فيه فهو الوجهة الرئيسية للغالبية القصوى منهم لأنّه المؤسسة الصحية الوحيدة هناك باستثناء عيادتين خاصتين أو ثلاثة، عادة ما تقفل أبوابها عند العصر. هذه المؤسسة تتكوّن من مستشفى يحتوي على قسم الاستعجالي، قسم الأطفال، قسم العيادات الخارجية، قسم التوليد، قسم إشفاء الكهول، قسم خاصّ بالطبّ المدرسي والوقاية الطبية، هذا إلى جانب أربعة عشر مستوصفا داخل الأرياف تفتح أبوابها للعيادة الطبيّة يوما واحدا في الأسبوع فقط، نتقل إليها بالتناوب أنا وزملائي من أجل تأمين العيادات هناك.

الغالبية القصوى من المرضى الذين أفحصهم يوميا، لا يعرفون الكتابة والقراءة، شديدو الخصاصة، مستواهم المعرفي متدنّ جدًا، كما يعانون الكثير من الأمراض المزمنة: السكري، ضغط

²⁵³انظر مقال: الحق بالصحة في تونس بلغة الأرقام: منظومة تهاوى بتواطؤ رسمي.. الصادر في المجلة الالكترونية: المفكرة القانونية بتاريخ 24 أبريل 2019

الدم، الربو، الكوليسترول، الأنيميا، بعض أمراض القلب، الكثير من أمراض المفاصل، الكثير من الأمراض الوراثية وفي أحيان أخرى بعض أمراض المناعة.

أكثرهم لا يملكون المال الكافي من أجل شراء أدوية رئيسية غالبا ما تكون مفقودة في المستشفى، ولا من أجل التنقل إلى مدن مجاورة من أجل فحوصات أو عيادات تكميلية. وهم يأتون إلى المستشفى بالعثرات يوميا. يفوق عددهم في أحيان كثيرة المائة مريض في اليوم الواحد، وعادة ما يتزاحمون من أجل الفحص السريع ومن ثمّ التمكن من العودة باكرا إلى ديارهم قبل أن تنقطع سيارات النقل الريفي، مهما كلفهم ذلك، حتى العودة بمجرد تناول حبة براسييتامول فقط.

غالبية المرضى الذين يأتون إلى المستشفى هم في الغالب من سكان الأرياف النائية، حيث يتحصّلون على قوتهم اليومي من فلاحه عائلية هشة كتربية الماشية أو زراعة البقول والخضروات، بعضهم الآخر يقتات من الاقتصاد الموازي عن طريق بيع بعض البضائع المهربة من الحدود التونسية الجزائرية، والبعض الآخر من جرايات الفقر البخسة جدا التي تمنحها لهم الدولة، الكثير منهم يسكنون في بيوت جبلية شبيهة بالأكواخ، وهم يتنقلون بصعوبة شديدة إلى المدينة من أجل المداواة، سواء كان ذلك بسبب عدم توفر وسائل النقل اللازمة أو بسبب عدم حوزتهم أجره النقل. الغريب في الأمر أنّ البعض منهم يجد صعوبة في التنقل إلى المستوصف الذي من المفروض أن يكون قريبا من مقرّ سكنهم هناك، لكنهم يتنقلون رغم ذلك بعض الكيلومترات مشيا على الأقدام، أو فوق ظهور الدواب من أجل الوصول إلى ذلك المستوصف. أمّا الأمر الأكثر إدهاشا على الإطلاق، فهو ملاحظتي إثر تنقلي إلى تلك الأرياف من أجل فحص المرضى وجود أطفال في سنّ العاشرة منقطعين عن الدراسة، بل إنهم ليسوا مسجلين أصلا في السجل المدني، وهو ما يعني لي شخصيا دلالة رمزية فظيعة على أنّ هؤلاء الأطفال منفيون من الدولة التونسية ولا ينتمون إليها أساسا.

هذا فيما يخصّ المرضى بإيجاز شديد.

أمّا بالنسبة لنا كأطباء، فعادة ما يقوم الواحد منا بوظيفة طبيين أو ثلاثة أطباء، فنحن نتنقل في الصباح الواحد بين عيادتين، نكمل عيادة الأطفال مثلا، ثمّ نتجّه إلى عيادة الكهول. نكمل عيادة المرضى في مستوصف يبعد بعض الكيلومترات عن المستشفى، ثمّ نعود إلى ذات المستشفى من أجل إكمال العيادات هناك. وحين يكون مطلوبنا أنّ نؤمّن ساعات المناولة، نتجّه بعد ذلك كلّ إلى قسم الاستعجالي كي نؤمّنه حتى الساعة التاسعة من صباح يوم غد.

بعد عمل أربعة وعشرين ساعة متتالية، لا نعود إلى ديارنا، بل نكمل عيادة اليوم الموالي ونكشف على عشرات المرضى مجدداً حتى نتحوّل في النهاية إلى خرقة تقريبا من شدة الإرهاق.

طبعاً، نحن لا نتمتع براحة تعويضية لساعات المناولة باستثناء العطلة التعويضية ليوم الأحد، بل نواصل العمل بذات الوتيرة كامل أيام الأسبوع باعتبار يوم السبت²⁵⁴.

يجدر التذكير في هذا الصدد بأنّ أجره عمل الساعات الإضافية في قسم الاستعجالي أو ما يُسمّى عمل الاستمرار على طول عشرين ساعة على التوالي، باستثناء ما يسبق هذه الساعات وما يلحقها من شغل في قسم العيادات الخارجية، هو 2400 مليم الساعة الواحدة باستثناء يوم الأحد الذي تعادل فيه أجره الساعة الواحدة قرابة ثلاثة دنانير. نعم، الطبيب التونسي الذي يشتغل في المستشفيات المحليّة -صنف ب- والذي يواجه الحياة المباشرة للمرضى وبإمكانه القيام بأكثر من إسعاف واحد ينقذ من خلاله حياة أكثر من مريض بالنسبة إلى من هم في حالات حرجة للغاية، ومن ثمّ أداء فحوصات وإسعافات أخرى لمرضى أقلّ خطورة، وبإمكان عددهم أن يفوق إجمالاً المائة في غضون تلك الساعات العشرين، يحصل على أجره 2400 مليم مقابل عمل الساعة الواحدة بعد طرح نسبة عشرين بالمائة لصالح الضرائب. يجدر التذكير كذلك أنّ طبيب الاستعجالي يستقبل الحالات الباردة أيضاً في ساعات المناولة الليلية وأنّه لا يوجد أبداً ممرض مختصّ في فرز المرضى إلى صنفين: صنف استعجالي بالفعل يجب فحصه في الإبتان وصنف بارد عليه العودة إلى قسم العيادات في صباح اليوم الموالي وليس الخضوع إلى الفحص الفوري في قسم الاستعجالي. الجميع يُفحصون دون استثناء في حالة من الفوضى منقطعة النظير، يزيد من حدتها المعمار العشوائي للمستشفيات التونسية كلّها. بل يجدر التذكير خاصة وبإلحاح شديد على أنّ عمل الطبيب، إذا ما احتسبنا الساعات السابقة واللاحقة لساعات المناولة قد يفوق 28 ساعة على التوالي دون انقطاع ودون راحة تعويضية في الأيام الموالية، الأمر الذي لا يمثّل استخفافاً بصحة الطبيب وبحياته فحسب، ولكن بصحة المريض أيضاً، فمن المعلوم أنّ هذا العمل المجحف دون راحة ضروريّة جدّاً من شأنه أن يتسبّب في أخطاء طبية ناهيك عن حالات التشنّج والاعتداءات المتتالية بالعنف على الأطباء والممرضين مع مرافقي المرضى أو المرضى أنفسهم

لا أريد أن أخرج عن الموضوع، ولا أريد أيضاً أن أحفر طويلاً في أسباب العمل بهذا الشكل الجحيمي ولا أن أجيب عن السؤال البديهي الذي من الأكيد أنّه خطر في بالكُم للتوّ: كيف كنّا نواصل العمل بهذه الطريقتة وكيف كنّا نرضى به أصلاً، فهذه حكاية طويلة يلزمها الكثير من المقالات الأخرى.

²⁵⁴ انظر مناشير وزارة الصحة المتعلقة بالقانون الأساسي للعمل في المستشفيات صنف ب في الموقع الرّسمي للوزارة على الأنترنت.

لكنّ الذي أريد أن أؤكد عليه هو الآتي: كيف باستطاعة دولة متمثلة في برلمانها وحكوماتها المتعاقبة أن تسيطر على الأوضاع زمن الحرب – وقت جائحة عالميّة شديدة الخطورة- فيما هي أساسا متخلّية بالكامل عن مسؤولياتها زمن السّلم – في الأيام العادية من الأوبئة-؟ كيف باستطاعتها ذلك وهي لا تملك أيّ إرادة تُذكر في حدّها الأدنى من أجل حماية الأطباء، جسديًا ونفسيًا، الأطبّاء الموكول لهم رعاية المرضى فما بالك بهؤلاء المرضى أنفسهم؟

المستشفى زمن الوباء: التناقض بين العمل الميداني والإجراءات الحكوميّة المزعومة

كنت شخصيًا أتوقّع الأسوأ، ولم أكن أحسّ بأيّ نوع من الاطمئنان حتّى بعد رسائل الطمأننة المزعومة التي كانت ترسلها إلينا الحكومة أو وزارة الصحّة.

الأكثر من ذلك أنّنا كرجال ميدان ونساء ميدان من أطبّاء وممرّضين وتقنيين، كتنّا ندرك حجم استهتار فئات عريضة من المجتمع، بجميع شرائحه، بكلّ ما يتعلّق بالوقاية الصحيّة. وذلك جزاء الثقافة الصحيّة المتواضعة جدًّا في بلادنا عموماً. هذا أولاً، ونتيجة انعدام الأدوات والمعدّات اللازمة لذلك ثانياً. طبعاً، هذا في الأيام العادية فما بالك في زمن الجائحة الذي يبدو فيه كلّ شيء مخيفاً وغامضاً ومفتوحاً على باب جهنّم.

بل إنّ النّصائح الطبيّة الفجئيّة والمسقطّة التي كتنّا نشاهدها جميعاً كلّ يوم في نشرات الأخبار والبرامج التلفزيّة المتنوّعة كانت موهلة في الضبابية وهي غير قابلة للتطبيق بالنّسبة لنا كأطباء، فما بالك بالبقية؟.

أعطي أمثلة على سبيل الدّكر لا الحصر: النّصح باستعمال أكياس القمامة الخاصة ومن ثمّ التخلّص منها في حاويات الشوارع الخاصة، وهي التي لا تكون متوفرة في المستشفيات فما بالك في المنازل، غسيل الثياب في أجهزة غسيل من الطراز الرفيع بطريقة شديدة الدقة مدّة نصف ساعة على الأقلّ بدرجة حرارة تبلغ ستين درجة، التعقيم أو الانعزال الطوعي للأفراد المشتبه فيهم كلّ واحد منهم في غرفة بمفرده، والحال أنّ ذلك ليس عسيراً بالنّسبة إلى الفئات الفقيرة فحسب بل بالنّسبة إلى الطبقة الوسطى نفسها، ونحن نعرف بالكامل ظروف العيش لهذه الطبقة في غرب البلاد وجنوبها على وجه الخصوص²⁵⁵.

²⁵⁵ انظر مقال الصحّة في تونس، تقرير الجمعية التونسية للحق في الصحّة الصادر في 31 جانفي 2017: نسخة الكترونية للملحق الشهري لجريدة الشعب

إنّ الحكومة ووزارة الصحة لم تكلفا نفسيهما المجهود الأدنى من أجل تقديم نصائح صحيّة تتوافق مع الظروف الاقتصادية والاجتماعيّة والمستوى الثقافي العام للغالبية القصوى من الناس، بل اكتفت بنصائح نظريّة عسيرة التطبيق من أجل تبرئة الذمّة ليس إلاّ.

كنا كأطباء وممرّضين نعيش حالة من الفزع منذ بداية انتشار الوباء ومنذ إعلان الحجر الصحيّ العامّ. ليس خوفا على أنفسنا فحسب بل خوفا على عائلاتنا، المسنّين منهم والمرضى أمراضا مزمنة بالخصوص، لأنّه في حالة إصابتنا بالعدوى سوف نعرّضهم مباشرة إلى الخطر وربّما إلى الموت أيضا وهو ما حدث فعلا مع بعض الأطباء الذين أصابوا أهاليهم بالعدوى ومنهم من فقد والدته جرّاء ذلك.

وحين باشرنا عملنا بشروطه الجديدة المتعلّقة بالوباء كنا نلاحظ على الفور -دون أن يُفاجئنا ذلك بطبيعة الحال- الفرق المشطّ بين التدابير الحكومية المزعومة وبين الواقع الفعلي للأشياء.

ففي الوقت الذي كان فيه على وزارة الصحة أن توقّر الحدّ الأدنى من المعدّات الطبية ووسائل الوقاية لفريقها الطبي وشبه الطبي، وأن تقوم بعمليات تطير واسعة النطاق في مستشفياتها فيما يخصّ السبل العلمية التطبيقية الجديدة في التعامل مع الوباء، اكتفت هذه الوزارة بظهور إعلاميّ مكثّف لمسؤوليها، بشكل قريب جدّا من البروباغندا السياسيّة وبعيد كلّ البعد عن الفاعليّة الميدانيّة.

الأكثر من ذلك، أنّ رفع المعنويّات للإطار الصحيّ الميداني كان بمثابة التوريث الأخلاقي ليس إلاّ، وذلك عن طريق تسميته بالجيش الأبيض، هذا الذي ستكون له الفرصة المثلى كي يبرز حبّه لبلاده ويعطي درسا في "الوطنية"، هذه الكلمة التي كلّما سمعها شخصيّا، تدكّرت على الفور المقولة الساخرة لماركيز: إنّها خدعة اخترعتها الحكومة، كي يحارب الجنود مجانا.

جيش أبيض. جيش موكول له أن ينقذ حياة الناس بينما هو لا يملك أسلحة الإنقاذ، بل وهو عاجز عن حماية نفسه وحماية أهله. لم تكن هذه التسمية سوى دعاية ثقيلة الظلّ قريبة جدّا من الضحك على الدقون.

تلقيت شخصا بعض المستندات العلميّة التي أرسلتها لي الوزارة²⁵⁶، وبالطبع كان تطبيقها على أرض الواقع شيئا قريبا جدّا من العبث. كانت مستندات متعلّقة باستقبال المرضى وفرزهم وكيفية

²⁵⁶انظر دليل التعامل مع حالات الوفاة لمصابي فايروس كورونا الجديد مارس 2020 والمنشور في صفحة المركز الوطني للوقاية من الأمراض ومكافحتها

فحصهم، وهي متعلّقة أيضا بكيفية التعامل مع الموتى المصابين بالفيروس²⁵⁷، ناهيك عن كيفية تقديم الخدمات الطبية المعتادة بشكل يضمن الوقاية المزدوجة للطبيب والمريض -غير المصاب- معا. والحق يُقال، إنّ ذلك بالمقارنة مع الوضعية الواقعية للمستشفى، كان قريبا من الخيال العلمي. لا يحتاج الأمر إلى تمحيص كثير، فوزارة الصحة طالما كانت عاجزة عن حماية إطاراتها أو تقديم الخدمة الملائمة للمرضى، ولذلك فقد عمدت فقط إلى رفع الحرج عن نفسها ليس إلّا، وكان ذلك عن طريق بعث هذه المستندات النظرية الجوفاء وعن طريق الحضور المكثف لمسؤوليها في الأجهزة الإعلامية، من أجل ملء كلّ هذه الثغرات ومن أجل الظهور بمظهر البطولة الخارقة المتمثلة في وزيرها²⁵⁸.

نذكر في هذا الصدد، بالوحدة الاستشفائية الخاصة بمرضى «كوفيد» التي تمّ إنشاؤها في إحدى مدن الساحل تحت إشراف وزير الصحة، وكيف أنّ الطاقم الوزاري والطبي حينها لم يحترم أدنى القواعد الصحية الوقائية كالتباعد الاجتماعي والامتناع عن التلامس والتّصافح ولمس معدّات معيّنة بطريقة مشتركة دون تعقيم اليدين. كلّ هذا جعلنا نقتنع مجددا أنّ الأهمّ بالنسبة إلى الحكومة المتمثلة في وزيرها هو تسجيل حضورها السياسي إعلاميا، على حساب النجاعة الصحية عن طريق تطبيق أبسط القواعد الوقائية التي من المفروض أن تكون هي المثال الذي يحتذى به في هذا الشأن.

لم نُسجّل حالات إصابة بهذا الفيروس في المدينة التي أشتغل فيها، لكنّ ذلك لم يعن لي شيئا على الإطلاق منذ أصبحت العدوى أفيّة، وذلك بسبب التقشّف المهول في تحاليل الكشف وانحصاره في العاصمة لمدة أكثر من شهر، ثمّ في وحدتين صحيّتين أو ثلاث في مدن الساحل. ولذلك، كان الفيروس بالنسبة لي موجودا في كلّ مكان وعليّ أن أتصرّف في حياتي اليومية، في البيت أو في الشغل، وفق هذا المعطى الجديد.

صحيح أنّنا أقفلنا المستوصفات وأنّ عملنا اقتصر تقريبا على قسم الاستعجالي وقسم الطب الداخلي وبعض العيادات المفتوحة نسبيا فقط من أجل توفير القليل من الأدوية لبعض الأمراض المزمنة -فعالبيّة هذه الأدوية مفقودة أساسا- (وهنا يجدر بنا التذكير أيضا بهذه الكارثة الكبرى التي تتمثّل في نقص مهول في الأدوية الضرورية، بسبب استهتار الحكومات المتعاقبة منذ أكثر من سنتين

²⁵⁷انظر أيضا إلى دليل الوقاية ومكافحة العدوى للتعامل مع جثث الموتى بمرض كوفيد-19: وزارة الصحة المديرية العامة لمراقبة مكافحة الأمراض: نسخة إلكترونية

²⁵⁸انظر فيديو يوتيوب تحت عنوان المكّي يشرف على افتتاح وحدة "كوفيد 19" بمستشفى سهل بسوسة

في التعامل مع الفساد والتهريب والنزيف داخل الصيدلية المركزيّة، حيث سجلت الصيدليات الخاصة نقصاً يتراوح بين 200 و 300 نوع دواء في شهر جويلية 2018²⁵⁹)

وصحيح أنّ عدد المرضى انخفض بصفة ملحوظة في الأسابيع الأولى من الحجر، لكنّ الدّهّاب إلى المستشفى، رغم كلّ ذلك، كان مغامرة حقيقيّة. فقد كان الرّهان الكبير الامتناع الكلّي عن ترك ولو فرضيّة ضئيلة واحدة لعدوى الأهل عند العودة من المستشفى.

علاقتي كطبيب بالسياق الوبائي

تحوّلتُ شخصيًّا إلى مهووس حقيقيّ، أعقّم كلّ شيء في كلّ لحظة، بين مريض ومريض آخر، عند الانتقال من غرفة إلى غرفة أخرى في المستشفى، قبل الأكل وبعده، قبل الدخول إلى الحمام وبعده، قبل الجلوس على مقعد السيارة وعند النزول منها. اللحظات الحاسمة جدًّا كانت وقت العودة إلى البيت: خلع الملابس في البهو قبل الدخول، مع خطر التعرّض إلى نزلة برد، وتضاعف الهوس بالتالي لو أنّ نزلة البرد تلك تكون في الحقيقة نزلة كورونا، ثمّ البدء في عدّ الأيام في كلّ مرّة انطلاقاً من اليوم الصّفر على اعتبار أنّه يوم التعرّض إلى إصابة مفترضة.

غياب الميّدعات الخاصة في المستشفى جعلني أقتني أكياساً بلاستيكيّة كبيرة من أجل ارتدائها، رأيت زملاء يفعلون ذلك، لكنّني تخلّيت عن الفكرة في آخر لحظة. كان سينتابني شعور بالإهانة لو أنّني أقدمت على ذلك. لكنّ دوامة القلق لم تكن لتتوقّف هكذا بمجرد الاستسلام لواقع الأمور، فقد كنتنا نتابع غصبا عنّا ما يحدث في المستشفيات المجاورة وما يحدث أيضاً في الدّول المجاورة.

رأينا الكثير من تسجيلات الفيديو المباشرة على شبكة التواصل الاجتماعي في الكثير من المستشفيات الجامعيّة، رأينا حالة الهلع والارتباك التي عاشها الأطبّاء والممرّضون في ذلك الوقت وكيف أنّ أقساماً استراتيجيّة تمّ إغلاقها بسبب انتشار العدوى في ظروف عمل عشوائيّة بالكامل، وكيف أنّ الطاقم الطبيّ وشبه الطبيّ كانا يعملان بشكل اعتباطيّ دون أن يوجد مسؤول من أجل تنظيم العمل والتنسيق بين مختلف المتدخّلين وتوفير الحدّ الأدنى من الحماية للعاملين بالمستشفى، بل رأينا حالة تنصّل كاملة من رؤساء أقسام ومديرين جهويّين إلى أن تحوّل الأطبّاء والممرّضون الميدانيّون في كثير من الأحيان إلى مجرّد كاميكاز ليس إلّا، كاميكاز نسّمهم الجيش

²⁵⁹انظر مقال: نقابة أصحاب الصيدليات الخاصة: أكثر من 200 نوع من الأدوية غير متوفر، بتاريخ 18 جويلية 2018 المنشور في موقع تونس تواجه كورونا

الأبيض في وسائل الإعلام، من أجل توريثهم أخلاقياً علاوة على توريثهم الميداني دون أن نكون مسؤولين عن حياتهم المباشرة²⁶⁰.

لم تكن هناك كمّات كافية ولا ميدعات واقية كافية ولا مسلك خاصّ بالفيروس ولا أجنحة خاصّة أيضاً رغم كلّ الذي كنّا نسمعه عن التبرعات والتجنّد الكامل للحكومة من أجل مواجهة الجائحة. كلّ شيء كانت تعتريه الفوضى، كما أن بعض التّنظيم المتأخّر نسبياً في بعض المستشفيات الجامعية والجهويّة سواء في العاصمة أو في بعض المدن الكبرى كان بمبادرات خاصّة وأحيانا أخرى بعد استجابة قسريّة من السلطات إثر احتجاجات وحالات من الاحتقان والتوتر.

شخصياً، ورغم حالة الاستنزاف النّفسي التي كنت أعيشها، كنت أحاول قصار جهدي مواصلة حماية نفسي وتقديم الخدمة الطبية الملائمة للمرضى في ذات الوقت. لم يكن الأمر سهلاً أبداً، ففي أحيان كثيرة كنت أستسلم لغريزة العمل بالميكانيزمات القديمة ليس إلّا، أنسى نفسي ولا أستفيق إلّا متأخراً حين أدرك أنّي اقتربت أكثر من اللازم من مريض مشتبه في إصابته دون أن أكون قد لبست الكمامة الخاصة أو الميدعة الخاصة اللتين لم تكونا متوفرتين أصلاً في الأسبوعين اللذين لحقا قرار الحجر الصحي العام.

لكنّ الأمر الذي كان يصعب الموقف أكثر فأكثر آنذاك، من نهاية شهر مارس وبداية شهر أبريل بالخصوص، كان التخلّي الكامل من قبل المواطنين الذين لم يكونوا يحترمون أيّ قاعدة من قواعد الحجر الصحيّ أو التّباعدا الاجتماعي. لا شكّ أنّه ليس استهتارا متعمّدا بقدر ما هو حالة إنكار نفسيّ أمام الفزع، خاصّة بالنسبة إلى الذين كانوا مهّدين تهديدا مباشرا في لقمة عيشهم، والذي يعني لهم الحجر لمدّة أكثر من شهر واحد الموت جوعا.

حالات العنف بأشكالها المختلفة بين الأزواج والأقارب والجيران أخذت نسقا تصاعدياً، ناهيك عن الحوادث المنجزة عن ألعاب رياضية جماعية أو حوادث منزليّة لم تكن لتستشرفها وزارة الصحة. كنّا نستقبل المرضى بشكل عشوائيّ، ولا أتخيّل أنّنا كنّا الوحيدين، فالأرجح أنّ غالبية المستشفيات، المحليّة منها بالخصوص، كانت تعيش نفس الوضعية. غالبية المرضى كانوا يرفضون الخضوع إلى الفرز عند الباب الكبير للمستشفى، وبعض المرافقين كانوا يهدّدون بالعنف وذلك جزاء التوتر والخوف. لم يكن بإمكاننا رسم مسلك واضح لمرضى الكوفيد بسبب المعمار العشوائي للمستشفى وعدم توقّر الغرف المناسبة لذلك ولا الإمكانيات اللوجيستية ولا العدد الكافي من الملابس الواقية.

²⁶⁰ انظر التسجيل الذي قامت به طبيبة مقيمة في مستشفى الحبيب بريقية بصفافس يوم عشرين مارس 2020 على صفحة فايسبوك وهي تفحص مرضى مشكوكا في إصابتهم من نافذة القسم بسبب عدم وجود مسلك كوفيد خاص

كنّا نتوقّع الأسوأ في كلّ لحظة خاصّة أنّ الوضعيّة الوبائيّة لم تكن واضحة في العالم ولا في تونس وأنّنا أيضا كنّا نحصل على كمّ هائل من المعلومات المتعلقة بالفيروس يوما بعد يوم، تزيد من هلعنا وخوفنا، كالجملطات القلبية وحالات الموت الفجئي والخطورة المضاعفة لما يُسمّى بالموجة الثانية وخاصّة بسبب العجز عن قراءة الخصوصيّة الوبائيّة في تونس. لا أحد كان يعرف متى سوف نصل إلى ذروة الإصابات، ولا كيف سيتمّ العمل حين يزداد عدد الأقسام الخاصة المقفلة في المستشفيات، الأقسام الحياتيّة بالخصوص بسبب انتشار العدوى، مثل أقسام الجراحة والقلب والإنعاش، إقفالها الذي يعني وفاة النّاس ليس بسبب كورونا بل نتيجة أسباب تافهة جدّا مثل الزائدة الدوديّة. كنّا نسير في الظلام تقريبا، والأسابيع الأعسر على الإطلاق كانت الأسبوع الأخير من شهر مارس وكامل أسابيع شهر أفريل.

الذي كان يزيد الطّين بلّة، هو عمليّة الشيطنة التي تبنتها فئات عريضة من المجتمع لأيّ مصاب بالفيروس، كلّ مصاب جديد كان بمثابة طاعون متنقّل وخطر محقق يجب على الجميع أن يتجنّبهُ ويأخذ حذره بالكامل منه. فضائح أخلاقيّة ومهنيّة كبرى حدثت مثل امتناع بعض الأقسام الخاصة عن استقبال مرضى من أجل إشفائهم في أقسام إنعاش من مدن مجاورة، أو التّظاهر من أجل منع دفن بعض الموتى في مقابر بدعوى أنّهم سيتسبّبون في انتشار الوباء داخل الحيّ الذي توجد فيه المقبرة. والحقّ يُقال إنّه علاوة على كلّ هذه البلبلة التي كانت تضع الجميع في مأزق إيتيقيّة فريدة من نوعها، وتكشف عن حالة التشظّي التي يعيشها المجتمع وعجزه عن إبداء قيم التّضامن والتّآزر، كان هناك أيضا أخطاء اتصاليّة كبرى من جهات حكوميّة مسؤولة. لم يكن هناك ولو خطاب واحد تقريبا يتوجّه إلى المرضى. كلّ الخطابات تقريبا كانت موجّهة إلى الأصحّاء من أجل ألاّ يصابوا بالعدوى لكنهم حين يصبحون مرضى يتحوّلون على الفور إلى مسوخ وكأّتهم طردوا فجأة من الجماعة أو كأنّ الجماعة سلبتهم فجأة مواطنتهم وأصبح وجودهم بكامله مختصرا في شيء واحد: وهو أنّهم يمثّلون خطرا محققا ويرمزون إلى شيء واحد هو الموت.

أسئلة كثيرة جالت في خاطري باعتباري طبيبا: إن أصبْتُ بالعدوى أين سيتمّ حجري والحال أنّه لا وجود لأماكن مهيبّة فعلا للحجر داخل المدينة التي أشتغل فيها؟ هل سأتحوّل في هذه الحالة من طبيب وملاك رحمة يعوّل عليه القاصي والدّاني في تلك الفترة بالذّات إلى مجرد شيطان يتجنّبهُ الجميع أو ربّما يتمنّون موته واختفائه في سرّهم كي يختفي بالتالي الخطر الذي يشكّله بالنسبة إليهم؟ كيف ستصبح العلاقة الجديدة التي سوف تربطني بأفراد عائلتي؟ وقبل ذلك كلّهُ هل سأنجو من هذا الفيروس والحال أنّني في خانة الأشخاص المعرّضين للخطر أكثر من غيرهم باعتباري مدخّنا؟ وفي حال أنّني لم أنج، كيف ستعاملني هذه الدولة التي اعتبرتني جنديّا أبيض؟ الامتنان والعرفان معنويّا ومادّيّا أو تحوليّ فقط إلى رقم يُضاف إلى إحصائيّات نشرة الثامنة؟

كلّ هذه الأسئلة جالت في خاطري، لكنّ أخطر سؤال على الإطلاق كان: ماذا لو حصل انتشار وبائيّ حقيقيّ في تونس يشمل آلاف النّاس مثلما حدث في أمريكا وإيطاليا، وأن تكون القرارات الحكوميّة على الشاكلة التي رأيناها، وتكون مستشفياتنا العموميّة بظروفها التي نعرفها؟ حين أتخيّل ذلك فقط أبدأ فوراً في مشاهدة جثث الموتى داخل دماغي، جثث أمام المستشفيات وفي أروقة أقسام الاستعجالي وفي المحطّات والشوارع، أطباء وممرضون يهرون، منهم من سوف يفقد حياته وحياة أهله. شلل تام سوف يصيب المستشفيات بجميع أصنافها ولن يموت النّاس فقط بسبب كوفيد 19 بل أيضاً لأسباب بسيطة حين تقفل أقسام الجراحة مثل التهاب المرارة والزائدة الدودية أو الانسداد المعوي أو بسبب جلطات القلب حين تقفل أقسام القلب الخ. سوف تكون الأمور شبيهة بالحرب الأهلية وسوف تكون مصيبة وطنية لم تشهدها تونس بتاتا منذ الاستقلال وحتىّ هذه اللحظة. ولن يفلح في ذلك الوقت عضّ الأصابع بسبب التفريط في قطاع استراتيجي وحياتي وشديد الخطورة اسمه الصحة العمومية لأنّ الأوان سيكون قد فات.

بدأت الأمور تنفجر فيما بعد، في بداية شهر ماي، لأسباب غامضة في الحقيقة. الكثيرون يقولون إنّ ذلك كان نتيجة لإجراءات الحكومة والتيقظ غير المسبوق لوزارة الصحة، ولكن ذلك لا يبدو ذلك مقنعا على الإطلاق. فالمرضى الذين كانوا يأتون إلى المستشفى لم يكونوا يلتزمون بتاتا بالحجر الصحي. حين أذهب من أجل قضاء بعض الحاجيات عند الضرورة القصوى كنت أرى النّاس في أكثر من مدينة واحدة كيف يعيشون حياتهم بشكل عاديّ جدّاً، لا يحترمون أبدا قواعد التباعد الاجتماعي، لا يلبسون الكمامات، بل إنّ الكثيرين منهم كانوا يتجمهرون أكثر من سالف عهدهم، إضافة إلى الاكتظاظ غير المسبوق لأسباب أخرى، كالبحث عن السّميد أو الالتصاق داخل طوابير مخيفة أمام البنوك ومكاتب البريد من أجل الإعانات الحكوميّة²⁶¹.

داخل كلّ هذه الفوضى، القرارات الحكوميّة المرتجلة، غياب الحماية اللازمة للأطباء والممرّضين، استهتار المواطنين بالحجر وقواعد الحماية، المعلومات العلمية الكثيرة جدّاً التي تأتي من العالم بأسره، هذا إلى جانب الأخبار الخاصّة بانتشار الوباء في تونس وخارج تونس، وخاصة الإجهاد النّفسي الكبير في العمل، تخلّيت نهائياً، في آخر المطاف عن البارانونيا والفرع الشّديد من العدوى وعدت للعمل بصفة عادية.

ربّما كان يسحبني إلى ذلك السلوك أيضاً، حقيقة الواقع الصحيّ في تونس، حيث لم يكن هناك أيّ مجال للسّحر أو للقفز في الهواء: قطاع الصحة العموميّة في تونس قطاع آيل للسّقوط لا محالة، أو

²⁶¹ انظر فيديو يوتيوب اغماءات وتدافع أمام مكاتب البريد بالقيروان بتاريخ 3 أبريل 2020

هو ساقط أصلاً، جزاء الكوارث التي نراها كل يوم. لكنّ الذي جال في خاطري بعد كلّ ذلك هو هذا السؤال بالأساس:

لماذا لا تكون هذه الجائحة نفسها قد تحوّلت من مصيبة تهدّد حياة النّاس المباشرة وتهدّد أرزاقهم، إلى ذريعة هي بمثابة الهدية التي أتت على طبق من ذهب إلى المسؤولين السياسيّين بمختلف أطيافهم، يغطّون بها الحالة المزريّة جدّاً للبلاد ما قبل الجائحة؟

وباء كورونا: من كارثة صحية إلى صفقة سياسية

لنذكر كذلك أنّ الحكومة الحالية كانت حكومة عسيرة الولادة ولا تحظى بمباركة برلمانية واسعة، وهي لم تحرز على موافقة أغلب الأطياف السياسية الفائزة في الانتخابات إلاّ بعد سقوط الحكومة التي سبقتها، كما أنها لم تخرج إلى النّور إلاّ بسبب أنّ البرلمان يريد المحافظة على ديمومته، لأنّ رفضه لهذه الحكومة سيضعه في مأزق دستوري سيكلّف أعضائه خسارة أماكنهم عن طريق حلّ البرلمان وإعادة الانتخابات. لا شكّ أنّ الوباء كان فرصة ذهبية بالنسبة للحكومة كي تجدّر سلطتها وكي تتحاوى الخوض في مشاكل سياسية واقتصادية واجتماعية من الممكن أن تُضعفها وتصدّعها.

مشاكل راهنة كبرى لم تعد تُطرح وفقاً لحجم الخطورة التي تشكّلها، فلا شيء أصبح مدعاة للاهتمام سوى الجائحة. ربّما تكرّرت كلمة كورونا في تونس في غضون شهرين فقط أكثر ممّا تكرّرت كلمة سُكّري على مرّ الدهور كلّها، أو عبارة صناديق اجتماعية، أو نظام عمل داخل المستشفيات.

ماذا مثلاً عن النقص الفظيع للإطارات الطبية وشبه الطبية والانعدام التّام لاختصاصات طبية رئيسية في كثير من المناطق الداخلية للبلاد؟ لا شيء.

ماذا عن حالة الإفلاس التي تعيشها الصّناديق الاجتماعية؟ لا شيء.

ماذا عن الاختلال الفظيع بين القطاعين العمومي والخاص؟ لا شيء.

ماذا عن حالات الاكتظاظ الهائلة في العيادات الخارجية والأقسام الداخلية بما يؤثّر على جودة الخدمات الطبيّة ويستنزف طاقة الأطباء والممرّضين إلى آخر رمق؟ لا شيء.

ماذا عن ساعات العمل المجحفة والعشوائية للأطباء في أقسام الاستعجالي؟ لا شيء.

ماذا عن القوانين الأساسية الغامضة والمفقودة في أحيان أخرى، تلك التي تخصّ عمل الأطباء والممرّضين والتقنيين في ساعات المناولة الليلية على وجه الخصوص؟ ماذا عن الرّواتب الضئيلة والمهينة؟ ماذا عن البرامج الوقائية لأمراض قديمة من المفروض أن تكون قد انقرضت في تونس

القرن الواحد والعشرين، مثل الجرب والسل؟ ماذا عن الأدوية الأساسية المفقودة والتي تتسبب يوميًا في وفاة العشرات من المرضى في الكواليس بعيدا جدًا عن عدسات التصوير؟

هل أنّ كورونا أشدّ خطراً فعلاً من أمراض شرايين القلب مثلاً؟ أو من حالات متطورة لمرض الصّرع؟ أو أمراض السرطان؟ أو تخثر الدّم؟ هل أنّ الموت بالجلطة الدماغية تافه جدًا مقارنة بالموت اختناقاً جراء كورونا؟ أو المضاعفات الجانبية لمرض السّكري والمتسببة في نسبة كبيرة من الوفيات مقارنة بجائحة كورونا المزعومة؟

فمرض السّكري مثلاً يتسبب في 10 بالمائة من الوفيات في تونس في إحصائية صدرت في نوفمبر 2017، ومن المؤكد أنّ هذه النسبة سوف ترتفع بسبب الحجر ودهور الخدمات الصحية المعتادة بسبب الحجر²⁶².

7300 شخصاً أيضاً يفارقون الحياة سنويًا بسبب مرض السرطان، وذلك لانعدام الوقاية الصحية الكافية ودهور الخدمات الصحية المتعلقة بهذا المرض أيضاً²⁶³.

لا شك أنّ هذه الجائحة كانت بمثابة الشّجرة التي غطت الغابة ووقع استثمارها سياسيًا من أجل النّفخ في صورة بعض السياسيين باعتبارهم أبطالاً خارقين، بل إنّ الأمر وصل إلى التبجّح عن طريق التّرويج لتونس باعتبارها معجزة صحيّة مقارنة ببقية دول العالم في مواجهة الوباء وذلك بسبب الفطنة المزعومة وغير المسبوقة لمسؤوليها.

ليس هذا فحسب بل إنّ كثيرا من المشاكل العالقة، ليس الصحية فحسب، بل السياسية أيضا وقع تسويقها إلى آجال غير مسمّاة بذريعة الجائحة.

ما الذي حدث في تونس على وجه التّحديد؟

ما هي أسباب الانتصار على الوباء؟ هل هي نتيجة حتميّة لفطنة المسؤولين الصحيّين غير المسبوقة والتدابير الحكوميّة العبقرية؟ لا يبدو الأمر مقنعا بالمرّة، بل هو قريب من الدّعابة غير المضحكة.

قد نعرف الأسباب لاحقا بشكل أكثر دقّة، وهي ستكون على الأرجح متعلّقة بأمور إثنيّة ووراثيّة ذات صلة بالمناعة، أو بخصائص الفيروس نفسه وهو ينتقل من شخص إلى آخر ومن دولة إلى أخرى

²⁶² انظر تصريح رئيس الجمعية التونسية للغدد الصماء ومرضى السكري محمد عبيد اليوم الخميس 9 نوفمبر 2017 لموقع موزاييك أف أم

²⁶³ انظر المقال المنشور في موقع أرابيسك بتاريخ 4 فيفري 2016 تحت عنوان: "أكثر من 7000 شخص يفارق الحياة سنويا في تونس جراء السرطان"

فيجعله ذلك يضعف شيئاً فشيئاً، أو بالمناخ، أو بتلاقيح قديمة كتلقيح السلّ التي أثرت على الفيروس، أو أسباب أخرى لا نعرف طبيعتها، لكنّها ليست التدابير الحكوميّة دون أدنى شكّ.

بل إنّنا نصل إلى التّساؤل بجديّة قصوى: هل حدث وباء حقيقيّ في تونس كي نتحدّث عن انتصار حكومي، والحال أنّ الخطوة الأولى التي كان على الحكومة أن تعتمدّها فوراً منذ وصول حالات وافدة من أوروبا قد فشلت فيها فشلاً ذريعاً، ألا وهي إخضاع الوافدين إلى الحجر الصحيّ الإجباري وليس الحجر الطوعي. ونحن نذكر أنّ الحالات الأولى لم تلتزم إطلاقاً بذلك الحجر ومنهم من عاود السّفر مجدّداً نحو أوروبا متنقلاً بين مئات النّاس ومحتكاً بمئات الأشياء منذ خروجه إلى بيته وصولاً إلى المطار؟

لقد غطّت الكورونا على الكثير من المصائب، السياسيّة والاجتماعيّة، الفساد السياسي، الاقتصاد الموازي، التّهرّب، الحريات السياسيّة والفردية، قضايا الاغتيالات السياسيّة، التعامل المشبوه مع قوى خارجيّة من قبل شخصيات سياسيّة متنفّذة، الارتفاع المشطّ لنسبة الفقر. نذكر هنا بتسارع هذه النّسبة ووصولها في 2019 إلى مليون وسبعة مائة ألف تونسي أي بما يقدر بـ15,2 بالمائة من مجمل السكان التونسيين²⁶⁴.

نذكر أيضاً التوجه العام نحو الخصخصة وتصدّع القطاع العمومي تباعاً، التهرّب الضّرّبي، علاقة تونس بالبنوك العالميّة، علاقتها بالدّول المجاورة وعلى وجه الخصوص ليبيا التي تعيش حرباً يرتفع نسقها في الآونة الأخيرة، وها نحن بعد تقلّص انتشار الوباء المزعوم، نرى كلّ هؤلاء المرضى الذين أصبحوا يأتون جحافل إلى المستشفيات إثر فترة طويلة من الحجر. ونرى حجم التّعكّرات الصحيّة التي تعرّضوا إليها بعد انقطاعهم عن المستشفى. وها هو الواقع يبدو أسوأ ممّا كان عليه.

رغم ذلك، تظلّ أخبار الوباء هي الطاغية حتّى هذه اللحظة. كم سيستمرّ ذلك يا تُرى؟ كم ستظلّ كورونا ذريعة وغطاء لهذا الواقع المزري سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وإعلامياً وصحياً؟ متى سوف تسقط ورقة التّوت؟ لا أحد يعلم.

لكنني شخصياً، على يقين من شيء واحد: من المستحيل أن تتواصل الأمور على هذا الشّكل، ففي لحظة ما، سوف ينفجر كلّ شيء.

خاتمة:

²⁶⁴ انظر مقال: بالأرقام، الفقر يغزو تونس المنشور في المجلة الإلكترونيّة العربيّ الجديد بتاريخ 20 ديسمبر 2019

لا شك أنّ تدهور قطاع الصحة العموميّة في تونس يعود إلى خيارات سياسيّة خاطئة قبل الثّورة وبعدها. هذا القطاع المسؤول عن صحّة أكثر من ثمانين بالمائة من جملة المواطنين التونسيين والذي يعني تدهوره كارثة وطنيّة حقيقيّة سوف يدفع ثمنها الجميع، ليس صحياً فحسب بل اجتماعياً أيضاً واقتصادياً، فالسّلم الاجتماعي سيصبح مهدّداً، إنتاج الثروة سيتقلّص، والتّوازنات السياسيّة في الدّاخل والخارج سوف تختلّ.

لأسباب خارجة عن نطاقنا، كنّا محظوظين نسبياً ونحن نواجه جائحة عالميّة تسببت في خسائر بشريّة مهولة وأعجزت أنظمة صحيّة صلبة في دول عظمى، ولحسن الحظّ، لم نخسر الكثير من الأرواح البشريّة. لكنّ الجميع أصبحوا يدركون الأهميّة القصوى لهذا القطاع الاستراتيجي بما في ذلك الطبقة البرجوازيّة بعد أن أثبتت المصحّات الخاصّة عجزها الكامل عن تقديم يد المساعدة زمن الأوبئة. إنّ ترميم هذا القطاع ليس مزية سياسيّة على السّلطة أن تقدّمها للمواطنين، بل هو واجب وطنيّ أساسي، وضرورة حياتيّة مباشرة.

هل سيمثّل هذا فرصة كي تراجع الدّولة خياراتها فيما يتعلّق بالصّحة أم أنّ الأوان قد فات؟

لا تبدو الإجابة عن هذا السّؤال سهلة أبداً، لأنّنا لم نر بعد حجم التّداعيات الاقتصاديّة للجائحة سواء في الدّاخل، أو في الخارج، فالذي نراه من ركود اقتصادي واختلال في الموازنات الاقتصاديّة العالميّة ليس سوى البداية.

أجراء القطاع الخاص والمسألة الاجتماعية في فترة الحجر الصحي : مجالات الفعل الجماعي والتسييس

محمد سليم بن يوسف

"عندما تسير الأمور بطريقة جيدة، قد نسرد لأنفسنا خرافات، لكن واقع المؤسسات يظهر في فترة الأزمة. عندها دائماً ما نرى ما يحدث حقاً وما هو واقع علاقات السلطة."

فريدريك لوردون

ملخص :

تحاول هذه الورقة أن تحلل واقع النزاعات الشغلية لأجراء القطاع الخاص في فترة الحجر الصحي. ففي سياق تصارع فيه الفئات الاجتماعية على تقاسم كلفة اللإنتاج الذي فرضته مقتضيات مقاومة الجائحة الكورونية، تترتب آثار غير مسبوقه على ظروف حياة من لا يملكون سوى قوة عملهم لتوفير قوت يومهم. يسعى هذا النص إلى تقصي هذه الآثار، لكنه لا يتغافل عن استراتيجيات المقاومة وطرق الفعل الجماعي التي تعرف إعادة تشكل على ضوء المعوقات الظرفية التي توحى، للوهلة الأولى، بانعدام شروط التنظيم لدى الأجراء واستحالة العمل المطلي والاحتجاجي. يتطرق التحليل كذلك إلى مسارات تسييس المسألة الاجتماعية في فترة الحجر، وهي تخضع إلى "تقسيم للعمل السياسي" بين فاعلين مختلفين منخرطين في المسألة الاجتماعية، يتدخلون لا فقط في "عوممة" القضايا الشغلية، بل بتسييسها وإدماجها في خطاب سياسي حول النموذج الاقتصادي ككل. نهدف من خلال هذه الورقة إلى رسم مناطق تسييس المسألة الاجتماعية فترة الحجر، والتي نتناولها حسب منهج تفاعلي.

Abstract

In this paper, we aim to analyze the reality of the private sector's labour conflicts in the lockdown period. In a context where social categories are in struggle to share the non-production cost imposed by the requisites of containing the pandemic, unprecedented effects reach the life conditions of those who have nothing but their workforce to guarantee their livelihood. This text aims to explore these effects, but doesn't ignore the resistance strategies and modes of collective action that are being reconfigured on the lights of the circumstantial constraints that leads to suppose, *a priori*, an inexistence of organization conditions and thus an impossibility of the revendicative and protest action.

The analyze seizes also the social question's processes of politicization in times of lockdown, which are subject to a "division of the political work" between different engaged actors that intervene, not only in the "publicization" of labour conflicts, but also in their politicization by integrating them in a political debate on the whole economic model. Thus, this paper aims to draw the social question's zones of politicization during the lockdown period, and that we seize thanks to an interactionist method.

رسمياً، ظهر الوباء في تونس يوم 2 مارس/آذار، وسرعان ما اتخذت عدة تدابير للحد من انتشاره. في 20 مارس/آذار، أعلن رئيس الجمهورية قيس سعيد حجراً صحياً شاملاً وحظراً للتنقل بين المدن. ويفترض هكذا إجراء قدرة المواطنين -المتفاوتة- على تحمله، وهو أمر لا يتناسب مع واقع أولئك الذين يحاولون العيش -أو البقاء على قيد الحياة- من خلال عملهم. فالعمل عن بعد ليس متاحاً إلا في قطاعات محدودة، ولا يمكن تعميمه في بلد يعيش جل سكانه حالة عدم استقرار اقتصادي.

في خطابه يوم 21 مارس، أعلن رئيس الحكومة إلياس الفخفاخ إجراءات اجتماعية لها ثلاثة أهداف: الأول هو ألا يبقى أي تونسي في حالة احتياج في هذه الظروف الاستثنائية، والثاني هو أن لا تشهد هذه الفترة فقدان مواطن شغل، والثالث ألا تغلق أي مؤسسة اقتصادية والاستعداد لإنعاشها بعد أن تمر هذه الأزمة. من جهة أخرى، أعلن الفخفاخ عن إيقاف الإنتاج في القطاعات "غير الأساسية" للإقتصاد لإيقاف توغل الجائحة، وأرقت الحكومة ذلك في الأيام الموالية بقائمة حصرية للأنشطة الاقتصادية التي لا يشملها إيقاف الإنتاج. وإذا كانت هذه الإجراءات محل انتقادات منذ الإعلان عنها من حيث قدرتها على حماية الفئات الاجتماعية الهشة، خاصة تلك التي تعيش من أنشطة تصنف في الإقتصاد "غير المهيكل"، حفزت هذه الإجراءات بصفة أشمل إعادة طرح مسألة الحماية الاجتماعية في مجتمع الأجراء كذلك.

ويمكن أن نستشف هذه الراهنية المستجدة للمسألة الاجتماعية في القطاع الخاص من خلال ثلاثة قرائن نعتبرها ذات وجاهة. أولاً، يشير الترابط الوثيق في الخطاب الرسمي والسياسات العمومية منذ بزوغ الجائحة، بين المشكل الصحي من جهة والمسألة الاجتماعية من جهة أخرى، إلى مركزية الثانية في ظرف نزل على واقع اجتماعي تطغى عليه التفاوتات الهيكلية. ولعل محاولة استباق آثار الجائحة الاجتماعية على الفئات العمال والأجراء من قبل السلطات العمومية كان الحجر الأولي في إعادة البناء الإقتصادي والسياسي للمسألة الاجتماعية. ثانياً، يؤشر تضاعف النزاعات التشغيلية في فترة الحجر الصحي كنتيجة مباشرة لتهافت رؤوس الأموال على طرد الأجراء تارةً وتقويض حقوقهم. تارةً أخرى على إكتساب رهان الحفاظ على مواطن الشغل و/أو على الظروف المعيشية الروتينية أهميةً مضاعفة خلال فترة الحجر الصحي. فلحظة الجائحة شكلت لكل من يعيش من قوة عمله بصفة عامة، ولإجراء القطاع الخاص موضوع هذه الورقة بالذات، سياقاً إشتدت فيه وطأة الهشاشة الاجتماعية وانكشف فيه وهم الحماية الاجتماعية التي يجسدها عقد الشغل. ثالثاً، أنتج الحجر الصحي العام أثراً هاماً على ظروف الفعل الجماعي المطلي والإحتجاجي في أماكن العمل، في سياق صار من المستبعد فيه اللجوء إلى "ريبرتوار" الفعل الكلاسيكي²⁶⁵. و إذ أنه من الوجاهة

265 يحيل هذا المفهوم لدى المؤرخ وعالم الاجتماع شارلز تيلي إلى أشكال الفعل الجماعي التي تشكلت على مدى مسار تاريخي طويل في أوروبا. أنظر على سبيل المثال:

صياغة فرضية إضعاف قدرة الفعل لدى مجموعات الأجراء ونقاباتها وإهتزاز قدرتها التعبوية وتفريد ما كان قائماً من ديناميات التضامن الجماعي بينها، فإن هذا يطرح كذلك مسألة تأقلم هذه المجموعات وممثلها ومن يحمل لواءها مع هذا الظرف الصعب، ومدى قدرتها على الصمود. وهو ما يحيل كذلك إلى تحول مجالات إعلان وتسييس المسألة التشغيلية وانخراط العديد من الفاعلين فيها.

تندرج هذه الورقة في إطار المجهود الفكري والبحثي الجماعي لكراس المنتدى هذا، من أجل فهم آثار سياق الجائحة على العالم الإجتماعي. ولا يخضع هذا النص في أسلوب صياغته إلى الصرامة الأكاديمية الصرفة، بل يزوج بين مقتضيات الأدنى المنهجي من جهة و متطلبات الإنحياز المواطني والمساهمة في النقاش العام حول المسألة الإجتماعية من جهة أخرى²⁶⁶. ستحاول هذه الورقة أن تراوح بين بعدين مهمين لفهم النزاعات التي تشق عوالم الشغل في القطاع الخاص زمن الكورونا. فمن جهة أولى، لا بد من قياس الآثار التي يتكبدها الأجراء خلال هذه الفترة التي اشتدت فيها هشاشة العمل - لا فقط من حيث ظروف العيش، لكن كذلك من حيث قوة الفعل والمطالبة والاحتجاج -، وذلك من زاوية الاقتصاد السياسي للشغل. وهذا يعني تلك الممارسات التي ضلع فيها العديد من أرباب العمل كالطرد ومحاولات الطرد، الإجبار على الذهاب لمكان العمل خلال فترة الحجر الصحي، تقويض الأجور والحقوق التشغيلية من قبل إدارات الشركات، إلخ. من جهة ثانية، لم تكن العوائق الظرفية للفعل الجماعي مرادفاً لانعدام أشكال المقاومة والصمود أمام منطقيات الاستغلال والهيمنة في أماكن الشغل، وهو ما يحيل إلى تناول مسألة الأشكال المستحدثة للفعل المطلبي والاحتجاجي خلال هذه الفترة.

مدخل منهجي :

يندرج موضوع هذه الورقة في إطار بحث دكتوراه حول تحولات الهيمنة والفعل الجماعي في أماكن العمل في تونس، مستأنساً بعمل ميداني اثنوغرافي، مراوحاً بين استجابات بيوغرافية وملاحظات بالمشاركة، يتواصل منذ ما يناهز السنتين. ويحاول هذا العمل البحثي بناء مقارنة بين سياقات تشغيلية مختلفة، مستأنساً ببعض التجارب العمالية في مصانع بجهة منوبة من جهة²⁶⁷،

Charles Tilly, La France conteste, de 1600 à nos jours, Fayard, 1986.

266 أمين الحسيني، الباحثون الفاعلون كأفق تفكير: من مدارج الكليات إلى الفضاء العام، كراسات المنتدى، الكراس عدد 2، سوسولوجيا الفعل الجماعي في تونس منذ 14 جانفي 2014، جويلية 2019.

267 أنظر: محمد سليم بن يوسف، العمال التونسيون والمسألة الإجتماعية في تونس بعد 2011: احتجاجات "شوكوتوم" و "تكنوفير" مثلاً، الكراس عدد 2 للمنتدى "سوسولوجيا الفعل الجماعي في تونس منذ 14 جانفي 2011. تعدد طرق الإنخراط وتنوع أشكال الإحتجاج" (إشراف سفيان جاء بالله)، جويلية 2019، تونس.

وبالتجربة النقابية في مراكز النداء من جهة أخرى. وإذ تعتمد هذه الورقة على الدراية المسبقة بالميادين الآتي ذكرها، فإن دائرة التحليل التي تتناولها تتجاوز الحيز الدقيق لهذه الميادين.

وتجدر الإشارة إلى أن الحجر الصحي يشكل عائقاً أمام البحث الميداني الروتيني، إذ يجعل من المقابلة المباشرة مع المستجوبين والزيارة المادية لأماكن البحث الامبيرقي أمراً مستحيلًا. وإذ يحفز هذا الإكراه تفكيراً إنعكاسياً قد لا يتسع المجال للخوض فيه في هذا النص، فإن مسألة المقاربة العملية لميدان البحث في فترة الحجر تبقى منوطاً بعلاقة الباحث. (ة) بمستجوبيه. (ا) وقدرته. (ا) على إيجاد موارد لمواصلة هذه العلاقة.

بالنسبة لموضوع الحال، سيتم اعتماد مادة تم جمعها عن طريق المواكبة اليومية على وسائل التواصل الاجتماعي لبيانات الشركات والنقابات المعنية بالدرس، لصفحات إجراء مراكز النداء على وسائل التواصل الاجتماعي ولمجموعات الفاعلين المنخرطين في نشر المشاكل التشغيلية للعموم. سيتم اعتماد المنشورات والتعليق التي زخرت بها هذه الصفحات، والتي شكلت منصةً للتفاعل والتواصل، وأحياناً للتنافر والصراع، بين الأجراء والنقائبيين ومن حمل لواء قضايا التشغيلية. أخيراً، تجدر الإشارة إلى أن البحث تواصل بعد نهاية الحجر الصحي، إذ تم الاتصال ببعض النقائبيين ومقابلتهم لمحاولة فهم تفاصيل وكواليس النزاعات والمفاوضات التي دارت بينهم وبين إدارة مركز النداء الكبير الذي يشتغلون فيه والعوائق التي تعرضت عملهم النقابي وإثرها على قدرتهم التعبوية والفعل الجماعي.

الكورونا في القطاع الخاص: الحجر كعامل مكثف لمنطق الهيمنة والاستغلال داخل أماكن العمل

لعل أكثر الرهانات راهنيةً في القطاع الخاص فترة الجائحة تطبيق الحجر الصحي مع التمتع بكل الحقوق التي يكفلها قانون الشغل. وباعتبار أهمية هذا الرهان بالنسبة لصحة الأجراء وإعادة إنتاجهم المادي والبيولوجي²⁶⁸، زج بهؤلاء في منطق استغلالي لم يوفر الروتين الإنتاجي شروط إمكان تجربته سابقاً. فكان الأعراف يحاولون، منذ بداية فترة الحجر، استباق اهتزاز التوازنات المالية للشركات ومعالجته بطرد الأجراء المتعاقدين في فترة أولى، ثم الحفاظ على نسق إنتاجي عادي بخرق الحجر الصحي ودعوة الأجراء إلى أماكن العمل في مرحلة ثانية. سنتعرض في هذا الجزء من الورقة إلى آثار استراتيجيات الأعراف لا فقط على الظروف المادية للأجراء، لكن كذلك على وحدتهم وتأزهم.

268 نحيل هنا إلى المفهوم الماركسي لإعادة إنتاج قوة العمل -reproduction de la force de travail- (أنظر كتاب رأس المال لكارل ماركس) في إطار النظام الرأسمالي الذي يخضع له العمال اليوم. لكن إعادة الإنتاج المادي والبيولوجي ليست وجوباً خاضعة لتقسيم العمل الرأسمالي في المطلق، بل هي ضرورة بشرية مادية قد تكون محددةً بأنماط إنتاج وأنظمة إقتصادية وإجتماعية مختلفة.

مؤطر 1: نبذة عن تاريخ العمل النقابي في مراكز النداء في تونس

تعتبر شركة "ت.ب" أكبر مراكز النداء الفاعلة في تونس من حيث كتلة الأجراء وعدد مواقع العمل، إذ تعد ما يناهز الثمانية آلاف (8000) أجير و لها 7 مواقع إنتاجية موزعة على ولايات تونس، بن عروس وسوسة. يندرج نشاط هذه الشركة، كغيرها من مراكز النداء، في إطار قانون 1972 إذ تعتبر هذه الشركات مصدرةً كلياً، وهو ما يجعل نشاطها الإقتصادي موجهاً لأسواق خارجية، وخاصةً للسوق الفرنسية. تنشط "ت.ب" في تونس منذ سنة 2000، وتقدم خدمات لحرفائها من شركات إتصالات وغيرها إذ تقوم بمعالجة مكالمات وطلبات حرفاء هذه الشركات كما تتولى كذلك خدمات ما بعد البيع. تشغل هذه الشركة يداً عاملةً مؤهلة، متكلمة بالفرنسية وزاولت تعليماً عالياً. وقد كانت هذه الشركة في فترة اتبع فيها نظام بن علي سياسة تضخيم التعليم العالي حلاً لتشغيل الكثير من الخريجين الذين أغلق أمامهم سوق الشغل، وكان حلاً "عابراً قد استقر"، كما عبر عنه الكثير من المستجوبين.

واستفادت هذه الشركة، كغيرها من الشركات الأجنبية، بالحوافز الجبائية والكلفة الزهيدة لليد العاملة في تونس قياساً بالبلد الأم لهذه الشركة العبر-قطرية، فرنسا. وهو ما يجعل من "ت.ب" تظهراً من تظاهرات الترتيب النيوليبرالي الذي دخلت فيه الرأسمالية انطلاقاً من ثمانينات القرن المنصرم، والمكرس لتقسيم دولي جديد للعمل من أهم سماته نقل جل مراحل الإنتاج إلى دول الجنوب للضغط على كلفة الإنتاج وتحفيز التراكم الرأسمالي. كانت ظروف العمل في مركز النداء هذا قاسيةً في سنواتها الأولى، إذ لم توفر الإدارة شروط العمل اللائق لوهلة أولى وكurst سياسة ضغط على الأجور. إلا أن خلق النقابة سنة 2007 - وهو لم يكن بالأمر الهين - كان بمثابة منعرج أول في العلاقات الشغلية داخل هذه الشركة، وهو ما مهد الطريق أمام مكاسب اجتماعية عديدة حققها الأجراء ونقابيوهم، كإقرار زيادات هامة في الأجور والحصول على التأمين على المرض وإحداث صندوق اجتماعي للأجراء، معد لإسداء قروض دون فائدة ولتمويل بعض الأنشطة الترفيهية. أما المنعرج الثاني في مسار العلاقات الشغلية داخل هذه الشركة، فقد حصل في 2013 تزامناً مع المنتدى الاجتماعي العالمي، الذي كان انعقاده في تونس بمثابة انفراج لبنية الفرص السياسية²⁶⁹ (Structure des opportunités politiques) للنقائبيين. فبعد أن غيرت الشركة سياستها التدييرية واتخذت منحى عدائياً تجاه العمل النقابي واعتمدت سياسةً استبداديةً في إدارتها للعمل، اضطرت للتراجع أمام قوة الفعل لمجموعة النقائبيين الذين استفادوا من حضور

269 برز هذا المفهوم في سوسيولوجيا الفعل الجماعي في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد أسس له نظرياً عالم الاجتماع الأمريكي سيدني تارو. أنظر:

Sydney Tarrow, Power in Movement: Collective Action, Social Movements and Politics, 1994.

ومساندة أقرانهم من نقابات دولية تواجدوا لحضور فعاليات المنتدى الاجتماعي، وهو ما ساهم في تدويل قضية إجراء "ت.ب" وشكل وسيلة ضغط ناجعة. منذ سنة 2013، صارت المفاوضات بين الشركة ونقاباتها دورية و صار التواصل بينها روتينياً.

وقد أشعت التجربة النقابية لشركة "ت.ب" على البعض من مراكز النداء التي عرفت تركيزاً لنقابات أساسية بعد 2011، وعددها الجملي عشرة. لكن رغم ذلك تبقى التغطية النقابية في هذا القطاع ضعيفةً إجمالاً (ما يناهز 6000 منخرط. (ة) من جملة أكثر من 30000 أجير. (ة)، وهو ما يجعل منه قطاعاً هشاً أمام سلطة الشركات مع بعض الاستثناءات. كما تجدر الإشارة إلى أن جزءاً هاماً من هذا القطاع يمكن تصنيفه تحت خانة الاقتصاد الشكلي، إذ تكثر فيه الشركات الصغرى ذات الطاقة التشغيلية الضعيفة التي لا تدفع الضرائب. ورغم أن له جامعة مهنية تمثله في الاتحاد العام التونسي للشغل منذ 2018، يفتقر هذا القطاع إلى اتفاق قطاعي ينظم العلاقات التشغيلية فيه ويحمي الأجراء، نظراً إلى هيمنة رأس المال الأجنبي فيه وأشكال التمثيلية في اتحاد الأعراف الذي يفرزه هذا الواقع.

عدم قابلية العمل عن بعد للتعميم

قبل الإعلان عن الحجر الصحي الشامل، بدأت بعض الشركات في إقرار بعد القواعد الجديدة للنظافة في أماكن العمل. فقد تم العمل بإجراءات التباعد الجسدي، وضع آلات قياس الحرارة بالليزر في المداخل، استعمال السائل المعقم، وهي إجراءات تم اتباعها في الكثير من الأحيان تحت طلب المكاتب النقابية الموجودة في بعض مراكز النداء، التي نذكر منها شركة "ت.ب" وغيرها من المراكز الكبرى التي فيها نقابات. في شركة "ت.ب" أين يوجد تقليد للتدبير المشترك بين إدارة الشركة والنقابة منذ بضع سنوات، تم تطبيق هذه الإجراءات في وقت سريع. أما بعد الإعلان عن الحجر الصحي الشامل، فقد تغيرت مجالات وشروط التفاوض نحو مسألة تعليق العمل الحضوري. إلا أن آلية العمل عن بعد التي تم إقرارها في بعض الشركات التي تنشط في ميدان الإعلامية والاتصالات وبعض مراكز النداء لم تعمم. فالعمل عن بعد آلية تفترض وجود بنية تحتية جيدة للاتصالات، وهو ليس مضموناً في كل مدن البلاد. من جهة أخرى، تستوجب هذه الآلية بعض المعدات على محمل الشركات، إذ تبقى الأخيرة مطالبة بتوفير حاسوب، سماعات وإتصال جيد بشبكة انترنت. وهو ما يفترض مجهوداً يطرح تحدياً تقنياً كبيراً واستثماراً مادياً لا تقبله هذه الشركات بديهياً.

أما في شركة "ت.ب" خصيصاً، فقد تم اعتماد آلية العمل عن بعد لما يناهز الـ 4000 أجير مع عدم قدرة البقية على مواصلة العمل بشكل عادي. لكن لم يكن ذلك إلا بعد أن حاولت هذه الشركة، كغيرها من شركات القطاع الخاص، خرق الحجر الصحي الذي أقرته الحكومة بإجبار الأجراء على الذهاب إلى أماكن العمل مع تشديد إجراءات التباعد الجسدي والنظافة (توفير سائل تعقيم اليدين، آلات قياس الحرارة، إلخ). وهو ما اعتبره البعض خرقاً لقرار سيادي للدولة التونسية، باعتبار أن هذه الشركات (مراكز النداء) لا تنتهي إلى قطاع أساسي أو حيوي²⁷⁰، بل أكثر من ذلك: هي لا تلبي حاجيات السوق التونسية أصلاً. لكن هذا التقسيم ضرب الوحدة في ظروف العمل وفي التمتع في الحق في صف الأجراء، وهو ما برر لدى الشركة محاولة أفراد المجموعة الأولى بالتمتع بالأجر كاملاً، في حين بقيت الثانية التي أكرهت على أن لا تعمل دون أجر كامل، إذ قررت الشركة في مرحلة أولى أن تدفع لها 400 دينار خام. وإذا اضطرت الشركة إلى العدول سريعاً عن هذا القرار بفعل ضغط النقابيين الذي سنتحدث عنه فيما بعد، فإنه يمكن اعتبار توخي منحى تقسيم العمال إلى مجموعتين، واحدة ذات امتيازات والأخرى مسلوقة الحقوق، من الاستراتيجيات الكلاسيكية التي يعتمدها الأعراف لإخضاع الأجراء وزيادة هامش الربح. وبما أن الحالة الصحية في العالم تفرض إيقافاً للإنتاج في القطاعات اللازمة في عملية إعادة الإنتاج المادي والبيولوجي البشري (ومنها مراكز النداء)، فإن الرهان الظرفي - المشقوق بنفس التناقضات الإجتماعية البنيوية - يبقى تقسيم كلفة الإنتاج. فتوقف الآلة الإنتاجية عن الاشتغال يوقف الدورة الاقتصادية داخل الشركات، وهو ما يتناقض مع مقتضيات التواصل البيولوجي لأجرائها في إطار التقسيم الرأسمالي للعمل²⁷¹.

إلزام الأجراء بالحضور في أماكن العمل: استراتيجيات التدجين والهيمنة الاجتماعية

انطلاقاً من رغبتها في الحفاظ على مستوى الإنتاجية المعتاد، بادرت بعض الشركات في مرحلة أولى إلى إجبار أجراءها على مواصلة العمل في مقراتها. وقد التجأت هذه الشركات إلى عدة ممارسات، منها تشجيع الأجراء على الإخبار على بعضهم، التهديد بعدم خلاص الأجور والطرده، خارقةً بذلك القرارات التي اتخذتها الحكومة، دونما ردة فعل من هذه الأخيرة. ففي العديد من مراكز النداء، واجه آلاف الأجراء تسلسل بعض أعوان إدارات شركاتهم إلى مجموعاتهم وصفحاتهم على الفاييسبوك، وهم يقترحون مبالغ مالية مقابل أن يوفرُوا معلومات حول زملائهم "المناوين". هذا القطاع الذي يندرج تحت نظام "الأوفشور" هو واحد من عوارض التبعية للخارج التي هي من أهم سمات الاقتصاد

270 أنظر هذا المقطع من حصة إذاعية في راديو "إي.أف.أم" في مارس 2020 :

[/https://www.facebook.com/UGTT.TP/videos/24438619006982](https://www.facebook.com/UGTT.TP/videos/24438619006982)

271 يربط فريديك لوردون بين أنظمة المشاعر وترتيبات النظام الرأسمالي، ويعرض كيف تجند الرأسمالية قوة العمال بالاعتماد على مشاعر الخوف من الموت البيولوجي في حقيقته الأولى حتى أواخر القرن التاسع عشر، فالشعور بالرغبة في الولوج المجتمع الإستهلاك خلال الحقبة الفورية، ثم شعور "حب المؤسسة" والعمل في الحقبة النيوليبرالية التي بدأت منذ أواخر السبعينات وتمتد إلى يومنا هذا. للبحث أكثر في العلاقة بين المشاعر (والرأسمالية في مختلف ترتيباتها، أنظر :

Frédéric Lordon, Capitalisme, désir et servitude. Marx et Spinoza, La Fabrique, Paris, 2010.

التونسي. فهذه الشركات التي تعالج خدمات ما بعد البيع والمساعدة التقنية موجهة للسوق الفرنسية بالأساس لا تستجيب لحاجيات اقتصاد البلاد، في حين أنها تواصل النشاط. كما عمدت العديد من شركات القطاع الخاص، في مراكز النداء وغيرها، إلى ممارسات تدجين دلت على انخرام الحماية الاجتماعية للأجراء وموازن القوى بينهم وبين رأس المال. ففي القطاع الصناعي، قامت الشركات الفرعية وشركات المناولة الصناعية بهرسلة عمالها. تبعاً لذلك، وجد الآلاف من العمال أنفسهم في الأيام الأولى من الحجر الصحي تحت التهديد، المجسد أحياناً، بالطرد الجماعي. وتجدد الإشارة إلى أن هذه الاستراتيجيات السلطوية لرؤوس الأموال ليست وليدة الظرف، بل هي متجذرة في ممارسات تهيكل علاقات الشغل في القطاع الخاص التونسي. وإذا كان النظام الاجتماعي للمؤسسات التشغيلية في القطاع الصناعي مثلاً عند ولادته في أوائل السبعينات متسماً بالأبوية التي تركز هيمنة رب العمل - الأب في الشركة وولاء العامل - الإبن له مقابل حماية إجتماعية وتوفير ظروف معاشية دنيا، فإن دخول رأس المال الأجنبي منذ أواخر الثمانينات وتبني السياسات الاقتصادية للدولة للتقسيم الدولي الجديد للعمل شكل منعرجاً في هذا العقد الاجتماعي الحمائي بين العمل ورأس المال. بالتالي، صار دخول التشغيلية في عملية الإنتاج يتم تحت نظام العقود لمدة محدودة، وهو ما يجعل هذه اليد العاملة في حالة من الهشاشة الدائمة ويضعها تحت سلطان إرادة الأعراف. وعليه، تتجذر ممارسات التهديد بالطرد والطرد الجماعي والعداء للعمل النقابي في علاقات إنتاج أسست بنيوياً لخدمة سلطان المستثمر، ذي السيادة المطلقة في أماكن العمل، دونما أي تقييد لهذه السيادة بحماية اجتماعية دنيا.

الفعل الجماعي للأجراء في ظل انعدام شروطه الروتينية: التنظم الافتراضي

لا تقتصر فترة الحجر الصحي على التحمل السلبي من قبل الأجراء للآثار التفقيرية للسياق الكوروني وما انجر عنه من سياسات تعسفية من قبل أرباب العمل. فكما قلنا أعلاه، يشكل تقاسم كلفة الإنتاج رهاناً يتصارع من أجله الأجراء وممثلوهم من النقابيين من جهة وإدارات الشركات من جهة أخرى. فمنهجياً، ستتجنب هذه الورقة كلا النزعتين "الميزيرابيلية" (misérabilisme) و "الشعبوية" (populisme) التي تحدث عنها جون كلود باسيرون وكلود غينيون في كتابهما "العالم والشعبي. الميزيرابيلية والشعبوية في علم الاجتماع والأدب"²⁷². أما النزعة الأولى، فهي تلك المقاربة التي تجعل من المجموعات المهيمنة عليها مجرد وعاء سلبي لسياسات يكتفون بتحملها سلبياً، دون أي مقاومة أو ردة فعل. أما النزعة الثانية، فهي تلك التي توغل في تمجيد الذكاء والفعل "الشعبي"، إلى درجة المبالغة في إعطائها أبعاداً سياسية لا تتحملها. سنحاول إذاً أن نتوخى في هذه الورقة منهجاً

272 أنظر :

Passeron (J.C) et Guignon (C.), Le savant et le populaire. Misérabilisme et populisme en sociologie et en littérature, Paris, Le Seuil, 1989.

تفاعلياً في تناولنا لعلاقات الشغل في القطاع الخاص فترة الحجر الصحي. فبعد أن قدمنا لمحةً عن استراتيجيات التدجين والسلطة التي اعتمدها أرباب العمل، سنتطرق الآن إلى استراتيجيات التنظيم والمقاومة لمجموعات الأجراء، في ظرف يوحى بانعدام شروط الفعل الجماعي الكلاسيكي. فرغم أن العزلة والتفريد الذي أنتجه الحجر الصحي قد يوحى بانعدام القدرة على الفعل لدى النقابيين والأجراء في القطاع الخاص، فإن هؤلاء لم يمكثوا مكتوفي الأيدي.

الصراع من أجل فرض الحجر

منذ الأيام الأولى للحجر الصحي، لم تبطئ مقاومة غطرسة أرباب الشركات بإرغام العمال على الحضور في أماكن العمل وخرق الحجر الصحي على الظهور. في قطاع مراكز النداء، تم إنشاء العديد من الصفحات في وسائل التواصل الاجتماعي كي يتواصل الأجراء فيما بينهم للحديث عن تجارب الهرسلة التي عاشها هؤلاء الـ"مستشارين عن بعد"، وخاصةً عن نزوع إدارات شركاتهم إلى إرغامهم على الحضور وابتزازهم بعدم الخلاص أو حتى بالطرد. وحيث كانت هذه المبادرات أحياناً دون تأطير نقابي، كانت في كثير من الأحيان محل مواكبة من الهياكل النقابية المعنية على المستوى القطاعي. فكانت الجامعة العامة لتكنولوجيا المعلومات والخدمات، ممثلةً في أمينها العام، قد بادرت بالتحرك في العديد من المناسبات خلال الفترة الممتدة من مارس إلى أواخر ماي. فعلى سبيل المثال، تدخلت الجامعة لإعادة ما يناهز المئة مطرود، تم تسريحهم من قبل أحد مراكز النداء بسبب فيروس كورونا وهم في مدة التجريب. باعتباره مندمجا في تحالف نقابي دولي يضم نقابات شركة "ت.ب"، شارك هذا الهيكل النقابي في صياغة بيان مع العديد من النقابات حول العالم، عنوانه "حياتنا أغلى من أرباحهم"²⁷³، حيث ندد الأطراف الممضون على هذا النص بظروف العمل السيئة في هذا القطاع. وبالتالي، رغم محدودية شروط إمكان الفعل الجماعي فترة الحجر الصحي، يبقى ريبرتوار التدويل (transnationalisation)²⁷⁴ ساري المفعول.

273 نشر في 8 أفريل 2020. أنظر : <http://www.europe-solidaire.org/spip.php?article52880>

274 نعني بهذا المفهوم إلتقاء مجموعة من الفاعلين والتحالفات والتفاعلات السياسية والاجتماعية بين كيانات تتجاوز الحدود بين الدول، وبشكل مستقل نسبياً عن السلط والحكومات. وقد عرف هذا الريبرتوار أوجه مع صعود حركات العولمة البديلة في اواخر تسعينات القرن الماضي. أنظر :

Siméant-Germanos (J.), Transnationalisation/internationalisation, in : Olivier Filieule et al., Dictionnaire des mouvements sociaux, Presses de Sciences Po, 2020, pp. 593 à 601.

مؤطر 2: "ريبرتوار" التدويل في العمل النقابي والفعل الجماعي في شركة "ت.ب" وقطاع مراكز النداء في تونس

تجدر الإشارة إلى أهمية هذا الريبرتوار في نضالات أجراء قطاع مراكز النداء في السنوات الأخيرة. فمنذ أن عرفت شركة "ت.ب" فترة من النزاع الشغلي حول تطبيق مبدأ دورية المفاوضات والذي اشتد سنة 2013 وتكثفت فيه الكثير من آليات العمل الجماعي (الإضراب، الاعتصام، إضراب الجوع) تحت قيادة الصف النقابي في هذه الشركة، نسجت نقابتها شبكة تضامنية مع العديد من نقابات هذه الشركة العبر قطرية حول العالم. وقد توفرت شروط إمكان ذلك بالتزامن مع فعاليات المنتدى الاجتماعي العالمي في تلك الفترة، والذي شهد حضور الآلاف من فاعلي العولمة البديلة من نقابيين ومناضلين سياسيين وغيرهم، وهو ما سهل تدويل قضية أجراء شركة "ت.ب". تدفق العديد من هؤلاء النشطاء إلى مقر الشركة بتونس العاصمة مساندةً للتحركات الاحتجاجية التي ينظمها الصف النقابي في الشركة، وساهم تدويل القضية في إخضاع الشركة إذ تراجعت عن سياستها المضادة للعمل النقابي، على الأرجح بسبب تأثير هذا النزاع الذي اشتد لا فقط على سمعتها الدولية، بل كذلك على قيمة أسهمها في السوق المالية. ولم يقف اللجوء إلى هذا الريبرتوار منذ ذلك الوقت. فحتى خارج أوقات اشتداد النزاع الشغل، أي في الأزمنة الروتينية للعلاقة الشغلية، يبقى ريبرتوار التدويل هاماً ومركزياً في العمل النقابي في هذه الشركة. إذ تنسق النقابات التونسية في "ت.ب" مع نظيراتها في كل أنحاء العالم بشكل دوري سنوي، وتتداول فيما بينها لبناء استراتيجيات التفاوض وتحديد مهام وأهداف العمل النقابي داخل الشركة على المستوى الدولي. وهو ما يجعل كاتب هذه السطور يرجح فرضية نجاعة هذا الريبرتوار حتى في السياق الحالي، خاصةً من زاوية إدراك هذه النجاعة من نقطة نظر إدارة "ت.ب".

الدفاع عن الحقوق الشغلية وقت الحجر

إضافةً إلى رهان فرض احترام الحجر الصحي من قبل أرباب العمل، طرحت بعد مرور الأسابيع الأولى من الجائحة مسألة تقاسم الكلفة المادية لهذا الحجر بصفة أكثر إلحاحاً. ففي حين يصوغ الأعراف استراتيجيات فعلهم وخطابهم لحماية أرباحهم تحت مسمى "التوازنات المالية للمؤسسة"، يسعى الأجراء إلى حماية ظروف إعادة إنتاجهم البيولوجي المحددة في سياق فيروس الكورونا. في شركة "ت.ب"، كانت المعركة الأساسية في فترة الحجر هي معركة ضمان مستوى الأجر الاعتيادي، وهي معركة خيضت بالتحديد في شهر أفريل لضمان خلاص أجور هذا الشهر. ففي أواخر شهر أفريل، أحيطت نقابات "ت.ب" علماً بنية الإدارة أن تدفع أجوراً زهيدةً (400 دينار خام) لشهر أفريل للأجراء الذين لم يتسن لهم العمل عن بعد. وإذ كانت هذه النية أحادية الجانب، فهي تعبر

بصفتها كذلك عن شرح في العلاقات التشغيلية المستقرة في هذه الشركة منذ سنة 2013 وعن انقطاع للتواصل الروتيني بين إدارة الشركة و نقاباتها. وبعد التفتن إلى هذا التوجه لدى الشركة، لم يتوان نقابيو الشركة عن رد الفعل بلهجة احتجاجية صدامية. وإذ راهنت الشركة على تقسيم صف الأجراء بخلق مجموعة من "أصحاب الامتيازات" (الذين تسنى لهم العمل عن بعد) ومجموعة من المهمشين (الذين لم يعملوا عن بعد) لتتحكم في هامش "خسائرها"، فقد راهن الصف النقابي في المقابل على تجاوز هذا التقسيم الموضوعي والتعويل على التجربة المشتركة لأجراء "ت.ب" من أجل الحد الأدنى للتضامن بين المجموعتين. وهذا التضامن تم إظهاره أمام إدارة الشركة كمورد (ressource) للفعل الجماعي، وكأحد شروط إمكان نجاح حركة احتجاجية في حالة وقوعها. فكانت بضع أيام من التهديد بالإضراب من المنازل، أي بالامتناع عن العمل عن بعد، عن طريق إطلاق شعار "سل الفيشة" كفيلة لتعدل الإدارة عن سلوكها الأحادي وتُجبر على التفاوض. وهو ما أفضى في النهاية إلى اتفاق حول دفع ضعف ما اقترحت الإدارة في قرارها الأحادي للذين لم يتسن لهم العمل عن بعد، مع الحفاظ على كافة الامتيازات الأخرى من قصاصات الأكل وغيرها، وهو اتفاق يسري إلى غاية جويلية. من جهة أخرى، كانت صفحات أجراء مراكز النداء، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، فضاءً للتواصل بينهم وللتوعية بحقوق التشغيل، خاصةً عندما يتم تقويضها من قبل الأعراف وإدارات المؤسسات. فقد مكنت الملاحظة على هذه الصفحات والمجموعات الفايسبوكية من تسجيل التجاء المئات من هؤلاء الأجراء إلى هذه المجموعات لطرح أسئلة عمّا يقوله القانون في حالات التعسف، أو عن مدى أحقية الأعراف في ممارسة أو أخرى. ولا يقتصر دور هذه المنصة الافتراضية على المجال الاجتماعي المحدد للأجراء أو، بصفة أعم، للعلاقات التشغيلية لشركاتهم. إذ نجد، كما سنبين في الجزء التالي، دوراً هاماً لفاعلين سياسيين ونقابيين وغير ذلك في الصعود بهذه القضايا التشغيلية إلى العام (Montée en généralité)²⁷⁵ يجعلها "قضايا رأي عام" غير منحصرة فقط في الوسط الاجتماعي المعني مباشرة بها. وسنعالج آثار دور هؤلاء الفاعلين من زاوية إنتاجها لمجالات (أو مناطق) تسييس غير مسبوقه. وسنمكننا هذه المعالجة بالتالي من ربط ممارسات وخطابات مقيدة بمجالات اجتماعية صغيرة (العلاقات التشغيلية داخل مؤسسات أو قطاعات معينة) بخطابات أنتجت في مجالات ومستويات أكثر عموماً (مسألة إعادة توزيع الثروة والتقسيم العادل لأعباء الأزمة الصحية بين الطبقات الاجتماعية، بل ومساءلة "نموذج التنمية").

275 تعتبر عملية "الصعود إلى العام" أحد أهم معايير مسارات التسييس (la politisation). لمزيد التعمق في مفهوم التسييس بإعتباره نقل

النزاعات والمشاكل إلى البعد العمومي، أنظر :

Hamidi (C.), Éléments pour une approche interactionniste de la politisation. Engagement associatif et rapport au politique dans des associations locales issues de l'immigration, Revue française de science politique, 2006/1 Vol.56, pp. 5 à 25.

مناطق عوممة²⁷⁶ وتسييس المسألة الاجتماعية: من القضايا الشغلية إلى المسألة التوزيعية

سننطلق من فرضية أن الفضاء العمومي عرف عملية إعادة تشكل في فترة الحجر الصحي، إذ صار مقتصرًا بدرجة تكاد تكون كلية على مواقع التواصل الاجتماعي. فإذا ما أخذنا الفضاء العمومي كمجال أو منصة لطرح قضايا الشأن العام ومناقشتها، يمكن أن نخلص إلى أن المجال الافتراضي في فترة الحجر الصحي صار مختزلاً لخصائص نشر القضايا وطرحها والتداول فيها، وهو أثرٌ تمت معابنته ومعالجته فيما سبق من هذه الورقة عندما تعرضنا لصفحات إجراء مراكز النداء ودورها في التوعية والتعبئة.

لكن إنتاج مناطق "العوممة" والتسييس في فترة الكورونا، وحتى خارج ذلك، ليس نتيجة مباشرة أو طبيعية لخصائص "جوهرية" وسائل التواصل الاجتماعي مثل فايسبوك، بل هي نتاج لتدخل فاعلين مختلفين ولتفاعلات معقدة بينهم. فنشهد بذلك عملية نزاع الطابع القطاعي للنضالات العمالية (désectorisation)²⁷⁷، أو بصفة أشمل للنزاعات الشغلية، في سبيل إعادة غرس هذه النزاعات في نقاش أكثر عمومية ومجالات تداول أرحب. وتكون هذه العملية مصاحبةً لعملية تسييس، لا فقط من حيث إعطاء هذه المسائل المتداولة طابعاً سياسياً، بل باعتبار خصائص الفاعلين الذين يعالجونها ويؤطرونها²⁷⁸ من جديد.

"افضح عرفك": عوممة العلاقة الشغلية اللامتكافئة



276 لم نجد لهذا المصطلح استعمال خارج هذا المقال، و هو محاولة لترجمة مصطلح "publicisation" بالفرنسية أو "publicization" بالإنكليزية. ونعني به جعل الشيء عمومياً، أي متداولاً في الفضاء العمومي، وهو ما يقتضي عمليات "صعود" من الخاص إلى العام، ومن المحلي إلى الشامل. خیرنا مصطلح "العوممة" المستحدث باعتبار أن استعمال مصطلح "التعميم" قد يثير لغطاً إذ أن مرادفه الفرنسي هو "généralisation".
277 نجد هذا المفهوم لدى ميشال دوبري عند تناوله لمسألة الأزمات السياسية باعتبارها إنفتاح القطاعات على بعضها وتعليق الإشتغال الروتيني للحقول الاجتماعية، مقابل تشوش الحدود بين حقول العالم الاجتماعي في سياقات إهتزاز مشروعية النظام السياسي أو الاجتماعي القائم. أنظر: Dobry (M.), Sociologie des crises politiques. La dynamique des mobilisations multisectorielles, Paris, Presses de la fondation des sciences politiques, 1987.

أما هنا فنحن نكتفي بالإشارة إلى ظاهرة الصعود نحو الأعم، التي هي شرط ضروري لعملية التسييس.

278 نحيل هنا إلى نظريات التحليل الإطار، مطبقاً على الحركات الاجتماعية. أنظر :

Contamin (J.G), Cadrages et luttes de sens, in : Éric Agricoliansky et al., Penser les mouvements sociaux, La découverte, 2010, pp.55 à 75.

في أوائل شهر أفريل، تم إنشاء صفحة على فايسبوك اسمها "افضح العرف"، Balance ton Covid patronal بالفرنسي²⁷⁹. تشغل هذه الصفحة على تشجيع الكلمة العمالية من أجل فضح الممارسات التعسفية التي يقوم بها أرباب العمل، منها خاصة ما يتعلق بخرق الحجر الصحي وإجبار إجراء القطاع الخاص على الحضور في أماكن العمل. أما القائمون على هذه الصفحة، فهم من ذوي التجارب السياسية في أحزاب اليسار الماركسي والنقائيين والباحثين الفاعلين. وقد أنتجت هذه الصفحة مضموناً نقدياً، لم يقتصر فقط على جمع شهادات غير مسماة ونشرها للعموم، بل تجاوزت ذلك لتبني نقداً سياسياً لعلاقات الهيمنة داخل مؤسسة العمل. فقد شمل الخطاب الذي تبنته هذه الصفحة نقداً لاذعاً لنمط التنمية في تونس، الذي يكرس الهيمنة المطلقة لرأس المال، الأجنبي والداخلي، على قوة العمل وضربه بعرض الحائط بقانون الشغل تحت السكوت المتواطئ لأجهزة الدولة.

وقد عول كل من القائمين على هذه الصفحة على شبكة علاقاته الخاصة كي يستقي منها أخبار التعسف داخل أماكن العمل، وهو ما يحيلنا إلى استعداداتهم السابقة للانخراط في القضايا الشغلية من جهة²⁸⁰، ومواردهم العلائقية من جهة أخرى²⁸¹، وكلاهما نتاج لمسارات اجتماعية سابقة وليست وليدة لحظة الكورونا.

"من عنده أكثر يدفع أكثر"

في نفس الظهور التلفزي ليوم 21 مارس 2020 الذي أعلن فيه رئيس الحكومة إلياس الفخفاخ عن جملة من الإجراءات الاقتصادية، شدد الأخير لهجته ضد الشركات الكبرى. وإذ طلب الفخفاخ من هذه الشركات أن تشارك أكثر في الجهد الوطني لمكافحة الكورونا، فهو هدها باتخاذ إجراءات "متشددة ومن جانب واحد"، موحياً بذلك بإمكانية إقرار ضريبة استثنائية.

إلا أن فكرة أن يتم إجبار الأكثر غنى على الدفع ظهرت منذ الأسبوعين الأولين لشهر مارس في الأوساط اليسارية، الحزبية والجمعياتية وغيرها، وهي نفس كوكبة الفاعلين الحساسين تجاه قضايا الشغيلة والمسألة الاجتماعية بصفة عامة. فقد كانت المساهمة الضعيفة لأصحاب الثروات الكبرى في صندوق كوفيد - 19 الذي أحدثته الحكومة خصيصاً لجمع المساهمات لمجاهة هذا الظرف، مركزية في تغذية هذا المطلب. ففي بلد أين تلتقط أقلية أوليغارشية من البرجوازيات

279 كان كاتب هذه السطور أحد القائمين على الصفحة.

280 أنظر :

Lahire (B.), L'homme pluriel : les ressorts de l'action, Armand Colin, 2005, Paris.

281 أنظر مثلاً :

Lazega (E.), Réseaux sociaux et structures relationnelles, PUF (Coll. Que sais-je?), 2007, Paris.

الرثة²⁸² الجزء الأكبر من القيمة المضافة المنتجة، تكتسب مسألة إعادة توزيع الثروة أهمية متجددة في لحظة تنذر فيها الأزمة الاقتصادية بيؤس اجتماعي قادم. بالتالي، عبر فاعلون مختلفون من المشارب اليسارية على الشبكات الاجتماعية على مطلب الضريبة الاستثنائية. وقد ظهرت في هذا السياق مبادرات مكتوبة عززت النقاش السياسي العمومي في فترة الحجر الصحي، منها الرسالة المفتوحة لرئيس الجمهورية التي نشرها حمة الهمامي. إذاً، يتبين لنا وجود ما يمكن تسميته بتقسيم للعمل السياسي²⁸³، لا فقط من حيث التخصص الوظيفي (فاعلون "يعومون" القضايا التشغيلية من جهة، وآخرون، ونفسهم أحياناً، يغذون نقاشاً سياسياً وبيبلورون مقترحات نقدية منشورة²⁸⁴)، بل كذلك من حيث مواقع القول وتكليفاته السياسية (من فاعلين حزبيين وآخرين جمعياتيين أو مستقلين).

إعادة تنظيم الاقتصاد:

لم يقتصر النقاش العمومي على معالجة الآثار الظرفية للأزمة الصحية على الاقتصاد التونسي وعلى الظروف المعاشية للفئات الهشة، بل تجاوز ذلك ليشمل نقداً أكثر جذرياً لما يسمى بـ "نموذج التنمية" أو علاقات الإنتاج في البلاد. فقد اقترحت بعض المبادرات، كتلك التي عبر عنها عزيز كرشان في موقع ليدرز، إجراءات اقتصاد حرب، كتأميم وسائل الإنتاج اللازمة لصنع أجهزة تنفس وكمامات. كما كانت فترة الحجر الصحي كذلك فترة تفكير في النموذج الاقتصادي التونسي، والذي أشار العديد من الفاعلين والمنظمات إلى مواطن الخور فيه. مع نقدها للنموذج الريعي الذي يتحكم في مجالات هامة من الإنتاج في البلاد، ظهرت العديد من المقترحات التي تدعو إلى إعادة تأسيس التنظيم الاقتصادي²⁸⁵. نذكر على سبيل المثال ما اقترحت مجموعة العمل من أجل السيادة الغذائية، والتي طرحت أن يتم أخذ القطاع اللامهيكل بعين الاعتبار كمجموعة من الأنشطة الاقتصادية المنتجة، أي التي تفرز قيمة مضافة هامة. ومن جملة المقترحات المقدمة، ذكرت

282 فيما يتعلق بالخصائص الاجتماعية للنخبة الاقتصادية التونسية الجديدة واستراتيجياتها وعلاقتها ببيروقراطية الدولة وتحليل سلوك منظمة الأعراف ورئيسها سمير ماجول خلال فترة الحجر الصحي، أنظر مقال فؤاد الغريالي الصادر في المفكرة القانونية بتاريخ 21 جوان 2020. الرابط:

<https://www.legal-agenda.com/article.php?id=6924&fbclid=IwAR1bk4raX8KrvZpjbDFfNP4CDxuRgoWxtFK5qDgmHrIQFxoJ5t4XxcMOs1w>.

283 للتعرف أكثر على مفهوم تقسيم العمل السياسي، أنظر:

Demazière (D.), Le Lidec (P.), Les mondes du travail politique, les élus et leurs entourages, Presses Universitaires de Rennes, Rennes, 2014.

284 سنتكفي بذكر نصين نشرنا في موقع نواة، أحدهما لوليد بسباس وهو ناشط وكاتب يساري، والآخر لليلى الرياحي وهي ناشطة وعضوة في مجموعة العمل من أجل السيادة الغذائية، أنظر:

Walid Besbes, La fable du Majoul : les parasites au temps du coronavirus, Nawaat [en ligne], publié le 03/06/2020; Leyla Riahi, Covid-19 : Revoir le modèle économique tunisien, Nawaat [en ligne], publié le 07/04/2020.

285 لا بد هنا من التحديد المنهجي لما نعنيه بـ "التنظيم الاقتصادي"، فنحن نذهب هنا إلى ما ذهب إليه الفيلسوف وعالم الاقتصاد الفرنسي فرديريك لوردون، وهو تعريف الاقتصاد كمجموعة العلاقات الاجتماعية التي تتم بمقتضاها إعادة الإنتاج المادي الجماعي. أنظر:

Lordon (F.), Vivre sans? Institutions, police, travail, argent..., La Fabrique, Paris, 2019.

المجموعة على قلم عضوتها ليلي الرياحي مسألة احتساب الأنشطة الاقتصادية اللامهيكلية في نظام التغطية الاجتماعية، إلغاء الديون الفلاحية، تقليص أسعار الحبوب، تشجيع السوق المحلية والفلاحة المعاشية، وهي مقترحات صيغة كي تكون "أسساً لاقتصاد سيادي"²⁸⁶.

الخلاصة :

يمكن اعتبار فترة الحجر الصحي ظرفاً مواتياً لمراقبة الواقع الاجتماعي بصفة دقيقة. فالسياق الكوروني محرازٌ يمكن من قياس احتداد الصراع الاجتماعي واشتداد التنافس بين التصورات المتباينة اجتماعياً وسياسياً حول المسألة الاجتماعية بشكل عام. وقد مثلت هذه الورقة، التي تندرج في مسار بحث سابق حول الهيمنة في عوالم الشغل والاحتجاجات العمالية في تونس، نبذة عما تمكنه هذه المراقبة من تفكير انعكاسي حول منهج البحث المتبع واستتبعته من حيث العلاقة بالميدان وبالمبحوثين. ولئن لم تعط هذه الورقة الحيز الكافي لهذا الجانب الانعكاسي للبحث في العلوم الاجتماعية باعتبار شكل هذا النص الذي يكتسي بعداً تدخلياً في نقاش عمومي أكثر من كونه بعداً أكاديمياً بحتاً، أي يركز على المعرفة العلمية لبلورة موقف منحاز في المسألة الاجتماعية.

من حيث الموضوع، حاولت هذه الورقة تقصي آثار الجائحة من حيث ظروف إعادة الإنتاج المادي على أجزاء القطاع الخاص، مركزةً على أهمية المنطقيات البنوية، من لا تكافؤ وهيمنة اجتماعية، في فهم الاستتبعات الظرفية لفترة الحجر الصحي. من جهة أخرى، كان هذا النص كذلك فرصة للبحث في أساليب التأقلم وإعادة التفاوض على شروط الفعل الجماعي لدى هؤلاء الأجراء ونقاباتهم، خاصةً في سياق يوجي لوهلة أولى بانعدام سبل التنظم الجماعي، وهو ما يطرح أشكال الفعل الجماعي المعرقل. ويتضح من خلال الملاحظة اليومية على وسائل التواصل الاجتماعي لفاعلين نقابيين وغيرهم من جهة، مع أخذ مساراتهم الاجتماعية وغرس ممارساتهم وخطاباتهم في المدى الطويل من جهة أخرى، أن هذا الفعل الجماعي يبني في مجال جديد للفعل والخطاب، مستحدث في فترةٍ راوح فيها هؤلاء الفاعلون بين تعليق العمل بربرتوار فعل معين (الإضرابات، الاعتصامات، إضرابات الجوع، إلخ) والحفاظ على ربيتوات أخرى (ربيرتوار التدويل مثلاً). فأخذ المسألة الاجتماعية من هذين الجانبين - أي جانب الآثار المتكبدة من جهة وجانب القدرة على الفعل من جهة أخرى - هو تجاوز منهجي لنزعتي تقصير الفاعلين الاجتماعيين (جعلهم قاصرين اجتماعياً) أو تضخيم دورهم.

286 Leyla Riahi, ibid.

كما استكشفنا مناطق عوممة وتسييس المسألة الاجتماعية خلال فترة الحجر الصحي، وذلك بتحليل مختلف الأدوار التي تظهر من خلال التفاعلات التي تنتج عن شخوص اجتماعية وسياسية متموقعة في حقول مختلفة. فيتضح من خلال هذا التحليل وجود استمرارية (continuum) بين أدوار النضال النقابي الشغلي الصرغ من جهة، وبين مختلف الفاعلين والنشطاء الذين يتعهدون بعملية الصعود نحو العام والتسييس والنقل إلى النقاش العمومي من جهة أخرى. فقد كانت فترة الحجر الصحي، لا فقط من حيث آثار الحجر الصحي، بل كذلك من حيث إمكانات فعل الأجراء والنقابيين والمناضلين السياسيين والفاعلين الآخرين، موعزاً على التفكير في الترابط بين ما هو بنيوي وما هو ظرفي، بين ما هو قطاعي وما هو شامل، بين ما هو محلي وما هو وطني، و بين ما هو اجتماعي وما هو سياسي.

إن إخضاع النزاعات الشغلية للدرس في فترة الحجر الصحي يمكن من معالجة نقاط الالتقاء بين مختلف مستويات التحليل (البني/ السياسات العمومية والمنظمات والأفراد) ومختلف الأزمنة الاجتماعية (الأزمنة الطويلة والأزمنة الظرفية) بمنهج تفاعلي كيفي²⁸⁷. وهو ما حاولنا القيام به في هذه الورقة، حسب ما تسمح به زاوية التحليل وما يخوله حيز موضوعه. وقد يكون سياق هذه الجائحة محفزاً لبحوث أخرى، من شأنها أن تعزز المعرفة بمختلف مواضيع البحث من جهة، ودور العلوم الاجتماعية في النقاش العمومي - بالتالي السياسي - فيها من جهة أخرى.

287 أنظر :

Morrisette (J.), Guignon (S.), Demazière (D.). Introduction. "De l'usage des perspectives inter-actionnistes en recherche". Recherches Qualitatives, ARQ Association pour la Recherche Qualitative, 2011, 30 (1), pp.1 - 9.

المحور الثالث:

**في رصد تحول/تغير كميّ ونوعيّ لظواهر
إجتماعيّة إبان الحجر الصحيّ**

ديناميكيات الهجرة غير النظامية في تونس محاولة في قراءة المشهد الهجري زمن الوباء

خالد طبابي

ملخص :

أمام حالة الهشاشة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الصعبة التي مرّت ولا تزال تمرّ بها البلاد التونسية في سياق تعسّفت فيه السياسات الهجرية على الدول المتخلّفة اقتصاديا معتبرة الهجرة امتيازاً وليس حقاً، اختار حينها المهّمّشون الانخراط بالمشاريع الهجرية غير النظامية مشتركين في نفس المأساة حالمين بنفس الحلم. ولكن المفارقة اللافتة للانتباه أنّ أوروبا وخاصة إيطاليا عاشت على واقع حياة مأساوية جرّاء الوباء حيث فقدت العديد من الأرواح البشرية و تكبدت خسائر الاقتصادية جسيمة، ولكن على الرغم من المعطى الوبائي العالمي لم تتوقف قوارب الموت المتجهة من تونس نحو إيطاليا في زمن كانت فيه البلاد التونسية أقلّ ضرراً من أوروبا من حيث عدد الإصابات وعدد الوفيات و سرعة انتقال العدوى. بناء على ما تقدم، تحاول هذه الورقة التحليلية فهم المنطق الهجري "للحارقين" والبحث عن عوامل الجذب والطرّد زمن الجائحة وأيّ مشهد هجري بعد الوباء.

Abstract :

Given the difficult situation of social, economic and political fragility that Tunisia has gone through and is still going through in a context where migration policies remain arbitrary for underdeveloped countries, considering immigration as a privilege and not as a right. But, the striking paradox is that Europe and especially Italy have lived through a tragic situation following the pandemic, where many human lives have been lost and enormous economic losses have been incurred. But, despite global epidemiological data, the death boats leaving from Tunisia to Italy did not stop at a time when the Tunisian country was less damaged compared to European countries in terms of the number of cases of contamination, of deaths and the rate of contagion. On the basis of the above, this analytical article attempts to understand the migratory logic of the "Harragas" and to research the factors of attraction and expulsion during and after the pandemic.

"لم تعد ظاهرة الهجرة غير النظامية مشروعاً فردياً للخلاص من واقع الفقر والبطالة يوثقه الشباب بعنفوانه وطاقاته الكامنة في حب المغامرة والاقدم على المجهول، بل أضحت اليوم مشروعاً جماعياً مجتمعياً تستنفر من أجل نجاحه صلة الرحم وعلاقات الدم والقرابة، ورحلة موت مؤكدة تزكيتها العائلات وتسعى إلى إنجاحها الأسر".

عائشة التايب²⁸⁸

تقديم عام

أكدت العديد من الدراسات الأكاديمية وتقارير المنظمات غير الحكومية والجمعيات المعنية بقضايا الهجرة على ضرورة مراجعة الخيارات التنموية والسياسات الهجرية للاتحاد الأوروبي تقريبا منذ تسعينيات القرن الماضي حينما تمّ تفعيل فيزا شنغان وبداية التراجع الاقتصادي والاجتماعي في سياقات الزبونية والاستبداد التي انتشرت في المجتمع التونسي وأغلب المجتمعات العربية والمغربية المتخلفة اقتصاديا. ولكن على الرغم من تحرر صوت الحرية إلى حدّ ما بعد ثورة 17 ديسمبر 2010_14 جانفي 2011 ودخول تونس إلى بوابة سياسية جديدة، ظلّت الهجرة غير النظامية من أبرز الملفات المطروحة على جدول أعمال الدول وجلّ الفاعلين الحقوقيين المناصرين لقضايا الهجرة ولفئات الهشّة، بل إنّ هذه الظاهرة قد زادت عمقا من حيث التدابير والإجراءات اللإنسانية للسياسات الهجرية والفواجع بالبحر الأبيض المتوسط في سياق الأزمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي مازالت مرتبكة وهشّة ولم تلبّ حاجيات فئات اجتماعية عديدة. كما كتنا قد نهبنا في أعمال سابقة ومنها التقرير السنوي للهجرة سنة 2019 وهي من إصدارات المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية وفي أعمال علمية أخرى على أنّه إذا ما ظلّت نفس الخيارات التنموية والسياسية سنعيش على واقع أحداث تراجيدية خلال مطلع العقد الرابع منذ انطلاق الهجرة السرية بتونس عبر المتوسط. ومن المؤسف أنّ هذه الفرضية قد أثبتت صحتها ونستنتج هذا من خلال غرق قارب هشّ على متنه حارقون تونسيون أسفر عن غرق ومقتل مهاجر واحد على الأقل وفقدان أثر ستة آخرين يوم 23 ماي 2020 على بعد ميل بحري واحد قبالة سواحل مدينة صفاقس. ولكن المفارقة اللافتة للانتباه أنّ غرق هذا القارب ووصول العديد من المهاجرين الآخرين إلى الأراضي الإيطالية بطريقة غير نظامية تأتي في سياق تعيش فيه إيطاليا على وجه الخصوص وأغلب دول العالم على وجه العوم على واقع حياة يومية مأساوية متمثلة في فقدان العديد من الأرواح البشرية جزاء فيروس صغير الحجم، كما أربك هذا الأخير الاقتصاديات العالمية العظمى.

²⁸⁸ سياسات التنمية في تونس وتأثيرها في فرص العمل"، "النمو الاقتصادي والتنمية المستدامة في الدول العربية، سياسات التنمية وفرص

العمل: دراسات قطرية"، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، ص 249_129

وتعتبر الدولة التونسية من بين الدول التي نجحت صحياً إلى حدّ ما في مجابهة الوباء إذا ما قورنت بدول أخرى على الرغم من محدودية الصّحة العمومية، ولكنها لم تنجح في مسار العدالة الاجتماعية قبل وأثناء الوباء. لذلك على الرغم من وجود خسائر بشرية وانتشار العدوى بتونس إلا أنّها أقلّ حدّة من عديد البقاع الأوروبية التي يصفها المهتمّون بالجنّة الموعودة، وبالتالي فإنّ حركة الهجرة غير النظامية نحو إيطاليا هي ديناميكية محيرة في هذا الوقت.

إذن سنحاول في هذه الورقة تقديم قراءة تحليلية للمشهد الهجري زمن الوباء وبالتالي حول المنطق الهجري للحارقين في وقت تعيش فيه إيطاليا وأوروبا نكسة اقتصادية وصحية حادة وسنحاول البحث عن أبرز وأهمّ عوامل الطرد والجذب في هذا الظرف الصحي والاقتصادي العالمي الاستثنائي وكيف يبني القرار الهجري استناداً إلى الإشكالية التالية:

إلى أيّ مدى يمكن اعتبار أنّ الأزمة الاقتصادية والاجتماعية التي غدّت كورونا من حدّتها وعمقها في سياق صدّرت فيه الطبقة السياسية رسائل سلبية ولم تخلُ من صعود الحركات الاحتجاجية وتخلّت فيها منظمة الأعراف عن العمّال وانتصرت للأرباب عوامل حاسمة تدفع بالفئات الهشة للانخراط في المشاريع الهجرية غير النظامية؟

الآ يمكن أن يكون لبعض الدوائر والحلقات المجتمعية وشبكات التهجير والتهرب الأثر الحاسم في صنع القرار الهجري؟ وأي مشهد هجري بعد الوباء؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية، سيكون مفيداً أن نعلم القارئ بأنّه قد صعب علينا البحث والتفحص الميداني خلال هذه الفترات، ذلك أننا لم نتمكن من إجراء أي مقابلة سوسولوجية تفهميّة مع المهاجرين الحاليين. وللحفاظ على الروح الموضوعية أثناء التحليل اعتمدنا على قراءة سوسيو- اقتصادية وأخرى تاريخية، لذلك اخترنا أن نبدأ التحليل بقراءة تاريخية وجيزة عن الهجرة غير النظامية عبر المتوسط في تونس وذلك لفهم تحولات المشهد الهجري وخاصة زمن الوباء، كما حللنا عناصر أخرى وفقاً للقراءة السوسيو-تاريخية، فعلم التاريخ يسمح لنا بالمقارنات التي تعتبر مسائل جوهرية وحياتية بالنسبة لعلم الاجتماع²⁸⁹. كما حاولنا التحليل وفقاً للمعطيات الإحصائية للمهاجرين التونسيين في سياق كوفيد 19، إضافة إلى أننا اخترنا بعض الشعارات التي رفعها المهاجرون بطريقة سرّية وهم في غمار المتوسط زمن الجائحة وعبارات أخرى قدمها مهاجر تونسي في مركز الإيواء بمنطقة مليلة الإسبانية في إحدى الندوات الافتراضية وحاولنا فهمها وتحليلها ربطاً بالواقع الاجتماعي، كما اعتمدنا أثناء القراءة والفهم على بعض الأبحاث والكتابات السابقة ولم نغفل

²⁸⁹ المولدي قسّومي، "المنظمة النقابية لأرباب العمل التونسيين الأطوار والأدوار"، تقديم: الهادي التيمومي، دار نقوش عربية، تونس 2018،

الدور الهام الذي تلعبه الحلقات والدوائر المجتمعية في صنع القرار. وفي ختام التقديم نعلم القارئ أنّ هذه القراءة تقف عند موفى شهر ماي من سنة 2020.

قراءة مختصرة للمشهد الهجري في فترة 2010_2019

سوسيولوجيا، لا يمكن وضع كلّ الهجرات بطريقة سرّية ضمن سلّة واحدة، فالانتعاش النفطي للاقتصاد الليبي خلال سبعينيات القرن الماضي نتج عنه حركة هجرة بطريقة غير نظامية، وكان للتونسيين نصيب من هذه الهجرات. كما أنّ ثورة 14 جانفي ليس لها صلة مباشرة بحركة الهجرة السريّة، ولكن يمكن القول أنّ التاريخ الفعلي للهجرة عبر المتوسط انطلق منذ تسعينيات القرن الماضي حينما تم تفعيل فيزا شنغان بين 1986_1990 من ناحية وبداية انتشار ظاهرة البطالة واستشراء الفساد من ناحية أخرى.

"نشأت شبكات التهجير في تونس خلال مطلع التسعينات في ثلاث مناطق بالأساس وهي: مناطق الشمال الشرقي أي تونس وبنزرت والوطن القبلي، ومناطق الساحل وولاية صفاقس، وأخيرا مناطق أقصى الجنوب وهي ولايتا قابس ومدنين وكانت تسمى بالبوّز الطاردة"²⁹⁰، *foyer migratoire*. لتتطور هذه الشبكات عبر ثلاث مراحل في ثلاثة عقود، فقد كان "الجيل الأول يسمى جيل الحارقين الأوائل وتقوم هذه المجموعة على شبكات الرفاق والصدّاقة وأبناء الحي الواحد، ويُمولون مشروعهم الهجري عن طريق النشل أو ابتزاز العائلة كتهديدها بالانتحار، ويشترون قارب الرحلة من السوق السوداء بمنزل كامل من ولاية المنستير، أما الجيل الثاني الذي ولد خلال مطلع الألفية الثانية فقد طوّر شبكات الهجرة وأصبحنا نتحدث عن الشبكات المتوسطة، وفيها المحترفون، حيث نجد فيها نوعا من توزيع الأدوار، كاليد الخفية، والميكانيكي، وسائق القارب أو العبّارة والنقل أي المتاجرة بالبشر، وفيها أيضا توزيع العوائد والمبالغ الباهظة. أما مع الجيل الثالث وخاصة بعد ثورة 14 جانفي 2011 فقد توسعت وتطورت هذه الشبكات إلى الشبكات العابرة للقارات، وقد ظهرت خاصّة في الجنوب، ونجد فيها جنسيات مختلفة حيث سجّل وزارة الداخلية التونسية بين 70 و80 جنسية تدخل إلى تونس كل سنة وتعبّر الحدود التونسية، ونجد فيها أيضا الاحتراف واختلاط الجنسيات في الأدوار كأن يكون قائد السفينة مثلا من مصر، ولكن تنتشر فيها ممارسات العبوديّة في شكل من أشكال العصابات"²⁹¹. وبالتالي في سياق الأزمة الاقتصادية والسياسية والأمنية توسعت شبكات التهجير من شبكات محليّة ضيّقة إلى شبكات عابرة للقارات.

²⁹⁰Mabrouk (Mehdi) « Voiles et sel, culture, foyers et organisations de la migration clandestine en Tunisie » Les Editions Sahar 2ème édition 2012 » P 125_126.

²⁹¹ مهدي مبروك، "مائدة مستديرة بعنوان: الهجرة السريّة-أزمة اقتصادية وحلول مقترحة"، مركز دراسة الإسلام والديمقراطية، 28 جوان 2018 بنزل أفريقيا، تونس.

كما طرأ على المشهد الهجري العديد من التحولات، حيث كانت ملامح المهاجرين خلال العقد الأول محصورة جدا في تلك الفئات المسحوقة والشعبية وغالبيتهم من جنس الذكور والمستوى التعليمي المحدود، وكانت الخارطة منحصرة في الفئات القاطنة قرب الضفاف البحرية، ذلك أنهم متمكنون من تقاليد البحر، لتتوسع تدريجيا خلال العقد الثاني إلى مناطق أخرى عديدة بخلاف المناطق البحرية ومع الحفاظ على نفس الملامح تقريبا. ولكن يمكن القول منذ انتفاضة الحوض المنجمي سنة 2008 أن التونسيين سجّلوا أعلى موجة هجرة سريّة، إذ كان عددهم في جزيرة لمبادوزا 6.762 مهاجرا من بينهم 52 امرأة و184 قاصرا²⁹². ومنذ ذلك التاريخ وخاصة بعد سنة 2011 تمّت جندرة الهجرة وتوسّعها على طبقات عديدة بصفات متفاوتة، كما أصبح القاصرون منخرطين في هذا المشروع، علاوة على الهجرات الجماعية والعائلية، كما أصبحت العائلة داعمة لهذه الحركة بعد أن كانت رافضة خلال العقدين الأولين، أيضا انخرط أصحاب الشهادت العليا في مشروع قوارب الموت، كما تنوعت طرق العبور في سياق السياسات الهجرية التي صارت ترخّل التونسيين قسريًا من إيطاليا ولم يعد المتوسط هو النافذة الوحيدة. كذلك على الرغم من وجود العديد من البراديغمات التفسيرية، تظلّ العوامل الاقتصادية والاجتماعية وتعزز مشاعر الخيبة واليأس لدى الشباب في طليعة عوامل الطرد وهذا لا يعني أننا ننفي دور الحلقات المجتمعية من الأسرة والحيّ وشبكات الصداقة والزمانة والتطور التكنولوجي في صنع القرار، فقد كانت حاضرة ولعبت دورها وبشدة، لكن بالعودة للماضي القريب وبصفة عامّة ومختصرة يمكن القول أنه " إذا كانت معدّلات هجرة التونسيين قد استقرت بين سنوات 2012 و2016، حيث ظلّت تتراوح بين 1000 و2000 شخصا سنويا، ويعود هذا التراجع لأسباب أمنية ومراقبة الحدود وليست تنموية، فإنّ أرقام المهاجرين عادت لتسجل ارتفاعا ملحوظا خلال سنة 2017، وهي سنة حراك الكامور، فقد هاجر حوالي 6151 شخصا وتمّ القبض على حوالي 3178 شخصا، وكذلك في السنة التي تلتها (2018) فقد وصل إلى الحدود الإيطالية حوالي 6006 تونسيا وتونسية وتمّ إلقاء القبض على 7146 شخصا، لتسجّل وصول حوالي 3545 تونسيا إلى إيطاليا في سنة 2019، وقد تزامنت هذه الأرقام مع معطى جديد في الساحة التونسية، إذ شهدت الفترة اشتداد الأزمة الاقتصادية التي تعرفها البلاد فنسبة التضخم ارتفعت لتبلغ 7.1% واستقرت نسبة البطالة عند مستوى 15.4% بين سنتي 2017 و2018، مع تتالي الخطط الحكومية لتجميد الانتدابات في القطاع العام وتراجع الاستثمار الخاص إضافة إلى تهقر الدينار التونسي ليبلغ ثلث قيمة اليورو وارتفاع المواد الاستهلاكية.²⁹³ ومن هنا يمكن القول أنّ حدّة الأزمة الاقتصادية والسياسية والأمنية في سياق اصطدمت فيه حركات الاحتجاج باليأس والإحباط وعملت

²⁹² Boubakri Hassan, Migrations Internationales et Révolution en Tunisie, « Migration Policy Centre, Rapport de recherche, N : 1, 2013, PP 1-37 », P 3

²⁹³ أسامة عثمان " الشباب التونسي والهجرة غير النظامية: بين ثنائية الجوع في الداخل والأبواب الأوروبية الموصدة"، المفكرة القانونية،

الموقع:

فيها السياسات الهجرية على بناء جدران العزل دون التفاوض كانت من أبرز عوامل الطرد خلال العقد الثالث.

الهجرة غير النظامية في سياق الوباء

كورونا: حدة الأزمة الاقتصادية وتعميق العوامل الطاردة

أعلن رئيس الجمهورية يوم 20 مارس 2020 حجرا صحياً شاملاً وحظراً للتنقل بين المدن وذلك بعد أن بدأ الوباء بالانتشار منذ الأسبوع الأول من نفس الشهر، وهذا القرار لا يتطابق مع فئات اجتماعية عديدة خاصة أولئك الذين يكسبون قوتهم عن طريق العمل اليومي، فالعمل عن بعد يختزل في قطاعات محدودة، ليعلن رئيس الحكومة يوم 21 مارس عن جملة من الإجراءات الاجتماعية وأهمها "أن لا يظل أيّ تونسيّ في دائرة الاحتياج، وأن لا يخسر أحد عمله، إضافة إلى عدم السماح بغلق أي مؤسسة اقتصادية، بل عبّرت الحكومة عن استعدادها للوقوف مع أي مؤسسة بغاية استعادة انتعاشها بعد مرور الجائحة، وتقدر تكلفة هذه التدابير بـ300 مليون دينار (96 مليون يورو) بالنسبة للعاملين الذين تمّت إحالتهم على البطالة التقنية، و150 مليون دينار (48 مليون يورو) تمّ تخصيصها للمساعدات الاجتماعية للفئات الهشة وذات الدخل المحدود، كما تمّ تأجيل سداد القروض البنكية لكل من لا يتجاوز دخله ألف دينار (319 يورو)، وتمّ التوسع في هذه الإجراءات من خلال الزيادة في الميزانيات المخصصة، ليعلن رئيس الحكومة يوم 19 أفريل أنّ هناك مساعدات اجتماعية أخرى سينتفع بها أصحاب الدخل المحدود.²⁹⁴ ولكن هذه التدابير كانت غير عادلة، فالمساعدات المادية لم تكن كافية حيث كان مبلغ المساعدة 200 د للعائلة الواحدة وكانت أيضاً توزع عن طريق الهياكل القديمة بعد تقديم المطالب للعمد. علاوة على ذلك فإنّ العديد من الفئات لم تشملهم هذه المساعدات، مثل الذين يشتغلون بطريقة وبقطاعات غير رسمية أو ما يمكن أن نطلق عليهم "اللامرثيون" الذين يمثلون 54% من الناتج المحلي الإجمالي²⁹⁵ PIB، كما يغطي هذا النشاط أيضاً جزءاً هاماً من الحاجيات الاجتماعية للبشر خاصة في مناطق داخلية عديدة، فقد رجح بعض الباحثين والفاعلين في حقل الاقتصاد أنّها قد تصل إلى حوالي 90% في بعض المحليّات بالمناطق الداخلية.²⁹⁶ ومن أبرزها ولاية تطاوين التي سجّل نسبا عالية في البطالة، فإذا كانت نسبة أصحاب الشهادت العليا المعطلين عن العمل قد تجاوزت 46% في معتمدية الرديف من ولاية قفصة، فهي ثاني أعلى نسبة على المستوى الوطني بعد ولاية تطاوين وفقاً لإحصائيات سنة 2014²⁹⁷، كما

²⁹⁴ Mohamed Slim Ben Youssef, « Tunisie, Qui pais le prix du coronavirus ? Le 21 Avril 2020 » site : «orientxxi.info»

²⁹⁵ Frida Dahmani, « Economie informelle en Tunisie : la république de la débrouille. Le 20 Mars 2018 » site : « orientxxi.info ».

²⁹⁶ Layla Riahi, « Covid-19 : Revoir le modèle économique tunisien. Le 7 Avril 2020 » Site : « Nawaat.org »

²⁹⁷ حسين الرحيلي، "الماء والعدالة الاجتماعية بالحوض المنجمي"، المشروع الإقليمي: من أجل عدالة اجتماعية بمنطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. مؤسسة فريدريش إيبيرت. 2018، ص 72.

يأخذ هذا الرقم (90%) بعين الاعتبار حركة التجارة عبر الحدود التونسية الليبية والأراضي الفلاحية غير المهيكلة قانونيا ولا يقتصر على الشغّالين بطريقة غير رسمية في مجالات أخرى فقط. كما أنّ هذه الظاهرة ليست مقتصرة على تونس فقط، "ففي المغرب مثلا نسجل حوالي مليوني أجير بطريقة رسمية، وهي نسبة ضعيفة جدا إذا ما قورنت بـ 12 مليون من السكان النشطين، فظاهرة العمل خارج إطار الأجر المنظم أكثر اتساعا في بلدان الجنوب وغالبيتها لا تتمتع بأي حيطة اجتماعية، وهذا النشاط يشكل مناخا معاديا للشباب الباحثين عن فرص عمل ومن هنا لا خيار للشباب سوى "تدبر أمره والخلّاص الفردي" بعيدا عن الهياكل والمؤسسات العمومية التي لا تشكل مشغلا كبيرا لهم، وبعيدا أيضا عن الشركات التي لا تمكنهم من فرص عمل في سياق لم تأخذ فيه الأحزاب السياسية والنقابات مسألة الشباب بعين الاعتبار، لذلك فإنّ حركة الهجرة غالبا ما تكون دون وثائق".²⁹⁸ وبالتالي فإنّ هذه الفئات التي تشتغل دون إعلام وزارة المالية أو الضمان الاجتماعي أو السلطات بشكل عام كانت أشد تضررا من القرارات الهشّة التي أصدرتها الحكومة. كما أنّ قطاع السياحة شهد تضررا كبيرا، "حيث رجحت وزارة السياحة تأثر 350 أو 400 ألف عامل وموظف في هذا القطاع بصفة مباشرة أو غير مباشرة وهم يتوزعون بين النزل ووكالات الأ

سفار والمرشدين السياحيين والمطاعم ووكالات السيارات السياحية... لتظهر رسالة وجهتها الحكومة إلى صندوق النقد الدولي أواخر شهر أفريل بأنّ قطاع السياحة سيكون أكثر القطاعات تضررا، فخسائره قد تصل إلى أربعة مليارات دينار (1,4 مليار دولار). كما صرّح أحد مسؤولي وزارة السياحة لـ "الصباح نيوز" أنّ تأثير الفيروس يمكن أن يتسّع أكثر ليشمل أكثر من مليون تونسي خلال الموسم السياحي 2020 (جوان، جويلية، أوت، سبتمبر) وهي الفترة التي تعرف فيها المدن والأقطاب السياحية في تونس نشاطا وحركة كبيرتين وتكون لدى شريحة هامّة كالبائعة المتجولين وأصحاب الجمال والأحصنة... مورد رزق ينتظرونه لسنة كاملة.²⁹⁹ وفي هذا السياق، أفادت "منظمة العمل الدولية أنّه في حالة تواصل هذه الأزمة سنفقد حوالي 25 مليون فرصة عمل حول العالم، منها 1,7 مليون في الوطن العربي، ليضيف المدير العام للمنظمة قائلا: "إنّ هذه ليست مجرد أزمة صحّيّة فحسب، بل أيضا أزمة سوق عمل وأزمة اقتصادية كبرى لها أثر هائل على البشر".³⁰⁰ إذن لم تكن كورونا مجرد أزمة صحّيّة فقط، بل إنها تسببت في أزمة اقتصادية واجتماعية حادّة، وإذا كان هذان الأخيران من أبرز عوامل الطرد فإنّها اتسعت في سياق الوباء لتشمل فئات وطبقات أخرى وبالتالي توسع خارطة المهاجرين وتصدّر العوامل الاقتصادية والاجتماعية لعوامل الدفع.

²⁹⁸ Khadija Mohsen-Finan, Entretien avec Jacques Ould Aoudia, « Jeunes du monde Arabe. Une rupture majeure dans l'histoire des sociétés, Le 12 Mai 2019 ». Site : « oriennxi.info »

²⁹⁹ ريم سوودي، "قطاع السياحة الأكثر تأثرا بالأزمة الاقتصادية لفيروس كورونا... الأربعاء 6 ماي 2020" عبر موقع: assabah.com.tn

³⁰⁰ فوزي الشيباني، "إشكالية خلاص الأجور إبان أزمة كورونا: عمال القطاع الخاص بتونس نموذجاً" « inhiyez.com » 10 ماي 2020

منظمة الأعراف في خدمة الأرباب قبل العمال وتوسيع للخزّان الهجري: مسار

القديم المتجدد

إنّ عنصرا أو مقالا وحيدا غير كاف لتحليل أطورا وأدوار منظمة الأعراف من المرحلة التّطفيّة أي ما قبل الجينية إلى اليوم،³⁰¹ ولكن يمكن القول أنّه منذ سبعينيات القرن الماضي إبان انهيار تجربة التعاضد، "بدأ الإعداد لسن تشريعات اقتصادية تدفع الاستثمار الخاص وتعطي أولويات وأفضليات للبورجوازية من أجل تدعيم الصناعات التصديرية، وقد صدر القانون عدد 37 المؤرخ في 27 أفريل 1972 لهذا الغرض. لعبت مؤسسات الدولة دورا مهما في هذا البرنامج، لذلك فإنّ حكومة الهادي نويرة انتصرت لمبادئ اقتصاد السوق وجعلت الأعراف شريكا اقتصاديا فعليا للدولة، وقد تعززت مكانتها بظهور الاتفاقية الإطارية منذ 19 مارس 1973 والتي رسمت الملامح الأولى للتعاقد الاجتماعي الذي أسس الشراكة بين الدولة والأطراف الاجتماعية (اتحاد الشغل ونقابة الأعراف). وهذا ما يعني أنّ بداية السبعينيات أعادت منظمة الأعراف إلى وضعها الطبيعي ووفّرت لها الأسس التشريعية والسياسية للمراهنة على أهم محاور الفعل الاجتماعي خاصّة بعد الدور الذي أوكل إلى تونس في ظلّ التقسيم العالمي للعمل في صورته الخاضعة إلى هندسة البنك الدولي.³⁰² ومن هنا انفتحت الدولة على المبادرات الفردية وبالتالي تغيّرت منهجية الدولة من العمل وفقا لأفكار شومبيتر Schumpétérienne إلى العمل وفق طريقة وأفكار سميث³⁰³ Smithienne"، والتي أعطت الدولة من خلالها الشرعية للعديد من إشارات الدولة ليصبحوا مقاولين، وتواصل هذا المنهج حتى بعد 1987 مع توغل لظاهرة الفساد وظهور فاعل جديد وهو الشباب المعطل. ولو أننا تجاوزنا محطات عديدة قبل السبعينيات، لكن يمكن القول أنّه منذ ذلك التاريخ (السبعينيات) وخاصّة في سياق الأزمة الاقتصادية ومسار الاستبدال صارت منظمة الأعراف في خدمة السلطة ضدّ المجتمع، ونذكر مثلا أنه، "جاء في التقرير العام للمؤتمر الرابع عشر للاتحاد التونسي للصناعة والتجارة والصناعات التقليدية أيام 21 و22 نوفمبر 2006 ما يلي: إنّ الفترة بين سنوات 2001_2006 هي فترة ثرية بالأحداث الكبرى وبالأنشطة النقابية النوعية، فعلى المستوى السياسي عاشت تونس انتخابات رئاسية وتشريعية عام 2004 أكّدت التفاف الشعب التونسي بكلّ مكوناته وفئاته حول سيادة الرئيس زين العابدين بن علي وتبنيه لمشروعه الحضاري الرائد، كما عرفت تأسيس غرفة نيابة ثانية (مجلس المستشارين) وتنظيم استفتاء شعبي هو الأول من نوعه في تاريخ البلاد حول إصلاح القانون الدستوري في ماي 2002 واحتضنت بامتياز وتألّق القمة الأولى للحوار 5 زائد 5، كما احتضنت تونس القمة العالمية لمجتمع المعلومات (التي أثارت حركات رفض واحتجاج) في نوفمبر 2005، كما عملت

³⁰¹ لمعرفة الأطوار والأدوار لمنظمة الأعراف التونسية منذ التأسيس وجلّ التحولات، يمكن للقارئ العودة إلى كتاب الباحث الاجتماعي التونسي، المولدي قسومي: "المنظمة النقابية لأرباب العمل التونسيين الأطوار والأدوار".

³⁰² المولدي قسومي، "المنظمة النقابية... سبق ذكره، ص 125.

³⁰³ Boukraa Ridha, Acteurs sociaux et changement social en Tunisie (1956- 1986), « Les changements sociaux en Tunisie 1950- 2000, Sous la direction de : Laroussi Amri, Editions L'Harmattan, Paris 2007, P 183_ 190 ». P 188.

المنظمة على تلميع صورة نظام بن علي الذي اعتبرت أنه قائد مسيرة بناء ونماء تمثل رهانات دفع الاستثمار والتشغيل وتحقيق التنمية الجهوية [...]، في زمن عرفت فيه البلاد الانفجار الاجتماعي الذي كانت تعيشه منذ سنة 2008، وعرف ذروته أواخر 2010.³⁰⁴ وبالتالي فقدت هذه المنظمة كلّ الملامح النقابية ولم تعد تتغذى بالمعجم النقابي ذي المرجعية الاجتماعية والاقتصادية. ليتواصل هذا المسار وهو مسار مصلحة الأرباب قبل العمّال بأشكال جديدة بعد ثورة 14 جانفي 2011، وظلّ تحقيق القيمة المضافة لأرباب العمل على حساب العمال من أبرز أهداف أصحاب أغلب المؤسسات والشركات الخاصة، وبالتالي فلا غرابة اليوم في سياق الوباء من تصريحات ومواقف المنظمة النقابية لأرباب العمل، فسيرورتها قديمة متجددة، ولو تغيّر الشكل فإنّ المضمون ظلّ نفسه. فعموما لا يمكن إغفال دور بعض أصحاب المؤسسات ودورهم المجتمعي زمن الوباء، ولكن ذلك لم يكن ضمن انتظارات التونسيين وخاصة العمّال بالقطاعات الخاصّة، وبالتالي فإنّ رأس المال الخاص زاد من حدّة الأزمة والفوارق الاجتماعية، إذ صرّح رئيس الحكومة يوم 21 مارس 2020، بتصريح مفاده اتخاذ التدابير اللازمة تجاه شركات وطنية كبرى لم تتبرع خلال الأزمة، ليكون رد أصحاب الشركات سريعا، والذين عبروا عن موقفهم على لسان رئيس منظمة الأعراف على إثر خروجه في لقاء تلفزيّ يوم 25 مارس مصدرا موقفا مضمونه أنّ العديد من الشركات الخاصة غير قادرة على دفع الأجور والضرائب ولا يمكنها تقديم المساعدات الاجتماعية.³⁰⁵ ومن هنا نستنتج أنّ أرباب العمل تعنيمهم فقط القيمة المضافة قبل العمالة وقبل البلاد، ذلك أنّ البرجوازية التونسية عكس الأوروبية، فهذه الأخيرة لا مزية للدولة عليها وخاصة الألمانية، فهي التي بنت أوروبا منذ صحوة البروتستانت والعودة إلى المسيحية الأولى مع مارتن لوتر منذ القرن السادس عشر، أمّا في تونس قد نمت البرجوازية وتطورت في علاقة تبعية بنيوية مع السلطة السياسية والسوق الرأسمالية، وهذا ما يفيد أنّ التواطؤ الحكومي كان بصفة مباشرة أو غير مباشرة من خلال مراسيم قانونية، وأصدر وزير الدولة لدى رئيس الحكومة المكلف بالوظيفة العمومية والحوكمة ومكافحة الفساد بلاغا بتاريخ 22 مارس أعلن فيه: "إنّ الأعوان العموميين خلال فترة الحجر الصحي هم في حالة مباشرة"، ومن هنا نستنتج أنّ الحكومة خرقت مبدأ دستوريا وهو المساواة أمام القانون، إذ ينص الفصل 21 من الدستور: "المواطنون والمواطنات متساوون في الحقوق والواجبات، وهم سواء أمام القانون من غير تمييز" و"تضمن الدولة للمواطنين والمواطنات الحقوق والحريات الفردية والعامّة وتحمي لهم أسباب العيش الكريم".³⁰⁶ فعلى أيّ قاعدة يتم التمييز بين عمال القطاع العام والخاص؟. كما أصدرت منظمة الأعراف بيانين متتاليين خلال 22 و28 مارس عبّرت فيهما عن دعمها لمسار الحكومة بشأن الفئات الهشة والمؤسسات الاقتصادية والمتضررة وحرصها على سداد أجور عمّال القطاع الخاص،

³⁰⁴ المولدي قسومي، "المنظمة النقابية..." سبق ذكره، ص 135، 136.

³⁰⁵ Mohamed Slim Ben Youssef, op.cit.

³⁰⁶ فوزي الشيباني، سبق ذكره.

ولكن تراجعت المنظمة يوم 15 أفريل عن اتفاق أبرمته مع اتحاد الشغل والذي يضمن خلاص أجور شهر أفريل لعمال القطاع الخاص،³⁰⁷ لتعلن منظمة الأعراف أنّها قادرة فقط على جعل فترة البطالة الفنية التي فرضها الحجر الصحي عطلة مدفوعة الأجر. كما سجّلنا تحركات احتجاجية لعدد العاملين بالنزل السياحية الذين لم تصلهم أجورهم ولا منحة البطالة الفنية ولا مساعدات اجتماعية، بل قد تخلّى أصحاب النزل عن سداد الأجور. ولا نغفل طبعاً دور العديد من أصحاب النزل في هذه الجائحة والذين تبرعوا بنزلهم للحجر الإجباري. وإن كنا قد تجاوزنا عديد الأحداث، إلاّ أنه يمكن القول أنّ تضارب المواقف الحكومي بين الضبابية والرضوخ لموقف الأعراف قد خلق مناخاً خطيراً يهدد السلم الاجتماعي. وبالتالي فإنّ ضغط منظمة الأعراف ومواقفها، أدّى إلى احتمالين: إمّا العودة إلى العمل وتكون الروح الإنسانية هي التي تدفع الضريبة، وبالتالي شعار المربوح قبل الروح، وإمّا تسريح عدد هام من العمال، ليكون الشعار القيمة المضافة لرأس المال قبل العمال. وهذا من شأنه أن يعمق الأزمة الاقتصادية وأزمة البطالة وخاصة أنّ هذا الفيروس قد كشف أنّ عديد العمال بالقطاع الخاص لا يملكون ضمانات اجتماعية، ذلك أنّ مؤجرهم لم يصرّحوا بأجورهم لدى الصندوق الوطني للضمان الاجتماعي، مما حرّمهم من التغطية الصحية والاجتماعية لتكون هذه الفئات أولى ضحايا البطالة والتسريح. وبالتالي يمكن القول أنّ المنظمة النقابية لأرباب العمل التونسيين ساهمت في حدّة الأزمة الاقتصادية والاجتماعية ولم تلعب دورها المجتمعي والنقابي المناصر للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والصحية للعمال، وهذا المسار هو مسار القديم المتجدد همّة الوحيد تحقيق المربوح والهيمنة على سوق الشغل دون مراعاة الملفات الاجتماعية للعمال بل وقد صدّرت مواقف قد تزيد في عدد العاطلين الذين قد يكون جزء مهم منهم ضمن المشاريع الهجرية بطريقة نظامية أو غير نظامية مما يساهم في ارتفاع الخزّان الهجري **stock migratoire**. لذلك يمكن القول أنّ البورجوازية التونسية وهيكلها النقابي (الأعراف) ليست في خدمة الخيارات التنموية والوطنية نظراً لمسارها التاريخي والحالي الذي تحكمه حالة التبعية، " ذلك أنّ البورجوازيات العربية عموماً تتحدّد كبورجوازيات كولونيالية، نمت وتطورت في علاقة تبعية بنيوية مع السوق الرأسمالية. وفي تبعيتها البنيوية هذه عجزت عن حلّ المسائل الاجتماعية والوطنية. وعجزها هذا ليس طارئاً أو مؤقتاً، بل هو عجز بنيوي تاريخي، فهي لا تستطيع الانتقال إلى نمط رأسمالي مستقل، لذلك فإنّ تجدد الأنظمة العربية، وانتقالها من البرجوازية التقليدية إلى البرجوازية الصغيرة، لم يجدد إلاّ مآزقها التاريخي، لأنّ هذا التجدد لم يكن إلاّ استبدالاً طبقيّاً في نمط

³⁰⁷ لمزيد الاطلاع يمكن للقارئ العودة لمقال: فوزي الشيباني بعنوان إشكالية خلاص الأجور إبان أزمة كورونا: عمال القطاع الخاص بتونس

نموذجاً. الموقع:

https://www.inhiyez.com/archives/3022?fbclid=IwAR2cobINQOYv1x5TyRcgc07khrsc8DR5ynVqow3cFTNvpdY_Ausq3JDBYvA

الإنتاج الكولونيالي نفسه الذي يحكم حركة البرجوازيات العربية³⁰⁸ فهي في تاريخنا المعاصر أشد ارتباطا بالمؤسسات المالية العالمية التي تنتج فقط الأزمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تدفع بالفئات الهشة للانخراط في مشروع الهجرة.

حينما تساهم الطبقة السياسية في تعزيز عوامل الطرد

انتهى العقد الثالث من تاريخ الهجرة غير النظامية عبر المتوسط في تونس بتحول غير جذري ومحافظ على التوازن في المشهد السياسي عن طريق المسار الانتخابي الذي أدى في مجمله إلى صعود نفس التيارات ذات التوجهات السياسية السابقة وهي التيارات اليمينية الليبرالية بشقها الديني والحدائي وانتهت بانتخاب رئيس جمهورية مستقل عن الأحزاب السياسية. ويرجح العديد من المحللين أنه متبنٍ للأفكار الشعبوية، ولكنه تلقى دعماً غير مسبوق من قبل العديد من الأحزاب السياسية والتفافا جماهيريا كبيرا في الدور الثاني. كما حملت الأحزاب التي دخلت قبة البرلمان شعارات عنوانها العدالة الاجتماعية ومحاربة الفساد ومصالحة البلاد قبل الساسة أيام الحملات الانتخابية. ولكن هذه الشعارات خيبت آمال التونسيين وتنگرت لها الطبقة السياسية منذ الوهلة الأولى لدخولها البرلمان، حيث سقطت حكومة الحبيب الجملي يوم 10 جانفي 2020 بقبة البرلمان بباردو، لتزداد حدة الصراعات والانقسامات السياسية دون الاتفاق على برنامج اقتصادي واضح إلى أن نالت حكومة إلياس الفخفاخ الثقة بعد مسار عسير من المشاورات خلال 27 فيفري 2020 بـ 129 صوتا فقط مقابل 77 صوت رافض وامتناع نائب عن التصويب، وهذه الثقة لن تكون مريحة للحكومة في تمرير قوانينها بل ستزيد من عمق الصراع، لأن مانحي الثقة هم أيضا لا يخلون من الصراعات فيما بينهم والجامع بينهم هو البقاء تحت قبة البرلمان وآخرون باحثون عن الحصانة علاوة على وجود كتلة معارضة بحوالي 77 نائبا. ومن هنا رسمت هذه الأجواء مناخ الخيبة والإحباط لفئات عديدة وخاصة الفئات الهشة والمسحوقة، ذلك أن الحكومة قد أثبتت أن جوهر الصراع كان الحكم والتمسك بمقاليد السلطة وليس مناصرة قضايا المهمشين، وتطور هذا الصراع خلال فترة الوباء، حيث تعيش البلاد هذه الأيام (ماي 2020) تحت أجواء سياسية ساخنة بالبرلمان وخارجه انتشرت حتى في فضاءات التواصل الاجتماعي من بينها عريضة تطالب باستقالة رئيس البرلمان وتخليه عن مهامه ومحاسبته على أملاكه، وجدلية سياسية أخرى بين طرف سياسي ونقابي متمثلة في صراع بين ائتلاف الكرامة واتحاد الشغل، بل ذهب العديد من الفاعلين السياسيين إلى المطالبة بحل البرلمان وتغيير المشهد السياسي وتخلي حكومة الفخفاخ عن مهامها، علاوة على التيارات الشعبوية الجديدة الصاعدة والتي تمكنت من الوصول إلى أعلى درجات الحكم والتي لم تقدم برنامجا اقتصاديا واجتماعيا خلال الحملة الانتخابية وخلال وصولها لرئاسة الجمهورية، مما زاد من تعكر المناخ

³⁰⁸ مهدي عامل، "مناقشات وأحاديث في قضايا حركة التحرر الوطني وتمييز المفاهيم الماركسيّة عربيًا"، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 1990، ص

السياسي وصار صراعا في بعض الأحيان بين تيارات سياسية ورئيس الجمهورية. لذلك فإن المحتوى والرسائل والسياق السياسي **contexte politique** زمن الوباء ومنذ انتهاء الانتخابات عام 2019 لم ترسل تلك الرسائل الإيجابية ذات البعد الاقتصادي والاجتماعي، بل صدرت مناخ الخيبة والإحباط وعززت مشاعر اليأس لفئات اجتماعية عديدة كانت تنتظر أفقا اجتماعيا بعد مسار الانتخابات. وبالتالي فإنّ المشهد السياسي بين الفاعلين تحت قبة البرلمان وبالقصة وبقصر الرئاسة بقرطاج هو مشهد سياسي خيب آمال التونسيين لتبخر أحلامهم مرّة أخرى بين الساسة والحكومات المتعاقبة وخاصة مع رسائل رئيس الحكومة في الفترة الأخيرة والانتقال من الحجر الصحي الشامل والدخول في الحجر الموجه والتي نادى فيها بالمرور من فترة التضامن إلى مرحلة التضحيات. ومن هنا يمكن القول أنّ الطبقة السياسية ساهمت في تعزيز مشاعر اليأس الخيبة والإحباط ليكون هذا المناخ طاردا بالشباب يدفعهم للانخراط في المشاريع الهجرية السريّة.

المنطق الهجري للحارقين زمن الوباء

" قام رجل تشيكي بطلب تأشيرة هجرة، سأله الموظف: أين تريد الذهاب؟ فأجاب الرجل: ليس مهما. فعرض الموظف على الرجل مجسّمًا للكرة الأرضية وقال له: اختر البلد لو سمحت، نظر الرجل إلى الكرة الأرضية أدارها ببطء... ثمّ قال: هل لديك كرة أخرى؟" (الروائي الفرنسي من أصول تشيكية: ميلان كونديرا)

هذه العبارات يمكن وصف عالمنا اليوم، فأغلب الدول وخاصة المتقدمة، أصابها شبح الفيروس وصارت أماكن لمقابر جماعية يومية، إذا لا يوجد مكان في هذه الكرة الأرضية تقريبا يحلو السفر إليه، فالكلّ أغلق حدوده والكلّ صار خائفا من الجائحة وفقدان الأرواح البشرية من ناحية واشتداد الأزمة الاقتصادية من ناحية أخرى. ولكن على الرغم من المعطى الوبائي والاقتصادي فإنّ تدفق المهاجرين بطريقة سرّية مازال متواصلا. فما الذي يفسر هجرة التونسيين بطريقة غير نظامية وخاصة إلى إيطاليا التي عاشت ولا تزال تعيش (ماي 2020) على وقع الوباء الذي ذهب ضحيته آلاف البشر، كما خسرت إيطاليا وكلّ الدول المجاورة لها تقريبا (فرنسا، ألمانيا، بلجيكا، إسبانيا...) خسائر بشرية ومادية كبيرة؟ فإذا كان الجذب هو العمل وتحسين المعيشة بصفة أولية، فإنّ العمل شبه غائب بأوروبا وكلّ الوسائل الإعلامية وأغلب المحللين تقريبا اتفقوا على أنّ أوروبا ستعيش على وقع نكسات اقتصادية بعد الكورونا، وبالتالي أين يكمن الجذب وخاصة أنّ تونس تعتبر من بين البلدان التي نجحت صحيا إلى حدّ ما في مجابهة الوباء ولم تطلها أضرار بشرية كبيرة مقارنة بدول أوروبية أخرى؟

" كورونا ولا العيشة معاكم إنتوما (معكم أنتم)"، هكذا عبّر وصرخ التونسيون الحارقون في إحدى رحلات الهجرة السرية عبر المتوسط خلال هذه الأيام (ماي 2020)، والتي نشرتها صفحات

عديدة بمواقع الفيسبوك. وهذه الكلمات تحمل دلالة معناها أنّ العيش مع الخطر الوبائي أفضل من العيش في تونس المتخلّفة اقتصاديا والمعروفة بالزبونية في ملفات التشغيل، وإنّ دققنا المعنى في عبارة (معكم أنتم) من زاوية التحليلي السوسيو-سياسي نستنتج أنهم يقصدون الساسة والحكومات التي خيّبت آمالهم وهو شعار احتجاجي يعبر عن عدم الرضا عن الطبقة السياسية الحاكمة. لذلك فإنّ المنطق الهجري للحارقين زمن الوباء يقوم على المزيد من الشعور بالخيبة والإحباط، فمن خلال ما ذكرناه أنفا من قرارات اجتماعية غير عادلة ومن الخيبة التي تلقاها التونسيون من أرباب العمل، أدرك الفاعلون في مجال الحرق أنّ خطر الوباء لن يكون أشد فتكا من الخيارات التنموية، حيث ضاعت أحلامهم بموطن النشأة، ليفيد أحد الشبان التونسيين العالقين بمركز مليلة الإسباني في هذا الصدد وذلك في ندوة افتراضية أثنى المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية بتونس يوم الخميس 07 ماي 2020 بعنوان: " قضايا الهجرة في سياق مكافحة وباء كوفيد 19" بالآتي: "عارفين رواحنا مناش جاين للجنّة، لكن نموت وأنا نحاول خير ملي نموت وأنا فاقد الأمل" (نعرف جيّدا أننا لم نذهب إلى الجنّة، ولكن أن أموت وأنا أحلم أفضل من أن أموت وأنا فاقد للأمل) مضيفا أيضا أنّه قد تمّ ترحيله قسريًا من إيطاليا وتحديدًا جزيرة لمبادوزا سنة 2015، ومن هنا نستنتج أنّ المقبلين على هذه المغامرة قد فقدوا كلّ الأمل من مسار سياسي مازال مرتبكا وهشًا. كما تحدث الشاب أيضا عن التفاوت والتمييز الطبقي الذي جعلهم في هامش الهامش قائلا: "ولد الزوالي يطلع زوالي" (ابن الفقير يظلّ فقيرا) وهي دلالة على استمرارية ظاهرة الزبونية والمحسوبية والولاء على الرغم من أنّ حركات احتجاجية عديدة انفجرت جزأها وبالتالي رسم هؤلاء الشباب عالمهم وتفسيرهم الخاص المتمثل في أنّ موطن النشأة يفتقر للحلم، وصار مسرحا للبطالة والأزمات الاقتصادية وهشاشة طبقات اجتماعية عديدة بصفات متفاوتة، وأنّ أوروبا ستعود لتنتعش بعد كورونا وستظلّ تونس دون تغيير تنموي حقيقي، محللين الوضع أيضا بأنّ أوروبا ستحتاج اليد العاملة بعد الجائحة. وبالتالي فإنّ الوضع الصحي المتأزم بإيطاليا لن يكون أشد خطورة ولا عائقا أمام مشروعهم الهجري، فخوضهم غمار المتوسط عبر قوارب هشة حالمين بالبلوغ إلى ضفته الشمالية ليس أشد فتكا من وباء سيمر عاجلا أم آجلا على الرغم من أنّ صور ضحاياه لن تمحى من مواقع التواصل الاجتماعي، كما يعتبرون أنّ إيطاليا هي مجرد نقطة عبور نحو مناطق أوروبية أخرى وخاصة تلك التي تشكلت فيها جاليات تونسية بصفة كبيرة مثل (فرنسا). كما يعتبرون أنّ هذه الجائحة ستكون عاملا ينقذهم من الترحيل القسري من إيطاليا لأنّ هذه الأخيرة منشغلة في ضحايا الوباء ولن تنشغل بقضايا الترحيل والسياسات الهجرية.

لذلك يمكن القول أنّ حركة الهجرة السريّة لم تنقطع خلال كورونا، فشهرها جانفي وفيفري من عام 2020 سجّلا ارتفاعا مقارنة بنفس الشهرين من عام 2019 ويعود هذا للأسباب الاقتصادية والسياق السياسي الذي صدرته الطبقة السياسية بعد المسار الانتخابي، ولكن غلق المطارات

والاتجاه نحو المغرب، ومنع التنقل بين الولايات واتخاذ التدابير الصحية قد قلص نسبيا من عدد الحارقين خلال شهري مارس وأفريل مقارنة بجانفي وفيفري من عام 2020 وإذا ما قورنت أيضا بنفس الأشهر من السنة الفارطة فإنّ الأرقام تقلصت بين مارس وأفريل ولكنها عادت لتسجل ارتفاعا ملحوظا خلال شهر ماي أين بدأ الحجر الموجه³⁰⁹ وهو ما يفسر أنّ العوامل الاقتصادية لا تزال في طليعة العوامل الطاردة، ليزيد هذا الوباء من عمقها وبالتالي ستكون دافعا لتسريع الموجات وتكثيفها عدديا. فالحارقون يتقاسمون نفس المأساة الاجتماعية راغبين في نفس الحلم، فرسموا عالمهم الخاص لبرمجة الرحلات وهو عالم الأحياء وشبكات الصداقة والجوار والمقاهي (المقاهي أغلقت بصفة استثنائية خلال فترات الحجر الصحي)، كما رسموا في مخيلتهم أنّ أوروبا هي الجنة الموعودة على هذه الأرض لتستغل شبكات التهجير هذا الحدث الوبائي وتستغل أحلامهم وفقدهم.

شبكات التهجير: حرفة في قراءة الأوضاع

اعتمدنا منذ البداية على التحليل وفقا لقراءات تاريخية كانت في تحولات المشهد الهجري أو في مجال منظمة أرباب العمل التونسيين، علاوة على بعض الأرقام الاقتصادية وإحصائيات عدد المهاجرين بطريقة غير نظامية، ذلك أنّ القراءة التاريخية هي أداة تحليل لا تتناقض بتاتا مع الفهم السوسيوولوجي، فكما ذكرنا سابقا أنّ شبكات التهجير تطورت عبر ثلاثة عقود، إلى أن أصبحت شبكات عابرة للقارات، وهذه الشبكات خاضعة لتنظيم محكم، فإذا ما حللناها وفقا للمدرسة الإستراتيجية الفرنسية مع ميشال كروزيه وفريدباغ³¹⁰ نستنتج أنّ شبكات التهجير والتهريب تخضع لتنظيم عقلائي ومحكم في حسن التدبير والتسيير وتقسيم المهام، فهذا التنظيم الشبكي ليس تنظيما عشوائيا، بل هو بناء اجتماعي متكامل الأبعاد يبني على حسن توزيع الأدوار، فكلّ فاعل يتعاون مع الآخرين إلاّ أنّه يبقى على هامش من الحرية والاستقلالية قياسا بالمحيطين به، وهي حرية ضرورية لأنها جزء من حركة الأفراد صلب التنظيم، فالتنظيم بالنسبة لكروزيه يبني على التعاون والاندماج الداخلي بين الأفراد وأنّ كلّ تغيير حاصل هو من داخل التنظيم وليس من خارجه.

مثل منعرج الانتخابات الرئاسية الأولى والثانية والتشريعية من سنة 2019 فرصة لخروج عديد القوارب، وذلك حينما كثفت السلطات الأمنية والعسكرية جهودها لتأمين سير العملية الانتخابية، كما تم استغلال أزمة البحارة وتمهيش الثروة البحرية مما أجبر البعض من صغار البحارة على بيع قواربهم الصغيرة للمهاجرين، كلّها أحداث وعوامل تعتمد عليها وترتكز عليها شبكات التهجير ومن خلالها ترسم فلسفتها الخاصة. لذلك استفادت هذه الشبكات مرّة أخرى من "أمننة الوباء" وذلك حينما كثفت السلطات الأمنية والعسكرية جهودها لمجابهة الجائحة وفرض الحجر الصحي

³⁰⁹ أنظر الملحق رقم واحد.

³¹⁰ Michel Crozier, Friedberg, « L'acteur et le système, Les contraintes de l'action collective », Editions du seuil, Paris 1977.

والشامل على المواطنين في سياق ركزت فيه أغلب الوسائل الإعلامية والعالمية على حدث الوباء، لترسم هذه المعطيات مناخا ملائما للشبكات مستقطبة من خلالها الحالمين بالهجرة نحو أوروبا. كما لا نغفل القول بأن الطقس خلال شتاء 2020 كان ملائما لخروج عديد القوارب. ومن هنا يمكن القول أنّ المشروع الهجري يتغذى من خلال الأزمات الاقتصادية من ناحية واستغلال شبكات التهجير للفراغات الأمنية وعدم انشغال الوسائل الإعلامية بملف الهجرة من ناحية أخرى، وهو ما يؤكد أن هذه الشبكات تسير نحو التطور والتحكّم وليس إلى الاندثار والتبخر. فهذه الشبكات تحافظ على قوتها من خلال امتدادها العلائقي بشكل أوّلى والقائم على روابط دموية خاصّة بمناطق أقصى الجنوب "فعلقات النسب والقراة القائمة بين القبائل الحدودية التونسية الليبية من أبرز العوامل الأساسية في استمرار حركة الهجرة وعمليات التهريب والتجارة الموازية".³¹¹ علاوة على امتدادها العلائقي مع بعض الأمنيين في جلّ المناطق تقريبا ونستشف هذا بعد خروج العديد من التونسيين من جزيرة جربة بعد إعلانها منطقة موبوءة بطريقة سرّية عن طريق شبكات تهريب، وهو ما يؤكد قوّة وصلابة هذه الشبكات، ذلك أنّ الخروج من جربة كان عبر قنطرة جرجيس فقط بعد إغلاق المعبر البحري: قابس، جربة.

الحلقات المجتمعية وقرار الهجرة السرية

"الدنيا مسرح كبير، وكلّ الرجال والنساء ما هم إلا ممثلون على هذا المسرح" هكذا وصف شكسبير مسرح الحياة ليزيد "قوفمان"³¹² عمقا في وصفها السوسولوجي معتبرا أنّ الحياة هي مسرح ومسرحة وإخراج يوميّ، فالمسرح الذي يعنيه قوفمان هو المجال الذي تقرع فيه الأحداث، أما المسرحة فهي المضامين التي يعرضها الأفراد في هذا المجال الاجتماعي الجغرافي وهذان الأخيران يؤسسان للتفاعل والتفاعلات. وبالتالي فإنّ المهاجرين كوّنوا الركح المسرحي الخاص بهم، فمجالهم الاجتماعي هو عالم الحي والمقاهي تقريبا علاوة على شبكات وصفحات التواصل الاجتماعي التي صنعها المهاجرون أو الراغبون في الهجرة والتي تنشر الصور عن أوروبا أو تنشر معلومات حول فرص الهجرة بطريقة نظامية أو غير نظامية ويتمحور مضمون عالمهم حول قصص المهمشين المغيبين المنسيين الحالمين بحياة أفضل بفضاء جغرافي غير موطن النشأة، لذلك فإنّ التفاعلات فيما بينهم تقوم على اقتسام المأساة والحسن الجماعي بمشاعر الخيبة والحلم بالهجرة ليكون المشروع الهجري أشد الارتباط بسجلّ ثقافي وجودي ومبنيّ على تصورات مسبقة عن الحياة بأوروبا ذلك أنّ الشباب التونسي يفتقر للحلم. لذلك تجدر الإشارة إلى أن السببية الاقتصادية والاجتماعية من أهم عوامل

³¹¹ عائشة التايب كرشيد، "حركة الهجرة السرية والتجارة الموازية عبر الحدود التونسية الليبية وظاهرة التهريب بأقصى الجنوب التونسي"، شهادة الدكتوراه، تحت إشراف: د. عبد الوهاب بوحديبة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، قسم علم الاجتماع 1996/1997، ص

³¹²Goffman (Erving), La mise en scène de la vie quotidienne : la présentation de soi, Edition de Minuit, Paris 1973.

الطرد، ولكن هذه السببية غير قادرة لوحدها على تحليل الظاهرة الهجرية، "فالهياكل المجتمعية وخاصة الأسرة، الحي، والمجتمع بشكل عام، تشكل دوائر صنع القرار décisionnels بل أكثر من ذلك، فهي قادرة على هيكلة وتشكيل وحشد الموارد المادية والرمزية لتنفيذ مشروع الهجرة".³¹³ لذلك فإنّ "الفرد الذي يواجه قرار الهجرة هو مرتبط ببنية اجتماعية تشكلها الأسرة المقربة والممتدة، وأشخاص من نفس المنطقة أو مجموعة ثقافية أو على نطاق أوسع من قبل الأصدقاء والمعارف"³¹⁴ كذلك شبكات التهريب، ووجود أحد أفراد العائلة بالمهجر، كلّها عوامل غير مرئية للظاهرة الهجرية، فدون حضور رأسمال اجتماعي وعلائقي لا يمكن للمشاهد الهجري أن يتطور. ومن هنا يمكن القول أن كوفيد 19 لم يكن عائقاً أمام الحلقات المجتمعية التي تساهم في صنع القرار الهجري، بل غياب العدالة الاجتماعية زمن الوباء والرسائل السياسية السلبية كلّها عوامل حفزت المهامشين للانخراط في المشروع الهجري. لذلك فإنّ مسرح الحياة زاد من الممثلين الذين يلعبون دور الهامشيين زمن الجائحة ولكنهم ممثلون غير مزيّفين بل واقعيون، وبالتالي فإنّ الحلقات المجتمعية المتكونة من العائلة ومتانة شبكات الصداقة والجيران وأبناء الحي الواحد لعبت أدواراً حاسمة في صنع القرار زمن الوباء وكانت طاردة ومولت المشروع الهجري بالمال والمعلومات ويعود هذا الدور لحدّة الأزمة الاقتصادية والسياسية واستشراف صور تراجيدية للمستقبل، كما ستزداد هذه الحلقات توسعاً في عملية صنع القرار والتحفيز بعد مرور الجائحة. وبالتالي فإنّ مسرح الحياة زمن الوباء مليء بسرديات اللاعدالة الاجتماعية التي أصابت الأحياء الكبرى والجهات الهامشية مما خلق مناخاً ملائماً لبعض سكانها وحلقاتها المجتمعية لصنع القرار وحشده وتمويله.

حركات الاحتجاج تغذي موجات الهجرات زمن الوباء

أكدنا في أعمال سابقة فرضية أنّ الاحتجاجات الاجتماعية التي تنتهي باليأس والإحباط إما بتجريم الحراك أو بصعود آليات التشغيل الهشّ أو دون حلحلة جذرية، كانت عاملاً حاسماً لتعزز مشاعر الخيبة لدى الشباب والفئات الهشة تدفعهم للانخراط في المشاريع الهجرية غير النظامية وتجدد موجاتها. ومرة أخرى تثبت هذه الفرضية صحتها نسبياً، ذلك أنّ كوفيد 19 وقرار الالتزام بالبقاء في البيوت في وقت سجّلت فيه تونس حوالي 994 حالة إصابة و41 حالة وفاة أواخر شهر أفريل لم تمنع بروز حركات احتجاج. "حيث تعلّقت أغلب مطالب المحتجين خلال شهر أفريل بالحق في الماء والغذاء بمناطق عديدة وخاصةً بجهة القيروان وأريافها، ولكن على الرغم من الرسائل الحكومية المطمئنة لوجود مادتي السميد والفرينة وتوزيعها بشكل عادل خلال فترات الحجر الصحي، إلا أنّ الواقع أكدّ على نقص هاتين المادتين وأغلب المواد الأساسية الأخرى، كما عاشت عديد المناطق على واقع احتجاجات تطالب بالتقسيم العادل للمنح والمساعدات الاجتماعية،

³¹³ Mabrouk (Mehdi), Voiles et Sel... op.cit., P 27

³¹⁴ Piguet (Etienne), "Les théories des migrations, synthèse de la prise de décision individuelle", « Revue européenne des migrations internationales, Vol 29_ N : 3, 2013, PP 141_161 », P 150

خاصّة أولئك المنخرطين في أعمال غير رسمية وآخرون حرفيون وعمال النزل والمهمشون، ليتحوّل هذا الاحتقان إلى محاولة انتحار ثلاثة شبّان بمنطقة مكثّر من ولاية سليانة بمقر المعتمدية. كما لم تتوقف الاحتجاجات خلال شهر أفريل 2020 عند المطالبة بتوفير المواد الغذائية الأساسية ومياه الشرب وتقسيم المساعدات الاجتماعية فقط، بل شملت أيضا قطاع الصحّة في مناطق مختلفة ومطالبتهم بتوفير المستلزمات الوقائية الضرورية من فيروس كورونا، وحركات أخرى ذات خلفية صحّيّة تنادي بتوفير أطباء اختصاص خاصّة في الإنعاش والمطالبة بإجراء التحاليل للتقصّي حول الفيروس واحتجاجات أخرى بسيدي بوزيد تطالب بتسهيل دخول العالقين من أبناء الجهة على الحدود التونسية الليبية، كما احتج البحّارة بمنطقة طبلبة وطالبوا بتمكينهم من تعويض من صندوق الراحة البيولوجية، إلخ... على الرغم من تنوع حركات الاحتجاج في شكلها ومطالبها إلا أنّ الوقفات الاحتجاجية في شهر أفريل كانت أبرز التعبيرات وظلّ تدهور الوضع المعيشي الاقتصادي والاجتماعي من أبرز أسباب صعود حركات الاحتجاج، كما تصدرت ولاية سيدي بوزيد طليعة المناطق الأكثر احتجاجا خلال شهر أفريل بـ 75 تحركا احتجاجيا وتليها القيروان بـ 41 تحركا احتجاجيا ثمّ سوسة بـ 24 تحركا ثم مدنين بـ 20 تحركا والقصرين بـ 17 تحركا وتطاوين بـ 14 تحركا وقفصة بـ 13 تحركا احتجاجيا.³¹⁵ ولكن تغيّر المعطى الاحتجاجي مع شهر ماي وخاصّة أواخر شهر رمضان وبعد عيد الفطر مباشرة (الأسبوع الأخير من شهر ماي) بمناطق الحوض المنجمي أين تمّ غلق مواقع إنتاج الفسفاط، وغلق الطرقات التي تمر عبرها الشاحنات الناقلة للفسفاط، كما عاشت البلاد في شهر ماي على وقع تحركات احتجاجية تنادي في أغلبها بالعدالة الاجتماعية، ولكن مرّة أخرى وفي سياق الوباء اصطدمت حركات الاحتجاج بالإحباط والانكسار، حيث لم تلبّ الحكومة الحاجيات الاجتماعية لفئات عديدة وخاصّة أولئك المنخرطين ضمن أعمال غير رسمية، ولا تزال إشكاليات انقطاع المياه متواصلة، كما تمّ إرسال استدعاءات أمنية وقضائية للشبان الذين أغلقوا منافذ خروج الفسفاط بالحوض المنجمي ولبعض عمّال الحضائر المطالبين بتسوية وضعياتهم الاجتماعية والقانونية، ليكون الاحتجاج الاجتماعي الذي يصطدم باليأس والإحباط مرّة أخرى وفي سياق الوباء عاملا حاسما يساهم في ارتفاع المخزون الهجري ويدفع بالمهمشين للانخراط في المشاريع الهجرية غير النظامية، وبالتالي فإنّ الاحتجاج الاجتماعي والمطالبة بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية لم تنقطع زمن الوباء، ولكن ظلّت المطالب على هامش الهامش ليكون المتوسط أفضل طريق لأولئك الذين ناضلوا واحتجوا، ولكن أصواتهم لم تجد قبولا قبل وأثناء الوباء، وبالتالي فإنّ الفيروس ليس أشدّ خطورة من السفر عبر قارب هشّ بالنسبة لهؤلاء المغيبين. لذلك فإنّ

³¹⁵ المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، المرصد الاجتماعي التونسي " نشرة شهر أفريل حول الاحتجاجات الاجتماعية والانتحار والعنف " عدد 79، أفريل 2020. لمزيد الاطلاع يمكن القارئ العودة لهذا التقرير =

احتجاجات شهر أفريل ومطلع شهر ماي في سياق الأزمة الاقتصادية والصحية الوبائية ساهمت في تضاعف عدد الذين وصلوا إلى إيطاليا خلال شهر ماي.³¹⁶

ما بعد كورونا: أي مشهد هجري؟

يردّد العديد من المفكرين في مجالات مختلفة خلال هذه الجائحة عبارة "العالم ما بعد كورونا" محللين فرضيات محتواها أنّ العالم سيعيش على واقع تغيرات بعد كوفيد 19 ولن يكون كما كان قبل الوباء خاصّة في المجتمعات الغربية على الرغم من محدودية هذه العبارة. ولكن ماذا عن مجتمعنا؟

"استفاق التونسيون والعرب في القرن التاسع عشر على صدمة اللقاء بأوروبا الغازية والمسلحة بالآلة والعلم، حيث افرقت الساحة الثقافية التونسية والعربية شيئا، وأضحى محل تنازع محتدم بين أصناف من المثقفين، وما كان يجمع بين هؤلاء المثقفين على اختلاف رؤاهم، هو رفضهم للحاضر لأنّه حاضر يجسّد عجز العرب عن الانخراط في الحداثة، وإدراك زمن العالم وعن فك تبعيتهم للمراكز الرأسمالية العالمية الماسكة للسلطة والثروة والعلم. فالعرب لا يزالون في علاقتهم بالعالم الغربي المتقدم ينفعلون أكثر مما يفعلون، ويستهلكون أكثر مما ينتجون..."³¹⁷ وعلى الرغم من توالي الأحداث العالمية المتمثلة في الثورات الصناعية بمختلف مراحلها في سياق متناقضات التنوير والحروب والديمقراطية ظلّت تونس خارج دائرة التغيرات الجذرية، فعلى الرغم من رهان دولة الاستقلال على التعليم والصحة إلا أنّ البنى ظلّت تقريبا كما هي ولم لم تفلح في عملية التغيير. وهذا "لا يعني أننا نحيا في جزيرة معزولة، ولكن يبدو أنّ حواسنا بطيئة متكلسة، تشبه جلدة التمساح التي تمنعه من التقاط الذبذبات واللمسات والاستجابة لها بالشكل المطلوب. سيظل عالمنا العربي في استمراره التاريخي ولن يستجيب إلى فترة ما بعد كورونا إلا بشكل بطيء،... فالتحقيب هو فعل الوعي وليس أثر الأحداث".

قبل وباء الكورونا عمّ الفساد وانتشر الحرمان وصعدت حركات الاحتجاج لتزيد الجائحة من عمق الأزمات التي من شأنها أن تغذي حركات احتجاجية واجتماعية عديدة لفئات سجنها الحجر الصحي العام والشامل معبّرة عن غضبها وحرمانها بعد كورونا. كما ستعيش جهات عديدة على واقع احتجاجات اجتماعية تنادي أغلبها بنفس المطالب المرفوعة من قبل الوباء "التشغيل، التنمية، الصحة، الحق في الماء..." ولكن لن تستطيع هذه الحكومة وهذا المناخ والمشهد السياسي الحالي حلحلة الأوضاع لتتعرّز مشاعر الخيبة واليأس والإحباط. كما ستعمل السياسات الهجرية الأوروبية على المزيد من عزل وإدارة حدودها خاصّة أنّ الوباء قد يكون تعلّة لها لفرض قوانين جديدة باسم

³¹⁶ انظر الملحق رقم 1.

³¹⁷ الهادي التيمومي، "الاستعمار الرأسمالي والتشكيلات الاجتماعية ما قبل الرأسمالية، الكادحون الخمسة في الأرياف التونسية 1861-1943"، دار محمد علي الحامي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، الجزء الأول، 1999، ص

الحماية والتأمين من الوباء والأوبئة. وبالتالي لن يتغير الوضع بعد كورونا بتونس بل سيذهب إلى المزيد من الانكماش، حيث يتوقع صندوق النقد الدولي زيادة كبيرة في عبء الديون الذي تتحمله تونس، في ظلّ سعيها لمجابهة كوفيد 19 نتيجة للهبوط الحاد في النمو وتدهور رصيد المالية العامة الأولى بسبب انخفاض الإيرادات وتأثير إجراءات التصدي للأزمة، لذلك يمكن أن يصل الدين العام والخارجي في عام 2020 وفقا لتقديرات الصندوق إلى 89% و110% من إجمالي الناتج المحلي، خاصة أن تونس قد تحصلت على قرض آخر يوم 10 أفريل 2020 بقيمة 745 مليون دولار أمريكي، كما يتوقع الصندوق أيضا أن يهبط النمو عام 2020 إلى -3.4% وهو أدنى مستوى وركود يسجله منذ 1956.³¹⁸ وهذه المعطيات من شأنها أن تؤدي إلى ارتفاع نسبة البطالة تقريبا بـ 2، 17% وسيبلغ عدد العاطلين نحو 730 ألف عاطل وعدد العاطلين عن العمل الإضافيين نحو 106 ألف عاطل تقريبا، إضافة إلى فقدان حوالي 63.400 وظيفة وفقا لتقديرات البنك العالمي الذي يتوقع تراجع النمو الاقتصادي بـ 4.319% " وسيظل المنوال التنموي بتونس منحصرًا بين حالتين: الحالة الأولى وهي تحقيق النمو دون التنمية أو ما يعبر عنه بالتنمية التخلف، إذ لا تتحقق التنمية بمجرد حصول تطور اقتصادي واجتماعي لأن ذلك ارتبط باحتكار الثروة الوطنيّة وثمار التنمية من طرف أقلية محظوظة مقابل تفكير الريف وتكديح الطبقات الوسطى وبؤس الأحياء الشعبية في المدن الكبرى وانتشار الجهل والأميّة... والحالة الثانية هي حالة التنمية دون نمو من خلال وجود منوال تنمية تابع ومرتبطة بما تفرضه المؤسسات الماليّة العالميّة التي تحبس بلدان الجنوب في فخّ التبعية والتخلف، في حين أنّ التنمية الحقيقيّة تفترض أن يحتفظ كلّ بقدرته على التحكم في الشروط المادية لإعادة إنتاج مجتمعه"³²⁰. لذلك لن نتغير في سياق منوال تابع ومتخلف بل ستعمق الأزمة وتظل أبرز الهواجس الأولى لكل الحكومات المتعاقبة هي تسديد خدمات الدين الخارجي على حساب التنمية والتطور الاجتماعي والاقتصادي، ففي الميزانية العامة لسنة 2019 خصصت 23% لسداد الدين الخارجي مقابل 13% فقط موجهة للخدمات والملفات الاجتماعية³²¹ وبالتالي ستلجأ العديد من الفئات إلى الخلاص الفردي، وسيخطر العديد من الشباب في مشاريع الهجرة السريّة زمن كورونا وبعدها وستزداد موجات تدفق المهاجرين والفواجع بالبحر المتوسط خاصة بعد أن كثفت رئاسة الحكومة من الرسائل السلبية الكتابية من خلال المنشور عدد 16 بتاريخ 14 ماي 2020 وموضوعه إعداد مشروع ميزانية الدولة لسنة 2021، الذي ينص على جملة من الأهداف، ولبلوغها قررت الحكومة

³¹⁸ <https://www.imf.org/ar/Countries/TUN/tunisia-qandas>. Le 21/05/2020.A 21 :52h.

³¹⁹ Azzam Mahjoub, « Pandémie COVID 19 en Tunisie : LES INEGALITES, LES VULNERABILITES A LA PAUVRETE AU CHOMAGE » Forum Tunisien Pour Les Droits Economiques Et Sociaux, Mai 2020. P 32.

³²⁰ المولدي قسومي، " استئناف البناء الوطني من منظور العقد الاجتماعي أي دور للاتحاد العام التونسي للشغل؟"، "الاتحاد العام التونسي للشغل في مسار البناء الوطني (2014-1946)"، جامعة منوبة، منشورات المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر بالاشتراك مع الاتحاد العام التونسي للشغل، 2018، تنسيق وجمع النصوص وتقديمها: مروان العجيلي، محمد فوزي السعداوي، مولدي قسومي، عبد المجيد بالهادي، ص، 105، 145، ص 131.

³²¹ Olfa Lamoum, « Tunisie. Une gestion sécuritaire du covid_19 au détriment du droit à la santé » Le 29 avril 2020. Site : « orienxx.info »

العمل على تطبيق جملة من التدابير والإجراءات الاستثنائية ومن أهمهما عدم إقرار انتدابات جديدة بالنسبة لسنة 2021 باستثناء بعض الاختصاصات الملحة ذات الأولوية القصوى وبالتالي ارتفاع الخزّان الهجري وتوسع خارطة المهاجرين.

خاتمة

إذا كانت كلمة الحرق في تونس قد ارتبطت بالمهاجرين غير النظاميين، فإنّ الأصل الاشتقائي جاء من الداريجة المغربية من فعل (حرك) أي من فعل حرق في اللّغة العربية، فالحريك له علاقة بالحرق، وبالتالي بالنار، وتأويلات الحرق والنار تتصل بسرعة بالهلاك والموت، كذلك نفس الشيء بالنسبة للغرق في البحر، وهنا يتم ربط الفعل حرك من خلال مصدره الحرق بالغرق، كما أنّ الحراكة عادة ما يقومون بحرق كلّ الأوراق التي تثبت هويتهم، أو يتركونها وراءهم حيث لا أمل في الرجوع إلى الوراء، هذا معطى آخر يزيّج الأصل الاشتقائي لمفهوم الحريك، فيقال "حرك الفيزا" أي لم يحترم مدتها فتجاوزها.³²² ولكن إذا كان الفعل (الحرق) يدل على أنّ فردا أو مجموعة ما هاجرت بطريقة غير نظامية ونسبة الموت فيها عالية، فإنّ ما يمكننا استنتاجه اليوم أنّ الحرق هي حرق الإنسان في وطنه قبل الحرق عبر قوارب هشة، حيث احترقت أحلامهم وتبخّرت ولم يعد هناك فرق بين الحياة والموت في موطن النشأة وبالتالي فإنّ المهاجرين غير النظاميين يعيشون حرقين: الأولي بموطن النشأة أين ضاعت واحترقت الأحلام وتلاشت والثانية أثناء المغامرة والرحلة الهجرية، أما الحرق الثالثة بمواطن الاستقبال وذلك بعد أن يعيش المهاجرون انتهاكات إنسانية جزاء السياسات الهجرية. ومن هنا يمكن تفسير المنطق الهجري لهؤلاء الفاعلين الذين رسموا تصورهم وقراءتهم الخاصة من خلال أنّهم أموات بالحياة في موطنهم ولا فرق بينهم وبين الموتى إلا بالتنفس، وبالتالي ركوبهم قوارب الموت أو تعرّضهم لعدوى الفيروس هو أمر لن يكون أشدّ خطرا من حياتهم التي تغدّت بمشاعر اليأس والخيبة والإحباط التي كانت السياسات التنموية والطبقة السياسية من أبرز العوامل التي رسمت وصدّرت هذا المناخ. وبالتالي فإنّ "الهجرة غير النظامية هي حركة يستخدمها المهتمشون ويعتبرونها من بين المصاعد التي يمكن أن ترتقي بهم طبقيًا، كما أنّ الحرق تمرّ عبر ثغرات في نظام التمييز العنصري والتمييز السلبي المسلط على تخوم المركز، فهي خلاص فردي وجماعيّ في آن لعدد كبير من شباب الحومة الشعبية"³²³ ومن الفئات الهشة والمسحوقة ومن أناس ضاق بهم الحال وركبهم اليأس بموطن النشأة.

فردوس رخالي، "دور الدولة والمجتمع المدني في إدماج الشباب المغاربة"، المؤتمر السابع والأربعون لمنتدى الفكر المعاصر حول: الشباب

المغاربة وتداعيات الهجرة السرية، منشورات مؤسسة التميمي، ماي 2017، 72-96، ص 84³²²

³²³ سفيان جاب الله، "الراب، السلفية العلمية والألتراس: حين تحكي "الحومة الشعبية"، المراسل، نشر يوم 4 يوليو (جويلية) 2019. الموقع:

al-morasel.com. Le 09/06/2020.

لذلك نؤكد مرّة أخرى على ضرورة مراجعة المسار التنموي الذي ظلّ متخلفاً، ومراجعة السياسات الهجرية وإيجاد حلول بديلة تقطع مع الأزمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تلي حاجيات الفئات الهشة والمسحوقّة وإلاّ ستتصاعد حركات الاحتجاج الاجتماعي وستنخرط العديد من الفئات والطبقات بصفات متفاوتة في مشاريع الهجرة غير النظامية وتتوسع شبكات التهجير وقد تنوع فيه طرق العبور وتتشكل من خلالها قصص تراجيدية أخرى تكون فيها الروح الإنسانية بطلّة القصّة والسردية.

الملحق رقم 1

		2019		2020				
عدد الواصلين الى ايطاليا	عدد المجتازين	عمليات الاجتياز المحيطة	الواصلون برا عبر البلقان	الواصلون بحرا الى شمال المتوسط عبر طرق أخرى (مالطا...)	الواصلين الى ايطاليا	عدد المجتازين	عدد عمليات الاجتياز المحيطة	
31	177	8			42	316	22	جانفي
21	46	4			52	571	25	فيفري
85	323	20			60	137	4	مارس
116	166	11			37	99	6	افريل
94	249	19			494	1243	60	ماي
347	961	62	21	196	685	2366	117	المجموع

المصدر: بلاغات وزارة الداخلية التونسية (تبقى الاحصائيات تقريبية ولا تعكس كل الحقيقة)

احصائيات المفوضية السامية لشؤون اللاجئين

احصائيات فرونتكس

ففي فهم العنف المسلط على النساء داخل الفضاءات زمن الكورونا

حازم شيخاوي

نبذة:

المقال هو محاولة لفهم وتفكيك ظاهرة العنف المسلط على النساء في الفضاء العام، الخاص والافتراضي في فترة الحجر الصحي الشامل؛ وذلك من خلال قراءة تقاطعية جندرية، تستند إلى الدوافع الثقافية والتاريخية والآنية، وترتكز على عدة مشارب فكرية وفلسفية.

Abstract:

This article is an attempt at comprehending and dismantling the phenomenon of violence against women in public and private spaces as well as cyberspaces during the Covid-19-induced quarantine. We offer an intersectional, gender-oriented reading that tackles cultural, historical and present-day motives, and founds itself upon philosophical frameworks.

“Ce que le spectacle donne comme perpétuel est fondé sur le changement, et doit changer avec sa base”

Guy Debord

تقديم:

في مستهل ورقتنا البحثية هذه نود الإشارة بشكلٍ جلي إلى المسألة التالية: إنَّ بحثنا حول العنف المسلط على النساء بين الفضاءات لا يندرج ضمن مقال بحثي محكم أو تأملي بحت، بقدر ما سعينا فيه إلى قراءة تطورات وأحداث الواقع بالاستعانة بأدوات تحليل وتفكيك مختلفة ضمن مشروع كراس المنتدى الاجتماعي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية في فترة الحجر الصحي؛ وذلك بهدف فهم ظاهرة العنف المسلط على النساء ضمن مختلف الفضاءات (الداخلية والخارجية)، وينجر عن هذا الأمر إعادة قراءة لبناء كلٍّ من الأنوثة والذكورة ومختلف العلاقات بينهما ضمن الجائحة (la pandémie) التي طالت العالم بأسره، خصوصًا إذا ما أشرنا إلى حجم العنف المسلط على النساء الذي ارتفع بنحو 7.5 مرات مقارنة بالأرقام المسجلة قبل انتشار فيروس كورونا corona virus.

انطلاقًا من أزمة الجائحة أعدنا مداورة السؤال حول أدائية الجندر، هذا إذا ما استندنا لفهم جوذيت بتلر Judith Butler، التي تؤكد على أن الجسد هو محور وجودنا وصناعتنا وأدائنا في العالم، وهو ما نلصق عليه تصوراتنا والعادات، وهو من يتعرض إلى العنف بشتى أنواعه³²⁴؛ إضافة إلى أنه براني، أي أنه ينتهي إلى التفاعل والمشاهدة والمحاكاة والاتصال والتواصل. يبدو إذن أن الجسد هو الذي يمتلك قوة الفعل، لكنه أيضًا هو الذي يحمل تمثلاتنا، أي أنه هو الجنس الاجتماعي. لكن للبعد البيولوجي أهمية أيضًا، فالجسد هو الذي يتعرض للوعكات الصحية، وهو الذي يُمارسُ الفعل السياسي من خلاله وعليه انطلاقًا من التجسد الجسماني؛ وهذا تحديدًا ما كشف عنه فيروس كورونا.

من بين المسائل العديدة المطروحة للنظر، والقراءات المتعددة، أردنا أن نسلط الضوء على كيفية التعامل مع فضاءاتنا الداخلية والخارجية زمن الجائحة، وأن نؤوّل الإشكالية وفقًا لقراءة جندرية تحدد العلاقة بين العنف المسلط على النساء في الفضاءات المنزلية والخارجية. نحنُ

³²⁴ « Le corps implique mortalité, vulnérabilité et puissance et puissance d'agir : la peau et la chair nous exposent autant au regard de l'autre qu'au contact et à la violence » Défaire le genre, Judith Butler, traduit par Maxime Cervuelle, Ed. Amsterdam, 2016, p34.

على يقين بأن مسألة العنف في الأماكن العامة والخاصة على درجةٍ بالغة الأهمية، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بالجانب العلائقي الجندري، أي التفاعل بين النساء/ الرجال، لكن التطرق له في علاقة الجانب الطبي والتأطير العام للحركة وإجبارية البقاء في المنازل والتفاعل في مواقع التواصل الافتراضي دفعنا لإعادة استئناف الإشكالية.

تأكد لدينا يقين حول أهمية تناول هذه الإشكالية من خلال الملاحظات الأولية، وما تم تداوله على وسائل التواصل الاجتماعي بالأساس، والأرقام التي قدمتها الجمعية التونسية للنساء الديمقراطيات³²⁵، وبالاعتماد على التقرير الذي أصدره منتدى الحقوق الاقتصادية والاجتماعية [الذي أشار إلى أن العنف الجنسي وصل إلى حدود 15% في حين مثل الفضاء الخاص والعام مجال العنف الذكوري بامتياز والذي ارتفع نحو 85%]³²⁶ وإلى بلاغات هيئة الأمم المتحدة للمرأة التي سنستعين بها في التحليل من خلال ما سيقدم لاحقاً في ورقتنا.

إذن، في هذا الإطار العام يتنزل مقالنا حول العنف المسلط على النساء زمن الكورونا. من خلال هذا الطرح، حاولنا أن نفكك المسألة انطلاقاً من مرجعيات فلسفية وسوسولوجية وقراءات الدراسات الجندرية ضمن قراءة إبستيمولوجية تقاطعية. لم نكتف قطعاً بالحوامل التحليلية، بل مرّد السؤال هو الواقع بكلّ ثقله: إنَّ العنف المسلط على النساء ظاهرة جذورها ضاربة في كلّ المجتمعات الذكورية والباطيركية، وأثرها حالياً على الواقع دماغ جداً، خصوصاً في ظرفية الوباء العالمي، وتداخل الفضاءات. أردنا بداية أن نفهم الرمزيات التي توجد وتتواجد من خلالها، وذلك ضمن سؤال أنطولوجي بحث، وكان لا بد أن نميز مفهوماً بين الفضاء والمساحة والمكان وفقاً لما ترتب عن الجائحة وبالعودة دائماً لمنظار جندي يفكك ظاهرة ازدياد وتيرة العنف المسلط على النساء، وذلك ما يجعلنا نتساءل: ما هي الكيفيات التي تتحدد ضمنها الأدوار الاجتماعية زمن الجائحة؟ وكيف يمكن أن نفسر ونؤول العنف المسلط على النساء تحديداً؟

بناءً على ما تقدم نطرح التمشي التالي في المقال: العنف مُجنّداً وحيود الفضاءات، ثم تحليل ذلك وفقاً لقراءة تقاطعية وفلسفية وبالاعتماد على الأهداف التالية:

- كيفية فهمنا لتزايد العنف المسلط على النساء من خلال ازدواج الأدوار الاجتماعية: بين الهيمنة الذكورية وترسيخ ثقافة تطويع وتعنيف النساء جسدياً ومعنوياً.

³²⁵ قدمت يسرى فراوس رئيسة الجمعية التونسية للنساء الديمقراطيات قراءة سياسية واجتماعية لوضعية النساء في فترة الحجر الصحي الشامل، كما أشارت إلى ارتفاع نسب العنف المسلط عليهن، وذلك في حوار أجرته في إذاعة خاصة بتاريخ 24 أفريل 2020. رابط المشاهدة: <https://www.youtube.com/watch?v=4arqkUMnakY>

³²⁶ تقرير منتدى الحقوق الاقتصادية، ماي 2020.

- التطرق للأبعاد التأويلية للحجر الصحي في فهم تدبير نشاطات فضاءات عمل الفاعلين والفاعلات اجتماعيًا.

المنهجية:

نظرًا للطرفية التي أجبرتنا على المكوث في المنازل اعتمدنا في مقالنا على العودة إلى مختلف الإحصائيات المحلية والعالمية المتاحة حول العنف المسلط على النساء وتطعيم التحليل بالقراءات الفلسفية التي تهتم بالجانب الأنطولوجي والفينومينولوجي، وذلك لفهم وتَعَقُّل علاقتنا بالآخر³²⁷ طالما أنَّ ذلك نقطة مهمة وأساسية في الكتابات الجندرية. كما عدنا إلى براديجمات التحليل الإبتسيومولوجي في العلوم الإنسانية وتطويعها من أجل فهم إشكالية الحجر الصحي العام، وأيضًا استندنا إلى بحوث ومقالات صحفية ومحكمة صادرة مؤخرًا وإحصائيات محلية وعالمية. ومن أجل الفهم التوليقي بين كلِّ هذه النقاط، ارتكز العمل على القراءة التقاطعية [L'intersectionnalité] لغاية الربط بين مجمل العوامل التي تُخلف العنف والاستلاب والتوتر وبناء الأنوثة والذكورة وفقًا للبنى الفكرية والثقافية والتاريخية؛ وأيضًا لقصد تفكيك الهيمنة الذكورية وفهم ما وقع من عنفٍ ضمن سياق الجائحة التي طالت العالم بأسره. هذا ونشير إلى أننا تركنا المراجع مثلما وردت في لغتها الأصلية [بالفرنسية].

العنف مجندراً وحيود الفضاءات:

يبدو أن ظاهرة العنف المسلط على النساء زمن الجائحة ظاهرة عالمية، وهذا ما أشار له بلاغ صادر³²⁸ عن المديرية التنفيذية فمزيل ملامبو نجوكا Phumzile Mlambo-Ngcuka لـ"هيئة الأمم المتحدة للمرأة"، الذي أقر بأنه منذ اجتياح فيروس كورونا شهد العنف المسلط على النساء داخل الفضاء المنزلي أحد أهم الاعتداءات المسجلة ضد منظومة حقوق الإنسان. ويبين نفس المرجع أنه لغاية 6 أبريل 2020 تم تسجيل تعنيف 243 مليون امرأة في العالم بأسره، وهو رقم رُجح ارتفاعه بشكل رهيب. في السياق المحلي، أكدت رئيسة الجمعية التونسية للنساء الديمقراطيات³²⁹ في ظهور إعلامي أن نسبة العنف المسلط داخل الفضاء المنزلي قد تضاعف حوالي أربع مرات مقارنةً بالأرقام التي سبقت ظهور الجائحة العالمية. لكن ما لم تهد إليه التقارير أيضًا هو العنف الذي يسلط داخل الفضاء الرقمي، ومن هنا نفهم أن العنف المسلط على النساء لم يرق فقط بتغيير حدود الخاص والعام، بل أيضًا أصبحت سطوة التمييز الذكوري والهيتروبطيريكي مُجندرةً وفقًا للجائحة.

³²⁷ « Le devenir genré est toujours un devenir pour les autres » Défaire le genre, Judith Butler, traduit par Maxime Cervuelle, Ed. Amsterdam, 2016, p 40.

³²⁸ إحالة على الرابط الإلكتروني للبلاغ:

<https://www.unwomen.org/fr/news/stories/2020/4/statement-ed-phumzile-violence-against-women-during-pandemic>

³²⁹ أنظر الرابط السابق.

إنَّ ما نريد أن نبينه في جانبٍ كبيرٍ تطرق له ميشال فوكو Michel Foucault في حديثه حول السجن البنوبيطي³³⁰، حيث أكد أنه عندما انتشر الطاعون خلال القرن السابع عشر في فرنسا، تم تطويق المجال والفضاءات وتقسيم المساحات ومُنَع الخروج من المنازل، كما تم وضع مراقب لكل المداخل والمخارج وتسجيل كلِّ التحركات. إذن فالهلع والخوف من الفيروسات المعدية والتي لا يمكن التحكم بها يؤدي إلى إرساء نظام "مراقبة ومعاقبة" حول الجميع، ويضطر الأفراد إلى الالتزام بمساحتهم الضيقة، وذلك ما يعني في قراءتنا حصر الذكورة والأنوثة داخل نفس المجال الزمني والمكاني. إن القراءة الفوكوية تؤكد على أنه ضمن معطى المرض، يصبح الأفراد ضمن تراتبية لا تفصل بين المتعافين وبين من لم يلحقهم الأذى، بل يخضعون جميعاً لنفس الآلية الرقابية³³¹.

العنف المسلط يُنظر إليه أيضاً على أنه ميكانيزم تآديبي في المجتمعات البطيركية. وهنا تتدخل الدراسات الجندرية، بوصفها أداة لفهم التقابل الثنائي بين المُذكر والمؤنث المبني اجتماعياً والذي لا يُؤخذ على أنه معطى اجتماعي³³²، وهو أيضاً "حفر" أركيولوجي في الخطابات التي تُقيم تمييزاً في "الجُنوسَة الاجتماعية". إنَّ العنف المسلط على النساء في زمن ما قبل الكورونا وفي الفضاء العام تحديداً هو مؤشر دامج على أن المؤسسات والعادات وكلِّ الأشكال التعاقدية الاجتماعية تعمل على ترويض الجسد الأنثوي، حيث نجد في دراسة صدرت عن مركز البحوث والتوثيق والإعلام حول المرأة بتونس أن 78.1 بالمئة من التونسيات تعرضن إلى عنف نفسي و 41.2 بالمئة تعرضن إلى عنف جسدي و 75.4 بالمئة تعرضن إلى عنف جنسي³³³، كما أكد تقرير صدر عن هيئة الأمم المتحدة لشؤون المرأة أن وحدات المتابعة النفسية التابعة لوزارة الصحة التونسية سجلت ارتفاعاً في عدد النساء اللواتي يتصلن بهم زمن الجائحة، ويؤكدن على أنهن يتعرضن إلى حالات قلق حادة واضطراب حيث بلغ الرقم 1269 متصلة أي ما يقارب 60.1 بالمئة من المجموع العام للمتصلين، وطبعاً ترتب على ذلك ارتفاع رهيب لحالات العنف المنزلي، مع ازدياد الصعوبات القضائية والاقتصادية والعائلية؛ وتجدر الإشارة إلى أننا لاحظنا حملة تمييز واحتقار تستبطن نظرة هيتروبطيركية³³⁴ على

³³⁰ Surveiller et punir, Michel Foucault, Paris, Gallimard, 1975, chapitre III, le panoptisme, pp197-198.

³³¹ « Cet espace clos, découpé, surveillé en tous ses points, où les individus sont insérés en une place fixe, où les moindres mouvements sont contrôlés, où tous les événements sont enregistrés, où un travail ininterrompu d'écriture relie le centre et la périphérie, où le pouvoir s'exerce sans partage, selon une figure hiérarchique continue, où chaque individu est constamment repéré, examiné et distribué entre les vivants, les malades et les morts — tout cela constitue un modèle compact du dispositif disciplinaire » Ibid., p199.

³³² « Genre » en tant que substitut pour "femmes" est également utilisé pour suggérer pour que l'information au sujet des femmes est nécessairement information sur les hommes, que l'un implique l'étude de l'autre » Genre une catégorie d'analyse historique, Joan Scott, trad. Elénie Varikas, les cahiers du GIF, p129.

³³³ La violence fondée sur le genre dans l'espace public en Tunisie, publication du CREDIF 2016, pp69-71.

³³⁴ لاحظنا بالأساس نشر عديد الصور التي تتهم على عمل النساء داخل الفضاءات المنزلية، والتي تحمل طابعاً تهمكياً ونظرة احتقار، حيث يمكننا الإشارة إلى أنه وقع مشاركة عديد التعليقات على غرار "صار هكة حياتكم البنات" أو نشر صور للرجال وهم يرتدون "جبة النساء"، ويكتبون عليها: "نسيت من القعدة في الدار وليت مرأة و إلا مازالت راجل"، وتتم أيضاً الإشارة إلى الحيض، حيث كتب عديد الرجال "من القعدة في الدار الواحد باش يجيوه les règles" الخ...

مواقع التواصل الاجتماعي وخاصةً "فايسبوك". كيف نفهم ذلك إذن في إطار تداخل الفضاءات والمساحات وحيود الحدود عن مجال ما قبل الجائحة ؟

لقد دفعنا فيروس كورونا إلى مزج الفضاءات بين بعضها البعض، وإخضاع مشهدية الحركة والمرور داخل فضاءات ضيقة من الناحية الهندسية، فما اعتدنا على القيام به في مجال مفتوح وخارجي بكل ما فيه من تعقيد وتشابك وبكل مرئيته، أضحي اليوم يُمارس داخل المساحات التوجيهية والرقابية، وذلك ما أحدث تداخلاً على مستوى أداء الأدوار الاجتماعية (ذكورة/أنوثة) ورمزياتها والنتائج المترتبة عنها، حيث أخذنا التراتبية الاجتماعية التي تمارس عادة في المجال البراني أي الخارجي والعام، والتي تستند في مقوماتها إلى المعايير الأخلاقية، التاريخية والثقافية، وأضحت مُستقرة آنياً في فضاء الحجب، أي في المجال المغلق.

إنَّ غلبة المذكر على المؤنث وتجسدها ضمن العنف زمن الكورونا نفهمه على أنه النتيجة المنطقية لمسار تنشئة اجتماعية [Socialisation] قائمة على تطعيم الجنس الاجتماعي ضمن تقابل ثنائي: رجل- امرأة، دون أن تترك مجالاً لظهور الفرد أو الإنسان في إطلاقيته³³⁵. هنالك إذن صناعة للجنس: نقوم باستبطان مجمل العادات والتقاليد والترسيمات الاجتماعية [les schèmes sociaux] التي تقيد حركة الفاعلين الاجتماعيين وهو ما عبر عنه بيير بورديو Pierre Bourdieu بالهابيتوس Habitus الذي يقوم بالتمييز تحت ذريعة "الطبيعي"³³⁶، حيث يسمح للمذكر، أي صورة الرجل اجتماعياً، بأن يحتل الفضاء العام، أين يكون التواجد أنطولوجياً لصورة الأقوى والذي يستطيع الدخول في صراع وتحمل المشقة والقدرة على الكلام، وطبعاً ذلك ما يتيح أدائية الجندر خطابياً³³⁷ مثلما تشير لذلك جوديث بتلر Judith Butler حيث يصبح التعود على التلفظ والمحاورة فعلاً ذكورياً اجتماعياً بحثاً وبرانياً؛ بينما تبدأ صناعة الأنوثة في الداخل/ المغلق، أين تكون مهمة هذا الدور الاجتماعي القيام بالواجبات المنزلية (خصوصاً الطبخ والتنظيف) والعزلة وحجب الذات وعدم المواجهة. بناء الذكورة والأنوثة يشتغلان إذن وفقاً لمعيارية ثقافية وتاريخية بالأساس، وهذا ما يجب تفكيكه. إنَّ هذه العوامل تعزز مسار العنف الذي سجل ارتفاعاً أثناء فترة الحجر الصحي زمن الجائحة.

إضافة إلى ذلك، تكشف عديد الأطر مثل الفقر والاضطهاد الاقتصادي وسلعنة النساء (الكويريات وعاملات الجنس والنساء اللواتي يلزمن البيوت) على تقاطع التمييز الجندي مع عدة

³³⁵ « La socialisation sexuée crée donc des différences entre les individus. Mais il y a plus : tout comme la socialisation de classe, elle crée des inégalités (...) dans le monde du travail où la sphère publique (...) et dans la vie privée » la socialisation, Muriel Damon, éd. Armand Colin 2013, p42.

³³⁶ Voir : Pierre Bourdieu, La Domination masculine, Paris, Le Seuil, 1998.

³³⁷ « La performativité doit être comprise, non pas comme un "acte" singulier ou délibéré, mais plutôt comme la pratique réitérative et citationnelle par laquelle le discours produit les effets qu'il nomme » Judith Butler, Bodies that Matter. On the Discursive Limits of « Sex », New York, Routledge, 1993, p. 2.

عوامل ليزيد من معاناتهن (وذلك ما توصلت له أبحاث الدراسات التقاطعية حول النساء السوداوات في الولايات المتحدة الأمريكية)³³⁸. إنَّ الخوف من اللاّ-مرئي أي من الأذى دفع الجميع إلى العودة إلى فضاء ضيق، هو المنزل، أي تلك المساحة التي يتقاسمها الجميع تحت يافطة العائلة أو الشراكة، لكن هذه العودة زمن الجائحة، دفعت إلى تحويل العنف الهيتيرو- بطريكي داخل الفضاء المنزلي تحويلاً مختلفاً، حيث أضحّت تمثلاته متعددة: هو مكان العمل عن بعد، والتدريس بالنسبة للأطفال، وهو مجال الفسحة والراحة والأكل. أي أن التصورات الذكورية التي كانت تمارس في الفضاء البراني، أضحّت تمارس في هذه المساحة الهندسية، وهو ما يعني أن العنف الذكوري الذي كان يمارس خارجاً تحول إلى أداة قهر وغلبة وتفوق جندي على النساء. ولا بد أن نشير في هذا الصدد إلى الخوف من أن تُحول فترة الحجر الصحي الذكورة نحو شيخوخة مسنة تتميز بالوهن والضعف، وهذا ما تشير له آمال القرامي، فالذكور يخافون فقدان القوة والسيطرة والتحكم³³⁹، ويهابون المكوث في الفضاءات المغلقة؛ والزامية الحجر الصحي دفعهم لعيش هذه التجربة، لكن كان هنالك نوع من المقاومة عن طريق العنف.

إن بشاعة وفضاعة هذه الصورة هو ما يحدده المجتمع البطريكي التونسي مثل العديد من المجتمعات الأخرى لأن العنف ظاهرة كونية، والجائحة العالمية دفعتنا إلى إعادة التفكير في مخاطر التمييزات في الأدوار، وكشفت على أنّ عديد عناصر التفاعل الاجتماعي ما تزال غائبة ومهمشة، رغم التقدم الحقوقي والقانوني في تونس. إننا نتمثل العالم مثلما نوجد فيه، ومثلما يُمكن لذواتنا أن نتحدد فيه دون أن نكون في سجن المعيارية الثقافية والاجتماعية. والعبرة التي يجب أن يتم استساغتها حسب تقديرنا تتمثل في كون الصمت المريب حول تفشي ظاهرة العنف في الفضاء العام أدى إلى تعميق هوة الشقاء بين الأدوار الاجتماعية زمن الجائحة أين أصبح نظام "المراقبة والمعاقبة" يشتغل على وتيرة النرجسية الفردية، حيث تتجذر العادة [أي العنف ههنا] ضمن مجتمع لا يقيم مساواةً بين الجنسين، ومجمل الفاعلين الاجتماعيين.

بين المرئي واللاّ-مرئي:

يبدو أنّ المعطى الحديث الذي استقر في مخيال الجميع يتمثل في اعتبار الفيروسات والميكروبات والكائنات الدقيقة فضاءً للالتقاء والتشابك والتواصل، ولا يُمكن أن يكون مجال

³³⁸ « Trop de femmes de couleur sont en effet écrasées par la pauvreté, les responsabilités parentales, le manque de compétences professionnelles. Ces handicaps, largement déterminés par l'oppression de classe et de genre, sont encore aggravés par la discrimination raciale en matière d'emploi et de logement à laquelle les femmes de couleur doivent souvent faire face » Kimberlé Crenshaw, Cartographies des marges : intersectionnalité, politique de l'identité et violences contre les femmes de couleur, l'Harmattan, cahiers du Genre, p55.

³³⁹ "إذا علمنا أن الذكورة هيمنة بالأساس، إذ أنّ الذكر هو الضابط والقيم والمهيمن، تبين لنا أن الهرم يجسد صورة معاكسة... وعلى هذا الأساس كانت الشيخوخة مرحلة ضياع الامتيازات وفقدان الموقع والوجاهة والقيمة والدور والسلطة والصحة، كما أنها بدت أزمة رجل تخلخلت هويته الجندرية، فصار أقرب إلى الأنثى" آمال قرامي، الاختلاف في الثقافة العربية الإسلامية، دراسة جندرية، دار المدار الإسلامي، ص906.

المحسوس والمرئي فقط - الذي يؤول عادةً إلى الفساد والزوال- إنما أيضا المجال "المحتجب" والمخفي وغير المرئي، أي تلك المساحة التي تتطلب منا الكثير من الأدوات التقنية والمعدات المتطورة للكشف عنها. ومن الخصائص التي كشف عنها هذا المجال الدقيق والمتناهي في الصغر أن الجميع قادرٌ على نشر العدوى، ونقل الفيروس دون أن تكون له قدرة التنبؤ والحصر والاستعداد. بذلك يُفهم الفيروس تأويليًا بأنه قدرة اللا-مرئي على التمكن والتواجد في المرئي؛ وههنا يقصد بالقول الجسم دون سواه. الملفت للنظر يتمثل في الآتي: يمس الفيروس مجال أدائية الجسد أخلاقيا، ثقافيا، سياسيا واجتماعيا، أي أنه يدفعنا لإعادة تمثيل الذكورة والأنوثة داخل فضاءات طارئة ومن خلال تداخل المساحات، وتراجع المجال العام مقابل الالتزام بضيق المجال الخاص، وهو ما نسلطه على أجسادنا التي تهددها الجائحة؛ وهذا ما يثير فينا حيرة السؤال التالي: هل مَطلوب ومُستطاع الإنسان الآن وههنا يتمثل في الاستجابة إلى الرغبة في التعافي³⁴⁰ ضمن نفس البناء الجندري الاعتيادي؟

"التوق للشفاء" بما هو مغادرة للمجال الحسابي المتوقع أضحي يعد مطلبًا لا فقط بشريا وجسمانيا، ولكن فعلاً حضارياً متشعب الدلالات. كونغيلاهم Canguilhem يفسر عدم قدرة تحمل المرض زمنياً بالخوف من الأذى [le mal]، وأصبح هذا الأمر ضرورة ملحّة بالنسبة إلى البشرية. لكنّ أمانة التحكم ههنا هي دلالة دامغة على أننا إزاء انتقال حضاري بحث وسياسي أكثر من كونه مطلباً علميا³⁴¹. ههنا أيضاً يتبين لنا بشكلٍ جلي أن مجال الحَجَب هو مجال الفعل والاشتراط السياسيين، وأن القصد الأنطولوجي وراء ذلك يتمثل تحديداً في المحافظة على إمكانية إدراك العالم كما هو بينُّ لنا، وإعادة تشكيله وفقاً لذلك، كما يفهم ذلك في سياق فينومينولوجيا الإدراك لميرلوبونتي³⁴².

ذلك يكشف ببساطة عن التالي: هنالك تقاطع بين الفضاءات و الأماكن، بين مجال الحركة العامة والمعتادة، وهو مجال الهيمنة الذكورية بامتياز، أين "تنتشر" أفعالنا في أطر العمل و الراحة واللقاء، أين نتواجد فيزيائيا، وحيث نقوم بتسليط رغباتنا و هواجسنا و مشاريعنا و نحقق النوايا التي نكتنزهها، لكن ذلك لا يتم دون بُنى وعي نخضعُ لها طوعاً أو تُسلط ثقافياً وهي التي تشكل عوالمنا الخفية [معيارية ذكورة/ أنوثة]، و التي لا تكتفي بذاتها، إنما تقوم بهندسة المحيط وفقاً لمعياريتها و ما يترتب طبعاً عن ذلك. إذن، هنالك التقاء بين زوج المجال المفتوح و المغلق / البين والخفي أثناء انتشار فيروس كورونا، ولكن ليس ضمن تقابل ثنائي اعتيادي، إنما هنالك امتدادات أخرى لها الأثر الدامغ على فعل الإنسان الاجتماعي، و التي تمسُّه في الحاضر و لها الأثر الصريح: ههنا تحديداً يمكن

³⁴⁰ « « Guérir », cela veut dire pour les malades réels se débarrasser du virus, et pour les autres ne plus être soumis à l'auscultation de soi et de ses proches. Mais le désir de guérison va beaucoup plus loin. » DÉRAISON DE GUÉRIR, Michaël Fessel et Camille Riquier, Revue ESPRIT, 5/2020, p45.

³⁴¹ G. Canguilhem, Études d'histoire et de philosophie des sciences concernant les vivants et la vie, Paris, Vrin, 1983, p. 399.

³⁴² « Il est vrai à la fois que le monde est ce que nous voyons et que, pourtant, il nous faut apprendre à le voir » Maurice Merleau-Ponty, le visible et l'invisible, Paris, Gallimard, 1964, p 18.

مداورة السؤال حول هذا التقاطع بين مجالات الوعي والفعل في فهم ظاهرة العنف المسلط على النساء بين الفضاء العام و الخاص زمن الوباء.

ربما وجب في هذا السياق الاستنجد بالتأويلية بما هي أداة تفسير، وههنا لا نعني البتة تفسير النصوص مثلما تتطرق لذلك الكتابات الفلسفية³⁴³، إنما هي محاولة أخذ الظاهر من الوجود والعيني وتأويله، أي شرحه ذاتيًا وفقًا لتقاطع النظريات الممكنة والمتاحة، والمشارب المتعددة - بطبيعة الحال. وربما ذلك يُعد من أمارات الفهم الإبستيمي [épistémè] المعاصر من خلال اللغة، الفعل، البنى الفنية والثقافية والتاريخية وإنتاج الرمزية/الرمزيات؛ وهذا ما نجد له تحديدًا صدى في أركيولوجيا ميشال فوكو³⁴⁴ Michel Foucault، حيث يصبح التطرق للعنف مجال حفر أركيولوجي معرفي أولاً ويؤول تقاطعًا ثانياً، أي بفهم مسبباته وممكناته، وههنا وجب إذن فهم الفضاء وفقًا للبناء الهرمي الاجتماعي: هيمنة المذكر على المؤنث، والتداخل في الفضاءات والأدوار الجندرية التي تشغلها زمن الكورونا، وهو الذي نرجح أنه دفع لازدياد وتيرة العنف المسلط على النساء.

عندما نتطرق للفضاءات نجد أنفسنا أمام تحديدات أخرى، حيث هنالك عديد التقسيمات التي تشتغل: أولاً، نجد التمييز بين المفتوح والمغلق، وهذا ما يمكن إدراكه عينياً، ثم نجد التمييز بين العام والخاص. لكن المعطى الحديث جدًا، والذي يرافق تمثلات الجائحة العالمية يتمثل في أنه فعلاً لم تعد هنالك حدود تمنع وصل هذا بذلك³⁴⁵، وههنا تفهم مشهدية الفضاء العام على أنها مجال استيعاب البنى الثقافية والفكرية التي تدعم عنف الرجال ضد النساء إما قولاً أو فعلاً، وذلك يرتبط أيضاً بمشهدية الجماعة³⁴⁶ ضمن مجموعة الأفعال التي ترتبط بالأفراد وبما ينتجون، لأن العنف لا يمكن أن يكون شكلاً واحداً وإنما يتعدد بتعدد تمثلات الفاعلين الاجتماعيين، وهو ما قد يدفعنا للقول بأن العنف المسلط على النساء هو تمثّل هيتيرو-بطريركي يتقاطع بين كلّ من يستبطنون هذه الخاصية وهي التي تدفعهم للتقابل وممارسة وإعادة إنتاج نفس الفعل، وربما ذلك ما نجد له صدى في تحليل الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس Jürgen Habermas حيث يعتبر المجال العام إطار

³⁴³ مقدمة في الهيرومينوطيقا، دايفد جاسير، ترجمة وجيه قانصو، منشورات الاختلاف، ص 21.

³⁴⁴ « Les sciences humaines en effet s'adressent à l'homme dans la mesure où il vit, où il parle, où il produit. C'est comme être vivant qu'il croît, qu'il a des fonctions et des besoins, qu'il voit s'ouvrir un espace dont il noue en lui-même les coordonnées mobiles ; d'une façon générale, son existence corporelle l'entrecroise de part en part avec le vivant ; produisant des objets, de outils, échangeant ce dont il a besoin , organisant tout un réseau de circulation, au long duquel court ce qu'il peut consommer et où lui-même se trouve défini comme un relais, il apparaît en son existence immédiatement enchevêtré aux autres, enfin parce qu'il a un langage, il peut se constituer tout un univers symbolique, à l'intérieur duquel il a rapport à son passé , aux choses, à autrui, à partir duquel il peut également bâtir quelque chose comme un savoir » les mots et les choses, Michel Foucault, Paris, Gallimard, 1966, p 362.

³⁴⁵ « Les représentations du public et du privé qui ne correspondent plus à une frontière bien établie entre privé et public, entre le domaine privé et l'agora » Métamorphose de l'espace public, Olivier Mongin, revue EPRIT, 2012/11 novembre, p74.

³⁴⁶ « Le pluriel correspond à l'espace public qui offre au public une « commune visibilité », celle des rues, des places, des lieux et des monuments qui font émerger un espace commun ; le singulier renvoie à l'« espace public politique » qui est indissociable de dispositifs, de procédures ou de lieux tangibles favorisant le débat public » Ibid., p73.

تجمع خصوصيات الأفراد ضمن التقاطعات التي تجمعهم³⁴⁷. لكن في سياق آخر، يمثل الفضاء العام مجال المراقبة، ومجال إرساء شروط التحديدات المكانية، وهو ما ارتبط خصوصًا بظهور الأمن الذي يحرس المدن؛ حيث تحدد خلال القرن الثامن عشر ملامح التحكم في المناطق العمرانية والسكنية، أي لنقل التحكم في المجال الإقليمي (la question de la territorialité)، وهذه المراقبة تخضع إلى هندسة المساحة وتقسيمها. ههنا نحن إزاء الإحالة إلى مجال التأطير³⁴⁸ لغاية السيطرة والمراقبة، وهو تقريبًا ما تم العودة إليه بقوة في الحجر الصحي العام، والذي ساهم في بسط مجال حيوي لفاعلية الذكورية المتسلطة التي بسطت في المجال المنزلي أو الخاص ثنائية الطاعة والتأديب، وذلك في إعادة إنتاج لصورة الرجل المتحكم/ المسجون في الحجر الصحي العام.

وطأة الجندر Gender في الفضاء تُفصح عن استعمالات مخصصة له، حيث يكشف عن مشهدية مختلفة في فضاء المرور والحركة؛ وفي ذات الآن يرفع اللبس عن مكمن الطقوس [Les rites] والتفاعلات الثقافية التي يُمكن معاينتها سوسولوجيًا؛ أين تتبدى لنا التجارب الثقافية بخصوصيتها ضمن هيكل معينة، والتي تتسم عمومًا بغلبة المذكر على المؤنث، وفقًا لما هو موجود أوليًا a priori من نمط وعادات؛ كلّ ذلك وفقًا للتداخل أو التفاضل بين الداخل والبراني، لكن الأساسي في كلّ ذلك مغادرة هذه التمثلات للمجال الافتراضي، بما هو تقويم زمكاني مغاير تماما للفضاءات الأخرى، حيث تتجسد الترسيمات الاجتماعية [les schèmes sociaux] ضمن مواد تُشاهد وتشارك [مثل الصور والفيديوهات].

إننا نقوم باستدعاء المنظار الجندري كلّ ما تجسدت لدينا رؤية نقدية حول معيارية التعامل بين المذكر والمؤنث، ذلك لأن المعيار [la norme]، أي الإحدائية الثقافية والتاريخية، لم تكن يُومًا كونية، بل تتقوم ضمن مسارات مختلفة³⁴⁹. إنّ الدراسات الجندرية تنخرط في تفكيك التقابلات الثنائية بين مذكر - مؤنث، طبيعي - ثقافي، هيتيروبطيركي - مغاير، خاص - عام، ويمكن الكشف عن تقاطعها مع العوامل الاجتماعية والسياسية، وذلك ما تكشف عنه النظرية التقاطعية³⁵⁰ L'intersectionnalité، حيث تتجسد هذه الهيمنة (الذكورية أساسًا) داخل تراتبية اجتماعية. في

³⁴⁷ Voir : Théorie de l'agir communicationnelle, Jürgen Habermas, tome I, Rationalité de l'agir et rationalisation de la société, Jean-Marc Ferry (Trad.) Paris, Fayard, 1987

³⁴⁸ «Par sa nature même, la police du XVIIIe siècle se voit elle-même comme une instance de quadrillage, de découpage de l'espace dans lequel on pourra contrôler les populations. Elle doit occuper le terrain, enserrer la population dans un filet le plus fin possible. On est là, sur le plan du discours au moins, exactement dans ce qu'expliquait Michel Foucault, avec l'utilisation de l'espace dans les processus disciplinaires. » La territorialisation policière dans les villes au XVIIIe siècle, Catherine Denys, Revue d'histoire moderne et contemporaine, N°1, Jan-Mar 2003, pp 14-15.

³⁴⁹ « La norme n'est pas universelle. Elle n'est pas naturelle non plus. Elle est le fruit d'une construction culturelle, d'interactions et de négociation dans un contexte donné » Sous les pavés le genre, Caroline Dayer, l'Aube, 2014, p 16.

³⁵⁰ تشير آمال القرامي إلى التقاطعية كالتالي "هي نظرية منتجة Productif theory استطاعت أن تعبر كل الاختصاصات (الدراسات النسوية، والدراسات الإثنية، ودراسات الكوير Queer studies والدراسات القانونية...)". كما "أجمعت أغلب المنظرات على أن التقاطعية تعدّ أهم مساهمة نسوية لفتت انتباه البخّانة إلى أنه من غير الممكن مناقشة الجندر دون النظر في العرق والطبقة والجنسانية و "الإعاقة" والعمر وما إلى ذلك." من مقال العلم ذكر لا يحبه إلا الذكران، النساء والمعرفة والسلطة، مؤلف جماعي، مسكيلياني للنشر، ص ص 20-23، 2019.

هذا الصدد، تجدر الإشارة إلى أن جميع الدراسات والتحليل تثبت أن غلبة المذكر على المؤنث مازالت موجودة، وهذا ما تثبته تحديداً حيثيات انتشار فيروس كورونا، والجائحة العالمية، وعندما نصفح الجرائد المحلية والعالمية، نلاحظ وجود ثلوث مفهومي يتواتر بشكل رهيب: ارتفاع وتيرة العنف المسلط على النساء أضعاف الأضعاف، تداخل الفضاءات (ومن بينها الافتراضي أيضاً)، وسطوة الجائحة ومخلفاتها النفسية، الاجتماعية والاقتصادية.

خاتمة:

شهدت السنوات الأخيرة تزايداً مهماً للأعمال التي تهتم بالدراسات النسوية، الجندرية والكويرية، والتي تحاول أن تستجيب لفهم وجودنا وكيفيات قراءة واقعنا. لقد دفعتنا الظرفية الأخيرة إلى العمل حول مخلفات فيروس كورونا، الذي لا يزال شبحاً يخيم على العالم، طالما أن ترياق الشفاء النهائي ليس موجوداً لهذه اللحظة، والجانب العلائقي الجندري بين النساء والرجال في مختلف الفضاءات [الواقعية والافتراضية] وظاهرة العنف التي ازدادت.

إنّ القضية التي قمنا بالتطرق إليها ربما يعتبرها البعض من الهامش، لكن الإشكالية في الحقيقة هي الجسوس في حياة المهمشين وكشف تقاطع العوامل التي تؤدي لزيادة العنف.

إنّ العنف يفهم فلسفياً على أنه محرك التاريخ، وفي أوائل الدراسات السوسولوجية لم نكن نجد تعريفاً دقيقاً للعنف، بينما نجد مفاهيم أخرى من قبيل الصراع والهيمنة وغيره، لكن التطرق لهذه المسألة كشف لنا أن العنف المسلط على النساء [والاقلية من جهة أخرى] هو ظاهرة متجذرة في المجتمعات الهيتيرو-باطيركية.

مثلاً أشرنا في التحليل، إنّ البنى الثقافية والفكرية والتاريخية ومسار تشكل العلاقات هو الذي أفضى إلى ما نحن عليه: فضاء مفتوح تهيمن فيه الذكورة على ديناميكياته وحركيته، وذلك بالعودة إلى نظم التنشئة الاجتماعية التي تفتح مجال الصراع والمغامرة والكلام والمبارزة للرجال، وتدفعهم دفعاً إلى مساحات رحبة، بينما النساء، تتظافر عدة عوامل لسجنهن في الفضاءات المنزلية، وتكليفهن بأدوار الطبخ والتنظيف والرعاية والأمومة وغيرها... وحتى مع تغير الظرفية الاقتصادية، وخروج النساء للعمل، لم تتغير شاكلة هذه الممارسات.

أمام غياب القوانين الصارمة والإرادة السياسية والاجتماعية في مجابهة العنف المسلط على النساء، يبقى العنف رمزاً للمجتمع الذكوري، ومع قدوم الجائحة وتداخل الفضاءات، وجدت النساء أنفسهن في مواجهة فظاعة هذه الهيمنة، التي تطعمها المعيارية الاجتماعية واللغوية والترسيمات الاجتماعية والعادات ومؤسسات الدين [مبدأ القوامه مثلاً] والتشويه والاحتقار الذي تفضي في مساحات التواصل الاجتماعي. إن التخاذل في نشر قيم المساواة والاحترام والتضامن الفعلي أدى إلى

مثل هذه الكارثة، وهو ما يستوجب حسب تقديرنا الانطلاق في رحلات بحثية أخرى للتطرق لهذه الإشكاليات.

العنف لم يتوقف، ولن يتوقف، دون تغيير اجتماعي فعلي يسعى لفرض المساواة وقيم الاحترام، لأن وجودنا في العالم [أي من الجهة الأنطولوجية وإضفاء المعنى على المحيط] وفعلنا فيه [من الناحية السوسيولوجية] لا يمكن أن يظل على حاله، وذلك ما تؤكدته جدلية التاريخ. إنَّ المهم في كلمات الختام هذه هو التالي: ما أفصحت عنه الجائحة من أزمات اقتصادية وسياسية لا يضاهي سيناريوهات العنف المسلط على النساء داخل الفضاءات، والتعاطي مع هذا الأمر أضحي ضرورة ملحة للغاية.

كيف عاشت الأحياء الشعبيّة جائحة الكوفيد 19؟ الكباريّة نموذجاً

أحمد الساسي

الملخص

لعلّ البشريّة كانت تنتظر جائحة "كوفيد 19" لتعبّر عمّا أحدث فيها من طفرات تراجميّة ولتشرق بوجهها دون مساحيق الدعاية وتعلن ما أحدث في عقلها الجمعي، فالمصائب والأحداث الكبرى تفرز وتفضح أسوأ ما في الشعوب والمجتمعات، كما أنّها تبرق أفضل وأرق ما فيها³⁵¹. كذا تقفز المجتمعات العالميّة من أزمة إلى أزمة بعد أن غالت في توقّعاتها بالرفاه الاجتماعي والسلام العالمي بإعلانها تجاوز فظاعات الحروب الدينيّة والعالميّة والأوبئة التيفونيّة والإبادات الجماعيّة و"نهاية عصر الإيديولوجيا"³⁵² لفتور الطبقات وتشدّقها باكتساح "الهندسة الاجتماعيّة"³⁵³ وتكنولوجيا المعلومات لمختلف مظاهر الحياة البشريّة.

اعتبر الكثير من المحلّلين أنّ سياسات، مخططات وبرامج الدول والحكومات، على تنوعها واختلافها، لاحتواء وباء "كورونا" المستجد والذي تحوّل بعد بضعة أشهر من ظهوره إلى جائحة عالميّة يمكن أن يساعد في عمليّة تحليل ونقد وتفكيك الظواهر الاجتماعيّة والاقتصاديّة الناشئة، إلّا أنّه لا يبدو من الراجح القول بأنّ فهم ظواهر السلوك المجتمعي المعاصر لفيروس الكورونا المستجد يمكن أن تحصل في الأذهان دون رفع اللثام عن حقيقتها اليوميّة ودون فهم وتفكيك الخلايا المتفرّدة للمجتمعات. كان ذلك داخل النسق العام للقرارات الحكوميّة والمراكز البحثيّة الوطنيّة والعالميّة أو انطلاقاً من السيرورات التفاعليّة الذاتيّة والخصوصيّة للأفراد والجماعات الإنسانيّة التي تتصل بوقائعها بشكل متواصل وتتواتر محصّلاتها التجريبية لتنتج حيثيات تؤدي إلى نقلنا لما نسميه واقعة الكورونا وواقع التهميش داخل الأحياء الشعبيّة بتونس التي سترسم بدورها مشهداً مستقبلياً يؤكد خطورته.

³⁵¹ أحمد ساسي، "تجارة الكورونا: الحقيقة تسطع عند الأزمات"، الرابط <http://www.astrolabtv.net/ar>، تاريخ النشر، 2020-05-04.

³⁵² كان المفكر الفرنسي ألبير كامو (1913-1960) أوّل من استعمل هذه العبارة في إحدى مقالاته المنشورة سنة 1946 ووقع تداولها بعد تقديم عالم الاجتماع الفرنسي رايون أرون (1905-1982) في دراسته المقدّمة إلى المؤتمر العالمي حول مستقبل الحرّة المنعقد بإيطاليا سنة 1950. وكانت شهرة المصطلح مع المفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما (1952) في كتابه "نهاية التاريخ و الإنسان الأخير" 1992.

³⁵³ MITNICK, KEVIN D, & Simon, William L., (2015), THE ART OF DECEPTION Controlling the Human Element of Security, Foreword by Steve Wozniak.

Abstract:

It is conceivable that humanity has been waiting for this pandemic Covid-19 to express what happened from tragic mutations in order to set free from propaganda and also to find out what happened to the collective minds. Disastrous times bring out the worst of people and societies and bring to the surface the

finest too. Societies recovered from one crisis to another while they were expecting social welfare and world peace. They bragged constantly about overcoming religious wars, world wars, typhus, genocides, and ideological conflicts. They believed that the acquisition of technology in a superior globalized world would banish these conquests.

Several analysts consider that the policies and programs of governments adopted to cope with covid-19 have greatly differed from one another. The variation can be used as a tool to analyze and disentangle these latest social phenomena. However, that does not mean it can unravel its daily struggles without a proper understanding of societies, the pattern of governmental decisions along with national and international research laboratories. Covid-19 has made an impact on individuals and on their standards of living, which resulted in what is called 'after covid-19'. The reality of marginalization in the hood of Tunis that will remain long after recovering from the coronavirus creating an uncertain and unsafe future.

التعاطف الإنساني يربطنا ببعضنا - ليس بالشفقة أو بالتسامح، ولكن كبشر تعلموا كيفية تحويل المعاناة المشتركة إلى أمل للمستقبل.

نيلسون مانديلا

« L'expression vivante de la nation c'est la conscience en mouvement de l'ensemble de peuple »

Frantz Fanon, les damnés de la terre

تقديم:

تلامس هذه الورقة جانبا من جوانب التأثيرات المباشرة لجائحة فيروس كوفيد-19 على الأحياء الشعبيّة في تونس وذلك في إطار الكراسات التي يفعلها المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية لمواكبة ومسايرة ما يصيب المجتمع العالمي والمجتمع التونسي من تقلبات وتغيرات على مختلف المستويات، فمنذ تفتّن العالم إلى هول المصاب الصيني من الوباء انكب العلماء والباحثون في علوم الاجتماع والاقتصاد والفلسفة شأنهم شأن المراكز البحثية الطبية والبيولوجية لإيجاد الوصفات اللازمة التفسيرية والعلاجية لما قام به الفيروس من شطحات على هوى الإنسان ولملاحظة ودراسة ومتابعة تطوّر وتعاضم أثر الجائحة على مختلف جوانب الحياة على كوكبنا، حاملين على عاتقهم مسؤولية الخروج من هذا الوضع الوبائي بأقل ما يمكن من الفاجعة والكارثة. استفرد العلماء طيلة الفترة الأولى بقيادة المشهد مقدّمين الوقت الكافي للدول لاختيار سياستهم لتتحولّ بذلك بعض هذه الدول من دول قانون إلى "حالة استثناء"³⁵⁴ لتحجر المجتمعات المفتوحة في كهوفها ويحظر فيها التقارب مع الأقربين.

كانت صيحات الفرع تتصاعد منذ بداية الجائحة، من سيتحمّل وزر كل هذا الدهاء الوبائي؟ هل هم أنفسهم من مشوا طربا على حافة الانغلاق و"تعصب الملة" أم من وُضع قربانا على "مذبح العولمة"³⁵⁵ من سيعبر الحجر؟ هل هم من ينظرون لأرض الجنوب وعلى يمينهم أكثر من كتاب وفي عيونهم حبّ الحياة والإنسان؟ من هو المسؤول؟ غضب الله على قوم حبّذوا الخضوع لمؤسسات الهيمنة و"الاستلاب"؟ أم أنّ الأمر لا يعدو أن يكون مغامرة للمخابر الأمريكية التي تريد هتك سور

³⁵⁴ Giorgio Agamben, État d'exception (Homo Sacer II, 1), Paris, Seuil, 2003, 151 p. Trad. de l'italien par Joël Gayraud, Stato di eccezione (Homo Sacer II, 1), Torino, Bollati Boringhieri, 2003, 120 p

³⁵⁵ فتحي المسكيني، الفلسفة والكورونا: من معارك الجماعة إلى حروب المناعة، مؤمنون بلا حدود، 24 فبراير 2020

الصين الاقتصادي وقطع طريق الحرير؟ أم هي مخابر الصين التي تسعى إلى تمريغ أنف أمريكا الترامبية؟ أو لعلهم اليهود ينتفون لحي باقي الإبراهيميين أو ما تبقى منها؟ لعلها الهند أرادت الانتقام للإنسان من شرق نسي عمقه وغرب محتضر؟ هكذا هي الفرضيات هوجاء ما إن تجد مرتكزا حتى تتحوّل إلى نظرية قتل أخرى فتستبق الإجابات بتداع مسبق فضفاض...

نحن كمجمّعات فيروسية كبرى ما كان ممكنا أن نتكشّف على صورنا ومعرفتنا بحاضرنا دون هذه المجاهر الإلكترونية والعدسات المعدنية للمعيشي الحثيث وما الجينياالوجيا الأخلاقية و "التفكيك" و "الأركيولوجيا" إلّا جزء من التفوّق الذي مكننا من "رفع اللثام" والتصنيف والتعدي والتجاوز والتكسير لهذه الجسيمات أحادية الخليّة ومتعددة الأنماط التي أطلق عليها الرومان تسمية "virus" السم المنبعث من المستنقعات والمياه الراكدة، أمّا العرب فسّموها العافية آكلات البكتيريا والجدري القاتل لتمرّ لرسم تاريخ كامل من الصراع مرورا بالطاعون الماغولي، الكوليرا، التيفود الياباني، والحمى الإسبانية، وصولا إلى الكورونا الصينية .

تتعدّد الأسماء، إلّا أنّ هذا الأفق السيميائي لا يقدم لنا غير ذاكرة مليئة بصور الجثث والنعوش وخوف عميق أصيل من الأوبئة ومن قصص الأهوال، أمّا علوم الحاضر فما هي تقول: "اتبعوا التعاليم وكلّ شيء سيكون على ما يرام. "لا أمل" إلّا فيكم ولا نهاية للجائحة إلّا بكم. "

تصيح الدولة: "أنا هنا حاضرة لكلّ منكم على قدر الإمكان ولا يمكن للإمكان أن يكون أكثر ممّا كان"

فكيف انسابت جائحة الكورونا إلى الواقع المعيشي للتونسيين؟ وماذا أحدثت في مجتمعات الهامش من تغييرات؟ هل مثلت الإجراءات المتبعة من قبل الدولة التونسية وقاية للفئات الضعيفة أم أنّها زادت من وطأة معاناتها؟ أكان دور "الفاعلين الاجتماعيين" إعادة لتموقع الـ"هابيتوس"³⁵⁶ في ظل الحجر الصحي الشامل كظرف استثنائي للمجتمع، -وحالة الطوارئ كـ "حالة استثنائية" للدولة لتأبيد إستراتيجيات الهيمنة والحيثف- أم أنّ هؤلاء الفاعلين استطاعوا ترويض تاريخ كامل من أجل الخروج من الجائحة بإمكانيات تحرّرية حقيقية؟

منهج العمل:

لا تمثّل هذه الورقة بحثا أكاديميا أو فكريا معمّقا بقدر ما هي محاولة لكشف ما انساب إلى مجالات العيش اليومية لمتساكني الأحياء الشعبية في تونس عامة، ولمتساكني معتمدية الكبارية خاصة، طيلة فترة الحجر الصحي من تغيّرات سلوكية. وقد اعتمدنا في ذلك على ملاحظتنا لمختلف التجارب المنقولة من الأحياء بالكبارية واتصالنا المباشر مع الفاعلين ومواكبتنا وانخراطنا في العمل

³⁵⁶ Bourdieu Pierre, avec Loïc J D Wacquant, Réponses. Pour une anthropologie réflexive, In : Revue française de sociologie, 1993, 34-2, p113

الميداني طيلة أطوار الجائحة وخوضنا في هذا الموضوع من زاوية الباحث الفاعل³⁵⁷ و قد قمنا بتدوين وتوثيق الوقائع والأعمال، كما هي محاولة نقدية لجهر بعض الأماكن التي بقيت في ظل الروايات الرسمية للأحداث المستجدة وذكر لآليات الفعل التضامني التي تبلورت في نفس الفترة مع استرجاع لمنطوقات وأدوات تاريخية للتعاقد الاجتماعي لمواجهة تداعيات الحجر الصحي الشامل، وللتعرف عن قرب على حيثيات التغيير الذري لسلوك شخوص وجماعات وفئات لها مقدماتها الخاصة وواقعها الفريد في التفاعل مع الأحداث العالمية والوطنية.

سنتبع انطلاق سردية الجائحة داخل الأحياء الشعبية عبر فتح تجارب معيشية وميدانية وأحداث لها أثرها في الواقع كان لنا فيها تدخل مباشر وحضور مستمر. وقد استجوبنا مجموعة من الشباب أصيلي منطقة الكبارية في مختلف أحيائها على ثلاثة مستويات أساسية، يكمن الأول في تعايشه مع الجائحة، والثاني في ملاحظاته حول سلوك المتساكنين في فترة الحجر، أما الثالث فهو انخراطه في المبادرات التي وقعت في المنطقة.

الكبارية: صورة الهامش النمطية بين معاناة النسيان والأزمات المتواصلة:

مثّلت نشأة الأحياء الشعبية في تونس عامة والكبارية خاصة حدثا فريدا في تاريخ البلاد انطلق منذ فترة الاحتلال الفرنسي للأراضي التونسية في أربعينيات القرن العشرين، إذ كان ضرورة لترضية واستيعاب المحاربين الأفارقة والتونسيين المشاركين في الحرب العالمية الأولى والثانية، واستجابة لتصريف الكثافة السكانية العالية³⁵⁸ نتيجة الانفجار الديمغرافي الذي عرفته العاصمة واستيعابا لحالة تفقر الريف وتجسيدا لرغبة الآلاف من التونسيين في اقتحام بوابة التحضر والتمدن ..

تحوّل هذا الحي منذ سبعينيات القرن الماضي إلى أحد أكبر وأخطر الأحياء الشعبية نتيجة غياب السياسات التنموية العادلة واعتماد مقاربة الرقابة الأمنية بعيدا عن " الرقابة الرسمية " فصارت في شكل بانوبتيكون³⁵⁹ Panopticon ممتدا ومسرحا للصور النمطية الراسخة في ظل " اللامرئية الاجتماعية"³⁶⁰ ومجالا للأحكام القيمية والأخلاقية المحافظة والتمرد الاجتماعي

³⁵⁷ أمين الحسيني، الباحثون الفاعلون كآفق تفكير: من مدارج الكليات الى الفضاء العام، كراسات المنتدى، الكراس عدد 2، سوسولوجيا الفعل الجماعي في تونس منذ 14 جانفي 2014، جويلية 2019

³⁵⁸ G. Blachere, Bulletin économique et sociale, Les aspects spécifiques de la crise de logement urbain en Tunisie et leurs solutions, 1953, éd 80, p 64, 65

³⁵⁹ جيريمي بيناثام (1748-1832)، عالم قانون وفيلسوف أنجليزي صاحب تصميم لسجن البانوبتيكون ويعني Pan "الكل" او "الشامل" و opticon "المراقبة" أي المراقبة الشاملة، كما وقع استعمال نفس الكلمة مع ميشال فوكو (1926 - 1984) في كتابه "المراقبة و المعاقبة" (1975) للإشارة للأجهزة الخفية لفرض الانضباط و الإخضاع و التي تستعمل في المدارس و المصانع و الإدارات.

³⁶⁰ أكسل هونيت، مجتمع الاحتقار، 2002

الفوضوي وهدفا مميّزا لوسائل الإشهار والإعلام والدعاية، وسلّما للأحزاب السياسية وخزّانا لقوّة العمل لرؤوس الأموال .

تعتبر معتمدية الكبارية ثاني أكبر معتمدية من ولاية تونس من حيث الكثافة السكانية، إذ تمثل 10 بالمئة من مجموع سكان الولاية وتمتد على 1461 هكتارا، حيث تضم أكثر من 98 ألف نسمة³⁶¹ وتعد نسبة الشباب والأطفال 60³⁶² بالمئة من مجموع السكان ونسبة غير المتمدرسين 12.3 بالمئة³⁶³.

هذا وتمثل التجارة أهمّ مجالاتها الاقتصادية، و يعتبر قطاع الخدمات الأكبر من حيث عدد الناشطين، إذ يمثل 38 بالمئة يليه قطاع الصناعات المعملية الذي يستقطب 18 بالمئة من اليد العاملة وتبلغ نسبة البطالة 23 بالمئة³⁶⁴، وهو ما يجعل من هذه المنطقة لا فقط خزانة للقوة العاملة المنتجة والمستهلكة، بل وأيضا حاضنة خصبة للجريمة وتعاطي المخدرات والتسرب المدرسي والتطرف وشبكات الهجرة غير النظامية والاقتصاد غير المهيكل، حيث ينخرط في هذه المظاهر الاجتماعية عدد كبير ومتزايد من الشباب والمراهقين نتيجة لضعف حضور مؤسسات الدولة وندرة مرافقها الصحية والثقافية والاقتصادية وضعف ميزانيتها المالية وإمكاناتها اللوجستية مع غياب إستراتيجيات للتعامل مع الإشكاليات الكبرى للمتساكنين، وهو ما مثل عاملا رئيسيا لتنامي الإحساس بالظلم والضيم والإهمال والاحتقار في ظل "لا جدوى الفعل ولا معقولية العالم"³⁶⁵ بعبارة ألبار كامو.

هذا الهامش الحضري الجنوبي المحيط والمحاصر للعاصمة شكّل مركزا لسطوة القرارات السياسية والاقتصادية المسقطّة تتلاقفه أيادي المغرّرين والانتهازيين ليقع إقحامه في معارك سياسية وإيديولوجية ودموية لم تزد إلا من تعميق اغترابه وعزلته ليتترك دون دفاعات أمام الكورونا خاصة مع شبه الغياب للمرافق الطبية العامة وفقدان أدوية الأمراض المزمنة وندرة الكمّات وغلاء مستلزمات التعقيم الصحية.

ينساب مشهد الفاجعة بتفتّح شهية أرباب الأعمال على تصريف العمّال المتعاقدين ليصل عددهم إلى عشرات الآلاف وتوجّه مرتزقة منظومة الربيع والمافيا إلى السطو على مسالك التوزيع للمواد الغذائية وإلى احتكار البضائع، فنجد في قائمة المحتكرين عمّدا ومعتمدين ونوابا³⁶⁶...الذين

³⁶¹ المعهد الوطني للإحصاء، تونس من خلال التعداد السكاني العام للسكان والسكنى، 2014، ص3

³⁶² نفسه، ص6

³⁶³ نفسه، ص11

³⁶⁴ نفسه، ص20

³⁶⁵ ألبير كامو (2014)، رواية الغريب (الطبعة الأولى)، بيروت: منشورات الجمل، الصفحة 1 وما بعدها.

³⁶⁶ Mosaïque FM , 1 avr. 2020 نائب متورط في احتكار السميد: شوقي الطبيب يسرد التفاصيل

يمثلون فقط أغصان شجرة تخفي وراءها بارونات الاحتكار المشيدين صروحا اقتصادية ومالية والمتقاسمين مناطق النفوذ الاقتصادي بعد انسحاب الدولة المخجل من القطاعات الحيوية والأساسية.

لقد عمقت الأزمة الاقتصادية المتواصلة بالبلاد التونسية من النظرة السوداوية لمتساكني الكبارية وجعلت أغلبية شبابه عازفا عن المشاركة في الحياة العامة وإن لاتزال بعض المبادرات تخطّ مشهدا مغايرا لمقاومة واقع التهميش والاحتواء لتبرز كجهاز مناعي مبعثر طيلة فترة الحجر الصحي.

تأثرت الكبارية بالوقائع والأحداث والتقلبات الوطنية والعالمية بشكل سريع وحاد، إذ تنامي عجز العائلات على توفير القوت اليومي وتوجّهت أصابع الاتهام إلى العمد والمعتمدية والبلدية لتقصيرها وعجزها على الإحاطة بالفئات الهشة، كما تنامي العنف الأسري وبدأ العديد من الشباب في الحديث عن ضرورة مغادرة البلاد نحو الدول الأوروبية رغم هول ما عرفته هذه الأخيرة من أزمة خانقة جراء عدم قدرتها على محاصرة الجائحة، وقد سجلت العديد من عمليات الهجرة غير النظامية التي شملت أبناء أحياء الكبارية.³⁶⁷

بورترية رقم 1

يقول خالد.غ 33 سنة تقني سام في إصلاح آلات الطباعة وهو عاطل عن العمل منذ 2017: تلقيت خبر انتشار الكورونا من نشرات الأخبار والذي قدّم على أنه مرض خطير ومعد يجب اتباع إجراءات الوقاية و الالتزام بالحجر الصحي لتفادي الإصابة به، قمت بإجبار كل من والدي على المكوث في المنزل وكنت أقوم باقتناء كل الحاجيات المنزلية. في الأيام العادية كنت أحاول تدبر أمري بقيامي ببعض الأنشطة التجارية ولم يتوقف ذلك طيلة فترة الكورونا، كنت أبذل مجهودا أكبر وهو ما قرّ لي استقرارا على المستوى المالي إلا أنّ قلقي الأكبر هو تدهور الحالة الصحية لوالدي نتيجة انقطاع الأدوية وتوقفها عن حصص التدليك بسبب عدم قدرة المختصة في تقويم الأعضاء على التنقل لمنزلنا. أمّا أنا كنت دائم التنقل بين المستشفيات والصيدليات للبحث عن الأدوية دون جدوى. هذا الوضع جعلني أحس بالغضب والعجز وهو ما دفعني إلى التفكير في الهجرة خاصة مع وجود العديد من أبناء الحي المتحمسين لهذه الفكرة. طيلة فترة الحجر الصحي كنت دائم الاطلاع على آخر المستجدات على صفحات الفيسبوك وصادف أن وجدت مبادرة في إحدى صفحات الحي تعنى بتجميع الأدوية فقمت بالاتصال بهم وقد قرروا لي بعضا من الأدوية التي كانت أمي في حاجة لها، فقررت الانخراط في هذا النشاط الذي كان يتمثل في جمع أدوية ومستلزمات طبية وتوزيعها على مستحقيها. إلا أنّ نشاطنا كان لا يلاقي استحسانا من بعض المحسوبين على

³⁶⁷ راجع بلاغات وزارة الداخلية حو الهجرة غير النظامية طيلة فترة الحجر وخاصة في شهر رمضان.

أحزاب سياسية لرفضنا التعامل معهم ولاشتباها في مصادر تمويلهم وذودنا بأنفسنا عن التوظيف السياسي، كما قمنا في أكثر من مناسبة بالتشهير بممارساتهم وهو ما جعلهم يشنون حملات تشويه في حقنا لم يكن لها تأثير على أرض الواقع إذ طوّرنّا عملنا وأطلقنا تسمية "سببسييرة الحومة" على الصيدليّة التي أنشأناها.

العائلة والحي " الحومة"³⁶⁸ في مواجهة الحيف والحجر

شهدت المجتمعات الحضريّة المعاصرة تراجعاً لدور العائلة وانحساراً لتأثيرها ومساندتها لأفرادها وساهم فتور العلاقات الأسريّة في تراجع مبادئ التآزر والتعاون الأسري، نتيجة لتعاظم مقتضيات الحياة ومتطلّباتها. إلا أنّ الأحياء الشعبيّة في تونس بقيت محافظة على روابط أسريّة متينة إلى حدّ ما، حيث استطاعت تخفيف معاناة الأفراد الأقلّ حظاً طيلة فترة الحجر الصحيّ. في حين أنّ الروابط "العروشيّة" تهرّلت وتراجع دورها بعد أن كانت تمثّل رابطاً اجتماعياً هاماً في تاريخ الأحياء الشعبيّة في تونس، فدورها الاجتماعي كان قد بدأ يتقهقر منذ بدايات الألفيّة الثانيّة لحساب روابط الانتماء إلى الحي "الحومة" وروابط الجيرة ما عدا بعض الاستثناءات التي حافظت على علاقات وطيدة إمّا لتشكيلها ولتتمركزها في أحياء كاملة ك"الفراشيش" أو لحدائثة توافدهم ك"الجلامة".

بورترية رقم 2

تحدّث فارس وهو تلميذ يدرس الطبخ، ممثل مسرحي، 21 سنة، حي البلديّة، عن معاشته للحجر الصحيّ "كنت أتابع انتشار حالات العدوى بفيروس الكورونا منذ أن تصاعدت وتيرتها في الصين وقد أصبح هاجساً يؤرقني ليقيني بأنّه سيصيب التونسيين بعد انتشاره في عديد البلدان في العالم وخاصة الدول المجاورة كالجزائر وإيطاليا. بعد تسجيل أول إصابة في تونس، بدأ تفكير العائلة منصبّاً على شراء مواد الوقاية من الفيروس ولكن ندرت معقم اليدين والكمّامات وغلاء أسعارها جعلنا نلجأ إلى شراء كمّيات مهمّة من البصل والثوم. أجبرني أبي على البقاء في المنزل إلا أنّي كنت أغادره وأعود قبل حظر التجوّل وأمضي وقتاً أكبر مع العائلة حيث وطدت علاقتي بهم رغم المشاحنات التي كانت تحدث بين الفينة والفينة، كما تابعت التطوّرات على شبكات التواصل الاجتماعي وكنّت بين الحين والحين أقوم ببحوث حول المدارس والأعمال المسرحيّة في تونس. مثلت جرياً تقاعد والدي الدخل الوحيد لعائلتنا المتكوّنة من ثلاثة أفراد وكنّت أقوم ببعض الأعمال التي أحصل بها بعض المداخيل كالطبخ في المناسبات والتنشيط وأخصص الجزء الأكبر للمساهمة في مصاريف العائلة، إلا أنّي توقفت تماماً عن هذا النشاط طيلة فترة الحجر الصحيّ ما

³⁶⁸ سفيان جاب الله، الرب، السلفيّة العلميّة والألتراس، حين تحكي "الحومة الشعبيّة"، تونس... هنا "الحومة الشعبيّة"، المراسل، 2019

جعلني أعيش الخصوصية وضيق الحال. لاحظت أنّ سلوك العديد من الأفراد قد تغير في فترة الحجر الصحيّ العام إذ تخلّوا على المصافحة باليد لتكون المصافحة بالقبضة والكوع، وأصبح الكثيرون عدائيين ومضطربين."

يضيف فارس " حاول الكثير من الأقارب الاتصال بي وحاولوا لومي على عدم اتصالي وعدم قيامي بزيارتهم، في حين كان تركيزي منصباً على ضمان الحماية الضرورية لكلّ من والدي. لقد اختار الكثير من الأشخاص كسر الحجر ولم يتقيّدوا بالتباعد الاجتماعي وعمد بعض أصحاب المغازات الصغرى إلى تخزين وبيع كميات مهمّة من المواد الغذائية بطريقة غير شرعية وتجراً آخرون على بيع الكمادات غير الصحية بأسعار مرتفعة مستغلين ندرتها في الأسواق. هذا لم يحل دون أن يتحلّى البعض الآخر من الناس بسلوك إيجابي من حيث معاضدتهم لبعضهم البعض بتقديم معدّات منزليّة ومواد غذائيّة وحتى تنظيم حفلات في أيام العيد ممّا خفّف من الضغط النفسي على العائلات."

وهن "دولة القانون" يؤيد "حالة الاستثناء"

إنّ المجهودات التي بذلتها هيكل الدولة من السلط المحليّة والمركزيّة طيلة فترة الحجر الصحيّ لم تغطّ عجزها على محاصرة الاحتكار والمحسوبيّة والتلاعب بالأسعار ومسايرة الحاجيات اليومية للمواطنين ذوي الوضعيات الاجتماعيّة الهشّة وذوي الاحتياجات الخصوصيّة. كما استحال عليها ضمان تنظيم المرافق العموميّة والخاصة التي شهدت اكتظاظ وتدافع المئات من المواطنين كل يوم، منها مقر المعتمدية بالكباريّة الذي شهد بعد إقرار تقديم الإعانات الاجتماعيّة يوم 21 مارس 2020 من قبل رئاسة الحكومة التونسيّة توافد الآلاف من المواطنين دون أدنى وقاية أو انضباط لتعاليم التباعد الاجتماعي (وقع تسجيل أكثر من 8 آلاف مطلب)، كما انحصرت عمليّات التعقيم في مناطق دون أخرى لندرة آلات الرش واليد العاملة فوق التعويل على المبادرات الأهليّة والمدنيّة لتغطية هذا العجز. وكانّ حالة الطوارئ وحظر الجولان لم يستهدفا حماية هذه الآلاف ليصبح قول شيشرون خطيب روما الشهير "أن سلامة الشعب تسمو على كل قانون وضعي، وأنه من الضروري الاتجاه إلى أنجع الوسائل لمواجهة الأزمات العصيبة." غير ذي معنى وتصبح القوانين الاستثنائيّة تهدف لمحاصرة حرية الأشخاص لا حمايتهم.

بورترية رقم 3

فراس ح. 25 سنة حي النور عامل يومي: في بادئ الأمر اعتبرت الكورونا على أنّه فيروس عادي إلا أنّ الخشية من هذا المرض كان يتصاعد مع ارتفاع أعداد الوفيات وقد امتثلت بحظر الجولان

لعشرة أيام لكّي مللت قضاء وقتي في المنزل الذي لم أعادته بتاتا. هذا الروتين دفعني للخروج من المنزل للتجول في الحي ومقابلة الأصدقاء وكان أفراد العائلة ضد خروجي من المنزل خوفا من جلب العدوى لكنهم تفهموا حالتي النفسية ومع قدوم شهر رمضان اتصل بي صديق ليطلب معونتي لتسجيل شريط وثائقي عن تاريخ الكباريّة فاستجبت لذلك كما انخرطت في أعمال أخرى تجمع التبرعات للعائلات المعوزة وتوزيعها في ساعات متأخرة من الليل، كما قمت رفقة مجموعة من الشباب بتنظيم الصفوف في المعتمدية ومراكز البريد وكان ارتداء الأشخاص للكمامات واستعمالهم للمعقم يقارب العشرين بالمئة. كما تجدر الإشارة إلى أنّ التزام كبار السن بالتباعد الاجتماعي والحجر الصحي أكبر بكثير من الشباب. عانت عائلات عديدة منهم عائلتنا كثيرا في فترة الحجر الصحي جرّاء ارتفاع الأسعار وضعف المداخيل كما لم نتحصّل على المعونات المقدّمة من الدولة رغم أنّ والدي عامل يومي كان قد توقّف عن العمل منذ بداية الحجر وكان قد تقدّم بأكثر من مطلب في الغرض في حين أنّ هنالك العديد من ميسوري الحال قد استفادوا من المنح والمساعدات."

معضلة الاختيار أو سياسة المقايضة: إما الجوع أو الوباء

مع حشر الدول في حدودها، وولوج الشعوب مناطقها، اندست العائلات في بيوتها لتتغيّر ملامح المعيشة اليومية، فتباعدت الأجساد وانعزلت لمستقرّها منضبطة لما يتّسم به الوضع الصحي العالمي والوطني ومن وراه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية من تفرّد وطرافة تراجيدية فكانوا بذلك هدفا للقنوات التلفزية والإذاعية وصفحاتها على المواقع الافتراضية التي لعبت دورا مهما في رسم "مشهد فرجوي"³⁶⁹ نشر الفزع بالتركيز على ندرة المواد الأساسية وتدافع الناس على شرائها، صناعة رأي عام³⁷⁰ متبلّد بترك المجال لغير ذوي الاختصاص لإبداء تصوّراتهم وآرائهم حول ما يعيشه العالم والوطن من جراء فيروس الكورونا المستجد واستتلابه العقول بصناعة الموافقة³⁷¹ بتبييض بارونات الاحتكار وخلق بطولات وهمية لمن استثروا على حساب آلام المواطنين ضمن

³⁶⁹ Guy Debord, La société du spectacle, Les Éditions Buchet- Chastel, Paris, 1967. أنظر

³⁷⁰ Noam Chomsky écrit-il : « [...] la terminologie a changé dans ce domaine au cours de la Seconde Guerre mondiale, avant laquelle le terme de propagande était assez ouvertement et librement utilisé pour évoquer le contrôle de l' "esprit public". Par la faute de Hitler, le terme finit par avoir d'assez malheureuses connotations, et on s'est décidé finalement à l'abandonner. De nos jours, on utilise d'autres termes, mais quand on lit les travaux de sciences sociales et les écrits produits par l'industrie des relations publiques des années 1920 et 1930, on constate que leurs auteurs qualifient ce qu'ils font de "propagande". » (« Propagande & contrôle de l'esprit public », Agone, no 34, 2004, p. 39.)

³⁷¹ « la création du consentement n'est pas un art nouveau. Il est très ancien et était supposé disparaître avec l'apparition de la démocratie. Mais ce n'est pas le cas. La technique de cet art a, en fait, été énormément améliorée, parce qu'elle est à présent basée sur l'analyse plutôt que sur des règles approximatives. Ainsi, grâce aux résultats de la recherche en psychologie, associés aux moyens de communication modernes, la pratique de la démocratie a effectué un tournant. Une révolution est en train de prendre place, infiniment plus significative que tout déplacement du pouvoir économique. » Public Opinion (1922), Walter Lippmann, éd. Free Press, 1965 (ISBN 978-9562916134), partie V, chap. XV, 4, p. 158

حصص جمع التبرعات استيعاب واحتواء المشاهدين تدريجيًا داخل البيانات والإحصائيات المركزية للوزارات والهيئات الحكومية³⁷² جعلت بعضا من المقدمين التلفزيونيين المتحمسين يتهافت بتصاريح صمّت الأذان " لقد استوت البشرية أمام الكورونا، الغرب والشرق، الشمال والجنوب، الفقير والغني" وإن كانت هذه المقولات محفزة للبعض إلا أنّها جانبت كل الحقائق والوقائع وأكّدت أنّ سننا تفاضليّة حبكت في مراكز الحكم عاد نصيب الأسد فيها إلى الأعراف ومديري البنوك المنددين بضعف الحال وضياع الأعمال وخسارة الأموال.³⁷³

الفئات الأكثر تضرراً: المعاناة المتواصلة

مشاهد وأقوال صادمة أغفلت الفاجعة في الجهة المقابلة، حيث بدأت الفئات التي ترزح تحت عتبة الفقر والتي تغصّ بها الأحياء الشعبيّة تنقلب في نومها مترقبة الشدائد ومحملة بأشباح الحجر الصحيّ الشامل وكوايبس حذر الخروج قصد جمع القوت وظلمات غياب المرافق الصحيّة وندرة المواد الطبيّة، في معادلة تراجيديّة سالبة تقايض الجوع بالداء والموت بالموت. لقد اتفق المحلّلون والخبراء من علماء وأساتذة الاقتصاد والسياسة³⁷⁴ أنّ جائحة كورونا ستكون مفعلاً لأكبر عمليّة إعادة تفكير في النظم الاجتماعيّة والاقتصاديّة القائمة ببروز تحولات نفسيّة جماعيّة وتضخّم الأزمات الاقتصاديّة والسياسيّة، وهو ما دفع العديد من الباحثين والناشطين إلى الاهتمام بالآليات التفاعل بين الفئات الاجتماعيّة الأكثر تضرراً ومتابعة أدوات التواصل والتبادل المعتمدة والمحاولات التنظيميّة لإعادة تشكيل جسد اجتماعي له مناعة كافية لضمان حظوظ متساوية للبقاء على قيد الحياة.

هنا عندما يكتمل رسم مشهد الكارثة مع تغوّل المحتكرين وهوان الدولة لا يبقى للمرء غير قرار شجاع لتجميع الأجساد المنهكة داخل أحياء "الوصم"³⁷⁵ و"الرقابة الأمنيّة والمعلوماتيّة" لخوض كل معارك البقاء على قيد الحياة، فلا أفق ولا حلول للمفقّرين إلاّ استجداء المساعدات من أمثالهم من المفقّرين. وقد صرحت كريمة م عاملة تنظيف منزليّة وأم لثلاثة أبناء، أرملة، 57 سنة تقطن في منطقة "زرع عيون" أنّ الحجر الصحيّ زاد من دائنا وديننا ولم أجد إلاّ أبناء الحي الذين وقّروا لنا بعض الأكل ومدّوا لنا يد المساعدة وقاموا بتوفير ملابس العيد لأبنائي. كنت أمضي رفقة أبنائي أيام الحجر دون أكل كما أمضي ساعات في محاولة إيجاد من أعين في الأعمال المنزليّة حتى

³⁷² محمد شلي، العرب، الإعلام التونسي يغرق بالبيانات الرسمية في تغطية الكورونا، 21-04-2020، الرابط <https://alarab.co.uk/> /الإعلام-

التونسي-يغرق بالبيانات-الرسمية-في-تغطية-كورونا

³⁷³ أنظر تغطية قناة العربية ورايو موزايك أف أم طيلة فترة الحجر الصحيّ الشامل

³⁷⁴ كاتيا يوسف، الاقتصاد العالمي بعد كورونا ليس كما قبله: 7 تغييرات مرجحة، العربي الجديد، تاريخ النشر 17 افريل 2020، تاريخ الاطلاع 19

أفريل 2020، الرابط [الرابط الاقتصاد-بعد-كورونا-ليس-كما-قبله-7-تغييرات-مرجحة](https://www.alaraby.co.uk) <https://www.alaraby.co.uk>

³⁷⁵ إميل دوركايم، (1858 – 1917): الانتحار «1897 Le Suicide»

أوفر بعض الدنانير، لكن أغلب الناس كانوا يتحاشون حتى فتح الباب. جعلني هذا الوضع ألجأ أكثر من مرة لعمدة الحي والمعتمدية لطلب إعانة إلا أنني لم أتحصّل منهم إلا على "قفة" طويلة فترة الحجر وجراية استثنائية صرفت في استخلاص جزء من الديون. دفعني هذا الوضع إلى بيع بعض أثاث منزلي لأتمكن من إعاشة عائلتي."

"دعونا نموت كما نريد"³⁷⁶

لقد اعتبر القرار الذي اتخذته الحكومة التونسية يوم 15 مارس 2020 بغلق الأماكن العامة، بداية من الساعة الرابعة مساءً (تلاها حظر تجول ليلي وغلق الحدود) ثم قرار الحجر الصحيّ الشامل يوم 20 مارس³⁷⁷ وغلق المصانع ذوي الكثافة العماليّة العالِيّة، مجحفًا في حق أصحاب المشاريع الصغرى من أصحاب محلات الأكلة السريعة وصغار التجار والعمال اليوميّين من عمال بالمقاهي والعاملات المنزليّات... وإن تواصل نشاط بعض المصانع والمركبات التجاريّة وتجار الجملة فإنّ الحركيّة داخل الأحياء لم تفتّر والالتزام بالحجر كان مجرد نداء واجه أذانا صمّاء داخل أغلب الأحياء ومرافقها الحيويّة كالسوق البلدي بالكباريّة الذي يعتبر من أهم المرافق التجاريّة الحيويّة في المنطقة، حيث تقبل عليه أعداد كبيرة من الوافدين من مناطق مختلفة من ضواحي تونس العاصمة كالورديّة وجبل جلود والمروج وهو ما يشكّل أرضا خصبة لانتشار الوباء خاصة أنّ أغلب رواده من المسنّين الذين لم يتقيّدوا بإجراءات السلامة والتباعد الاجتماعي، وكانت صيحات "كورونا... كورونا" ترتفع كلّما شوهدت سيّارة إسعاف أو سمع سعال أحد ما.

تواصلت الحركة التجاريّة للسوق طيلة فترة الحجر حيث لم تشهد توقفاً إلا ليوم واحد بعد قرار إغلاقه الذي أصدر يوم 09 أبريل 2020 ومثل صدمة بالنسبة لروّاده والباعة على حد سواء، حيث شهد صدمات بين الباعة "النصّابة" وأعوان بلديّة تونس الذين عمدوا إلى التدخل لرفع "النصب" بالقوّة العامة وسط رفض أصحابها للامتثال، حيث لم يرضخ للقرار إلا عدد قليل من أصحاب المحلات في حين عمد أغلب الباعة "النصّابة" إلى الانتصاب داخل الأحياء وأمام المنازل. أصدر أصحاب المحلات التجاريّة و"النصّابة" وروّاد السوق بيانا يوم 10 أبريل 2020³⁷⁸ حول الأحداث التي وقعت ضمّنوا فيه مطالبهم التي تمحورت أساسا حول ضرورة استرجاع نشاط السوق إضافة إلى ضرورة تنظيم عملية التوافد على السوق، كما وقع توثيق بعض الشهادات في شريط قصير

³⁷⁶ أندري كونت سبونفيل، دعونا نموت كما نريد، مقالة في صحيفة لوتان البلجيكيّة، 17 أبريل 2020، الرابط

<https://www.letemps.ch/societe/andre-comtesponville-laisseznous-mourir-voulons>

³⁷⁷ كلمة رئيس الحكومة الياس الفخفاخ حول الإجراءات الخاصة بالحجر الصحيّ الشامل، الوطنيّة 1، 21 مارس 2020، الرابط

<https://www.youtube.com/watch?v=Y8DVTBmloZQ>

³⁷⁸ كباريّة Zone de paix، بلاغ من متساكني الكباريّة، 10 أبريل 2020، <https://www.facebook.com/groups/380193456220429/>

نشر على صفحة "جيل ضد التهميش" تحت عنوان "الكبارية بين جائحة الكورونا وأشباح الجوع"³⁷⁹ حيث صرح أحد التجار أنه لم يقم بخلاص معاليم كراء محل عمله فضلا عن كثرة الالتزامات المادية العائلية وأنه لا يملك أي مورد رزق آخر وأن قرار الإغلاق يقايض الناس بين الموت جوعا أو الموت بالكورونا وأن لا خيار إلا مواصلة العمل، فالدولة تترك أسواق الجملة والمغازات الكبرى مفتوحة وتحرم الباعة من الانتصاب ومواصلة العمل كشكل سافر من التمييز. كما طالب هذا التاجر بالمساواة في التعامل مع التجار الذين يدفعون الضرائب كأنه يصرخ بعبارة أندري كونت سبونفيل "دعونا نموت كما نريد".

الكبارية في 10 افريل 2020

بلاغ من متساكني الكبارية

تفاجئ رواد و تجار سوق الكبارية بقرار إغلاق السوق يوم الخميس 09-04-2020 من قبل فيلق من قوات الأمن و كما هو معلوم يعرف سوق الكبارية إقبالا مكثفا من قبل سكان المنطقة و المناطق المجاورة كالوردية و جبل جلود و المروج ومع تواصل انتشار جائحة كوفيد-19 في مختلف مناطق البلاد تطوّعت مجموعة من أبناء المنطقة لتحسيس الوافدين على السوق و مقر البريد و المحمدية التي تشهد أيضا تجمعات للمواطنين لتنظيم الصفوف و معاضدة مجهودات السلطات المحلية في التعقيم و التنظيم و قد حرصت هذه المجموعة على خلق ديناميكيات أفقية لتجميع المساعدات و توزيعها على العائلات المعوزة و المحدودة الدخل وفق معايير التضامن الجماعي و العمل التطوعي هذا وقد تكّمت جمعية جيل ضد التهميش بمطلب لتوفير دوريات قارة لأعوان الشرطة البلدية و الشرطة البيئية لتحقيق أكبر قدر ممكن من النجاعة لتنظيم سوق الكبارية و لتواصل نشاطه خاصة أنه يعتبر المنتص الاقتصادي الوحيد لأغلب متساكني المنطقة.

و عليه نؤكد أنه من الممكن مواصلة نشاط السوق دون توقف مع احترام إجراءات الوقاية كئذ قد بلغناها في إطار مطلب الجمعية المذكورة أعلاه و ذلك عبر :

- 1- تركيز دورية قارة للشرطة البلدية أمام سوق الكبارية و تركيز ثلاث مجموعات من المتطوعين موزعين على كامل المداخل الرئيسية للسوق.
 - 2- توفير دورية منتظمة من الشرطة البيئية يعاضدها التجار داخل السوق و مجموعة رابعة من المتطوعين.
 - 3- اعتماد توقيت الحصص لكل منطقة لتقسيم عدد الوافدين على السوق يقع تحديدهم عبر مكان الإقامة المدرجة في بطاقات الهوية :
 - أ- منطقة الكبارية و بين سينا و الوردية 6 و حي النور من الساعة صباحا الي العاشرة.
 - ب- منطقة جبل جلود و حي محمد علي من التاسعة الي منتصف النهار.
 - ج- منطقة المروج و جبل جلود و باقي المناطق من منتصف النهار الي الثانية بعد الزوال.
- و عليه يهتأ نحن نساء و رجالات الكبارية التعبير عن التزامنا بإجراءات الوقاية اللازمة لمجابهة جائحة كوفيد-19 و تعاضدنا للحد من انتشاره بكل الإمكانيات المتاحة مادية كانت أو عينية و تخصيصنا لمجموعات تدخل لمزيد التحسيس و التوعية للوافدين على سوق الكبارية و نؤكد على ضرورة تجنب استعمال العنف و ضرورة التنسيق و الإعلام لإتخاذ مثل هذه القرارات كما ندب استعمال القوة و ترهيب المواطنين باستعمال "الماتراك" لتفريقهم وهو ما تداولته صفحة oxygene tunisie عبر الرابط الموجود أسفله كما ننبه الي الوضع المعيشي المتردي لأغلب سكان المنطقة الذين يعانون الخصاص و الهشاشة و استكحال الفر في جهتنا .

نؤكد نحن نساء و رجالات الكبارية أن لا مجال لمجابهة هذه الجائحة إلا بتكثيف عدد الفحوصات اللازمة للكشف عن هذا الفيروس و نظائر جهود الدولة و الشعب لتوفير مستلزمات الوقاية و تنظيم و تحسيس المواطنين لرفع درجات وعيهم و احتياطاتهم. إننا بنات و أبناء الكبارية مجتهدون ليلا نهارا للتصدي لكل مظاهر الإخلال بمعايير الحجر الصحي و مجابهة الإحتكار و عمليات التحول التي يقوم بها بعض المتسلفين و الإنتهاليين لإستغلال هذه الأزمة و مراكمة موارد مالية و عينية لخدمة مصالحهم الشخصية و الفئوية و سندبر بلاغا خاصا في هذا الإطار نحدد فيه بعض التجاوزات التي لاحظناها و نطرح فيه سبل التصدي لمثل هذه التجاوزات.

هذا و ندعوا مختلف أبناء الأحياء الشعبية إلى مواصلة حملات التوعية و التضامن الجمعي الأفقي للخروج من هذه الجائحة .

عاش الشعب التونسي

عاش الوطن

A
A1

³⁷⁹ جيل ضد التهميش، الكبارية بين جائحة الكورونا وأشباح الجوع، تاريخ النشر 19 افريل 2020 الرابط

162149665107768/https://www.facebook.com/GAMkabarria/videos

كسر الحجر وفعالية التضامن

واكب متساكنو الأحياء الشعبية بتونس أخبار تفشي "كوفيد 19" في مدينة ووهان الصينية وسقوط ضحاياه بالمئات ثم بالآلاف ثم بعشرات الآلاف عابرا الدول والقارات التي اعتبرت رموزا للتقدم والتطور في المجال العلمي والطبي ومن أقطاب الحضرة والتمدن الغربي والشرقي بحرص وريبة وقلق متصاعد خاصة مع ارتفاع أعداد المصابين في إيطاليا وفرنسا، وذلك لوجود المئات إن لم نقل الآلاف من أبناء المنطقة في عديد المدن الإيطالية والفرنسية. وقد أحدث تسجيل أول حالة يوم 2 مارس 2020 بالبلاد التونسية حالة ذهول وفزع مع تواصل اعتماد خطابات العسكرة و"الحرب"³⁸⁰ لفرض "حالة الطوارئ" و"القوانين الاستثنائية" إذ تفتن متساكنو الأحياء أنهم لم يكونوا أبدا معزولين عما يحدث في هذا العالم وأنهم متركون بلا دفاعات أمام عدو مجهول وأن ضريبة ما غير متوقعة في انتظارهم نتيجة إقحامهم القسري في نظام معلوم مفتوح على مستقبل مجهول لينتج "هلعا معلوما"³⁸¹. وأن حقوقهم وحرّياتهم وديمقراطيتهم الناشئة صارت القران الأمثل المقدم على مذبح الفيروس، وما رهن البلاد بالتهافت على التداين من البنوك الدولية والصناديق المالية العالمية وتكريس المحاباة والمحسوبية العائلية والسياسية إلاّ تجلّ عملي لتسلسل جيني لجسد اقتصادي وسياسي "ريعي" عليل بداء "الامتيازات"³⁸² ورث الحكومات قطاعات حيوية متآكلة ومبعثرة.³⁸³

هذا ما جعلنا نشهد زخات من الهلع والتهافت من أجل تخزين بعض المواد الأساسية كمادة الفرينة والسميد والثوم ... ولّد ذلك اكتظاظا خانقا ومناوشات حتى مع قوات الأمن التي تدخلت لتفريق التجمّعات³⁸⁴ والتجمهرات أمام المغازات الكبرى ومحلات البيع بالجملة ومراكز البريد والمعتمدية.³⁸⁵

عبد السلام. ج 22 سنة عاطل عن العمل

بعد تداول الناس الحديث عن الكورونا في صفحات التواصل الاجتماعي كان أغلبهم غير مباليين رغم أنّ هناك العديد من الإصابات، وكانت العائلة ترفض خروجي من المنزل إلاّ للقيام بالتبضع وكنت في أغلب الأحيان ملتزما بالإجراءات الصحية للتوقي من فيروس "كوفيد 19"، بعد أيام من إعلان الحجر

³⁸⁰ خطاب رئيس البرلمان التونسي راشد الغنوشي خلال الجلسة المنعقدة اليوم الخميس 26 مارس 2020

³⁸¹ ماهر حنين، الكورونا وعولمة الهلع، المغرب، 16 مارس 2020، الرابط /قضايا-وأراء/https://ar.lemaghreb.tn/item/42453-الكورونا-

وعولمة-الهلع-بقلم-ماهر-حنين

³⁸² Aziz krichen, L'autre chemin, éd. Script Éditions, Bordeaux, 2019,

³⁸³ أنظر Amin Hammas, Structure et organisation des services de réanimation adulte de la Tunisie: État des lieux

رسالة دكتوراه نوقشت بكلية الطب في تونس، جانفي 2020

³⁸⁴ أنظر oxygene tunisie، حملة مشتركة بين الامن الوطني، الشرطة البيئية، الشرطة البلدية والجيش الوطني بالكبارية بتونس العاصمة، 9

أفريل 2020، 207773530514246/https://www.facebook.com/oxygenebizerte/videos،

³⁸⁵ أنظر أخبار المواطنة، فيديو، احتقان وتدافع حول "السميد" في جبل جلود، 19 مارس 2020

كان الروتين اليومي يسبب لي القلق خاصة أنني أقضي أكثر من 12 ساعة نائماً في حين ينقسم بقية الوقت بين المنزل والحي إلى أن قررت تغيير سلوكي، حيث قمت بتنظيم أوقات النوم وعاداتي الغذائية واهتمت أكثر بصحتي وبدأت بالقيام بتمارين رياضية فردية في المرحلة الأولى ومن ثمّ جماعية رفقة أبناء الحي بغابة ابن سينا. وكانت هذه فرصة للتقرب من بعضنا البعض، كما حصل نفس الأمر مع أفراد العائلة حيث اغتنمنا توقف جميع أفرادها عن العمل للتعاون في أعمال المنزل والحوار ومتابعة التلفاز. كانت الفترة الأولى من الحجر صعبة على المستوى المالي خاصة مع نفاذ المدّخرات المالية للعائلة وبدأنا في اقتصاد مصاريفنا المعيشية ومع ضيق الحال تكاثفت المشاحنات بيننا. مع تسجيل العديد من حالات الوفاة جرّاء الكورونا كان هوس الوالدة بنظافة المنزل والتزامنا بمعايير الوقاية داخله يتصاعد ويقابل ذلك عدم التزامي بالتباعد الاجتماعي في الحي ولقائي اليومي مع الأصحاب للقيام بالرسم على الجدران الذي ننتهي منه في أوقات متأخرة من الليل، حيث وقعت إيقافات في مجموعتنا لكسرنا حظر التجول. لم أغانر الحي طيلة فترة الحجر وبقيت على اتصال بالأصدقاء القاطنين في مناطق بعيدة عبر شبكات التواصل الاجتماعي.

مع تدهور الحالة المادية للكثير من العائلات التجأ البعض إلى الأقارب والبعض الآخر تمكّن من تحصيل أكلات قدّمت طيلة شهر رمضان من قبل مطعم يقدم الوجبات مجاناً، فكانوا يقفون في شكل طوابير طويلة دون نظام. نفس المشهد كنت قد لاحظته في مقر المعتمدية والسوق، وقد حاول العديد من الشباب التدخل بشكل يومي لتنظيمهم لكن الحال بقي على ما هو عليه إلى حدود اليوم"

كسر الحجر

لقد تصاعد الإحساس بالعزلة والفقد والنسيان في الأيام الأولى من الحجر الصحي ممّا جعل الكثير من الناس يصرّحون بأنهم متروكون في معركة مع المجهول³⁸⁶، فكثرت الدعوات إلى الخروج ليلاً للتضريح والدعاء وإن لم تلق مشاركة كبيرة من قبل المتساكنين، إلا أن أغلب المشاركين رفعوا أصواتهم للرجاء حاملين في أيديهم هواتفهم الذكية وعيونهم مثبتة على عدد المتابعين ومحتوى التعليقات لا قلب خالص ولا عقل متأمل، لا كلمات عن الخلاص ولا خشوع مطمئن. فقط كانت الحاجة لملء جعبة الذات بنفحات من "الاعتراف" الافتراضي و"الحضور" عند العزلة في دقائق العرض المباشر، كما تعاضم الإحساس بالخوف مع تسجيل سرقات في أحياء كحي ابن سينا وهو ما دفع العديد من أبناء الأحياء لتبادل المناوبة على الحراسة وتنظيم دوريات تفقد ويبحث بتت بعضها على شبكات التواصل الاجتماعيّة. يحدث ذلك مع تواصل تسجيل عشرات الإصابات وسقوط ضحايا على مستوى وطني.

³⁸⁶ أحمد الساسي، عزلة من أجل الإنسانية، التيماء، 23 مارس 2020، الرابط <http://attayma.com/archives/6584>

إنّ ملايين الناس داخل الأحياء الشعبيّة الرازحين تحت عتبات الخوف من الجوع يحيون تحت طائلة الصور النمطيّة والوصم وقصف ماكينات الدعاية الضخمة والإعلام البليد الذي دأب على ترويج صور التدافع وعدم احترام التباعد الاجتماعي دون الوقوف على شطحات "هستيريا الوباء" وإرث الأحياء المفعّم بالنسيان و"العنصريّة"³⁸⁷ ودون تحليل وقع الجوع على نفوس وأمعاء المتساكنين المتخبّطين على صفيح تخليّ الدولة عن دورها الاجتماعي وتململ اقتصاد السوق. لقد شرّد الآلاف من ساكنها ومنذ عقود في عراء غابة السوق الحرّة والمنافسة و "الفردانيّة" ولم يصاحبوا سوى الخصاصة حتى أصبحوا "مهتدين في بقائهم على قيد الحياة" لانتمائهم إلى رقعة هامشيّة يرتفع فيها صراخ عناصر الأمن لملازمة البيوت واحتضان الفاجعة³⁸⁸، جعلت الكثيرين على يقين أنّه لا مجال للبقاء على قيد الحياة، إلّا داخل الحيّز الجغرافي للحي "الحومة" حيث مثّلت مجالا لكسر الحجر إذ تجد العشرات من الشباب والعائلات جالسين في تجمّعات أمام المنازل ومفترقات الأنهج وداخل الأحياء وقد استغلّوا الوقت صباحا لتنظيم مباريات كرة القدم وممارسة أنشطة رياضيّة جماعيّة وليلا للعب الورق والتسامر حتّى ساعات متأخرة. كما قامت مجموعات الألتراس بالتنافس على رسم شعاراتها وصورها ليلا نهارا على جدران الأبنية. كانت المطاردات الأمنيّة الليليّة شبه يوميّة وسجّلت إيقافات عديدة ممّا مثّل مشهدا كوميديا مرحا يتحدّى شبح العدوى ويسخر من صرخات فزع المختصّين معلنا تواصل الحياة في عمق الوباء. لذلك كان من أوكد المهام خلق مبادرات تعمل على إزاحة قتامة وهول الواقعة وتواصل الدفاع عن العدالة وتبني المقاومة الاجتماعيّة طريقا والتي أثبتت فاعليّتها بتنامي مظاهر التعاضد الشعبي والتضامن الاجتماعي.

يقول مجدي.ر 36 سنة بائع غلال وخضار بالسوق البلدي بالكباريّة: "بادئ الأمر وجدت صعوبة في تقبّل خبر انتشار الفيروس والخطر الذي يشكله وكانت الفاجعة أنّ الكورونا وصلت إلى تونس وبدا أنّ الوضع لن يكون كما كان عليه في السابق. بدأت في اتخاذ إجراءات الوقاية كي لا أنقل العدوى للعائلة والجيران، لكن مع مرور الوقت لم أعد أبالي بإجراءات الوقاية خاصة مع عدم تسجيل إصابات في أحيائنا. تواصل عملي بالسوق طيلة فترة الحجر مع توقيفي ليوم أو يومين. لم تتراجع مداخيلي كثيرا وذلك كان الحال بالنسبة لأغلب أصحاب المحلّات، إلّا أنّ النصابة كان وضعهم يسوء يوما بعد يوم. وجدت صعوبة في التنقل أربع مرّات في الأسبوع إلى سوق الجملة لشراء السلع أين كانت الحركيّة بطيئة بعض الشيء مع وجود بعض الاحتياطات من قبل بائعي الجملة. كان عمل الأمن في السوق البلدي يقتصر على التواجد لمدة لا تتجاوز ربع ساعة في اليوم لإخلاء ممر السوق. هذا التدخل لم يكن بطريقة منتظمة وهو ما دفعنا للتدخل مع الوافدين للسوق لتنظيمهم وتشجيع

³⁸⁷ Slavoj Zizek, «Clear racist element to hysteria over new coronavirus», in: RT- Question More. 3 Feb, 2020 <https://www.rt.com/op-ed/479970-coronavirus-china-wuhan-hysteria-racist>

³⁸⁸ أنظر برنامج بلا قناع، حملات أمنية تتواصل...كورونا لم تنته بل مازالت في أشدها من يقنع المواطن؟، 22 أبريل 2020، الرابط <https://www.youtube.com/watch?v=igqEaLoBEt8>

شباب المنطقة الذين شكّلوا مجموعات لتحسيس الناس وتنظيمهم. كنّا نجلس ليلاً أمام المنازل للعب الورق والتسامر ومتابعة الشباب الذين كانوا يقومون برسوم على الجدران. شاركت أنا وبعض التجار في تقديم بعض الخضر والغلال إلى المجموعات التي كانت تجوب السوق لجمعها.

انفجار تضامني مع اتساع رقعة الجائحة

انطلق نشاط مجموعات مختلفة من أبناء وبنات الكبارية مع تعالي الأصوات المنادية بضرورة التدخل لإنقاذ عائلات تعيش الفقر المدقع ومع استحالة التعويل على أجهزة الدولة ومرافقها العمومية التي لاقت صعوبات جمة في أداء مهامها، وأصبح تعويلها على المجتمع المدني والمبادرات المواطنية أمراً محتوماً. عانت العديد من المبادرات الشبابية ومجموعات الفعل الميداني من التغييب والمحاصرة والنكران لحرية اختيارها لمجالات نشاطها ورفضها القولية والانسحاق مع التيارات الوصولية ورفض احتوائها داخل عباءات سياسية وتكنوقراطية طوال سنوات ومطالبتها المستمرة للسلط المحلية والمركزية لتبني إستراتيجية تنموية شاملة باعتبار أنّ محيطها كان ولازال مثقلاً بتاريخ التسلط والإقصاء ومسيرا لماكينات "صناعة الموافقة"³⁸⁹ ومنظومة البؤس والحييف. ولا يعد انتفاض الدولة بأجهزتها وقوانينها الاستثنائية لإنقاذ ما تبقى من جسدها العليل ولامتصاص "الهلع المتناثر" في الشوارع الفقيرة وفي قرى البؤس إلا اكتمالا للمهزلة، إذ ضربت الحجر في مقتل وأغدقت على 623 ألف عائلة معوزة بمبلغ 200 دينار³⁹⁰ ليتدافعوا أمام مقرّات المعتمديات ومراكز البريد ومحلاتّ الأنترنات لاستخراج وطباعة المطالب.

عزّزت جائحة كورونا وإجراءات الحجر الصحيّ رغبة العديد من الشباب في التنظيم الفاعل والميداني داخل الجمعيات والمبادرات المحلية، حيث فعلت هذه المبادرات التآلف والتضامن لمجابهة معضلة الحجر مع النداءات التي وقع تلقفها من صفحات شبكات التواصل الاجتماعي للتطويع لمجابهة فيروس كورونا حيث عمدت إلى التشكل في نواتات ضمّت أساتذة وطلبة وفنّانين ومغنيّ راب وبعض المقيمين بالخارج من أبناء المنطقة لجمع التبرّعات، وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ العديد من المبادرات قد تشكلت في البداية على مستوى الأحياء لتتشابك في مراحل وتخصّص في أخرى، ممّا جعل عددها يرتفع وأشكالها تتنوّع. حيث وقع أكثر من مرّة التنسيق بين هذه المجموعات المتطوّعة لإسناد بعضها البعض وتنسيق وتقسيم مجال تدخلها، كما قامت بعمليات تبادل عبر مقايضة مواد الغذائية فيما بينها، مع استمرار الحجر الصحيّ، اشتغلت أغلبها على مستوى محليّ فيما تمكنت أخرى من تغطية مختلف مناطق المعتمدية وتوسّعت لتشمل بعض المعتمديات المجاورة كفوشانة

³⁸⁹ نعوم تشومسكي، وإدوارد هرمان، الاقتصاد السياسي لوسائل الاعلام: صناعة الموافقة" صدرت أول طبعة له في عام 1988

³⁹⁰ كلمة رئيس الحكومة التونسي بتاريخ 5 مارس 2020 2020: <https://www.youtube.com/watch?v=dViOAIspuP>

والمحمّديّة والملاّسين وحي هلال وحي التضامن. هنا نستطيع تحديد التجارب التي سننقلها لنقلها لا باعتبارها الوحيدة التي تستحق الدراسة وإنّما لمسايرتنا ومشاركتنا في ممارستها وأنشطتها.

"جيل ضد التهميش": التضامن الشعبي ضمن التباعد الاجتماعي

مثّل التدبّر اليومي لحالة الهشاشة والتهميش للفئات والعائلات الأكثر تضرراً من المنظومة الاقتصادية والتي سرّعتها وفاقمتها جائحة الكورونا أساس عمل الجمعية وهي جمعية ذات صبغة عامة انطلقت في النشاط منذ 2013 ووقع إدراجها في الرائد الرسمي أواخر سنة 2015 تنشيط بصفة عامة في الأحياء الشعبيّة لتونس الكبرى وأساساً بمعتمدية الكبارية، يقول أنور.ه 23 سنة عضو بجمعية "جيل ضد التهميش"، طالب، قاطن بحي السلامة الكبارية: "لقد تنظّم العمل على المبادرات أفقياً ووزعت المهام حسب اختيار المتطوّعين في مجموعات مختصّة أتت متناسبة مع حاجيات متساكني المنطقة ك"كوجينة الزوّالي الكبارية" التي تخصصت في توزيع "الواجب التضامني" المتمثل في لوازم منزليّة ومواد غذائيّة وفي بعض الأحيان معدّات منزليّة و"سبيسيرية الحومة" و"مجموعة التنظيم والتوعية" مع تنظيم حصص دعم ومراجعة مجانيّة لتلامذة البكالوريا إضافة إلى توفير ملابس وحلويّات العيد لعشرات من العائلات. هذه الأعمال أمّنها بنات وأبناء المنطقة شيبا وشبابا كلّ حسب موقعه وإمكانيّاته."

يضيف أنور "حقّزت المعرفة الجيدة بواقع الأحياء والعلاقات المنتشرة على امتداد المعتمدية عمل الجمعية والمجموعات الميدانية ممّا أكسب المبادرات فاعليّة للوصول إلى العائلات الأكثر تضرراً والتشبيك مع مبادرات أخرى في كل من الوردية وابن سينا وحي النور والمروج 2 وهو ما اعتبر نتيجة لفعل قاعدي ميداني منذ ما يزيد عن السبع سنوات لم ينحصر داخل وعاء إيديولوجي أو سياسي ومحاولة للاستنجد بعدد التجارب والمقولات لحلحلة الأوضاع الكارثية داخل هذه الأحياء الشعبيّة."

تمكّنت هذه المبادرات من إعادة تنشيط مبدأ الواجب الإنساني وإتيقا الكرامة البشريّة وقضية المصير المشترك، ليشكل سكّان الأحياء منصاتهم الخاصة للفعل والتعاون المشترك، في فترة الحجر الصحيّ الشامل، وينتقلوا بذلك من الدفاعيّة السلبية إلى المقاومة النشطة ومن انتظار المن والهبّات إلى تكثيف التضامن الاجتماعي العام. استعملت فيها نماذج عمليّة تاريخيّة للفعل التضامني وبدائل اقتصادية تشاركيّة توسّطها وسائل التواصل العصريّة. هذه المجهودات الذريّة لهذه المبادرات المكثّفة مثل كثافتها السكانيّة مكّنت من بناء منظومة علاقات قائمة على التضامن الواسع منشطة بذلك مضادات حيوية اجتماعيّة واقتصاديّة لإقامة نهاية للسلبية والارتكاسيّة التي أخضعت هذه الأحياء طوال عقود.

تقول مريم.ج 19 سنة، تلميذة بالوردية "هدف فعلنا هو تمكين المتضامن معهم من أدوات للعيش والانخراط في فعل تضامني ينتفع به آخرون وهكذا دواليك، وقد تجسّد ذلك خاصة في تجربة "ملسوقة الكوجينة" و "قفّة الإفطار" إذ وقع مع بداية شهر رمضان الاتصال برّيات بيوت أصيلات المنطقة، كنّ قد تحصّلن على "الواجب التضامني" اخترن لوضعنّ المادي الصعب ولقدرتهنّ على تحضير ورقات الملسوقة. قدمنا لهنّ عرضا بقيامنا بتوفير المواد الأساسية ومبلغا ماليا لقاء عملهنّ ومع موافقتهنّ تجنّدنا لتدسيق العملية وتوزيع الملسوقة على الحوانيت قصد بيعها. كانت المحصّلة أن ضمنت "ملسوقة الكوجينة" إعاشة أربع عائلات طيلة شهر رمضان كما مكّنت الأرياح من إعداد أكثر من 40 كلف من حلويات العيد حضّرت في منازل أعضاء الجمعية والمتطوّعين بمعونة من عائلاتهم. نفس هذا المثال كان قد طبّق في علاقة بتحضير قفّة الإفطار التي ضمنت إمداد خمس من فاقد السند بالإفطار طيلة شهر رمضان تطوّعت عائلات على إعداده وكلف متطوّعون من شباب وشابات الأحياء بإيصالها كل يوم. لتطوير أساس تعاقدية لمبدأ التضامن وترسيخه كآليات اشتغال يومية. كنّا قد عبّرنا أكثر من مرّة عن رفضنا لمقولات الشفقة وسخطنا على الكثير من المتاجرين بمعاونة الناس. كما رفضنا بعض الطرق غير القانونية لتقديم المساعدات كتوفير نسخة من بطاقة التعريف الوطنية، إذ تمثل انتهاكا للمعطيات الشخصية كما رفضنا أخذ صور للمتضامن معهم أو ذكر أسمائهم. لم نكن في مزاحمة مع الجمعيات الخيرية لأنّ فعلنا وممارساتنا تختلف جوهريا، كما أنّنا أردنا تقديم درس لمنظومات تبييض الأموال والفساد ومجموعات رسملة الفقر لصالح جهات سياسية واقتصادية متنقّدة."

كوجينة الزوّالي الكبارية: الواجب ينفي الشفقة

عمد أعضاء من جمعية جيل ضد التهميش إلى إطلاق مبادرة "كوجينة الزوّالي الكبارية" تجاوبا مع الدعوة التي أطلقها مجموعة من الناشطين على شبكات التواصل الاجتماعي لتفعيل مبدأ وآليات التضامن والمقاومة الاجتماعية التي كانت موجودة سلفا داخل الجسد الاجتماعي التونسي ك"الباية" الاشتراك في شراء خروف أو لحوم والقيام بالتقسيم على الشركاء وإعطاء أقسام للعائلات المعوزة في الحي و"الجمعية"، مساهمة مجموعة من الأفراد بمبلغ مالي شهريا يقع ترتيب تسلمه حسب التاريخ الذي يحدده كل شخص من المجموعة. ارتكز تجميع "الواجب التضامني" على تطويع نساء ورجال المنطقة وتشريك وتحفيز أصحاب المحلات الصغرى لتكون العملية أفقية قدر الإمكان تحت شعار "من الزوّالي للزوّالي" حيث وقع وضع صناديق كرتونية "كرضونة" في العديد من الحوانيت في مختلف الأحياء ثمّ تجميعها لإعادة توزيعها على مستحقيها. وقد وقع تطوير هذا الشكل التضامني لتكفل أصحاب المحلات "الحوانيت" عملية التوزيع لإلمامهم بالوضعيات الاجتماعية ولاستثمار القوى المتطوّعة في أنشطة أخرى تتطلّب الإسناد والدعم. هذا مع تجميع كل من الخضر والغلال واللحوم من السوق البلدي بعد استكمال عمل التنظيم وذلك بالمرور أمام المحلات حاملين صناديق يقوم

التجّار بملئها طوعا ليقع فرزها وتعبئتها وتوزيعها رفقة المواد الغذائية المجمّعة من الفضاءات التجارية الكبرى أو المقتناة بمساهمات ماديّة من نساء ورجال المنطقة، وقد استطاعت هذه العمليّة تغطية أكثر من 600 عائلة.

رائد.ض 18 سنة تلميذ باكالوريا آداب، عبّر أنّ روايته مع الكورونا كانت فريدة، فقبل الإعلان عن أول إصابة بفيروس كورونا المستجد كنت قد تلقّفت بكل حسرة خبر وفاة مفاجئة لزميلتي بالدراسة بسبب زكام حاد وعسر في التنفس وقد استرّبت من هذه الوضعيّة لاطّاعي على أعراض الكورونا في شبكات التواصل الاجتماعي. كان ذلك قبل أسبوع من قرار إيقاف الدروس الذي أربكني وتخوّفت من أن يؤثر على نتائج الدرسيّة وعدم قدرتي على خوض تجربة البكالوريا كاملة. كنت أخشى أنّي قد أصبت بالعدوى خاصة أنّي مصاب بضيق التنفس لذلك لازمت غرفتي. استمرّ هذا الأمر أسبوعا كاملا ولم أحس بالراحة إلّا بعد انقضاء 14 يوما، إثر ذلك، كنت أغادر المنزل لمجرّد قضاء الحاجيات اليوميّة وكانت أمّي شديدة الحرص على تقيدي بارتداء الكمامة وتعقيم يدي وملابسي في كل مرّة أغادر فيها. كنت أمضي الوقت في مشاهدة الأفلام ليلا والنوم صباحا. عند خروجي من المنزل كنت أرى الناس يمارسون حياتهم اليوميّة بطريقة عاديّة وكأنّ عائلتنا هي الوحيدة التي التزمت بالحجر وعند حديثي مع بعض الأصدقاء كانوا يتندرون لالتزامي بالحجر. لاحظت أنّ النساء الطاعنات في السن كنّ الأكثر خشية من هذا الوباء، إذ كنّ يلففن وجوههنّ بوشاحنّ وكان الشباب غير عابئ بخطر الكورونا وقرار الحجر الصحي، إذ لاحظت أنهم كانوا ينتظرون هذه الفرصة للتجمّع ليلا وتنظيم مباريات كرة القدم قبل الغروب. كان البعض من الأصدقاء يتحدثون عن المطاردات الليليّة وعمليات الكر والفر مع قوات الأمن. كنت في مرحلة متقدّمة من الحجر أشارك في تصوير فيديوهات هزليّة قصيرة لأقوم بنشرها بعد ذلك على صفحتي بالفايسبوك كما توقّرت لي الوقت لكتابة أغاني slam وخواطر. لست من محبّذي العزلة ولكن الحجر مثّل لي فرصة لتصفية ذهني والتركيز في الأشياء المحبّذة حيث قمت بمتابعة تكوين عبر الإنترنت حول آليات الكتابة السينمائيّة. عرفنا صعوبات ماليّة في كامل فترة الحجر الصحيّ العام حيث توقفت أمّي عن العمل وهي عاملة بمعمل وأبي أيضا وهو عامل بمقهى، وكانت هذه نفس الوضعيّة بالنسبة لأغلب عائلات زملائي في الدراسة.

بالنسبة لمتساكني الحي كانوا يلجؤون إلى الجيران لتحصيل الخبز وبعض الأغذية وكان فزع الناس ليس بالموت من الكورونا بل بالموت جوعا. مع قدوم شهر رمضان لم أكن على علم أنّ هناك مبادرات لمساعدة العائلات المعوزة في الحي إلى أن شاهدت فيديوهات لتنظيم بعض من أبناء الأحياء لسوق الكباريّة، ولمعرفتي ببعض الناشطين قمت بالاتصال بهم وبالانخراط معهم في كل ما يتعلّق بالنشاط السمعي البصري، حيث سجلنا فيديوهات تواكب الأنشطة كما قمنا بدورتين تدريبيّتين في مجال السينما. وقد تمتعت بدروس الدعم المجانيّة في إطار برنامج التعليم الشعبي المنظّمة من قبل جمعية "جيل ضد التهميش" حيث تلاشى هاجس الخوف من تحصيل المبالغ الماليّة اللازمة

لخصص الدعم كما كان المستوى العام لمجموعات المراجعة محترماً جداً وحفزني ذلك على مزيد التركيز والعمل لنيل شهادة البكالوريا."

خاتمة

إن كانت روايات الحجر الصحيّ في الأحياء الشعبيّة متشابهة فإنّها تبقى فريدة من نوعها، إذ كانت هذه الأحياء ولازالت تعيش في ظل منظومة اقتصاد السوق المتهاوي وتحت طائلة دولة الاستثناء المهددة للنظام الديمقراطي، لتخلق واقعيّة خاصّة وآليات متفرّدة للبقاء والإفلات من "طاعون نيوليبالي فعّل أكبر موجة عدوى عالمية في التاريخ الحديث"³⁹¹ والخروج من الكابوس الذي يكاد يتمكن من عالم هش هشاشة الوجود البشري الذي تفتن أن ما تولّد عنده في فترة الحجر الصحيّ هو كامن فيه أصلاً. كما يبدو مؤكداً أنّ "الكوفيد-19" لن يكون الفيروس الأخير الذي يهدّد البشريّة، وأنّ انتشاره العالمي أعلن دخول الإنسانيّة في فصل جديد من المعارك مع الموت وهو ما سيركز الأنظار من جديد على منظومات الرعاية الصحيّة والبحث العلمي والضمان الاجتماعي، ويعيد التفكير في منظومة الاقتصادية النيوليبراليّة التي تهاوت مؤسّساتها الماليّة وانكشمت شركاتها العابرة للقارات وتصدّعت وعود شركات الأدوية والمخابر الخاصة في توفير العلاج في اللحظات الأولى من الإعلان على انتشار الوباء عالمياً، ومع وعي الدول بخطورة وكارثيّة المشهد، تفتنّت أنّ مجالها الحيوي أصبح معزولاً وبات مجال نفوذها مستهدفاً، إذ فرض الكورونا المستجد إغلاق الحدود بين الدول واعتماد سياسة الحجر الصحيّ الشامل وإعلان حالة الاستنفار الاقتصادي وتفعيل قانون الطوارئ، هذا ما جعل وسائل الإعلام تقفز بسرعة البرق من الدعاية المفزعة لنشر رهاب الإرهاب إلى توزيع الهلع الكوروني و "التدمير البنّاء" بعبارة المؤرخ الأمريكي تاير ماهان (Alfred Thayer Mahan).

³⁹¹ Noam Chomsky: Coronavirus - Quels sont les enjeux? | DiEM25 TV الرابط https://www.youtube.com/watch?v=t-N3In2rLI4&feature=emb_logo

بدعم من:

